

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد
كلية العلوم السياسية

تاريخ العلاقات الدولية

الدكتور
سعد حقي توفيق
أستاذ العلاقات الدولية

2009

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد
كلية العلوم السياسية

تاريخ العلاقات الدولية

الدكتور
سعد حقي توفيق
أستاذ العلاقات الدولية

٢٠٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

" وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ

فَاجْنَحْ لَهَا

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ "

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

سورة الأنفال / الآية ٦٢

شكر وتقدير:

الحمد لله رب العالمين، والشكر لجلاله سبحانه وتعالى الذي قدرنا وأعاننا على إتمام هذا الجُهد العلمي، والصلاة والتسليم على أفضل خلقه رسولنا الكريم المصطفى المختار محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى اله وصحبه الكرام أجمعين.

وبعد ...

لمن دواعي سروري، واعترافاً بالجميل ما يدعوني إلى أن أسجل شكري وتقديري إلى كل الذين أسهموا في أغناء هذا الجُهد العلمي، وقدموا يد العون في إتمام هذا الجُهد، وأخص بالذكر :

■ زميلي وأخي الأستاذ الدكتور أحمد نوري ألتعيمي على ملاحظاته العلمية الرصينة، وتوجيهاته التي تترسم خُطاهها الجادة في طريق العلم، فضلاً عن مصادره التي أغنى بها هذا الجهد، فجزاه الله خيراً.

■ وإلى الدكتور قحطان أحمد سليمان، والدكتور عبد الحميد العيد الموساوي لما قدماه من جهد تمثل في توفير المصادر العلمية الحديثة التي أسهمت في ترصين هذا الجهد، وتوفير المعلومة الحديثة، فوفقهما الله.

■ وإلى الدكتور لؤي شهاب محمود لتجشمه عناء المراجعة اللغوية وتقويمه، فله مني جزيل الشكر .

إهداء

إلى :

زوجتي

ولدي

أبنتي

ظهرت الحاجة إلى تدريس مادة (تاريخ العلاقات الدولية) في الصف الأول من أجل إيجاد إطار تطبيقي، ومدخل تمهيدي لمادة (العلاقات الدولية) التي تُدرس في الصف الثاني، إذ أن التركيز في الجانب التطبيقي يساهم، بل يساعد الطلبة على استيعاب الإطار المفاهيمي والنظري ليس لمادة العلاقات الدولية فقط، بل لمختلف مواد الدراسات الدولية أيضاً، وهكذا تكون مادة تاريخ العلاقات الدولية بمثابة الدور المكمل لتدريس هذه المواد .

إن أهمية هذه المادة تندرج في دراسة الأحداث الدولية، والتركيز في أهم مفاصلها، وتحديد التواريخ المهمة فيها، ولم يفوتنا الإشارة إلى المعاهدات الدولية، والأحداث التاريخية المهمة التي كانت أساس تطور هذه العلاقات، فضلاً عن التعرف إلى أسباب تطورها، والتوصل إلى النتائج التي تمخضت عنها، ولاسيما عند دراستنا للحربين العالميتين الأولى والثانية.

لقد انطوت بداية هذه المادة على دراسة العلاقات الدولية في الإسلام مفهوماً وتطوراً، وخلال مختلف مراحل تطور الدولة الإسلامية. وعلى الرغم من أن (تاريخ العلاقات الدولية) يعود إلى المراحل المبكرة لنشأة الدول، إلا أننا ارتأينا دراسة بداية تطورها منذ نشوء الدولة القومية، إذ يعد ذلك بمثابة التاريخ الرسمي لنشوء العلاقات الدولية الحديثة، وبما أن مجمل العلاقات الدولية في تلك المرحلة وما بعدها أنصب على دراسة التفاعلات السياسية الدولية بين الدول الأوروبية، فقد تم التركيز في العلاقات بين الدول الأوروبية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فضلاً عن المراحل التي سبقتها من تاريخ نشوء الدولة القومية.

وبدون شك عاشت العلاقات الدولية تطورات حادة وحاسمة في النصف الثاني من القرن العشرين، كان أبرزها انقسام العالم إلى معسكرين متناقضين متصارعين، المعسكر الشرقي أو الاشتراكي بزعامة (الاتحاد السوفيتي) سابقاً، والمعسكر الغربي أو الرأسمالي بزعامة (الولايات المتحدة الأمريكية).

إن اندلاع الحرب الباردة بين هذين المعسكرين كان يُعد من أبرز سمات مرحلة النصف الثاني من القرن العشرين، وهي مرحلة حافلة بالأحداث الدولية، وذلك لبروز تطورات سياسية دولية انطوت على حدوث أزمات خطيرة كادت أن تؤدي بالعالم إلى اندلاع حرب عالمية ثالثة، وبرز ما حدث بشكل لاحق هو قيام الوفاق الدولي بين المعسكرين، إذ أتمت سياساتها بالتعاون رغم حالة الصراع التي كانت تكتنفها مدة لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما تعرض إلى انتكاسة، ثم جاءت مرحلة التعاون الأمريكي-السوفيتي في عهد الرئيس السوفيتي (غورباتشوف) بعد بروز مفهوم "البيريسترويكا"، على الرغم، إن هذا التعاون يرجع أساساً إلى (الوفاق الدولي) بعد العام ١٩٦٤، وكان رائد هذا الوفاق تقرير هرمل الذي تقدم به إلى الأمانة العامة لحلف شمال الأطلسي والتي كانت مليئة بالأحداث والمفاجئات التي أدت بالنهاية إلى انهيار الاتحاد السوفيتي.

كما انطوت دراستنا على دراسة العلاقات الدولية للعالم الثالث، ومواقف الدول الكبرى منها، إذ تم التركيز في دراسة العلاقات الدولية في إفريقيا وآسيا، والوطن العربي، لما أصبح لهذه الدول النامية والناشئة حديثاً من دور وآثار في العلاقات الدولية في مدة ما بعد الاستقلال، والتي أتمت بالبناء، وما تبنته من سياسيات خارجية كان لها تأثير في النظام الدولي ثنائي القطبية، ومن ذلك نشأة وتطور حركة (عدم الانحياز). نرجو أن تسهم هذه الدراسة في تشكيل إضافة، وتطوير لدراسات قام بها أساتذة عرب في هذا المضمار.

ومن الله التوفيق

الفهرس

٥٠-١٣

٢١-١٥

٢٧-٢٢

٣٢-٢٨

٣٦-٣٣

٤٣-٣٧

٥٠-٤٤

٧٤-٥١

٥٨-٥٣

٦٣-٥٩

٦٨-٦٤

٧٤-٦٩

٩٨-٧٥

٨٣-٧٧

٩٠-٨٤

٩٨-٩١

١١٤-٩٩

١٠٤-١٠١

١١٠-١٠٥

١١٤-١١١

١٥٢-١١٥

١٢٢-١١٧

١٢٨-١٢٣

١٣٤-١٢٩

١٤٠-١٣٥

١٥٢-١٤١

الفصل الأول

• المبحث الأول:

• المبحث الثاني:

• المبحث الثالث:

• المبحث الرابع:

• المبحث الخامس:

• المبحث السادس:

الفصل الثاني:

• المبحث الأول:

• المبحث الثاني:

• المبحث الثالث:

• المبحث الرابع:

الفصل الثالث:

• المبحث الأول:

• المبحث الثاني:

• المبحث الثالث:

الفصل الرابع:

• المبحث الأول:

• المبحث الثاني:

• المبحث الثالث:

الفصل الخامس:

• المبحث الأول:

• المبحث الثاني:

• المبحث الثالث:

• المبحث الرابع:

• المبحث الخامس:

الفصل السادس:

- المبحث الأول:
- المبحث الثاني:
- المبحث الثالث:

الفصل السابع:

- المبحث الأول:
- المبحث الثاني:
- المبحث الثالث:

الفصل الثامن:

- المبحث الأول:
- المبحث الثاني:
- المبحث الثالث:
- المبحث الرابع:

الفصل التاسع:

- المبحث الأول:
- المبحث الثاني:
- المبحث الثالث:

الفصل العاشر:

- المبحث الأول:
- المبحث الثاني:
- المبحث الثالث:
- المبحث الرابع:
- المبحث الخامس:

الفصل الحادي عشر:

- المبحث الأول:
- المبحث الثاني:
- المبحث الثالث:
- المبحث الرابع:

١٥٣-١٦٨

١٥٥-١٥٩

١٦٠-١٦٣

١٦٤-١٦٨

١٦٩-١٨٤

١٧١-١٧٥

١٧٦-١٧٩

١٨٠-١٨٤

١٨٥-٢١٢

١٨٧-١٩٢

١٩٣-٢٠٠

٢٠١-٢٠٧

٢٠٨-٢١٢

٢١٣-٢٤٤

٢١٥-٢٢٧

٢٢٨-٢٣٨

٢٣٩-٢٤٤

٢٤٥-٢٨٢

٢٤٧-٢٥٩

٢٦٠-٢٦٥

٢٦٦-٢٦٨

٢٦٩-٢٧٤

٢٧٥-٢٨٢

٢٨٣-٣٢٦

٢٨٥-٢٩٠

٢٩١-٣٠١

٣٠٢-٣١٧

٣١٨-٣٢٦

٣٢٧-٣٣٥

المصدر:

الفصل الأول: العلاقات الدولية في الإسلام.

المبحث الأول:

أسس العلاقات الدولية في الإسلام.

المبحث الثاني:

العلاقات الدولية في عهد الرسول. (صلى الله عليه وسلم)

المبحث الثالث:

العلاقات الدولية في عهد الخلفاء الراشدين.

المبحث الرابع:

العلاقات الدولية في عهد الدولة الأموية.

المبحث الخامس:

العلاقات الدولية في عهد الدولة العباسية

المبحث السادس:

العلاقات الدولية في عهد الدولة الإسلامية في الأندلس.

الفصل الأول

العلاقات الدولية في الإسلام

المبحث الأول

أسس العلاقات الدولية في الإسلام:

الأصل في العلاقات الدولية في الإسلام هو (السلم)، ودلالة ذلك في قوله تعالى "وَأَنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ" ^١، ومعنى الآية (الميل نحو المسالمة، وهي طلب السلامة من الحرب فسالهم، وأقبل ذلك منهم). إن هذه الآية تدل على مشروعية المعاهدة كلما اقتضى الموقف عقدها. فقد هادن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يهود المدينة حينما اقتضى الموقف السياسي ذلك، ثم عقد (ص) صلح الحديبية حينما اقتضى الموقف عقده ^٢.

فالأصل في العلاقات الدولية في الإسلام هو السلم حتى يكون الاعتداء على الدولة الإسلامية فعلاً، أو بفتنة المسلمين عن دينهم، فالحرب حينئذ تكون ضرورة أوجبها قانون الدفاع عن النفس، والعقيدة، والحرية الدينية ^٣، ولكون الأصل في العلاقات الدولية هو السلم، دعا القرآن الكريم إلى السلم عامة بقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَدْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَبِعُوا خَطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" ^٤، وقوله تعالى "فَإِنْ عَزَّزْتُكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا" ^٥.

وإن النبي (ص) يدعوا المشركين بدعاية الله تعالى، وينبئهم برسالته التي نزلت عليه من ربه، فكان يدعوهم إلى التوحيد في العبادة، ويأمرهم بالفضائل وينهاهم عن الرذائل، وعُدَّ (السلم) شعاره استناداً إلى قوله تعالى "وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ" ^٦.

١ - سورة الأنفال، الآية ٦٢ .

٢ - د.خالد رشيد الجميلي، " أحكام الأحلاف والمعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون "، الجزء الأول من التشريع السياسي الإسلامي المقارن، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٧، ص ٩٠ .

٣ - د.محمد أبو زهرة، " العلاقات الدولية في الإسلام، دار الكتاب الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، بلا، ص ٤٨ .

٤ - سورة البقرة، الآية ٢٠٨ .

٥ - سورة النساء، الآية ٩٠ .

٦ - سورة النساء، الآية ٩٤ .

إنّ (الإسلام)، وان حض على (الجهاد)، فقد دعا كذلك إلى نشر عقيدته بالطرق الودية السلمية انطلاقاً: من قوله تعالى "أذُعْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" ، ولم يكن (الجهاد) أو الحرب الدائمة بمثابة العلاقة الطبيعية أو الوحيدة القائمة بين المسلمين وغير المسلمين، هذا فضلاً عن أنّ (الجهاد) مشروط بقصد حماية الدعوة الإسلامية، والدفاع عن النفس، وفيما عدا ذلك لم يكن هناك مفر من أن تسعى الدولة الإسلامية لإقامة علاقات ودية بالوسائل الدبلوماسية مع الأمم والشعوب المحيطة بها.

إن فريضة (الجهاد)، والحض على القتال قد شرعت للحرب المشروعة التي حددت مقاصدها بدفع الظلم، ومنع الفتنة في الدين، وكفالة حرية العقيدة والمواطن للناس، وقد احتاجت الدولة الإسلامية إلى السيف في مقارعة الأمم المحيطة بها كلما اقتضت ذلك أحوال الدعوة الإسلامية، فإذا ما احتاجت الدولة الإسلامية إلى الاستقرار أو شيء من الهدوء لتواجه أحوالاً داخلية أو حروباً أهلية، رغبت في إقامة علاقات ودية مع أعدائها، أو اتصلت بينها وبينهم السفارات الدبلوماسية، ودخلت معهم في علاقات عهديه^٢.

لقد قسم الفقهاء أساس (العلاقات الدولية) في الإسلام إلى (دار السلام، ودار الحرب)، وسنفصل الحديث عنهما:

١. دار الإسلام: هي الدولة التي تحكم بسلطان المسلمين، وتكون المنعة والقوة فيها للمسلمين، وهذه الدار يجب على المسلمين القيام بالذود عنها، والجهاد فرض كفاية إذا لم يدخل العدو الديار، فإذا دخل العدو الديار كان (الجهاد) فرض عين، فعليهم جميعاً مقارعته ما أمكنتهم الفرصة، واستطاعوا إلى ذلك سبيلاً^٣، ودار الإسلام: هي الأرض التي تظهر فيها أحكام الإسلام^٤، وهي الدولة التي يعبر عنها الفقهاء بـ (دار الإسلام)، والتي تضم جميع البلاد الإسلامية، وهي جميع البلاد التي يحكمها مسلمون، ويطبقون فيها الشريعة الإسلامية، ولم يشترط الفقهاء لعدّ دار أسلام، إلاّ أن يتم حكمها من المسلمين، وتطبيق أحكام الشريعة فيها، فليس من شرط (دار الإسلام) أن

١ - سورة النحل، الآية ١٢٥ .

٢ - د.عز الدين فوده، "النظم الدبلوماسية"، ط٢، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٨٩، ص ١١٨ .

٣ - د.محمد أبو زهرة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣ .

٤ - د.خالد رشيد الجميلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢ .

يكون أهلها أو أكثرهم مسلمين، ويجوز أن تكون (دار إسلام) حتى ولم يكن فيها مواطن مسلم ما دام حاكمها مسلم، ويطبق أحكام الإسلام^١. إن الأرض التي يطبق سكاها الشرع الإسلامي تُعدّ أرضاً إسلامية أو (دار إسلام)، ويرى البعض بأن أي إقليم يرضى سكانه (بالإسلام) دون قيود تسود السلطة الإسلامية الذمين فيه، فهو (دار إسلام)، ويشترط آخرون لإدخال الإقليم الإسلامي في (دار الإسلام): أن يكون في وسع المؤمن تأدية فروضه الدينية بحرية، ومن الشواهد على ذلك: (إقامة صلاة الجمعة، وصلاة العيدين في الإقليم)^٢.

٢. دار الحرب: هي الدار التي لا يكون فيها السلطان والمنعة للحاكم المسلم، ولا يكون عهد بينهم وبين المسلمين يرتبط به المسلمون ويقيدهم، فالعبرة عند أصحاب هذا الرأي إلى المنعة والسلطان، فما دامت الدار خارجة عن منعة المسلمين من غير عهد، فهي (دار حرب) يتوقع الاعتداء منها دائماً، والله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بأن يأخذوا الحذر دائماً، ويكونوا على أهبة الاستعداد للقتال لدفع الاعتداء، وهناك رأي آخر لبعض الفقهاء، وهو: أن كون السلطان والمنعة لغير المسلمين لا يجعل الدار (دار حرب)، بل لابد من تحقق شروط ثلاثة لتصبح الدار (دار حرب)، وهي:

الشرط الأول: ألا تكون المنعة والسلطان للحاكم المسلم.

الشرط الثاني: أن يكون الإقليم متاحاً للديار الإسلامية بحيث يتوقع منه الاعتداء على (دار الإسلام)، ويترتب على هذا الشرط أن تكون الصحارى المتاخمة للبلاد الإسلامية ليست (دار حرب) ما لم تكن ممتنعة على المسلمين بقوة أخرى لا يمكن للحاكم المسلم أن يفرض سلطان الإسلام عليها، وكذلك البحار المحيطة التي تتصل بـ (الدار الإسلامية) لا تُعدّ في قبضة غير المسلمين ما لم تكن ممتنعة للحاكم المسلم.

الشرط الثالث: ألا يبقى المسلم أو الذمي، (أي غير المسلم الذي يُعدّ من الدعوية الإسلامية) مقيماً في هذه الديار بالأمان الإسلامي الأول الذي مكن رعية المسلمين في الإقامة فيها، وتطبيق هذا الشرط تكون البلاد التي استولى عليها المسلمون، وأمنوا أهلها، ثم اضطروا إلى الجلاء عنها تحت تأثير حرب أو عامل آخر ليست (دار حرب)،

١ - د. عبد الكريم زيدان، "الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام"، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، العدد الثالث، ١٩٧٠، دار النشر بغداد، ص ١٠٩.

٢ - د. مجيد خدوري، "الحرب والسلام في شرعة الإسلام"، بيروت، دار المتحدة للنشر، ١٩٧٣، ص ٢١٠.

إذ كان الذين سيطروا عليها ابقوا المسلمين، ورعايا الدولة الإسلامية مقيمين فيها بمقتضى الأمان الأول، وذلك بلا ريب لا يكون إلا إذا سالت لهذه الدولة المسلمين، وكان معهم سلام لا تعكره حرب، وإذا ما نقضوا الأمان، وحاربوا المسلمين، فإن الدار (دار الحرب) ولو أعطوا أولئك أماناً جديداً^١.

ولا شك أن هذا الرأي هو الذي يتفق أن الأصل في العلاقات الدولية في الإسلام هو (السلام)، لأنه لم يُعدّ الدار (دار حرب)، إلا إذا كان ألعتداء بالفعل، بزوال أمان المسلمين أو بتوقع الاعتداء بالمتاحّة، إذ إن المتاحة من غير عهد ملزم أو من غير ميثاق يحرم اعتداء- يجعل الحرب متوقعة في كل وقت. ولكن اشتراط المتاحة لتوقع الاعتداء أصبح غير ذي موضوع، لأن ابن الأرض أخذ يتحكم في الأجواء، بل يتحكم في الفضاء، ولم يعدّ القتال يحتاج إلى المتاحة، بل أن القنابل الفتاكة تصل من أقصى الأرض إلى أقصاها، ولذلك فإنّ هذا الشرط لا موضع له الآن^٢.

٣. دار العهد: إن (دار العهد) حقيقة اقتضاها الغرض العلمي، وحققتها الواقع، فقد كان هناك قبائل ودول لا تخضع خضوعاً تاماً للمسلمين، وليس للمسلمين فيها حكم، ولكن لها عهد محترم، وسيادة في أرضها، ولم تكن تامة في بعض الأحوال، فأهل هذه البلاد يعقدون صلحاً مع الحاكم الإسلامي على شروط تشترط من الفريقين، وهذه الشروط تختلف قوة وضعفاً، وعلى مقدار حاجتها إلى مناصرة الدولة الإسلامية، ومن هذه القبائل ما كان الصلح فيها على أساس جعل من المال يدفعه أهلها نظير حماية المسلمين لهم، والذود عنهم، كما حصل في صلح النبي (صلى الله عليه وسلم) مع نصارى (نجران)، فقد أمنهم النبي (صلى الله عليه وسلم) على أنفسهم وأحوالهم من أي اعتداء عليهم، سواء أكان من المسلمين أم من غيرهم، وكذلك فعل الصحابي (أبو عبيدة عامر بن الجراح) مع أهالي (حمص)، فقد أمنهم، وتعهد بأن يدفع عنهم (الرومان) في نظير مال دفعوه إليه، وفي عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، عقد (عبد الله بن سعد بن أبي السرح) صلحاً مع أهل (النوبة) كان أساسه تأمينهم على أنفسهم، ورعاية استقلالهم، ومبادلة التجارة معهم، ولم يأخذ فريضة مالية يؤدونها، ونرى من هذا إن هذا النوع من العهد مع القبائل أو الدول لا يمكن أن يُعدّ (دار حرب)، ولا (دار إسلام)، ولكن يُعدّ (دار موادعة) أو (دار

١ - د. محمد ابو زهرة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤.

٢ - المصدر نفسه، ص ٥٤-٥٥.

عهد)، وقد قال بعض الفقهاء أن هذه الديار تدخل في عموم (دار الإسلام)، لأن المسلمين لم يعقدوا هذه العهود، إلا وهم أهل المنعة والقوة^١.

وكان من نتائج تعذر إنشاء دولة إسلامية في العالم كله، إن أنقسم العالم إلى عالين: عالم الإسلام، وعالم الحرب، وهذا الانقسام في رأي الشرع الإسلامي، كما ذكر آنفاً، ليس سوى انقسام مؤقت، إلا أنه في الواقع أستمّر طوال التاريخ الإسلامي، ولم تكن العلاقات بين هذين العالمين علاقات سلم، بل كان كل منهما في حرب مع الآخر، غير أن حالة الحرب لم تكن تعني اقتتالا حقاً، بل كانت مرادفة للمصطلح الغربي القانوني (عدم اعتراف)، أي عجز عالم الحرب عن الاحتفاظ بكيان شرعي على وفق الشريعة الإسلامية، لأنه عالم يفتقر إلى الشرط ألعقيدي الجوهري، أي الإيمان الصحيح، وعدم الاعتراف لا يعني، كما هو الحال في قانون الدول الحديث استحالة الدخول في مفاوضات، وعقد المعاهدات، ولا يتحتم عليها أن تكون لها صفة الديمومة، وإن قانون (السلم)، شأنه شأن (الجهاد)، لم يكن نظرياً، سوى أنه جهاز مؤقت ينظم علاقات المسلمين بالعالم الخارجي خلال مراحل توقف القتال، أي عندما يكون (الجهاد) معلقاً إلى أن تشمل (دار الإسلام) العالم كله، كما أن علاقات السلم بين (دار الإسلام) و (دار الحرب)، والتي كانت تتركز في الغالب على أساس من الاحترام المتبادل، والمصالح المتبادلة، لم تكن تنطوي على فكرة المساواة بين الدارين، ذلك لأن (دار الحرب) لا تستطيع أن يكون لها وضع طبيعي أو دائم ما لم يعتنق سكانها الإسلام أو يقبلوا بوضع أهل الديانات المعترف بها^٢.

على أن هناك وجهة نظر ترى بأن العلاقة بين (دار الإسلام) و(دار الحرب)، تقوم على (الحرب)، انطلاقاً من أن الدولة الإسلامية تعترف اعترافاً واقعياً لا شرعياً بـ(الدولة غير الإسلامية)، على أساس وجودها المادي المحسوس، لأن ما هو محسوس لا يمكن إنكاره، ويتحقق هذا الوجود المادي بالقوة والمنعة، أي بالقدرة الفعلية للدولة على بسط سلطتها على إقليمها، ورعاياها، وعلى أساس هذا الاعتراف الواقعي تعقد الدولة الإسلامية معها المعاهدات، وما يترتب عليها من التزامات أو حل مشكلات معلقة أو تنظيم أمور تجارية فيما بينها، وعلى أساس هذا الاعتراف تسمح لرعاياها بالدخول إلى إقليم الدولة الإسلامية بالأمان، وما يترتب عليه من أحكام، وحقوق، وواجبات بالنسبة

١ - د.مجد خدوري، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٦-١٩٧.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٩٦-١٩٧.

للمستأمن، و(دار الإسلام)، وعلى أساس هذا الاعتراف الواقعي تعترف (الدولة الإسلامية) بسلطتها على أفرادها داخل إقليمها، وبتمثيلها لهم .

أما من ناحية (الاعتراف الشرعي)، فإن! الدولة الإسلامية لا تعترف اعترافاً شرعياً بوجود الدول غير الإسلامية، ويرجع ذلك إلى إن الدولة غير الإسلامية لا تقوم على أساس (الإسلام)، ولا تتخذ أهدافه أهدافاً لها، ولا شريعته قانوناً لها، ومن ثم، فهي في نظر الشريعة الإسلامية كيان باطل، ولا يمكن الاعتراف بها من الناحية الشرعية، لأن شرعية الشيء وأحقيقته تستمدان من مفاهيم الشريعة وأحكامها، إذ أن الشريعة الإسلامية تُعد ما لا يقوم على أساس معانيها باطلاً قطعاً. وتأسيساً على هذا، فإن هذه الكيانات - الدول غير الإسلامية- التي تقوم على غير الإسلام، وترفض أحكامه تعدها الدولة الإسلامية كيانات باطلة، ولا تستحق البقاء، ويجب بناء الدولة من جديد على الإسلام بان يكون حكامها مسلمين، ويكون قانونها هو القانون الإسلامي، أي الشريعة الإسلامية، ويتم ذلك عن اختيار بأن تعتنق الإسلام وتطبق قانونه الإسلامي، فضلاً عن التزامها بدفع الجزية^١ .

ولكن علاقات الدول الإسلامية اليوم تقوم مع الدول غير الإسلامية على أساس الاعتراف الواقعي، إذ تقترن الدول مع بعضها البعض، ويتم التبادل الدبلوماسي، والعلاقات السياسية، والاقتصادية، والثقافية، إذ أن الأصل في العلاقات (السلم)، كما في قوله تعالى: "لا إكراه في الدين"^٢، وقوله تعالى في بيان العلاقة بين الدولة الإسلامية، وبين المعاهدين الذين لم يقاتلوا المسلمين، ولم يحتلوا جزء من دارهم: "لا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ أَنْ تَبْرُوهُمْ وَنُقَسَطُوا إِلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ يَحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوْلَوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"^٣، وقد ظهر ذلك بشكل واضح من إقرار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سوابق لا تخصي في دفع الجزية، ومنح الأمان، مثل عهده إلى أهل (نجران)، وفيه (لنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد رسول الله على أموالهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير)^٤، وكذلك من علاقات للدولة العباسية، والدولة الأموية بالأندلس بـ (الدولة المسيحية) كما سنرى فيما بعد .

١ - د. عبد الكريم زيدان، مصدر سبق ذكره، ص ١١١-١١٣ .

٢ - سورة البقرة، الآية ٢٥٦ .

٣ - سورة الممتحنة، الأيتان / (٨-٩) .

٤ - د. عبد الكريم زيدان، مصدر سبق ذكره، ص ١١٥ .

ومن العدل الذي أمر به الإسلام أيضا العدل لأهل الذمة، إذ إن كفالتهم واجبة على الدولة، مثل المسلمين سواء بسواء، ثم أنهم متساوون مع المسيحيين في الحقوق، وان تحمل الأولون أكثر منهم في الواجبات، وحریتهم في العبادة مكفولة، وكذلك العقيدة، فلا أكرهه في الدين، ولم يكن قبل الإسلام دين، ولا قانون أقر مبدأ تسامح كهذا، إلى هذا الحد، ولم تعترف أوروبا بالتسامح الديني إلا قبل قرن ونصف من الزمن . وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته، أو أنتقص، أو أخذ منه شيئاً، بغير طيب نفسه، فأنا حجيجه يوم القيامة "، و(الإمام) في الإسلام لا يكون عادلاً حتى يكون عماله ونوابه عادلين، لأنه مسئول عنهم، فلا يجوز لهم، ولا له أن يعتدوا على حريات الناس أو يؤذوهم^١.

وكذلك أوصى الإسلام بمعاملة الأسرى بالحسنى، فقد كان للمسلمين موقفاً إنسانياً مشرفاً بفضل تعليمات الإسلام السمحة التي حفظت الكرامة الإنسانية في السلم فقد حفظتها وحافظت عليها في زمن الحرب أيضا، فلم تهدر في ظلها آدميتهم كما أهدرت في ظل الدول الأخرى، بل لم يعرف التاريخ محارباً كان رفيقاً بالأسرى غير الإسلام^٢، إذ وضعت قواعد إنسانية في معاملتهم، قال الله تعالى: " فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فَنَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا"^٣، فقد نص في هذه الآية على أمرين لا ثالث لهما، هما ألن، بأن يطلق سراحهم دون مقابل، والفداء بأن يعطوا عوضاً عن ذلك مالا كان أو غيره، ولم يذكر في القرآن الكريم غيرهما كالقتل أو الاسترقاق، هذا إلى جانب حث القرآن الكريم المؤمنين على إكرام الأسير، إذ جعل من أخص صفات المؤمن، واكبر القربات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، إطعام الأسير ويتجلى ذلك في قوله تعالى: "وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا"^٤.

^١ - د.محمد ضياء الدين الرئيس، النظريات السياسية الإسلامية، ط ٦، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٣٣١-٣٣٢، وكذلك انظر القاضي ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم، كتاب الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة، ص ١٢٤-١٢٥.

^٢ - د.محي هلال السرحان، الأسير في التاريخ، وكذلك رشدي عليان، اسرى الحرب في الإسلام، أنظر مجلة الرسالة الإسلامية، (اسرى الحرب في الإسلام والقانون الدولي)، ندوة خاصة في كتاب أصدرته وزارة الاوقاف والشنون الدينية، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٢-١٣، و ص ٤١-٤٢.

^٣ - سورة محمد، الآية (٤).

^٤ - سورة الانسان، الآية (٨).

المبحث الثاني

العلاقات الدولية في عهد الرسول (ص)

إن أهم ما يُشار إلى العلاقات بين المسلمين والمشرّكين في خلال هذه المرحلة هو عقد الرسول (صلى الله عليه وسلم) (صلح الحديبية) في السنة السادسة للهجرة، حينما عزم على الخروج إلى مكة لغرض الطواف بالبيت العتيق. فقد خرج المسلمون بسلاح المسافر، أي السيوف في الأعماد لا يقصدون حرباً، فلما سمعت قريش ثارت ثائرتها، وقررت فيما بينها أن لا يدخلها عليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عنوة أبداً، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أوفد رسله إلى القبائل من غير المسلمين يدعوهم للاشتراك في الخروج إلى الكعبة لزيارتها وتعظيمها، ولا للقتال حتى تعلم العرب انه خرج في الشهر الحرام زائراً، لا غازياً، فلما أصرت قريش على مقاتلته في الشهر الحرام، ومنعه من أداء ما يؤمن به العرب جميعاً لم يكن هناك من يؤيدها في موقفها هذا، ولا من يُعينها على قتال المسلمين، فبقي وحدها ما لم يعاونها حلفاؤها من القبائل الأخرى، وبعد أن أيقنت قريش بعد عدة رسل أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) ينوي زيارة البيت الحرام، وبعد إرسال عدة وفود من قبل الطرفين أقسمت قريش ألا يدخل محمد (صلى الله عليه وسلم) مكة هذا العام، وإنما في العام المقبل، وقد تم عقد معاهدة بين المسلمين والمشرّكين سُمي (بصلح الحديبية)، وأهم بنود الصلح :-

١. اعتراف قريش بالمسلمين طرفاً متساوياً.
٢. فتح المجال للرسول (صلى الله عليه وسلم) لعقد تحالفات مع القبائل التي لم تكن تطمنن مخالفة قوة قريش لوجود الكعبة بمكة، وخير دلالة على ذلك إعلان (خزاعة) حلفها للرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد هذا الصلح مباشرة .
٣. تيسر الوقت للمسلمين لنشر دعوتهم بأمان .
٤. السماح للمسلمين بزيارة البيت بعد عام، والبقاء بمكة ثلاثة أيام .
٥. تكون مدة الصلح عشرة أعوام^٢

لقد انطوى (صلح الحديبية) على دلالة دبلوماسية واضحة، فقد حَمَلَ في طياته اعترافاً ضمناً من المشرّكين بالدولة الناشئة للإسلام، وهو اعتراف غير مسبوق به من

١ - حسن خطاب الوكيل، المعاهدات والتحالفات على عهد محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة، ١٩٣٠، ص ١٥-١٦ .

٢ - محمود شيت خطاب، " الرسول القائد "، منشورات مكتبة الحياة والنهضة، بغداد، ١٩٦٠، ص ١٧٧-١٨٥ .

قريش بأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يكن ثائراً أو متمرداً على حكمها، لأن الصلح المهادن لا يعقد بين الدولة والثائرين عليها، وإنما يُعقد بين هئتين هما شخصية قائمة، وهذا أول نصر لدولة الإسلام من حيث كيانها السياسي، وقوامها الدولي^١.

وما كاد عهد الحديبية يبرم حتى حالفت (خزاعة) محمداً، وحالفت بنو بكر قريشاً فربح المسلمون حليفاً قوياً له أهمية خاصة لقرب دياره من قريش. لقد كانت (خزاعة) تميل قلبياً إلى المسلمين قبل ذلك اليوم، وكان الإسلام قد أنتشر بين أفرادها، ولكنها لم تستطع أن تحالف المسلمين قبل هذه الهدنة، لأن ذلك يهدد مصالحها الدينية لوجود (البيت الحرام) بمكة التي تسيطر عليها قريش، هذا فضلاً عن تهديد مصالحها الأخرى، والهدنة حرمت يهود (خيبر) من الأمل في معاونة قريش ألد أعداء المسلمين حين يأتي موعد حساب هؤلاء اليهود، والهدنة جعلت المنطقة الجنوبية (جنوب المدينة) آمنة بالنسبة للمسلمين، وكانت هذه المنطقة اخطر ما يهدد الدعوة، لأن فيها قبائل قوية ذات حضارة وعقيدة، في حين كانت قبائل الشمال على حدود العراق والشام بدوية ممعنة في البداوة، فإذْناً أمنت هذه الهدنة الاستقرار الذي جعل الإسلام ينتشر بسرعة فائقة وأمنت القوة والمنعة للمسلمين^٢.

وقد وفر (صلح الحديبية) للمسلمين فرصاً ثمينة، فعندما حصل الاتفاق اختلط أهل مكة بالمسلمين، وجاءوا إلى المدينة، وجاء المسلمون إلى مكة، واتصلوا بأهلهم، وأصدقائهم، وغيرهم، وشاهدوا وسمعوا بصورة مباشرة عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، ومعجزاته وإعلام نبوته، وحسن سيرته، وجميل طريقته، وشاهدوا كثيراً من ذلك، فمالت أنفسهم إلى الإيمان حتى بادر البعض منهم إلى اعتناق الإسلام قبل فتح مكة، مثل خالد بن الوليد، وأزداد المشركون بالتوجه نحو الإسلام، فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم مما ساعد المسلمين عن نشر الإسلام في جزيرة العرب^٣.

والحق لم تتمكن اليهودية من اقتلاع الوثنية في شبه جزيرة العرب، بل أنها ساعدت على بقائها، وعندما هاجر النبي محمد (ص) إلى المدينة كان عليه أن يحسم أمر العلاقة مع اليهود، فوادعهم على دينهم من أجل أن يتفرغ إلى ترتيب أوضاع المسلمين. وقد أثار النجاح الذي حققه الإسلام في المدينة حفيظة اليهود وكانوا أول من

١ - محمد عبد الغني حسن، المعاهدات والمهادنات في تاريخ العرب، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، ص ٧-٨.

٢ - محمود شيبه خطاب، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٩-١٩٠.

٣ - د. سهيل حسين الفتلاوي، دبلوماسية النبي محمد (صلى الله عليه وسلم): دراسة مقارنة بالفتاوى الدولية المعاصر، بيروت، دار الفكر العربي، ١٩٩٤، ص ٢٦٢.

اصطدموا مع النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، لأنهم أول من أغرى المنافقين بالنفاق، وبتوا الريبة والشكوك، وأيقظوا روح التمرد والكيد، وغذوا كل ما يعكر تقدم الإسلام وانتشاره، وكان لليهود الدور الكبير في نماء المنافقين، وقوتهم، والأذى البالغ، والكيد الشديد، وتحلفهم مع قريش. وقد كان ظن اليهود أن يجعلهم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) خارج نطاق دعوته معتبرين أنفسهم أهدي من أن تشملهم دعوة الإسلام وأمنع من أن يأمل النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) دخولهم في دينه وانضوائهم تحت رايته، بل كانوا يرون إن من حقهم أن ينتظروا انضمامه إليهم لا سيما عندما رأوه يعلن إيمانه بأبيائهم وكتبهم بلسان القرآن، ويجعل ذلك جزءاً لا يتجزأ من دعوته.

غير أن ظنهم خاب عندما رأوا أن النبي محمد (ص) يدعوهم بلسان القرآن الكريم بالدعوة الإسلامية، ويندد بهم بعدم إسراعهم إلى الاستجابة للدعوة لموقفهم منها موقف الانقباض ثم موقف التعطيل والتناقض، فشعروا بالخطر الذي يحدق بمركزهم، وامتيازاتهم، ومصالحهم^١.

وكان يهود خيبر، وما جاورها يعملون على تحريض القبائل، وجمع الأحلاف ضد المسلمين، وقذف الإسلام بالتهم، وإيواء أعداء المسلمين، والغدر بهم كلما رأوا إلى ذلك سبيلاً. لقد كان اليهود موطن خطر يهدد المسلمين في الشمال، والهدنة حرمتهم من معاونة قريش، فاستمالوا (غطفان) لمعاونتهم عندما يتهددهم الخطر، ومن الأسباب غير المباشرة للقضاء على اليهود فهائياً هو للتخلص من أعداء المدينة في المنطقة الشمالية، لتكون المنطقة أمينة عندما يحين موعد محاسبة قريش، وأستطاع المسلمون أن يفتحوا حصون البدو الواحد بعد الآخر حتى تم القضاء على اليهود عسكرياً في الجزيرة العربية. أما حصنا (الوضيح، والسلام)، فكان آخر حصنين منيعين لليهود، فطلبوا الصلح من النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) على أن يحقن المسلمون دمايتهم، وقَبِلَ الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) بشروطهم، وأبقاهم على إن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم في أرضهم، لأن موقف المسلمين لم يكن يساعد على الاستغناء عن بعض قواهم للقيام بزراعة الأرض^٢.

^١ - المصدر نفسه، ص ١٩٦.

^٢ - المصدر نفسه، ص ١٩٨-٢٠٢.

وإذا كان صلح (خير) كسباً للدولة الإسلامية الجديدة من ناحية الحرب والسياسة، إلا أنه كان كسباً آخر لها من الناحية الاقتصادية، وهو صلح تدل مواده القليلة على فهم النبي (صلى الله عليه وسلم) لأحوال الزراعة والاقتصاد في عهده، وأموال الأيدي العاملة، وتوزيع العمل بينها، فقد أبقى لأهل خيبر أرضهم التي صارت إليه بحكم الفتح، على أن يعاملهم في الأحوال على النصف، أي أنهم يعملون في الأرض لِمَا هم من الخبرة بشئون الزراعة على أن يؤدوا للمسلمين نصف ثمرها، ويبقى النصف الآخر جزاء قيامهم بالعمل^١.

وكان نصارى نجران قد وفدوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فحصل الوفد على أمان لهم على أن يبقوا على دينهم شرط أن يدفعوا ثمانين ألف درهم جزية عنهم، وبعثت القبائل العربية من شرق الجزيرة العربية بوفودها، فجاء (الجارود بن بشر المعلي) في وفد عبد القيس، وخشي (الجارود) أن يكون الدين الجديد دون ما يدين به، فضمن الرسول له ذلك، وأخبره بأن الإسلام خير ما يدين به، فأسلم (الجارود)، وأسلم من معه، وقال الرسول فيهم: "أتوني لا يسألون ما لا، وهم خير أهل المشرق"^٢.

وبعد أن أستقر الوضع للمسلمين بعد صلح الحديبية أرسل رسول الله (ص) عدة سفارات إلى الملوك والحكام يدعوهم إلى الإسلام، إذ أن الله تعالى قد أرسله إلى الناس جميعاً، وكذلك دفع الكفر عن الأرض، فالمطلوب من المسلم دعوة أهل الشرك والكفر إلى الله تعالى، ودفع الهلاك والعذاب عن المسلمين، فأرسل رسله إلى (التجاشي)، ملك الحبشة، وقيصر ملك الروم، وكسرى ملك الفرس، والمقوقس عظيم مصر، وأمير بصرى، وأمير دمشق، وغيرهم^٣، وكانت غاية الرسول (صلى الله عليه وسلم) أشعار الملوك بأن (الإسلام) هو دين رسالة، وليس هدفه تهديد الملك، وأزالته، بقدر ما يمثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد أشعرت المذكرات الدبلوماسية الملوك بأنهم باقون على ملكهم إذا ما أسلموا، وحكموا بحكم الإسلام، وكذلك أشعرت الدولة الإسلامية بأن (الإسلام) دين حضارة ومعاصرة، ويستخدم (الوسائل الدبلوماسية)

١ - محمد عبد القني عبد الحسن، مصدر سبق ذكره، ص ٨-٩.

٢ - د. محمد ضيف الله البطيئة، بحث في التاريخ الإسلامي، عمان، دار مجدلاوي، ١٩٨٣، ص ٦٩.

٣ - محمود شيت خطاب، الرسول القائد، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٦-٢١٩، وكذلك انظر محمود شيت خطاب، السفارات النبوية، بغداد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٩، ص ٤٦-٤٧، ص ٦٤-٧٧، ص ٩٠-٩٣، ص ٣٢٢-٣٢٣، وكذلك انظر محمد حميد الله الحيدر أبادي، "مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة"، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٦٥،

لمعالجة الأمور بين الدول. وقد تمكن رسول الله (ص) بواسطة مبعوثيه استطلاع أحوال الدول التي أرسل إليها (المذكرات الدبلوماسية)، وأصبح لديه العلم حول ما يحيط به. كما حققت (المذكرات الدبلوماسية) انتشار الدين الإسلامي بصورة واسعة، ونقله إلى إرجاء متعددة وبعيدة عن مراكز الدولة الإسلامية في المدينة، وهذا الانتشار لم تحققه وسيلة أخرى، وكان من نتائج نجاح (المذكرات الدبلوماسية) في مخاطبة الملوك والأمراء أن استمر تبادل (المذكرات الدبلوماسية) حتى بعد دخولهم الإسلام، فأصبحت المذكرات الدبلوماسية الوسيلة المهمة في التوجيه، ومعالجة الأمور، وإن استخدام (المذكرات الدبلوماسية) لنشر الإسلام خارج المدينة اخذ يعني عالمية الإسلام، إذ ليس (الإسلام) ديناً للعرب فقط وإنما للناس جميعاً¹.

وكان النبي (ص) يستخدم الكلام اللين في التفاوض، ويتعد عن الغضب، وعن العنف، والتشدد قوله تعالى: "وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفْضَوْا مِنْ حَوْلِكَ"²، أي لو كنت سيء الخلق جافياً قاسياً لتفرقوا عنك، ولم يسكنوا إليك، وإن يتعد التفاوض عن الغضب فقد يواجه التفاوض حالات صعبة تثير غضبه مما قد تدفعه إلى الخروج عن الهدف الذي يفوض من أجله، ويصبح حاد المزاج لا يستطيع السيطرة على نفسه، فلا بد من كتم الغيظ والتصرف بحكمة³، فقد روي عن النبي (ص) قوله "ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"⁴.

وفي عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت العلاقات الدولية قائمة على أساس وجود دولتين كبيرتين، هما دولة فارس، ودولة الروم (بيزنطة)، فأما (الفرس)، فأخذوا يتوغلون في الشرق الأدنى منذ سنة ٦١٠م، فاستولوا على (أنطاكية) التي تُعدّ أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للدولة البيزنطية، ولم يلبثوا أن استولوا على (دمشق)، وشقوا طريقهم شمالاً، فاستولوا على حصن (طرسوس)، وطرّدوا الروم (البيزنطيين) من (أرمينيا)، وجزعت نفوس المسيحيين، وانهارت معنوياتهم حتى استولى (الفرس) على بيت المقدس ودمروا مدينة (القدس)، وكان لهذا العمل، رد فعل خطير في دولة الروم (بيزنطة)، ولاسيما أن (الصليب المقدس) الذي يعدّه المسيحيون أثنى المقدسات الدينية

1 - د.سهيل الفتلاوي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٩-٢٣٠.

2 - سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

3 - د.سهيل الفتلاوي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٢.

4 - صحيح مسلم والبخاري، انظر أئمنذري زكي الدين عبد العظيم، الترغيب والترهيب، الجزء الثامن، القاهرة، دار الحديث، بلا تاريخ، ص ٢٧٨.

قد استولى عليه الفرس، ونقلوه إلى عاصمتهم (المدائن)، ولم تقتصر غارة الفرس على الشام وفلسطين، بل امتدت سنة ٦١٢م، إلى آسيا الصغرى حتى بلغت مضيق (البوسفور) وعسكر الفرس تجاه القسطنطينية، وبذلك تعرضت عاصمة بيزنطة لزحف العدو من جهتين، إذ زحف الفرس عليها من الشرق، وزحف الصقالبة من الشمال، وكان الصقالبة الذين هم السلاف قد استولوا على معظم الإمبراطورية في أوروبا، فأصبح الجزء الأكبر من شبه جزيرة (البلقان) ولاسيما، داخلها إقليمياً (صقلينا)، وشرع (الفرس) بغزو (مصر)، فسقطت بأيديهم (الإسكندرية) سنة ٦١٩، ولم تلبث (مصر) بأسرها أن أصبحت بأيدي الفرس، أما في إمبراطورية (الروم) بدأ (هرقل)، بأجراء إصلاحات عسكرية شاملة أهمها إعادة تنظيم الجيش، وقدر (هرقل) أن يقود الحرب بنفسه ضد الفرس. وفي نيسان من العام ٦٢٢م، غادر (هرقل) العاصمة، وعبر آسيا الصغرى، وفي خريف العام ٦٢٢م، شق طريقه إلى (أرمينيا)، وتقابل الجيشان البيزنطي والفارسي على أرضها، فأنتصر البيزنطيون (الروم) على الفرس انتصاراً حاسماً، وبذلك تحقق أول هدف من أهداف (هرقل)، وهو تخليص آسيا الصغرى من الفرس، واستطاع (الروم) من الانتصار على الفرس في معارك طاحنة في (أرمينيا) خلال سنتي ٦٢٤ - ٦٢٥م، وفي سنة ٦٢٧م، شرع (هرقل) بزحفه نحو الجنوب، واستولى على (مصر) سنة ٦٢٨م، ثم عقد الصلح بين الطرفين، واستطاع (هرقل) تدريجياً من تحرير الأقاليم البيزنطية من الفرس، ودخل (هرقل) (القدس) بعد أن أعاد صليبيها من الفرس^١.

وأراد (الروم) غزو حدود العرب الشمالية، فتهيأ لهم رسول الله (ص)، وأرسل جيشاً قوامه ثلاثون ألف جندي، وسار بهم نحو (تبوك)، وكان (الروم) قد بلغها أمر هذا الجيش، وقوته، فأثرت الانسحاب بجيشها ليحتمي داخل بلاد الشام ولما انتهى المسلمون إلى (تبوك)، وعرف محمد (ص) أمر انسحاب الروم، وعرف ما أصابهم من خوف فأثر أن يتبعهم داخل بلادهم، وأقام عند الحدود يناجز من شاء إن ينازله ويقاومه، فأقبل (يوحنا بن رؤية) صاحب آيلة احد الأمراء المسيحيين الموجودين في الحدود، وصالح رسول الله (ص)، وأعطاه الجزية، وأرسل الرسول (ص) خالد بن الوليد إلى (دومة)، وعرض على أميرها الإسلام، فأسلم، وأصبح حليفاً، وبذلك استطاع رسول الله (ص)، تأمين حدود الجزيرة الشمالية^٢.

١ - محمود شيت خطاب، السفارات النبوية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠-٦٣.
٢ - محمد حسين هيكل، حياة محمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٤٥٧-٤٦١.

المبحث الثالث

العلاقات الدولية في عهد

الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم)

كان عهد الخلفاء الراشدين امتداداً لعهد النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم)، فالدولة الإسلامية كانت منصرفة إلى توطيد أركانها في أرجاء الأرض، فهي تخرج من فتح إلى فتح، وبالقوة نفسها التي دعا إليها (الإسلام) نحو (الجهاد) لمحاربة الشرك والكفر، وكان العمل الدبلوماسي وسيلة أيضاً لتوطيد أركان الدولة الإسلامية بالإفادة من الأسلوب الودي كبديل للحرب أو مساعدتها في تنفيذ الخطط السياسية الأمر الذي كان ينبع من طبيعة العقيدة الإسلامية^١.

ولقد كانت العلاقات الدولية في عصر الخلفاء الراشدين تقوم على أن العراق كان في ذلك الوقت تحت السيطرة المباشرة لبلاد فارس بما فيه الدولة الحجازية بزعامة المناذرة اللخمينيين في الحيرة، وعلى الرغم من التبعية التقليدية التي أتسمت بها هذه الدولة للساسانيين، إلا أنها استطاعت عبر حقبات تأريخها المديد تكوين شخصية حضارية شبه مستقلة، وكان للتأثير اليوناني- البيزنطي الأكثر بروزاً فيها. وقد حدث في مطلع القرن السابع للميلاد مما جعل من العراق - مقر المناذرة - الأرض الممهدة والمهيئة للعمليات العسكرية في أعقاب انهيار العلاقات بين الفرس الساسانيين، وبين عدد من القبائل العربية في العراق، في حين كان الغساسنة يسكنون شمال الجزيرة العربية من جهة بلاد الشام، وهي القبائل الحليفة للبيزنطيين^٢.

إنّ تسامح الخلفاء الراشدين مع أهل الذمة في ممارسة شعائرهم الدينية، والرجوع إلى رؤسائهم الروحانيين كان لهذه السياسة أثر كبير في حمل الكثير من أهل الذمة في عهد الراشدين على الدخول في الإسلام لما لمسوا فيه من العدالة، والحرية، وكان أسرع الناس لقبول الإسلام الطبقة العامة من أصحاب الحرف، والصناع، والفلاحين، الذين اعتنقوه بحماسة^٣.

١ - حسن فتح الباب، مقومات السفراء في الإسلام، دراسات في الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، العدد (١١٤)، ١٦ أكتوبر ١٩٧٠، القاهرة، ص ٢٦.

٢ - د. إبراهيم بيضون، من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، دراسة في تكوين الاتجاهات السياسية في القرن الأول الهجري، (قم - إيران)، الناشر شهاب الدين، ٢٠٠١، ص ٤٥، ص ٦١.

٣ - د. توفيق سلطان البيوزبكي، دراسات في النظم العربية والإسلامية، جامعة الموصل، ١٩٧٧، ص ١٨٦.

أن ما كتبه الكثيرون من المستشرقين ليعطي الدلالة الناصعة على تسامح الإسلام، وعلى حسن معاملة الحكام المسلمين لأهل الذمة، يقول المستشرق الفرنسي (غوستاف لوبون): "الحق إن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين مسلمين، مثل العرب، ولا ديناً سمحاً، مثل دينهم"، ويقول المستشرق الفرنسي (آرنولد)، عن الإسلام: "إنه الدين الوحيد الذي لم يفرض بالقوة، بل أقبل الناس على اعتناقه بإرادتهم، واختيارهم"، ويوضح المستشرق (دوزي) مواقف الحكام المسلمين من أهل الذمة، فيقول: "إن تسامح ومعاملة المسلمين لأهل الذمة أدى إلى إقبالهم على الإسلام، وأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة ما لم يألفوه في دياناتهم السابقة" ^١.

أما بالنسبة للضرائب التي فرضها المسلمون على أهل الذمة فقد قال المستشرق (فان فلونتن): "أن الضرائب ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومات العربية من بناء الطرق، وحفر الترع، وتوطيد الأمن، وما إلى ذلك من ضرورة الإصلاح، والحقيقة أن الجزية لم تكن عقاباً لأهل الذمة، فهي نظير إعفائهم من الجندية، ومقابل حماية المسلمين لهم، وقد فرض الإسلام على المسلم (الزكاة) حتى يتكافأ (الذمي والمسلم) في الواجبات وكان نظام (الجزية) عادلاً بحسب مقدرة الفرد المالية، فهناك فرق بين الغني والفقير، والمتوسط الحال. كما أعفى النساء، والصبيان، وذوي العاهات، والرهبان، وكان لأهل الذمة نصيب من العطاء" ^٢.

وفي عهد الخليفة (أبو بكر الصديق) (رضي الله عنه) أعيد فتح الجزيرة العربية بعد أن ارتدت في الكثير من أجزائها أثر وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) مباشرة، وأعيدت إلى حظيرة الإسلام، وبعد أن استقرت الجزيرة العربية بدأ الفتح خارجها، وبدأت الحرب على بلاد فارس عن طريق العراق، حيث وجه الخليفة الصديق (رضي الله عنه) خالد بن الوليد من أسفلها من جهة العراق، وعياض بن غنم من أعلاها.

إن إعلان الحرب جزء لا يتجزأ من السياسة الخارجية للدولة الإسلامية، وذلك لأن الدعوة الإسلامية إنما هي دعوة إلى الناس كافة لا للعرب فحسب، ولما يؤيد صحة ذلك، توجه عدد من الجيوش الإسلامية إلى خارج الجزيرة العربية في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لدعوة الناس إلى الإسلام، وحدثت بسبب ذلك عدد من الغزوات، منها (مؤتة، وتبوك، وآيلة، وغيرها)، ولذلك كان مد معركة الفتح خارج

١ - المصدر السابق نفسه، ص ١٨٦-١٨٧.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٨٧.

الجزيرة العربية القاعدة الأساسية التي كانت تقوم عليها السياسة الخارجية للدولة الإسلامية في خلافة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، ويبدو مدى تنبه الصديق (رضي الله عنه) لهذه الحقيقة، ووعيه إليها، وإخلاصه لحركة الفتح الذي بدأ في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إنه أبي إلا إنفاذ جيش (أسامة بن زيد) الذي عقد لواءه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، كما إن أحداث الردة كشفت إن الخطر الخارجي الذي يتهدد الدعوة الإسلامية لا يقتصر على الجبهة الرومية فحسب، بل يتجاوز ذلك إلى الجبهة الفارسية، ولقد كان التعاون بين المرتدين، في البقاع الشرقية من الجزيرة العربية، ورعايا الدولة الفارسية دلالة ملموسة على خطر الجبهة الفارسية، وذلك الخطر الذي كان يهدد الدولة الإسلامية ومستقبلها، ولذلك فقد وجه أبا بكر الصديق (رض) خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني إلى العراق^١.

لقد كانت حركة الفتح في سبيل الله لنشر الإسلام، ولتحويل دار الشرك إلى دار الإسلام هو السبب الوحيد الذي يفسر الاندفاع الإسلامي في شبه الجزيرة العربية، وبقوة وجرأة نادرة، وفتح جبهة القتال مع فارس والروم، وهو السبب نفسه الذي يفسر لنا نجاح العرب في تحويل البلاد من (دار كفر) إلى (دار إسلام)^٢.

ولما توفي رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وكان قد عاهد نصارى (نجران)، خشى أهل (نجران)، وهم من نصارى العرب في شبه الجزيرة العربية أن يكون تغيير الموقف في خلافة الرسول يقتضي تغييراً في موقف المسلمين من الهدنة معهم، فأراد أبو بكر الصديق خليفة رسول الله أن يؤكد لهم العهد بالمهادنة، وإن يجدد لهم العهد بالهدنة التي كان منحها الرسول إياهم، فكتب لهم يجدد العهد وفاءً لهم لكل ما كتب لهم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)^٣.

لقد أرسل الخليفة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) الجيش الإسلامي ليفتح بلاد الشام، وعين عليها أبو عبيدة الجراح، وقد لقيت هذه الجيوش مقاومة عنيفة من الروم، ولما ضاق أبو بكر الصديق (رض) ذرعاً بجمود جيوشه أرسل خالد بن الوليد على رأس جيش، ولما توفي أبو بكر الصديق (رض)، تولى عمر بن الخطاب (رض) الخلافة، والموقف لا يزال على جموده، وأستطاع المسلمون أن يفتحوا بلاد الشام

١ - محمد ضيف الله البطاينة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩-٤٠.

٢ - المصدر نفسه، ص ٤٥.

٣ - محمد عبد القني حسن، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٩-١١٠.

ودمشق، وقد أخذ المسلمون الجزية من أهل (دمشق) لقاء تأمينهم أهل المدينة على أنفسهم، وأموالهم، ودورهم، وكنائسهم، وسور مدينتهم، وفي عهده تم فتح (بيت المقدس)، حيث تم إعطاء الأمان لأهل المدينة على أموالهم، وأنفسهم، وعلى عقائدهم، لا يضر أحد منهم، بسبب دينه، ولا يكره على شيء من أمره، وقد أباح هذا العهد لمن شاء من أهل المدينة أن يرحل عنها مع الروم، وأباح لمن شاء من الروم من الأجانب المقيمين في المدينة إن يظلوا آمنين ثم لم يفرض عليهم غير الجزية يؤدونها لقاء كفالة أمنهم، والأمر نفسه كان بالنسبة لأهل الرملة، وفي عهده أيضاً تم فتح العراق، وبلاد فارس، ومصر، وتم وضع العهود وفرض الجزية عليها^١.

وفي عهد الخليفة عثمان ابن عفان (رض) حينما نقضت دولة الروم عهودها السابقة، وكذلك نقضت بعض المقاطعات الفارسية، وأغار الروم بأسطولهم على الإسكندرية، فتم إرسال جيش للقضاء على القوة المتمردة التي حملت السلاح ضد الإسلام في (أذربيجان، وأرمينيا)، اللتين نقضتا العهد الذي كانت قد أبرمته من قبل، فسير إليها جيشاً بقيادة (الوليد بن عقبة) ففرض عليهم، ووقع معهم معاهدة بالشروط نفسها التي كان قد أنزلهم عليها، (حذيفة بن اليمان)، وتم القضاء كذلك على تحرشات دولة الروم ببلاد الشام، وكذلك القضاء على تمرد مقاطعة الري التي نقضت عهدها، فزحفت عليها قوة بقيادة (أبي موسى الأشعري)، وأنزلت التمردين مرة أخرى على العهد القديم الذي كان قد وثاقهم عليه (حذيفة بن اليمان)، وفي عهده أغار الروم على الإسكندرية بواسطة أسطولهم البحري، فأرسل إليهم الخليفة عثمان (رضي الله عنه) جيشاً قضى عليهم وقد تدارس الخليفة مع بعض أصحابه ومشيريه مسألة بناء البحرية الإسلامية فتم ذلك في عهده، ثم جاءت غزوة (ذات الصواري) لتؤكد صلابة الدولة الإسلامية ضد البيزنطيين بزعامة قسطنطين، وتم الانتصار عليهم مجزياً^٢.

أما الخليفة علي ابن أبي طالب (رض)، فكان في شبابه يسلك مسلك القدوة، وتحمل مسئوليات الرجال مبكراً، إذ عُرف عنه رجاحة العقل، والعفة، والبلاغة، والشجاعة، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله (ص)، وبرز ما فيها حمله الراية يوم

١ - المصدر نفسه، ص ٢٥٦، وكذلك انظر، المصدر السابق نفسه، الجزء الثاني، ص ٢-١، ص ٥٨.

٥٩، ص ١٦٤-١٦٧.

٢ - خالد محمد خالد، خلفاء الرسول (صلى الله عليه وسلم)، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٩٤-١٩٨.

(خير)، وقول الرسول (ص) له (خذ هذه الراية حتى يفتح الله عليك)^١، وهذا ما تحقق، وكذلك يوم (الخندق) عندما استطاع إن يصرع احد المشركين، ويمنع عبورهم الخندق، وفي رسالة كتبها الخليفة علي بن أبي طالب (رض) إلى (مالك بن الأشتر) حينما ولاه (مصر) بعض النصائح والإرشادات تدل على جوهر العلاقات الدولية في الإسلام، ويقول فيها: "ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك لله فيه رضي، فإن في الصلح دَعَاً لجنودك، وراحة من همومك، وأمناً لبلادك، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحك، فإن العدو ربما قارب ليتغفل، فخذ بالحزم، وأتمم في ذلك حسن الظن، وان عقدت بينك وبين عدو لك عقدة، أو ألبسته منك ذمة، فحط عهدك بالوفاء، وارع ذمتك بالأمانة، واجعل في نفسك جنة، دون ما أعطيت، فانه ليس من فرائض الله (عز وجل) شيء على الناس اشد عليه اجتماعاً، مع تفريق أهوائهم، وتشيت أرائهم، ومع تعظيم الوفاء بالعهود"^٢.

يستشف من هذا النص بأن علي الوالي تقع مسؤولية القيام بما يلي:

١. عقد معاهدة الصلح مع الدول والأمم المجاورة .
٢. أخذ الاستعداد للحرب، وأخذ الحيطة عند الضرورة، وبين هذين الأمرين تجري مفردات كثيرة مثل تبادل الرسائل، وتبادل الوفود وتبادل الزيارات، وعقد الحوارات.
٣. الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدة أساسية من قواعد الدين الإسلامي التي يجب على كل مسلم إن يلتزم بها، كما أن الوفاء بالعهود والمواثيق لم يكن عند أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) مجرد نظرية مكتوبة على الورق، ولكنه كان سلوكاً عملياً في حياته بالوفاء بالعهود^٣

^١ - المصدر السابق نفسه، ص ٢٨١-٢٨٣.

^٢ - الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام، نهج البلاغة، جمعة الشريف الرضي، تقديم وشرح الشيخ محمد عبدة، القاهرة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ص ٤٣٣.

^٣ - علي محمد الصلابي، سيرة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) شخصيته وعصره، لبنان، بيروت، دار المعرفة، ط ٢، ٢٠٠٥، ص ٣٦٨.

المبحث الرابع

العلاقات الدولية في عهد

الدولة الأموية

بدأت الفتوحات في عهد الخليفة الأول (معاوية ابن أبي سفيان)، إذ باشر في تطوير الأسطول البحري ليكون قادراً على ذلك معاقل (القسطنطينية) عاصمة البيزنطيين، ومبعث الخطر على المسلمين، فبعد أن قضى على الحركات التي استخدمها الروم كوسيلة لرصد تحركات الدولة الإسلامية، ونقاط ضعفها، وإبلاغ الروم عنها متخذين من مرتفعات (طوروس) مقراً لها، وبدأ (معاوية ابن أبي سفيان) بإرسال حملات استطلاعية وقد وضع هدفاً واضحاً وهو محاولة الضغط على الدولة البيزنطية، وسعى إلى القضاء عليها، وحاول أن يكون زمام المبادرة دائماً في يده، لأنها هي التي تمد جزر شرق البحر المتوسط بالقوات والعتاد، ولذلك اهتمت الدولة الأموية بصناعة السفن في (مصر، والشام)، وعملت على تطوير القوة البحرية فيها. كما تم الاستيلاء على الجزر الواقعة شرقي البحر المتوسط، مثل جزيرة قبرص، ورودرس، ومحاولة غلق بحر إيجه، وسد المنافذ الرئيسة في وجه السفن البيزنطية، وأراد الأمويون الاستيلاء على جزيرة (كريت) التي تسيطر على بحر (إيجة)، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك، إذ نافست بحرية المسلمين بحرية البيزنطيين على السيادة في البحر المتوسط، كما عملت الدولة الأموية على تحصين إطراف الشام الشمالية التي تشكل الحدود بينها، وبين الدولة البيزنطية، وسعى (معاوية) إلى محاصرة (القسطنطينية) كأول حصار إسلامي لها، وكذلك الحصار الثاني بين سنتي ٥٤-٦٠هـ، ولكنه لم يتمكن من ذلك، ولما أدرك إن مدة الحصار قد استغرقت وقتاً طويلاً فقد تراجع عن الحصار، وأرسلت الدولة البيزنطية في طلب الصلح^١.

ورغم الطابع الذي ميز العلاقات بين الدولة الإسلامية والبيزنطية في عصر الخلافة الراشدة، والعصر الأموي، إلا أن هذا لا يعني إن الطابع السلمي المتمثل فيما جرى من مفاوضات ومداولات كان مفقوداً، فقد اتخذت العلاقات السلمية بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية في العهد الأموي أشكالاً مختلفة، ومنها (المراسلات، وتبادل الخبرات، والمناظرات، والمجادلات الثقافية، وتبادل الأسرى، والسفراء). وقد تم مراسلة ملك الروم من قبل (معاوية) في مرحلة الفتنة، وتواصل معه إلى عقد صلح على

١ - د. علي محمد الصلابي، الدولة الأموية: عوامل الأزدهار، وتداعيات الانهيار، المجلد الأول، بيروت، دار المعرفة، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٣٤٤-٣٥٤.

إن يؤدي (معاوية) له مالاً، وأن يأخذ كل طرف رهناً من الآخر. وقد برر ذلك بأنه في حالة الضعف، فإن الدولة الأموية احتاجت إلى دفع ضرر عليها بمال أو نحوه، فذلك يدخل من باب الضرورات، وليس حكماً عاماً، وما أبيض للضرورة يقدر بقدرها، كما قرر الفقهاء، فلا ينبغي عقد صلح دائم مع العدو بدفع المال إليه، بل يجب إن يكون الصلح والدفع لمدة ضعف المسلمين أو حالة الضرورة، مع العمل الجاد على رفع حالة الضعف، وبناء قوة الأمة وقدراتها المطلوبة بكل حزم وعزم، فإذا زالت يجب على المسلمين أن يمتنعوا من عقد أي معاهدة فيها ذلة أو مفسدة

والحق، لم يحدث في عهد الأمويين تطور كبير في السفارات الدبلوماسية، وإنما كان التطور قاصراً على التقدم الفني متمثلاً في أسلوب تلك السفارات، وطابعها، وتنظيمها، وتشعب مبادئها انعكاساً لقوة الدولة الأموية، وكان استمرار الحروب بين الدولة الأموية ودولة الروم لا يسمح بأكثر من تبادل السفارات لعقد معاهدات الهدنة أو تنظيم مراحل السلم، ودفع الجزية، ومن ثم لم يدخل الخلفاء الأمويون في علاقات وطيدة مع الروم، ولم يسعوا بطبيعة الحال إلى عقد أو اصر الصداقة والتعاون معهم، إلا حينما كانت تضطرهم الأوضاع الداخلية إلى ذلك، فكانت العلاقات السياسية الودية بين الدولتين قاصرة على المراحل التي شعر فيها الأمويون بالرغبة في إقامة هذه العلاقات لاحتياجهم إلى الاستقرار أو إلى قدر من الهدوء الخارجي لمواجهة الثورات المعادية لهم في الداخل، وقد عمد خلفاء بني أمية إلى عقد معاهدات الصلح والسلم مع الدولة البيزنطية في أواخر القرن السابع الميلادي حتى يؤمنوا الجبهة الخارجية، ويتفرغوا للقضاء على المشكلات التي نشبت في البلاد على أثر الانقسام والفرقة التي دبت في صفوف المسلمين. أما في غير هذه المرحلة وهي قليلة نسبياً، فقد كانت المعارك الحربية مستمرة بين الجانبين، وإزاء هذه الأوضاع السياسية والعسكرية ظلت السفارات السياسية الودية محدودة في العصر الأموي حتى المراحل التي ساد فيها (السلم) بين الدولة الإسلامية، ودولة الروم، فقد كانت تلك المراحل فضلاً عن قتلها - لا تمثل سلاماً دائماً يسمح بقيام تلك السفارات، وإنما مراحل سلام مسلح أو صلح مؤقت¹.

وكذلك تمت فتوحات شمال إفريقيا، وجاء الاهتمام بها، لأنها تتاخم حدود مصر الغربية من ناحية، ومن ناحية أخرى، فهي تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية، وتم إرسال حملة إلى طرابلس الغرب، وتونس، حيث تم فتحهما، ودخل المسلمون، وقام (عقبة بن نافع) بالفتوحات في أفريقيا، وأسلم على يديه الكثير من البربر، وقصد كذلك

1 - حسن فتح الباب، مقومات السفراء في الإسلام، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦-٢٧.

المناطق الداخلية يفتحها بيلداً بيلداً، وقام بإنشاء مدينة (القيروان) لتكون محط رحال المسلمين، ومنها تنطلق جيوشهم، وبني فيها جامع (القيروان)^١.
وأدرك المسلمون أن الذين يحركون البربر في شمال أفريقيا ضد المسلمين هم (الروم)، الذين أخذوا يتقربون من البربر، ولذلك تم انتهاج سياسة تقوم على كشف حقيقة الروم، وعلى أقناع البربر: أن المسلمين ما جاءوا إلى هذه البلاد ليستعمروهم، ويستغلوا بلادهم، كما يحاول الروم أن يفهموهم، وإنما جاءوا لهدايتهم، وخيرهم، ودعوتهم إلى الإسلام، وكان (الروم) رغم الهزائم التي حلت بهم في وسط إقليم أفريقيا وجنوبه، مازالوا قوة في الشمال، وما زالت عاصمتهم (قرطاجنة) لم يقصدها أحد من الفاتحين، فقام (أبو المهاجر) بضرب (الروم) ضربة قوية ليضعف نفوذهم في تلك النواحي، ويكسر الحلف الذي عقده مع البربر، فسار إلى (قرطاجنة)، ونازلها، فتحصن الروم بالأسوار العالية، ولما شدد (أبي المهاجر) الحصار عليها، علم (الروم) أنه لا قبل لهم بالجيش الإسلامي، فطلبوا الصلح من المسلمين، ودخلت قوات المسلمين جميع مناطق شمال أفريقيا^٢.

وفي أواخر العام ٧٣ هجري، شعر (عبد الملك بن مروان) إن الدولة استعادت قوتها، وأنها تستطيع إن تستأنف فتوحاتها، وكانت العلاقات قد ساءت مع الروم الذين أخذوا يتأهبون للانقضاض على الدولة الإسلامية، فتهياً إليهم، ومنع (عبد الملك) إرسال النقود التي كان يدفعها وقت الضرورة، فأثار هذا حقن الإمبراطور الروماني، فأعلن الحرب، وقدم بجيش كبير ليغزوا المسلمين من ناحية (أرمينيا)، فلاقاه الجيش الإسلامي فدارت موقعة عنيفة هزم فيها (الروم) على الرغم من كثرة عددهم، واستمرت الجيوش الإسلامية في جهادها طوال مدة حكم (الوليد) ثم (سليمان بن عبد الملك)، وأستطاع المسلمون فتح البلدان، والحصون العظيمة التي أقامها الروم لتأمين سلامة بلادهم، والمحافظة عليها من غارات الأعداء، مثل حصن (عمورية)، وهرقلية، وغيرها^٣.

وفي عهد (سليمان بن عبد الملك) تم حصار القسطنطينية، بعملية لم تنجح، فأنسحب الجيش الإسلامي، حيث تأكد المسلمون أنهم لا يستطيعون فتح (القسطنطينية) دون فتح المناطق المجاورة لها، وتثبيت أقدامهم فيها حتى تكون عوناً لهم لا عليهم في حالة حصار (القسطنطينية)، وفي حين تحلى أباطرة البيزنطيين عن فكرة استعادة شمال أفريقيا،

١ - د. علي محمد الصلابي، الدولة الأموية، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٣.

٢ - د. علي محمد الصلابي، الدولة الأموية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧١-٣٧٢.

٣ - المصدر السابق، المجلد الثاني، ص ٥-٦.

وعدّوا الدفاع عن هذه المنطقة في المرتبة الثانية بعد الدفاع عن عاصمتهم^١، وكان (عبد الملك بن مروان) قد أستكمل فتح شمال أفريقيا، ولا سيما المناطق التي استعادها الروم، ثم جاءت فتوحات (موسى بن نصير) ليستكمل فتوحات شمال أفريقيا، وقام بفتح المغرب، وأخذ البربر يعتنقون الإسلام، وأستطاع (موسى بن نصير) إن يجند أعداداً كبيرة منهم، وكان يختار عمالاً يحسنون السيرة مع أهالي المناطق المفتوحة، وسعى المسلمون إلى تنفيذ خططهم في أثناء فتوحاتهم، وهي تأمين حدودهم، ونشر دعوتهم، وذلك بالمضي في جهادهم إلى ما وراء تلك الحدود لنشر العقيدة الإسلامية حتى أستطاع المسلمون فتح بلاد الأندلس في رجب من العام ٩٢ هـ، فزل (طارق ابن زياد) بالجبل (كالي)، الذي سُمي (بجبل طارق) ثم جاء مدد (موسى بن نصير)، وتساقت المدن الأسبانية قبالة جيوش الفاتحين الواحدة بعد الأخرى، وضربت العملة الإسلامية لأول مرة بالأندلس^٢.

وفي المشرق قام الجيش الإسلامي بقيادة (المهلب ابن أبي صفرة) بفتوحات كبيرة في بلاد التركمان عبر نحو سيحون ثم فتوحات القائد (قتيبة بن مسلم الباهلي) لـ (بخارى، وسمرقند)، الذين كانوا قد نقضوا وارتدوا، ففتح (خرغانة، وبلاد الترك) سنة ٩٥ هـ، ثم استعادة (الطالقان، والصغانيا، وطخارستان) سنة ٩٥ هـ، ووصل المسلمون إلى (كاشغر)، وعبروا نهر (جیحون)، وأرسل (قتيبة بن مسلم) سفارة إلى ملك الصين يحذره من غزوها، فقبل ملك الصين أن يقدم الجزية على ألا يغزوه (قتيبة بن مسلم)، وكان قتيبة ومن معه، من الفاتحين يحرصون على دعوة الناس للإسلام، وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، فكان (قتيبة بن مسلم) يهتم ببناء المساجد في المدن، والقرى، والأرياف، ويضع فيها العلماء والفقهاء لتربية الناس، وتعليم سكان المناطق العربية، فأظهر الإسلام بهذه الطريقة، وأزال آثار الكفر والجوسية، وقام القائد (محمد بن القاسم الثقفي) بفتح بلاد السند خلال مدة امتدت من ٨٩ إلى ٩٤ هـ، ومما ساعد على دخول هذه البلاد الإسلام المعاملة السمحة التي أتصف بها المسلمون، وأشرك البلاد المفتوحة في إدارة شئون بلادهم، فضلاً عن فساد الأديان في هذه البلاد، وانحلالها، وفساد رجالها^٣.

١ - المصدر نفسه، ص ١١-١٢

٢ - د.علي محمد الصلابي، الدولة الاموية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠.

٣ - المصدر السابق نفسه، ص ٤٢-٤٧، كذلك انظر ص ٥١-٥٩.

المبحث الخامس

العلاقات الدولية في عهد

الدولة العباسية

في العصر العباسي كانت هناك دولتين كبيرتين مسيحتين أدت دوراً مهماً، في العلاقات الدولية. فقد تمخضت إحداث القرنين الرابع والخامس الميلادي عن قيام روما الجديدة هي (القسطنطينية)، وقُسمت الإمبراطورية الرومانية بذلك إلى قسمين: -

١. الدولة الرومانية الغربية، وعاصمتها (ميلانو) أو (ميلان) كما أسماها (العرب)، ولم تلبث هذه الدولة أن وقعت في أيدي قبائل (الجرمان)، الذين غدوا سادة المنطقة حتى أسبانيا وبريطانيا، وذهبت عن روما هيتها القديمة، ولم تُعد سوى قصراً للبابوية، حتى قامت دولة (الفرنجية) في بلاد (ألغال) (فرنسا)، وسخر إمبراطورها (شارلمان) سنة ٨٠٠ م، سيفه في سبيل حماية كنيسة روما، وإعزاز شأن (البابوية)، فأعاد لروما مجدها الروحي القديم، ونافست بيزنطة على زعامتها للعالم المسيحي، بل أخذ يتطلع إلى غزو بلاد أوروبا الشرقية، واستعادة كنيسة روما عليها دون كنيسة (القسطنطينية)¹.

٢. الدولة الرومانية الشرقية، التي تأسست في بيزنطة لمواجهة الإخطار التي بدأت تتجمع على الحدود الشرقية للإمبراطورية، ونقلت من ثم مركز الإشعاع الروماني المسيحي إلى عاصمتها (القسطنطينية) التي أصبحت كنيستها منافساً خطراً لكنيسة روما، وظهر نفوذها على كنيسة الإسكندرية، وأنطاكية، وغيرهما من كنائس البحر الأبيض المتوسط، حتى كان عصر الإمبراطور (شارلمان) الذي أصبح أعظم، قوة في أوروبا الغربية، وأدى تحالفه مع البابوية إلى الحد من نفوذ إمبراطورية الروم الشرقية على العالم المسيحي².

وفي هذه الأوضاع لم يعد لإمبراطورية الروم الشرقية (أو دولة البيزنطيين)، إلا أن تلجأ إلى التفاهم والتحالف مع جيرانها، وتهدئة الخواطر بين أتباعها، حتى تؤمن جبهتها الداخلية، فضلاً عن أن دولتي (الروم، والفرنجية) لم تكونا وحدهما أكبر قوتين على مسرح الحياة الدولية في ذلك العصر بل ظهرت الدولة الإسلامية في جزيرة العرب، وغدا العرب من (أمويين، وعباسيين) في المشرق، ودولة (عبد الرحمن الداخل) الأموية

١ - د. عز الدين فودة، النظم الدبلوماسية، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٨.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٠٨ - ١٠٩.

في الأندلس منافسين أقوىاء لدولتي المسيحية هذه فضلاً عن ظهور غير العرب من الأمم البربرية المستقلة على حدود الرومان، مما أهل زوج المنافسة محل السلام الروماني القديم^١.

إذ كان البابا راعياً في قيام دولة قوية في الغرب يعتمد عليها في مقاومة (القسطنطينية) التي كانت خارجة عن كنيسة روما فقد سبق (شارلمان) العرش في دولة الفرنجة (بيبين)، وكان لوجود البيتين (العباسي، والفرنجي) في الحكم أثر خطير في تطور العلاقات الدولية في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي، فالعداء القديم المستحکم بين (الفرس، والبيزنطيين) على الحدود ورثته الدولة العباسية، وظهر نزاعاً شديداً بين الخلافة العباسية، والإمبراطورية البيزنطية. كما أن العلاقات السياسية بين الإمبراطورية البيزنطية، ودولة الفرنجة في الغرب لم تكن ودية، وكان (البابا) دوماً يسعى لمنع التقرب بينهما، فكلما حاول (بيبين)، والإمبراطور (قسطنطين) الخامس تسوية الاختلافات بينهما سنة ٧٦٥ م، أرسل (البابا بولس الأول) كتاباً إلى (بيبين) يسأله أن يشترط في مفاوضاته مع (قسطنطين) أن تعترف (القسطنطينية) بأفضلية الكنيسة البابوية. وقد أدى تدخل (البابا) إلى فشل المفاوضات، وبقاء العداء بين (بيزنطة، والفرنجة)^٢.

ففي البداية أتسمت العلاقات الدولية للدولة العباسية بالهدوء في مناطق التخوم. إذ انشغلت الدولة العباسية في بداية عهدها بتثبيت السلطة السياسية، وشهدت بعض المناطق التي تم فتحها في السابق بعض الاضطرابات في (خراسان، وأرمينيا، وشمال إفريقيا)، مما أضطر العباسيين في هذه الأوضاع الحرجة إلى إرسال جيوش كبيرة إلى هذه المناطق لغرض استتباب النظام والاستقرار فيها، وفي أواخر مرحلة تأسيس الدولة كانت الأوضاع على العموم تسير نحو استقرار نسبي بفضل الجهود الهائلة التي بذلها الخليفة (أبو جعفر المنصور)، وكانت العلاقات العباسية - البيزنطية قد تراوحت بين التصعيد والفتور، وإن النشاط العباسي تجاه البيزنطيين كان يميل دوماً إلى التصعيد حتى في مراحل الاضطراب الداخلي مما يعبر عن متانة الدولة، وقوتها، وقدرتها، على مواجهة خطرين في آن واحد - الخطر الداخلي، والخطر الخارجي وفي نفس الوقت فإن نشاط

١ - المصدر نفسه، ص ١٠٩.

٢ - د. مجيد خدوري، الصلات الدبلوماسية بين هارون الرشيد وشارلمان، مطبعة التقيض الأهلية، بغداد، ١٩٣٩، ص ١٢.

الدولة العباسية قد بلغ ذروته في هذه المرحلة، حيث انتقلت الإمبراطورية البيزنطية من هدوء نسبي في نشاطها العسكري في مناطق (التخوم) إلى التصعيد، وكان لوجود الإمبراطور (نقفور) في هذه المدة دوراً أساسياً في هذا التصعيد، إذ مثلت مرحلة الصراع الدامي بين الأمين والمأمون، وما ترتب عليه من نتائج، تزامن معه تصعيد جناد للفتن الداخلية، مما جعل الدولة العباسية مشلولة، وغير قادرة على القيام بنشاط عسكري جاد. عدا ما حدث في أواخر هذه المرحلة، إذ قاد المأمون بنفسه العمليات العسكرية في الأراضي البيزنطية. أما الإمبراطورية البيزنطية، فإنها لم تتمكن من استثمار الأوضاع المضطربة في الدولة العباسية بنطاق واسع، بل اكتفت بتقديم العون لحركة (بابيك الخرمي)، وعلى العموم، فإن الإمبراطورية البيزنطية لم تقم بنشاط عسكري جاد في مناطق (التخوم)، وسببه التآزم الحاد في علاقة الإمبراطورية مع مملكة (البلغار). أما بخصوص الحقبة الأخيرة من العصر العباسي الأول التي شهدت هدوءاً نسبياً في الأوضاع الداخلية قياساً إلى المراحل السابقة فقد أسفرت عن تصعيد عسكري في مناطق (التخوم)، إذ شهدت هذه المرحلة سقوط (عمورية) على يد (المتصم)، أعقبه حملات متتالية من قبل ولاة مناطق (التخوم)، لم يكن للسلطة المركزية دور كبير. أما الجانب البيزنطي فقد نشط في عملياته العسكرية في مناطق (الثغور) بعد تحسن علاقاته مع (البلغار) في هذه المرحلة.

وفي مرحلة الازدهار الاقتصادي الذي تلا الاستقرار في الدولة العباسية كان هناك عمليات عسكرية من جانب الدولة العباسية، ويعود سبب الاستقرار إلى السياسة التوفيقية التي سار عليها الخليفة (المهدي)، والتي جاءت في أعقاب سياسة والده (المنصور) المتشددة والصارمة، وجاءت مرحلة حكم (الرشيد) لتشهد الحد الأعلى في النشاط العسكري للدولة في مناطق (التخوم)، وكان للازدهار الاقتصادي الذي شهدته البلاد أثر في ذلك. إما في الجانب البيزنطي، فإن هذه المرحلة شهدت حكم (ليو الرابع) وقسطنطين السادس، ومعهم أمه أيريني وصية على العرش)، ثم انفرادها بالحكم، ثم حكم الإمبراطور (نقفور) وشهدت مرحلة حكم (ليو الرابع)، هي الأخرى أتباع سياسة

١ - موفق سالم نوري، العلاقات العباسية - البيزنطية ١٣٢-٢٤٧/٥ ٧٥٠-٨٦١ م، دراسة سياسية حضارية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠، ص ٣٥-٤٥.

توفيقية بالداخل، ونجم عن ذلك استقرار نسبي في الأوضاع الداخلية للإمبراطورية، وكذا الحال في العلاقات مع دولة (البلغار)، إذ أن ضربات (قسطنطين الخامس) القوية، جعلت (البلغار) يركنون إلى السكون مدة تزيدها قليلاً على عشر سنوات¹.

ولكن العلاقات الحربية بين العباسيين والبيزنطيين لم تخلو من رسائل ومفاوضات، ففي إغراب ففح (عمورية) أرسل الإمبراطور (ثيوفيل) إلى (المعتصم) سفارة استغرقت مفاوضاتها مع الوزير العباسي ستة أشهر، وكان السفير البيزنطي في الدولة العباسية يقدم هداياه لكل من يتصل به مظهراً للثراء، والبذخ، والسخاء، وهو ما فعله (يوحنا النحوي) في سفارته إلى (بغداد) حين أرسله (ثيوفيل) لإعلام الخلافة العباسية باعتلائه العرش، وكانت أهداف السفارات إنهاء حال الحرب، وعقد الصلح بين الدولتين، وفداء الأسرى، وهناك سفارات مهمتها الإبلاغ بنقض الصلح أو إنهاء اتفاق جرى بين الطرفين، وهو أمر أقدم عليه البيزنطيون أكثر من مرة، وكذلك من أهداف السفارات ترويح وتسهيل العلاقات التجارية بين الطرفين، وكانت هناك سفارات علمية وثقافية. كما كانت هناك سفارات أرسلها بعض الخلفاء تضمنت دعوة الإمبراطور البيزنطي إلى (الإسلام) أو أداء الجزية أرسلت بعد نقض الصلح البيزنطي الأول المعقود بين (الرشيد، وإيريني)، وكانت هناك السفارات التي حملت الجزية البيزنطية إلى بغداد، إذ فرضت أكثر من مرة على بيزنطة². أما بخصوص الجزية التي أدتها بيزنطة للعباسيين، فإنها لم تمثل كسباً للعباسيين، بل إن غايتها كانت أساساً سياسية خالصة، وإن كان هذا لا يعني من الناحية العملية خضوع الإمبراطورية البيزنطية لسيطرة، وإدارة، وأشراف، الدولة العباسية، بل بقيت مستقلة في شئونها الداخلية والخارجية، بل أكدت هذه الجزية حالة التفوق العباسي على بيزنطة، مذكرة العدو بضعفه على الدوام مما يحول دون عدوانه³.

وكذلك شهدت العلاقات العباسية - البيزنطية اتصالات ثقافية، فأراد بعض الخلفاء العباسيين في استخدام علماء القسطنطينية إلى بغداد، مثل (يوحنا النحوي)، كذلك سعى الإمبراطور البيزنطي (ثيوفيل) إلى تقليد ومحاكاة (هارون الرشيد) في سيرته، ومن الأمور التي عبرت عن اهتمام الخلفاء بالاتصال الثقافي بين الدولتين تلك السفارة

1 - المصدر نفسه، ص ١٨١-١٨٢.

2 - المصدر نفسه، ص ٣١١-٣١٦.

3 - المصدر نفسه ص ٣١٦.

التي أرسلها (الوائثق) إلى بيزنطة طالباً السماح للسفارة بالاطلاع على (أصحاب الرقيم)^١.

كما شهدت العلاقات بين الدولتين العباسية والبيزنطية على تبادل تجاري، والذي تم عبر عدد من السبل منها ما هو مباشر ومنها ما هو غير مباشر، ومن هذه السبل ما كان يجري عبر مناطق (التخوم) بين الدولتين، إذ وضعت كتب الفقه صيغ التعامل مع هؤلاء التجار القادمين من بيزنطة، ومنحهم الأمان لهذا الغرض، وفرض على التجار البيزنطيين العشر، وكان ذلك جواب على ما أتخذه البيزنطيين تجاه التجار المسلمين، إما أهم السلع التي جرى تبادلها بين الدولتين، فهي ما كان ينتقل من الدولة العباسية إلى الأراضي البيزنطية مثل، الحرير، الديداج، والأحجار الكريمة، واللؤلؤ، والعاج، والتوابل، والعطور، والطيب، والابانوس. أما السلع التي انتقلت بالعكس، فهي أنواع معينة من الأقمشة الرقيقة التي احتفظ بها البيزنطيين بأسرار صناعتها، والتي تعطي ألواناً عدة بانعكاس الضوء عليها، وكذلك أقمشة الكتان ثم المواشي التي استوردت من (أرمينيا) البيزنطية إلى شمال سوريا وكذلك المفروشات^٢.

يتضح مما تقدم أن الحرب لم تكن هي العلاقة الوحيدة بين العباسيين والبيزنطيين، بل نشأت بينهما في كثير من الأوقات علاقات مودة وسلام وفقاً لمصالحهما التجارية، ولتقتضيات التوازن الدولي، ويرجع ذلك إلى إن سياسة الفتوحات في عصر العباسيين لم تستمر كما كانت عليه الحال في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين، فلم تزد رقعة الدولة الإسلامية، بل بدأت الحركات الانفصالية تعترتها في أواخر هذا العهد، فكانت في حاجة إلى الحفاظ على سلامة أرجائها أكثر منها إلى الاستمرار في الفتح. لقد أهتم العباسيون أكثر من الأمويين بتوسيع دائرة علاقاتهم الخارجية السلمية، فسارت السفارات بينهم، وبين القسطنطينية، وروما، ومملكة البلغار، ودولة الفرنجة، والهند، والصين^٣.

لقد عمل البيزنطيون على أضعاف القبائل والشعوب المجاورة لهم بنشر الفرقة بينهم، وإيقاع الخصومات الداخلية، ولعل من الأمثلة الشهيرة، ما كان يرى بين البيزنطيين في علاقاتهم بالقبائل العربية في شمال شبه الجزيرة العربية، فقد كانوا يلجأون

١ - المصدر نفسه، ص ٣٤٠-٣٤١.

٢ - المصدر نفسه، ص ٣٦٠-٣٦٥.

٣ - حسن فتح الباب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠.

بين الحين والآخر إلى محاربة تلك القبائل، وتطبيق سياسة (روما) القديمة عليها، كما ظنت أنها قادرة على الوقوف بوجه الرومان، فإذا ما أحسن (الرومان) الحاجة إلى تلك القبائل في حروبهم الطويلة مع الفرس، وأوقفوا بينها، واستمالوا بعضها إليهم ليضطلع بعبء القتال ضد الفرس وحلفائهم من القبائل العربية الأخرى، من ذلك ما أظطلع به (الغساسنة) من عبء القتال لخدمة (الروم) ضد (الفرس) وحلفائهم من (اللخمين) بالحريرة، إذ كان زعيمهم (المنذر الثالث)، المعزوف (بابن ماء السماء) شوكة في جنب الروم ببلاد الشام.

أما من جهة دولة الفرنجة فقد سعت إلى إيجاد تقارب مع العباسيين، وذلك بسبب حالة العداء بينهما، وبين الدولة البيزنطية، وحالة العداء بين الدولة العباسية، والدولة البيزنطية، وهكذا كان هنالك مصالح مشتركة بين دولة الفرنجة، والدولة العباسية، فقد قام الإمبراطور (بيبين) بإرسال وفد إلى بلاط الخليفة (المنصور) سنة ٧٦٥ م، وكانت الغاية من ذلك هو سماع (بيبين)، محاولة الخليفة (المنصور)، مد سلطانه إلى أسبانيا، ولما خاب (المنصور) في مساعيه حاول أن يتقرب منه، لأن (بيبين) كان هو الآخر يسعى إلى مد سلطانه إلى أسبانيا، واشترك الطرفان في هدف واحد هو الذي دفعه إلى إيفاد وقده إلى بغداد، إذ سعى (بيبين) إلى إقامة سلسلة من التحالفات السياسية مع الخليفة (المنصور)، ومع (البابوية). أما (البابا) فقد أطلق يد (بيبين) في مقاومة البيزنطيين مما شجع الخليفة (المنصور) ببيبين على فتح أسبانيا.

ولما تولى شارلمان السلطة في البلاط الفرنجي، أخذ يعمل على توثيق صلاته بالخليفة العباسي، فصلة (شارلمان) بالبابوية، وبأسبانيا، وتوتر العلاقات بينه وبين القسطنطينية، دفعته إلى ذلك، أما صلات (شارلمان) بالبابوية، فقد قادت إلى تجديد توتر العلاقات بينه وبين القسطنطينية، وذلك إن (البابا) كان يرمي حينئذ إلى توثيق صلاته ببطاركة القدس، وأنطاكية، والإسكندرية، وكان عداء (البابا) للإمبراطورية البيزنطية قد أهاب (البابا) إلى مناصرة الإفرنج، ودعم سيادتهم في الغرب، وهذا ما دفع (البابا) إلى تويج (شارلمان) في روما سنة ٨٠٠ م، إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة إحياءً للدولة الرومانية في الغرب، حيث رأى من البيت الإفرنجي طموحاً كافياً إلى أعزاده مجد

١ - د. عز الدين فودة، مصدر سبق ذكره، ص ١١٠.

٢ - د. مجيد خدوري، العلاقات الدبلوماسية بين هارون الرشيد وشارلمان، مصدر سبق ذكره، ص

الإمبراطورية الرومانية، ومقاومة الإمبراطورية البيزنطية، إلا أن هذا العمل أثار سخط البيزنطيين في الشرق، لأنهم كانوا يعدونه أنفسهم أحق في وراثة مجد الإمبراطورية الرومانية من ملوك الفرنجة، وهكذا بعث النزاع السياسي مرة أخرى بين الفرنجة والبيزنطيين في عهد الإمبراطور (شارلمان).

وفي أواخر القرن الثامن الميلادي كان ثمة عوامل أدت بالذات إلى قيام المراسلات الدبلوماسية بين (شارلمان وهارون الرشيد)، ففي سنة ٧٩٧ م، كان والي برشلونة قد أتفق مع (شارلمان) على تسليمه المدينة، وقد تكون هذه الحادثة قد ذكرت (شارلمان) بحية مساعيه سنة ٧٧٨ م، في الاستحواذ على (الأندلس)، فرأى ضرورة السير على طريق سلمة للنفوذ إلى أسبانيا، وذلك بنيل رضي خليفة بغداد، وكان العداء كما ذكرنا مستحكماً بين بيزنطة (وشارلمان)، وكان البيزنطيون ينصبون المكائد لـ (شارلمان) في جنوبي أسبانيا، وربما كانت هذه الحادثة أنشأت لدى (شارلمان) فكرة التعاون مع (هارون الرشيد) على مقاومة البيزنطيين، وكان الخليفة (الرشيد) في نزاع مع (أيريني) إمبراطورة البيزنطيين، حيث قهرهما (هارون الرشيد)، وأرغمهما على دفع الجزية، فضلاً عن ذلك إن بعض حوادث إسبانيا ربما كانت قد أثارت خواطر الخليفة في بغداد، وبدأت المراسلات الدبلوماسية بين أخص عاصمة (شارلمان)، وبين بغداد عاصمة (الرشيد)، ففي سنة ٧٩٧ م، أوفد (شارلمان) وفداً مؤلفاً من ثلاثة رجال إلى بغداد، ومكث الوفد في الشرق ثلاث سنوات، كما أرسل الرشيد سفارة إلى شارلمان، وهدايا سنة ٨٠١ م، ورأى البعض إن الغرض من الرحلة هو الاتفاق مع (شارلمان) على غزو أسبانيا، والقضاء على السلطة الأموية في الأندلس ثم مقاسمة ما تحوي البلاد من ثروات، وإن (الرشيد) عين (شارلمان) أمير فتح على أسبانيا لإنجاز هذه المهمة، وكان للمقاومات بين (شارلمان، والرشيد) غرض آخر، وهو الاتفاق على البيزنطيين، وتسهيل طريق الحج للإفرنج إلى الأراضي المقدسة، وأرسل (شارلمان) سفارة ثانية سنة ٨٠٢ م، بقصد الحصول على مفاتيح (بيت المقدس) للإمبراطور رغبة منه في أظهر حمايته للأماكن المقدسة دون البيزنطيين، فانتهم (الرشيد) هذه المناسبة ليعد سفارة إسلامية ثانية إلى (شارلمان) سنة ٨٠٧ م، تسعى إلى إتمام التحالف مع الفرنجة، وتحقيق سياسة العباسيين إزاء الأمويين.^٣

١ - مجيد خدوري، المصدر السابق نفسه، ص ٢١ .

٢ - المصدر نفسه، ص ٣١ .

٣ - د. عز الدين فودة، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٥ .

المبحث السادس

العلاقات الدولية في عهد الدولة

الإسلامية في الأندلس

عملت الدولة الإسلامية بالأندلس منذ قيامها على التعامل مع السكان الأصليين الأسبان على أساس (الشريعة الإسلامية)، التي أعطت أهل الكتاب عامة ضمانات واسعة لاحترام دينهم، ومعتقداتهم، ومقدساتهم، وأموالهم، وأشخاصهم، وعلى هذا الأساس أبقى حكام الولايات لنصارى الأندلس، وكذلك ليهودها وهم عامة السكان في شبه الجزيرة الابرية حرية تامة في دينهم، وأحوالهم الشخصية، وعلاقتهم بكهنتهم وبكنيستهم ما داموا يدينون بالطاعة والولاء للدولة، ويدفعون ما تفرضه عليهم القوانين من ضرائب، واحترام المسلمين لعقائد النصارى، عموماً جعلهم ينجحون وبسرعة كبيرة في القضاء على ما كان قائماً قبلهم من خلافات بين الفرق النصرانية، وكذلك أفاد يهود الأندلس من أهل الذمة من سياسة الحكام المسلمين المتسامحة في مجال الدين والعقيدة، فتخلصوا مما تعرضوا له في أواخر القرن السابع للميلاد من عنف، وظلم، وتشريد على يد (القوط) الغربيين، وربما لهذا السبب، وإلى اليهود الحكام المسلمين، واخلصوا في خدمتهم، والتعاون معهم، فأعاد عليهم هؤلاء بالمنافع والامتيازات، وعهد إليهم بمناصب رفيعة، ومهمات إدارية، ومالية، ودبلوماسية، لقد أقبل الأسبان ومنذ سنوات الفتح الأولى، ودون أن تحكمهم عقدة الخوف والتهويل على تقبل عقيدة الإسلام، والتحول إليه، بعضهم عن إيمان وقناعة، وربما بالنسبة للآخرين عن رغبة في التقرب من السادة الحاكمين، وأيضاً اسلم كثيرون بسبب التزاوج والاحتكاك بمن صاروا يزلون بين الأسبان من المسلمين العرب والبربر¹.

وعلى صعيد (الإدارة) أبقى الولاة في البداية في الأقل، على ما لقوه في الأندلس من مؤسسات مالية، ومن نظم قضائية ومن تشريعات عامة إلا ما كان يتعارض منها مع مصالحهم أو مع قواعد الإسلام، وشجعهم على ذلك كون أكثر هذه القوانين

1 - د. عبد المجيد نعني، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس: التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦، ص ٩٢-٩٣.

والمؤسسات كانت على درجة كبيرة من التقدم باعتبارها من مخلفات الحضارة الرومانية وكذلك أبقوا على النظم الإدارية المعمول بها من (القوط)، كما تركوا الوظائف العليا بيد الأسبان لكونهم أدرى، وأكثر خبرة بشئون بلادهم^١.

وفي عهد الأمويين بالأندلس كانت هناك أربع قوى سياسية كبرى: الدولة العباسية في المشرق، ودولة الروم في القسطنطينية (بيزنطة)، والدولة الأموية في الأندلس، ودولة الفرنجة في بلاد أغال) فرنسا، وقد قامت في زمن معاصر لقيام دولة الأمويين بالأندلس، وحاول الإمبراطور (شارلمان) كما ذكرنا سنة ٨٠٠ م، أن يعيد مجد روما القديم، وينافس الدولة الرومانية الشرقية التي تأسست في بيزنطة، وترعمت العالم المسيحي، وأصبحت دولة الفرنجة في عصر هذا الإمبراطور أعظم قوة في أوروبا الغربية، واستطاعت بتحالفها مع البابوية في روما أن تحد من نفوذ الدولة البيزنطية، وتطلعت إلى مد سلطانها إلى شرق أوروبا، وبسط حمايتها على المسيحيين هناك، وفي ظل هذه الأوضاع أدت سياسة توازن القوى دورها في العلاقات الدولية بين هذه الدول الأربع المتنافسة، إذ كان ثمة تنافس بين العباسيين والروم والشرقيين (البيزنطيين)، ثم كان هنالك تنافس آخر بين الدولة العباسية في المشرق، والدولة الأموية في الأندلس، من جانب، وبين البيزنطيين من جانب آخر^٢.

وقد توقفت الفتوحات الإسلامية في الأندلس عند جبال (البرنيه) أو (البرانس) في شمال أسبانيا، وعلى الرغم من محاولات المسلمين الاندفاع في فتوحاتهم شمال هذه الجبال إلى بلاد (أغال)، إلا أنها لم يكتب لها النجاح، وتشهد على ذلك معركة (بلاط الشهداء)، علماً إن بلاد (أغال) لم تكن موحدة تحت راية دولة واحدة، فضلاً إن دولة الفرنجة كانت هناك دويلات صغيرة يحكمها أمراء مستقلون بأمورهم متصارعون في أكثر الحالات مع بعضهم البعض في المنطقة الممتدة بين نهر الوار، وجبال البرنيه، والبحر المتوسط^٣.

ولما تولى (عبد الرحمن الداخل) الإمارة في الأندلس أعطى أهمية لتحقيق الأمن والاستقرار في الداخل، والقضاء على خصومه ومعارضيه لتحقيق وحدة الأندلسيين حول الإمارة، وما حاول القيام بالفتوحات والغزوات في اسبانيا أو في بلاد أغال، بل

١ - المصدر نفسه، ص ٩٥.

٢ - حسن فتح الباب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢.

٣ - د. عبد المجيد نعي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩.

ربما كان موقفه تجاه هؤلاء يتسم في أكثر الحالات بالصفة الدفاعية أو السلبية، وقد أغار أسبان الشمال أكثر من مرة في أوائل عصر الإمارة على حدودها الشمالية، وتوسعوا في عمق الأراضي التي خلت من المسلمين بعد ثورات البربر، والواقع إن هذه الغارات لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما أستطاع الأمير الأموي التوصل إلى اتفاق سلمي معهم أشاع الهدوء على طول حدود الأندلس مع أراضي اسبانيا المسيحية في الشمال طيلة السنوات العشرين الأخيرة من حكمه.

أما توسع (الإسلام) في بلاد (الغال)، فإنه كان توقف فعلاً بعد خسارة معركة (بلاط الشهداء)، وبصورة خاصة منذ منتصف القرن الثامن للميلاد، وكان الفرنج قد أقصوا المسلمين من أراضيهم، وبدأوا مرحلة استرداد أراضيهم التي أخذها منهم المسلمين، وذلك باستعادة (ناربونة) سنة ٧٧٦ م، وحصص وجود (الإسلام) في الأراضي الساحلية من مقاطعة (سبانيا)، هذه التطورات السلبية لم يستطع (عبد الرحمن الداخل) إن يهتم بها إلا بصورة هامشية، إذ أن أوضاع بلاده الداخلية ما تركته يفعل أكثر مما فعل^١

إن سياسة (عبد الرحمن الداخل) المتسمة بالسلبية حيال (الفرنج) شجعت (شارلمان) بعد كل ما حققه في أول حكمه من انتصارات في أوروبا، خاصة ضد القبائل (السكسون، والآفار) في بلاد (الجرمان) للقيام بحملات وراء جبال (البيرنيسه) تعيد (للنصرانية) أراضي (القوط) في شبه الجزيرة الأيبيرية أو ربما تمد حدود الفرنج من جهة الجنوب حتى (جبل طارق)، وفي وقت من الأوقات تلاقت هذه السياسة والرغبة مع تحركات بعض عمال الأندلس مما دفع (شارلمان) نحو مغامرة كبيرة ضد المسلمين^٢.

إذ كان من المناوئين للأمير الأموي، ومن خصومه (عبد الرحمن بن حبيب الفهري)، وكان والياً على إفريقيا، ويرفع ولو شكلياً لواء الدولة العباسية، وأيضاً من الكارهين لهذا الحكم، وأتفق مع (سليمان بن يقضان) الإعرابي الثائر في أحواز (سرغوسة)، والتمرد على الأمير الأموي، لأنه كان يرى أنها تقوم على الحكم المركزي على حساب مراكز المقاطعات في الأندلس، على الاتصال بـ (شارلمان)، ووعداه بتقديم العون والمساعدة، إذا قدم إلى أسبانيا. علماً انه كانت هناك علاقة وثيقة تربط (شارلمان) بالخليفة العباسي (الرشيد) كما ذكرنا، وفي ربيع سنة ٧٧٨ م / (١٦١) °، كان

١ - المصدر السابق نفسه، ص ١٥٩.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٥٩.

(شارلمان) قد انتهى من إنجاز واحدًا من أكبر انتصاراته العديدة على قبائل (السكسون) المعروفين بشدقهم وميلهم للمشاكسة، وفرض على كثيرين منهم قبول النصرانية ديناً لهم، فخرج على رأس جيوشه الكبيرة إلى مقاطعة (أكيتين)، وحاصر (سرغوسة)، ولكنه لم يلق ما وعدة حلفاءه من عون ومساعدة، وحاصر (شارلمان) المدينة، ولما جاءت أنباء على قيام العصيان والتمرد عن شعب السكسون، وطرد من أراضيه الرهبان، والقسم، وعاد عن النصرانية مما أدى إلى تراجع (شارلمان) عن غزوته، وفي طريق عودته مُنسي (شارلمان) بهزيمة قد أذهبت ثانياً ما كان ربما قد مر في خاطره من رغبة وتصميم على القضاء على الدولة الأموية في الأندلس، هذا مع العلم انه مهما كانت أوضاع ونصوص اتفاق (شارلمان) مع العصاة الأندلسيين قبل حصار (سرغوسة)، فإن الإحداث أثبتت إن هذا التحرك كان على الأرجح وليد رغبات آنية وليس في إطار خطة ثابتة لاحتلال أسبانيا، وذلك انه بعد هذه الهزيمة سلم (شارلمان) بالدولة الإسلامية المجاورة على أنها واقع سياسي لا يمكن تغييره أو تجاوزه، وعلى هذا عقد جبال (البيرنية) حدوداً ثابتة بين بلاده، وبلاد الأندلس، ولضمان حدوده مع المسلمين أقام في أراضيه أكتافياً دولة أعطى عرشها لابنه لويس مع السهر على الحدود مع المسلمين، وتشكل قاعدة دفاعية أمامية للفرنجية، والى جانب ذلك ما تردد في إن يتصل بالأمير الأموي، ويتبادل معه الرسل والبعثات وربما الهدايا، ويقوم مع دولته شكلاً من أشكال الهدنة استمرت حتى أواخر القرن الثامن الميلادي¹.

أما العلاقات بين الدولة الأموية في الأندلس، والدولة العباسية فقد امتازت بالتدهور والعداء، فلما فرغ (أبو جعفر المنصور) ثاني خلفاء العباسيين من دور بناء وتأسيس الدولة رأى أن كل الأقاليم قد خضعت له، وقدمت له الطاعة عدا (الأندلس)، فأولاه اهتمامه، وكان (المنصور) يرى إن (عبد الرحمن الداخل) خارج عن الطاعة، ويجب مجاربته، وانتزاع الأندلس من سيطرته، وإعادة لها لسلطة الخلافة، ورأى (عبد الرحمن الداخل) مقدار الخطر الجسيم الذي يهدده بوجود من يعمل لحساب العباسيين ضد الأمويين في الأندلس، إذ الثابت في اعتقاد الناس انه يجب أن تكون السلطة والحكم في المسلمين لمن يحمي الحرمين، ولا تجوز لثائر أو مغتصب للسلطة، وكان (المنصور) شديد النقمة على (الداخل)، ولا يتوانى عن استخدام أية وسيلة في سبيل القضاء عليه،

¹ د. عبد المجيد نغمي، المصدر السابق نفسه، ص ١٦٤.

ويتلمس في الأشخاص من ينهض بمقاومته، وقد أتاحت له الفرصة في قيام احد أعوانه بالثورة على (الداخل)، ولكن محاولته لم تنجح .

إن فشل العباسيين في استعادة الأندلس لم يعنِ أنهم قطعوا الأمل نهائياً في استعادة هذا الإقليم بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، ففي زمن الخليفة (المهدي بن المنصور) الذي كان لا يقل عن أبيه كرهاً (لعبد الرحمن الداخل)، ورغبته في استرداد الأندلس، ولكنه لم يقدم في يوم من الأيام على تجهيز الجيوش لبعده المسافة، ولذلك أعتمد على المحاولات الشخصية، والثورات الداخلية مغذياً إياها، ومعطياً لها تأييده الروحي، ولا سيما حركة الفهري، وسليمان الإعرابي التي لم تنجح .

أن بعد المسافة بين الدولة العباسية والأندلس، وشدة (الداخل)، والحالة التي كانت سائدة في أفريقيا حلت دون تنفيذ رغبة العباسيين باستعادة الأندلس¹ .
وازدادت الأمور تعقيداً في زمن (الرشيد)، فقد ظهرت ظاهرة خطيرة هي محاولة الولايات الاستقلال عن مركز الخلافة ونفوذها، مثل ظهور أمارة (الأغالبة) شبه المستقلة لحماية ما تبقى من المغرب، ولتكون حاجزاً قبالة الإدارة والمذاهب الأخرى إلى مصر، ولتكون حاجزاً بينه وبين الأمويين في الأندلس² .

وفي عهد الخلافة العباسية كانت زعامة العالم المسيحي - كما ذكرنا - يتقاسمها إمبراطوران، هما: إمبراطور الفرنجة، وإمبراطور بيزنطة، ومن أجزائها آسيا الصغرى، وعاصمتها (القسطنطينية)، ولم تكن علاقات هذين الإمبراطورين على وئام لتنافسهما على زعامة العالم المسيحي، ولذلك كانت أخبار الحروب بين العباسيين والبيزنطيين تلاقي ترحيباً لدى أباطرة الفرنجة الغربيين، لأنها على اعتقادهم تشغل منافسيهم حكام القسطنطينية عن توسيع حدودهم في أوروبا الشرقية، ومنافستهم على زعامة العالم المسيحي، ومما لاشك فيه إن الحروب بين الأندلس والفرنجة، والصراع العنيف بينهما، سواء عن طريق التحالف أو الاتفاق بين بيزنطة وحكامها الذين سرهم أن تتحول الدولة الإسلامية في الأندلس ضد أعدائهم، وتسهم في أشغالهم وإضعافهم .

أن التفاهم الودي بين العاهلين الفرنجي والعباسي طبقاً للرؤية الغربية كان يعود إلى عدة عوامل، منها رغبة (شارلمان) في فتح الأندلس، وحاجته إلى كسب تأييد الخليفة

¹ - عبد الجليل عبد الرضا الراشد، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس في القرنين الثاني والثالث الهجري، مطبوعات مكتبة النهضة، الرياض، ١٩٦٩، ص ١١٢-١٢١.

² - المصدر نفسه، ص ١٢١.

العباسي المعنوي في هذه القضية، وكذلك مسألة الخلاف بين الفرنجة والبيزنطيين حول وراثة التاج الروماني، ومن العوامل المقربة بينهما هي قضية التجارة في البحر المتوسط الذي كان يسيطر عليها العباسيون وإتباعهم (الاغالبة) في شمال أفريقيا، والدولة الأموية في الأندلس على أكثر شواطئه^١.

وفي عهد الأمير (عبد الرحمن الناصر) في مطلع القرن الثالث الهجري حاول إقامة توازنات في منطقة المغرب الأقصى عن طريق أحياء تحالف مع قبائل المغرب الأوسط، وذلك لموازنة ومواجهة تحالف الفاطميين مع قبائل (كتامة)، وقبائل (مكناسة) القوية في الوقت الذي شعر فيه الفاطميين بصعوبة التوسع شرقاً تجاه مصر، ومع نجاح الفاطميين في إزاحة (الأدارسة) مع أنهم كانوا متعاطفين معهم بعض الشيء، وإقامة حاكم في (فاس) أكثر ارتباطاً بـ (المهدية)، وأشد ولاءً لها تجاوز هؤلاء نهر (الملوية) وهو الأمر الذي عدّه (الناصر) غير مقبول، وغير مسموح به لدولة الأندلس، وهذا ما اقتضى منه القيام بمبادرات اكبر مما فعل حتى ذلك الوقت في المغرب الأقصى، وبالفعل كان هذا ضرورياً ليُجعل نفوذه في هذه المناطق أقوى وأفضل، وليجعل حلفاءه هناك أشد صلة به، وأكثر ثقة بسياسته، وبجماية لهم، إذ أقدم (الناصر) في سنة ٩٢٧ م / (٣١٤ هـ)، على احتلال مرفأ (مليلة) المهم، وأقام عليه من قبله حاكماً بربرياً من قبائل (مكناسة)، وكان معروفاً بصلته بالأمويين، وولائه لأمرائهم، وجعل قطعاً من أسطوله البحري ترابط قبالة شواطئه رافعة علم الأمويين لأول مرة على شواطئ المغرب العربي، ثم عاد سنة ٩٣٣ م / (٣١٩ هـ)، فأرسل أسطولاً كبيراً رابط قبالة سواحل مدينة (سبتة) المغربية^٢.

إن وجود الأمويين في (سبتة) يؤمن لهم سيطرة مباشرة على ضفتي (جبل طارق)، وجعل هذا الممر المائي المهم تحت السيطرة التامة للأندلسيين، ثم فوق هذا وذلك، فإن وجود عمال الناصر، وموظفيه، وجنوده في (سبتة)، وجوارها يجعله أقدر على الاتصال بالقبائل البربرية، من مؤيدة له، ومن ساع للحصول على تأييدها

١ - عبد الجليل عبد الرضا الراشد، المصدر السابق نفسه، ص ١٣٣-١٣٥.

٢ - د. عبد المجيد نغمي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦٧.

ومعارضته، كما يسمح له بمراقبة كل ما يجري في تلك الأرض بما فيها تحركات الفاطميين الكثيرة، وليكمل سيطرته على شواطئ المطلة على منطقة (جبل طارق) أقدم على احتلال مدينة (طنجة)، وأحسن تحصينها، وأقام فيها قوة عسكرية^١.

وبذلك يكون (الناصر) قد أقام قواعد مهمة في مناطق عدة في المغرب الأقصى، وأقام صلات وثيقة مع عدد من القبائل البربرية المهمة، على الرغم من جهوده العسكرية في منطقة سواحل المغرب العربي، وإقامة أسطول أندلسي لم يستطع أن يقضي أو يحد من تسلط الأسطول الفاطمي الذي صار في منتصف القرن العاشر للميلاد سيد القسم الغربي في البحر الأبيض المتوسط^٢.

ولما نافست دولة الأندلس سلطان الخلفاء العباسيين في بغداد، اتجهت الخلافة العباسية إلى دولة الفرنجة القائمة على حدود دولة الأندلس تنشُد مخالفتها ضد الأمويين، وأستعانت في سبيل دعم أواصر المودة والصداقة بينهما بالتبادل الدبلوماسي، فسيرت السفارات فيما بين بغداد، وعاصمة الفرنجة، ولم تحقق الدولة البيزنطية مآربها في مخالفة العباسيين ضد الفرنجة، إذ كان هؤلاء - كما أسلفنا - يسعون إلى التحالف مع دولة الفرنجة ضد الأمويين في الأندلس، ولما لم ينجح (شارلمان) في مهاجمة دولة الأندلس، فكان من الطبيعي أن يقيم البيزنطيين علاقات دبلوماسية مع دولة الأندلس، وبلغت تلك العلاقات أوجها، في عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع، والخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر، وسارت السفارات بين القسطنطينية وقرطبة، وكان للسفراء المسلمين في القسطنطينية مكان الصدارة بين الممثلين الدبلوماسيين ولسفراء العباسيين الأسبقية في الترتيب على سفراء الأمويين^٣.

١ - المصدر نفسه، ص ٣٦٨.

٢ - المصدر نفسه، ص ٣٦٩.

٣ - حسن فتح الباب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣-٣٤.

الفصل الثاني:

تطور العلاقات الدولية منذ نشوء الدولة القومية.

• المبحث الأول:

حرب الثلاثين عاماً.

• المبحث الثاني:

معاهدة ويستفاليا ١٦٤٨.

• المبحث الثالث:

صلح أوترخت ١٧١٣.

• المبحث الرابع:

الحروب والمنافسات الأوروبية.

الفصل الثاني

تطور العلاقات الدولية منذ نشوء الدولة القومية

المبحث الأول

حرب الثلاثين عاماً

ترجع حرب الثلاثين عاماً إلى حركة الإصلاح الديني في أوروبا، وما شجع على هذه الحركة هي مساوى الكنيسة الكاثوليكية، وممارسات رجالها، حيث سيطرت الكنيسة الكاثوليكية على عقول الناس لمدة طويلة من الزمن، ومارست سياسة القمع تجاه أية فكرة لا تتسجم وطروحاتها، فحاربت الكنيسة آراء المفكرين الأحرار الذين وصمتهم بالإلحاد، وقضت على العديد منهم عن طريق محاكم التفتيش، وفي الوقت نفسه كان العديد من رجال الكنيسة يحيون حياة بعيدة عن المسيحية، وتحولوا إلى إقطاعيين يمتلكون مساحات شاسعة من الأراضي، ويبيعون المناصب الدينية، ويتاجرون بصكوك الغفران، وتحولت الكنيسة الكاثوليكية في بداية القرن السادس عشر إلى قوى سياسية عالمية مع تنظيم واسع معقد، فقد كان البابا يُعدّ زعيم العالم المسيحي الروحي، وكانت الكنيسة تمتلك مؤسساتها الإدارية، والمادية، والقضائية، والعسكرية الخاصة بها، ولم تعد الموارد التي تدخل إلى روما تكفي لإشباع الحاجات البابوية المتزايدة، ولذلك بدأت البابوية تبحث عن أساليب جديدة تؤمن لها موارد مالية إضافية، فأخذت تدخل الحروب، وتفرض ضرائب جديدة، وتبيع المناصب الدينية، وصكوك الغفران، لقد عاش كبار رجال الدين حياة الترف، والأبهة، واستخدمت الكنيسة محاكم التفتيش للتخلص من معارضيها، وقد أتبع هذه المحاكم أساليب بشعة على هذا الطريق. ومن الجدير بالذكر أن البابوية فقدت هيبتها وقديستها في نظر الكثيرين في أثناء انقسامها على نفسها، ولذلك كله وجهت الانتقادات إلى الكنيسة، وازداد عدد المطالبين بضرورة إصلاحها، وتنقيتها من كل الشوائب والمظاهر السلبية التي علقت بها¹.

وكانت الكنيسة الكاثوليكية تمارس سلطة سياسية واسعة خلال العصور الوسطى، فضلاً عن سلطتها الدينية. كما أن موظفي الكنيسة من البابا إلى الأساقفة والقسس كانوا يديرون منظمة دينية متقنة انتشرت فروعها في جميع أنحاء أوروبا الوسطى والغربية، مستقلة عن الدولة، وادعت أنها أرفع شأناً منها، وكانت الكنيسة تملك مساحات واسعة من الأراضي تستغل مواردها، وغير خاضعة لضرائب الدولة، وقد فرضت الكنيسة ضرائبها الخاصة على أعضائها، وحاكمت رجال الدين، وأحياناً المدنيين

¹ - د. خليل علي مراد، ود. جاسم محمد حسن، ود. عبد الجبار قادر غفور، دراسات في التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، جامعة الموصل، كلية التربية، ١٩٨٨، ص ٤٦.

في محاكمها الخاصة دون تدخل المحاكم المدنية، كما كانت الكنيسة الكاثوليكية تملك أراضي واسعة في أوروبا، والتي كانت خارجة عن نطاق ضرائب الدولة، وكان لرجال الدين دخل سنوي من الأراضي العائدة للكنيسة^١.

وقد نظرت الطبقة الوسطى بمزيد من اللمهة إلى ثروة الكنيسة، والموارد الضخمة التي يتمتع بها رجال الدين الكبار، والمساحات الواسعة من الأراضي التي تملكها الكنيسة، ولم يكن الملوك والأمراء أقل حماساً من رجال الطبقة الوسطى في وضع حد لسلطة الكنيسة السياسية والاقتصادية لأجل تثبيت الحكم الملكي المطلق، وتدخل الدولة في شئون الكنيسة، ومصادرة ثروتها الهائلة^٢.

ومن أهم العوامل وأشدها خطراً على الكنيسة الكاثوليكية هو انتقادات المفكرين، والإنسانيين، وشكاوي الفلاحين، والحرفيين التي كانت تهدد بالثورة ضدها، وبحلول القرن السادس عشر بلغ الصراع السياسي ذروته، فكان الملوك الذين قضوا على الإقطاع، وأسسوا حكومات قومية، وشجعوا على انتشار الوعي القومي، وحب الوطن، وابتغوا ازدياد سلطتهم المطلقة، واثروا القومية لم يتوانوا في إخضاع الكنيسة، ومصادرة أموالها وأراضيها، وتوزيعها على أتباعهم، وإضافة سلطة الكنيسة إلى سلطاتهم^٣.

وبدأ الصراع الديني في القرن السادس عشر بعد ظهور حركة الإصلاح الديني بين الكاثوليكية والبروتستانتية، ولما انقسمت البروتستانتية إلى مذاهب زادت حدة الصراع بينها وبين الكاثوليكية، وما أن انتهى القرن السادس عشر حتى كان كل مذهب قد أستقر فيما أنتشر فيه من ساحة أوروبا، وبدأ القرن السابع عشر، وفي طياته نظرة كان من شأنها إنهاء هذا الصراع، وإنهاء عدّ الدين عاملاً ذا أهمية في تشكيل أو توجيه سياسة الدول الخارجية بفضل عودة الاستقرار والتوازن إلى داخل الدولة ذاتها عندما اختفت الانقسامات الدينية الداخلية، حتى أصبح في استطاعتها العمل على تحقيق أغراضها من غير أن يثيها على دعوة العقيدة والمذاهب. لقد أنقلب هذا الصراع من حرب دينية إلى حرب سياسية لخدمة المصالح القومية، ومن ثم قضى نهائياً على هذا اللون من الصراع، ولقد أخذت أصول الصراع الديني تنمو وتستشري بعد عقد صلح أوكسبرغ سنة ١٥٥٥، والذي حاول التوفيق بين مطالب الكاثوليك والبروتستانت

١ - د. محمد محمد صالح، تاريخ أوروبا في عصر النهضة، وحتى الثورة الفرنسية ١٥٠٠-١٧٨٩، كلية الآداب، جامعة بغداد، دار الجاحظ للطباعة والنشر، ١٩٨٢، ص ١٧٦-١٧٨.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٧٨.

٣ - المصدر نفسه، ص ٧٩.

على السواء، ولكن صلح أوكسبرغ لم يكن من القدرة على حسم النزاع الديني بين المذاهب الجديدة من ناحية، وبين الكاثوليكية من ناحية أخرى، وكان من أهم أسباب إخفاق صلح أوكسبرغ ما جاء فيه بشأن المحافظة على أملاك الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا، ومنع السلطة الزمنية والعلمانية من الاستيلاء عليها، وحرمان الكنيسة منها، ذلك أن أملاك الكنيسة الكاثوليكية سرعان ما أصبحت بعد هذا الصلح موضع أطماع البروتستانتية المنتصرة، وكان هذا الاعتداء من جانب البروتستانتية على أملاك الكنيسة الكاثوليكية من أسباب التدمير، وغضب أتباع البابوية المستمر في ألمانيا، فضلاً عن ذلك لم يتح صلح أوكسبرغ الفرصة للكالفانية التي انتشرت في أوروبا، وفي ألمانيا، فلم يعترف بهذه العقيدة الجديدة، أو بمبدأ (التسامح الديني) عموماً، وعلى ذلك استمرت الكالفانية في ألمانيا فتفتقر إلى سند قوي تستند إليه، ومن ثم أصبحت معرضة للأخطار التي هددتها في وجودها نفسها¹.

لقد منح صلح أوكسبرغ كل ملك الحق في أن يختار الدين الذي يريده لرعيته، وكان رئيس الدير أو رئيس الأساقفة أو الأسقف في عدد من الدول يسن لنفسه القوانين للحكومة، لقد انتشرت الكالفانية في ألمانيا، ولم يكن لمعتنيها حقوق على وفق صلح أوكسبرغ، وقد أصبح عدد من الدول يعتنق الكالفانية، وكانت إحدى هذه الدول دولة (البلاتين) التي تُعد مهمة لوقوعها في وسط وادي نهر الراين، ولأن حاكمها كان منتخب، وهو أحد الأشخاص السبعة الذين انتخبوا الامبواطور الروماني المقدس، ففي سنة ١٦٠٨، أرادت الدول البروتستانتية بإلحاح من منتخب البلاتينات تشكيل إتحاد بروتستانتى للدفاع عما حصل من مكاسب، ولكي تنال التأييد، فإنها فاوضت الهولنديين، والانكليز، وهنري الرابع ملك فرنسا، وتشكلت سنة ١٦١٩، عصبة الدول الألمانية الكاثوليكية بتدبير من (بافاريا)، وانتظرت المساعدة من أسبانيا، وهكذا فإن الألمان انشقوا على أنفسهم، أو بالأحرى انقسموا إلى حزبين تطاحنا في حرب دينية، واستعان كل منها بمساعدة أجنبية على الآخر. وقد تولدت نتائج أخرى، منها أن الهدنة التي وقعت لمدة اثني عشرة سنة بين الأسبان والهولنديين سنة ١٦٠٩، قد حان انتهاءها في سنة ١٦٢١، وأستعد الأسبان (الذين لم تتأثر قوتهم العسكرية بالانهيار الداخلي) لسحق الجمهورية الهولندية أو في أقل تقدير الاستيلاء على مصب نهر (شيلت) بغية إخراج التجار الهولنديين من جزر (الهند الشرقية)، وبالنظر إلى أن الهولنديين كانوا مصممين على الاستقلال، وعازمين على البقاء في جزر (الهند الشرقية) على أية حال،

١ - د. عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوربي والأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٩، ص ٢٤٠-٢٤١.

وعدم إزالة تحصينا قم من ميناء(أنتورب)، فقد بدأ الأسباب دعم مركز أسرة (هابسبورغ) في وسط أوربا، وعزموا على إقامة أقاليم لعملياقم الحربية إبتداءً من مدينة (ميلانو) في شمالي ايطاليا بحيث يمتد أحد أسنانها خلال الأقاليم الشرقية السويسرية، وكان المخطط الاسباني قد أثار حفيظة فرنسا، وكان فرع أسرة (هابسبورغ) النمساوية قد بدأ، فضلاً عن ذلك، يتحفظ لاستئصال البروتستانتية من الأقاليم الخاضعة له، وتحويل الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى طراز حكومة وطنية أكثر عصرية وحادثة من ذي قبل، وحيث أن فكرة خلق قوة قوية في ألمانيا كان يفرع فرنسا ويقلقها، فألما نصبت من جديد، وبسبب معارضتها لآل هابسبورغ حامية رئيسة للمذهب البروتستانتي، وكانت فرنسا عملاق أوربا، وكان عدد سكانها خمسة أمثال سكان انكلترا، وعشرة أضعاف سكان السويد أو الجمهورية الهولندية، ولا تضاهيها في نفوس أية ولاية ألمانية¹.

لقد كانت حرب الثلاثين عاماً الناجمة عن هذه الضغوط تزداد بسبب ذلك تعقيداً، فكانت هناك حرب أهلية ألمانية نشبت من جراء المسألة الكاثوليكية- البروتستانتية، وكانت هناك أيضاً حرب أهلية ألمانية نشبت بسبب تشريعات دستورية بين الإمبراطور الذي سعى إلى بناء سلطة مركزية للإمبراطورية، وبين الأعضاء الذين كافحوا من أجل الحفاظ على استقلالها .

إن هاتين الحربين كانتا متشابهتين من حيث المبدأ، فالولايات الكاثوليكية كانت كالولايات البروتستانتية تعارض سيطرة الإمبراطور، وكذلك كانت هذه الحرب حرباً دولية بين فرنسا، وآل هابسبورغ في النمسا- وبين أسبانيا وهولندا، وبين ملكي الدنمارك والسويد، وقد تورط فيها أمير(ترانسلفانيا)، ورأى جميع هؤلاء الأجنب بالنسبة لألمانيا حلفاء في الولايات الألمانية المتحاربة، كما جرت معظم المعارك في ألمانيا نفسها. كما أن جميع القادة كانوا يحاربون من أجل منفعتهم الخاصة، لأن كل واحد منهم كان يطمح في إقامة إمارة له، وكان يحارب أو يرفض القتال على وفق ما تمليه عليه مصلحته، أصبح الحلفاء يخشون انتصار أي فريق منهم، فكانوا يغيرون أهدافهم، وينقلبون على المنتصر في ميدان المعركة².

وفي (بوهيميا) بدأت حرب الثلاثين عاماً، وكانت امتداد للثورة التي قامت في (بوهيميا) ضد الإمبراطور(رودولف الثاني) عندما أراد تأسيس حكومة مركزية قوية في ألمانيا، وكانت وسيلته هي القضاء على الانقسام الديني حتى يمكن القضاء على الانقسام

1 - روبرت ر. بالمر، تاريخ العالم الحديث، الجزء الأول، أوربا من القرون الأولى حتى سنة ١٧٤٠، ترجمة د.محمود حسين الأمين، مكتبة الوفاء، الموصل، ١٩٦٤، ص٢٢٢-٢٢٣.

2 - المصدر نفسه، ص٢٢٣.

السياسي، وإنهاء الخلافات الدينية. وقد حاول (رودولف) أن يفعل ذلك في بوهيميا التي كانت من أملاك الهابسبورغ، فأدى ذلك إلى الاصطدام مع العناصر الدينية، ومن ثم أنبعث النذير الأول للحرب الأوربية الشاملة، وكان أهل بوهيميا من السلاف، والجليك، والجرمان، وكانت البروتستانتية اللوثرية قد انتشرت فيها، وقد قام البروتستانت بالثورة في العام ١٦١٨، والتي سرعان ما تطورت إلى حرب أوربية، إذ أمتد نطاقها من بوهيميا إلى ألمانيا الجنوبية ثم إلى ألمانيا الشمالية، فجذبت إليها أيضا الدول المجاورة البروتستانتية، ثم أخذت دولة بعد أخرى تخوض غمار الحرب، حتى غدت هذه الحرب في النهاية حرباً غير ألمانية، وبهذا أتخذ الأمر في بادئه مظهر نزاع بين البروتستانتية والكاثوليكية ثم انتهى أخيراً إلى نزاع بين الأسرتين الكبيرتين الهابسبورغ الألمانية والربون الفرنسية من أجل السيطرة الأوربية^١.

وقاد (البوهيميون) الحرب، وأحرزوا في البداية بعض الانتصارات، وبعد انتخاب (فرديناند الثاني) إمبراطورا في العام ١٦١٩، وكان كاثوليكياً متعصباً عمل على إخضاع (بوهيميا)، وانهمز البروتستانت في موقعة (التل الأبيض) العام ١٦٣٠، قبالة قائد المعسكر الكاثوليكي، وأضطر (فريدريك) ملك (بوهيميا) إلى الهرب، وأضطهد أهل (بوهيميا) التي تحولت إلى منطقة نفوذ كاثوليكية بعد أن كانت بروتستانتية، ولكن انكلترا البروتستانتية لم تتدخل لنجدة حليفها (فريدريك الخامس)، وذلك من أجل عدم إغضاب اسبانيا الكاثوليكية، إذ أن الملك (جيمس الأول)، ملك انكلترا كان حريصاً على إقامة تفاهم بين أكبر دولة بروتستانتية، وهي (انكلترا)، وأكبر دولة كاثوليكية، هي (اسبانيا) من أجل تحقيق السلام في أوربا، إذ فضّل حل المسألة سلمياً، وبالمفاوضات، وأخذ يرجوا اسبانيا بالتدخل لإنهاء هذا النزاع لمصلحة (فريدريك)، ولكن لم تنجح هذه المساعي، ومن ناحية أخرى أدى الخطر المحدق (بالبروتستانت)، واقتراب الجيوش الكاثوليكية من الشمال البروتستانتى إلى انضمام ملك الدانمارك (كريستيان الرابع)، الذي رأى نفسه مهتماً أكثر من غيره بهذه الأحداث من وجهة النظر الدينية والسياسية معاً، وفضلاً عن كونه ملك الدانمارك فقد كان دوقاً لـ (هولشتاين)، أيضاً، وهذا يعني إنه كان أميراً من أمراء الإمبراطورية، وانتصار الكاثوليكية كان قديداً لمصالح عائلته، وقد تقابل جيش الإمبراطورية الكاثوليكي بقيادة (والشتاين)، وجيش الدانمارك، إذ أنتصر فيها الكاثوليك على البروتستانت في موقعتين الأولى موقعة (لوتر آب) في العام (١٦٢٦)، والموقعة الأخرى (توزل)، واحتلت على أثرها (مكلنبرج)، وخربت إقليمى (شلزويك، وهولشتاين)، أضطر فيها (كريستيان الرابع) إلى عقد (صلح لوبيك)

١ - د. عمر عبد العزيز عمر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٤،

في العام ١٦٢٩، وفيه أسترجع (كريستيان) أراضيهِ المحتلة، وفي مقابل ذلك تخلى عن أطماعه، ووعد بأن يكف يده عن التدخل في الشؤون الألمانية^١.

أما ملك السويد (غوستاف أدولف)، فكان متحمساً للبروتستانتية، واستجاب لدعوة البروتستانتية الألمانية عندما دعتهُ، ولكن كان هناك أسباب أخرى سياسية مهمة جداً، فلقد كانت السويد ترمي إلى السيطرة على (بحر البلطيق)، وكذلك المسألة الاقتصادية كان لها اعتبار في سياسة (غوستاف)، والسويد كانت دولة صغيرة، وكان جيرانها، مثل (روسيا، النرويج، وبولندا) أعداء لها، ومواردها محدودة، ولكن في عهد (غوستاف) وصلت إلى مصاف الدول القوية، وأصبح لها جيش منظم قوي، ومع ذلك، فسوف لا يكون لهذه الدولة قيمة إذا نجح الكاثوليك في استرجاع سيطرتهم على كل ألمانيا، وعبروا البلطيق، وغزو السويد، ولذلك أسرع بغزو (ألمانيا) قبل أن تقوم هي بغزو (السويد). وقد حققت السويد في البداية انتصارات في معركة (ليبيج) في أيلول من العام ١٦٣١، وأكتسح وسط أوروبا حتى (الدانوب، والراين)، وأنسحب الجيش الألماني في معركة (لوتزن)، وقتل ملك السويد مما أدى إلى ضعف قوتها، وحققت ألمانيا نصرها على القوات البروتستانتية المتمثلة بالقوات السويدية، والقوات المتحالفة معها في (نوردلنجن) في أيلول من العام ١٦٣٤^٢.

ولكن انتصار الكاثوليك في ألمانيا لم يكن في مصلحة فرنسا التي أيقنت أن التدخل الحربي هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على الكاثوليك، ومن ثم على أسرة (هابسبورغ)، فأعلنت الحرب على إسبانيا في العام ١٦٣٥، حليفة الإمبراطور، وبذلك دخلت فرنسا الحرب ضد الإمبراطور، وعندئذ، لم تعد الحرب مشكلة ألمانية، بل أصبحت مجرد نزاع بين فرنسا والسويد من جانب ضد النمسا وإسبانيا من جانب آخر، ولكن على أرض ألمانية، والمسألة هو أن كل من فرنسا والسويد قد اتخذت من المسألة الدينية ستاراً لتحقيق أطماعها السياسية والاقتصادية على حساب ألمانيا، وفي أول الأمر لم تكن الحرب في مصلحة الفرنسيين، واضطرت قواتها إلى الانسحاب داخل الأراضي الفرنسية قبالة ضغوط قوات الإمبراطور، ولكنها ما لبثت أن حققت بعض الانتصارات، ولكن مفاوضات الصلح كانت مستمرة في أثناء الحرب. فقد كان الإمبراطور يتفاوض مع السويد، ومع الإمارات البروتستانتية، في حين يتفاوض من جانب آخر في مونستر مع الفرنسيين والكاثوليك من أجل الوصول إلى الصلح، وفي النهاية تم التوقيع على صلح ويستفاليا في ٢٤/تشرين الأول/من العام ١٦٤٨^٣.

١ - المصدر نفسه، ص ٢٤٦-٢٤٧.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٤٨-٢٤٩.

٣ - المصدر نفسه، ص ٢٥٠-٢٥٢.

المبحث الثاني

معاهدة ويستفاليا ١٦٤٨

ابتدأت محادثات الصلح في (ويستفاليا) سنة ١٦٤٨، في المدينتين (مونستر، وأوسنابروك)، وكانت الولايات الألمانية تسعى وتطالب بالصلح، وإيجاد تسوية دينية نهائية، ويصالح الإمبراطورية الرومانية المقدسة أصرت فرنسا، والسويد على أن تشترك الولايات الألمانية في المفاوضات على إنفراد لتفتيت القوى، وهو مبدأ رُحِبَ به الأمراء الألمان بحماس، ولكن الإمبراطور قاومه من غير جدوى، وقد تدفق بسبب ذلك مئات الدبلوماسيين والمفاوضين على (ويستفاليا) ممثلين عن أنحاء الإمبراطورية، وقد حضره ممثلون عن أسبانيا، وفرنسا، والسويد، وهولندا، وسويسرا، والبرتغال، والبندقية، وحضره ممثلون عن إيطاليا، وحضره كذلك ممثل عن البابا، ولم يسبق أن انعقد مؤتمر أوربي كهذا منذ مجلس (كونستانس) الاستشاري الذي كان في الحقيقة اجتماعا أوربيا انعقد في العام ١٤١٥، لبحث شئون الكنيسة. وقد أصغى ممثل البابا إلى مقررات (ويستفاليا)، وأستمع لها بوضوح، ولكن البابا لم يوقع المعاهدات أبداً، وتعثرت المفاوضات، لأن الجيوش كانت ما تزال تحارب، وكان بعد كل معركة يعلن هذا الفريق أو ذاك شروطه، ورفضت فرنسا واسبانيا أن تتصالحا مع بعضهما وبقية في الحقيقة تتحاربان حتى سنة ١٦٥٩، ولكنهما اتفقتا على تسوية بالنسبة إلى مصلحة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وأدرجت معاني صلح (مونستر، وأوسنابروك) التي عقدت في العام ١٦٤٨، وعُرفت بمعاهدة (ويستفاليا) .
وأهم ما جاء فيها :
أولاً: التسوية الدينية:

١. أعترف صلح (ويستفاليا) بما جاء من قبل في صلح بساو سنة ١٥٥٢، و صلح اوكسبرغ سنة ١٥٥٥، بشأن منح كل أمير الحق في اختيار المذهب الديني الذي يريد، أي أن حرية الاعتقاد قد منحت للأمير، وليس للأفراد.
٢. أعترف رسمياً بمذهب كالفن، وبذلك تمتع أنصار كالفن بالتسامح الديني الذي منح لأنصار مارتن لوثر من قبل، وبذلك تساوى البروتستانت مع اللوثرين الكالفانيين من التمتع بمبدأ (التسامح الديني).
٣. إنهاء النزاع بشأن استرجاع أملاك الكنيسة الكاثوليكية، فاتفق الطرفان الكاثوليكي والبروتستانتي على تحديد يوم أول كانون الثاني من العام ١٦٤٢،

١ - روبرت بالمر، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٠.

كأساس للفصل في الأملاك التي تؤول إلى كل من البروتستانت والكاثوليك، والأملاك الموجودة بين يدي كل من الطرفين في صلح (براغ) في أيار من العام ١٦٣٥، وترتب على التسوية الجديدة أن تركزت الأملاك البروتستانتية في الشمال، والأملاك الكاثوليكية في الجنوب.

٤. صارت الولايات البروتستانتية على قدم المساواة مع الولايات الكاثوليكية في كل شئون الإمبراطورية، وأصبح المجلس الإمبراطوري الذي أستمروا ليكون بمثابة مجلس لفض المنازعات، ويتكون من أعضاء من الكاثوليك، وآخرين مساوين لهم من البروتستانت^١.

ثانياً: التسوية السياسية :

تحكمت السويد في أجزاء واسعة من شمال ألمانيا، ولاسيما مصبات أنهار الأودر، والألب، والوزر، وحصلت على الأسقفيات البروتستانتية في (بريمن، وفردان)، واحتفظت بالجزء الأكبر من (بوميرانيا) الغربية، وبذلك حققت السويد السيادة على (بحر البلطيق)، وهو الهدف الذي كان يسعى إليه الملك (غوستاف)، وفضلاً عن ذلك، أصبحت السويد عضواً في (الدايت) الألماني، ولها ثلاثة أصوات، وبذلك أصبحت السويد من الدول الأوروبية الكبرى، ولكن لفقر مواردها لم تتمكن من الاحتفاظ طويلاً بذلك المركز، أما عن فرنسا فقد استولت على (الألزاس) النمساوية ما عدا (ستراسبورغ) الحرة عاصمة (اللزاس)، كما ضمت بعض المناطق الألمانية، فامتلكت أسقفيات (متز) عاصمة (اللورين)، وتول، وفردان، وفي إيطاليا فقد استولت فرنسا على قلعة (بنير لو) في مملكة (بيد مونت)^٢.

ثالثاً: التعديلات السياسية في ألمانيا :

أضعف (صلح ويستفاليا) سلطة الإمبراطور فهائياً، وأصبح الأمراء الألمان عموماً على قدر كبير من القوة والاستقلال، واستقلت الإمارات البروتستانتية استقلالاً تاماً، وأن ظلت هناك بعض الصلات الرسمية والشكلية بالإمبراطورية، وهكذا قضى على أمل الإمبراطور في إيجاد اتحاد ألماني، وفي الوقت نفسه نرى أن التعويضات التي منححت لناخب (براندنبرج) قد جعلت منه أقوى الأمراء على الإطلاق في ألمانيا، فاستيلائه على (مجر برج) كتعويض عن (بوميرانيا) الغربية التي أخذها السويد، وكذلك (مندن، وهلبرشتات) فضلاً عن تمتعه بوراثة حكم (بوميرانيا) الشرقية جعله يسيطر على أجزاء واسعة من ألمانيا مما جعله دون شك الرجل الثاني في ألمانيا بعد الإمبراطور، ويمهد

١ - د. عمر عبد العزيز عمر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٢-٢٥٣.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

هذا لـ (براندبيرج) إلى أن تصبح أقوى الملكيات في ألمانيا تحت أسم (مملكة بروسيا) التي ستأخذ على عاتقها أيجاد الوحدة الألمانية التي عجز عن تحقيقها الإمبراطور، وكذلك أعترف هذا الصلح بانفصال سويسرا عن الإمبراطورية كما أعترفت اسبانيا باستقلال هولندا^١.

إن انحلال الإمبراطورية الرومانية المقدسة الذي أزداد برسم الحدود الدينية داخلها أيام (لوثر) أصبحت الآن ثابتة سياسياً، ومعترف بها من ناحية القانون الدولي، وانسلخت عنها الولايات التي تشكل حدودها، فلم تعد هولندا وسويسرا تابعتين لها، وأعترف بكل من المقاطعات المتحدة (الهولندية، والولايات السويسرية الكانتونات أو الكيان (اهيليفيني) حكومة ذات سيادة مستقلة، فضلاً عن هذا الاعتراف للهولنديين باحتلالهم لضفتي (نهر شيلت الأسفل)، وبحقهم في غلقه بوجه السفن النازلة إلى المحيط^٢. وعلى هذا يمكن القول أن (صلح ويستفاليا) وضع حداً للآمال التي راودت (مكسيمليان الأول، وشارل الخامس، وفرديناند الثاني) بخصوص إصلاح وتوحيد الإمبراطورية اتحاداً مفككاً من ولايات كثيرة العدد، ولم تعد الإمبراطورية حتى أوائل القرن التاسع عشر زعيمة العالم المسيحي، ولو أسمى، وعلى العموم فقد أنهى (صلح ويستفاليا)، إحدى المراحل الحاسمة في التاريخ الأوروبي الحديث، وهي مرحلة (الإصلاح الديني، والإصلاح المضاد)، ورغم أن الأحداث الدينية استمرت تؤدي دوراً مهماً في تاريخ أوروبا كثيراً، مثل (فرنسا، وبريطانيا)، فإن الدول الأوربية والإمارات احتفظت بعقيدتها كما أصبحت عليه في العام ١٦٤٨، وهكذا انتشرت فكرة التسامح الديني، وعمت أوروبا، فبعد أن كان هذا المبدأ قاصراً على الأمراء، والطبقات العليا، بدأ يأخذ طريقه إلى الطبقة الوسطى، والطبقة الدنيا، وانقسمت أوروبا أذاً إلى معسكرين رئيسيين معسكر البروتستانتية، ومعسكر الكاثوليكية. وقد أثرت تعاليم المعسكرين في نظم الحكم لدول أوروبا، فالكاثوليكية عملت على إقامة الملكية المطلقة، والكالفينية ساعدت على إقامة الدول الديمقراطية بحكم احترامها لحرية الفرد، واللوثرية وقفت من الجانبين موقف الوسط، وإن كانت أكثر ميلاً إلى معسكر الملكية المطلقة منها إلى معسكر الدول الديمقراطية، وبطبيعة الحال كانت فرنسا الكاثوليكية مثال الملكية الاستبدادية، وانكلترا وهولندا مثاليين للنظام الدستوري البرلماني^٣.

١ - المصدر نفسه، ص ٢٥٤.

٢ - روبرت بالمر، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٠-٢٣١.

٣ - د. عمر عبد العزيز عمر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٤-٢٥٥.

وإذا كانت المسائل الدينية قد أدت إلى حرب عنيفة عمت أوروبا، وأصابتها بخسائر فادحة، فإن التمسك بهذه المسائل لم يعد له ما يبرره بل أن المصالح التجارية والقومية أصبح لها الأولوية على ما عداها من المسائل ومن ثم ضعفت سيطرة الكنيسة على دول أوروبا، وأصبحت سلطة الملكية تفوق ما عداها من سلطات، بما في ذلك سلطة الكنيسة، وأدى هذا إلى نمو الدول في العصر الحديث^١.

نتائج معاهدة (ويستفاليا) في العلاقات الدولية:

١. ظهور مبدأ التمثيل الدبلوماسي:

فقد أصبح (التمثيل الدبلوماسي)، وتبادل السفراء عرفاً شائعاً بين الدول الأوروبية بعد حرب الثلاثين عاماً، وقد ظهر العرف الدبلوماسي بين المدن الإيطالية في القرن الخامس عشر، وانتشر في القرن التالي بين أسبانيا، وفرنسا، وبريطانيا، ولكن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تكن ضمن نطاق العرف الدبلوماسي، لأنها كانت أكثر سطوة، وأعظم نفوذاً من هذه الدول، وما حققته حرب الثلاثين عاماً، جعل الإمبراطورية الرومانية المقدسة في مستوى الدول الأوروبية الأخرى. كما أصبحت الدول الأوروبية تتعامل مع بعضها البعض على أساس المساواة بين الدول المستقلة ذات السيادة، وكان للتبادل الدبلوماسي تأثير كبير في توطيد العلاقات الدولية، وخاصة في وقت السلم، إذ أصبحت المعاهدات التجارية، والمخالفات الدفاعية أساساً لهذا النوع من العلاقات بعد أن كانت (المعاهدات) أساس الروابط بين الدول، وكان مؤتمر (ويستفاليا) أول مؤتمر دولي بعثت إليه الدول ممثلها لإعادة السلم في أوروبا.

٢. ظهور القانون الدولي:

نتيجة للحروب والخسائر البشرية رأت الدول ضرورة وضع بعض القواعد القانونية لحماية الدول المحايدة، ومعالجة المرضى والجرحى، ومنع إراقة الدماء، والتدمير، وأشهر من كتَبَ في هذا الموضوع هو (غروشيوس) الذي كتب كتابه الشهير "مقال عن قانون الحرب والسلم"، ونشره في سنة ١٦٢٥، والذي دعا فيه إلى (التسامح الديني)، وأكد (غروشيوس)، أن الحرب لا مفر منها بين الدول، لأنها تعتمد على العاطفة، وهوى النفس، ولهذا من الصعب أن تتفق الدول على أسس المحافظة على السلام أو منع الحروب، وعليه إذا كانت الحروب لا بد منها، فيجب حصرها في نطاق ضيق لا تتعدى الدول التي تشترك فيها، ومحاولة تجنب أعمال السلب، والنهب، وإراقة دماء الأبرياء.

١ - المصدر نفسه، ص ٢٥٥.

٣- ظهور مبدأ توازن القوى:

لقد أسهم مبدأ (توازن القوى) الذي ظهر أثر ظهور عدد كبير من الدول في أوروبا في منع الحرب والتوسع، وكان يعني منع فصح المجال لدولة أو مجموعة من الدول المتحالفة بأن تطغى على غيرها، وتقوم بتهديدها، وذلك عن طريق تشكيل كتلة مضادة تستطيع إعادة التوازن بين الدول الأوروبية، وكانت المدن الإيطالية تطبق هذا المبدأ على نطاق ضيق في القرن الخامس عشر، وكان (صلح ويستفاليا) عبارة عن محاولة لتقليل سيطرة (آل هابسبورغ) على أوروبا بأخذ بعض أجزائها على حساب الدول الأخرى. لقد صار مبدأ (التوازن الدولي) أساساً تسيّر عليه الدول بعد حرب الثلاثين عاماً، وكان وسيلة للحفاظ على السلام، ومجابهة العدوان من قبل مجموعة من الدول، وفي كثير من الأحيان كانت الكتل المتنازعة على الغنائم تجبر بموجب هذا المبدأ أن تتنازل عن بعض مطامعها إلى أن يتعادل الميزان.

٤- تقلص الإمبراطورية الرومانية المقدسة:

وتدهورها، وتأجيل الوحدة الألمانية بسبب أنانية أمراء الولايات، وتدخل الأجنبي في شئون ألمانيا الداخلية كفرنسا، والسويد، والداينمارك^١. إن أعظم انتصار حققته فرنسا، وحليفاتها السويد، وهولندا، كان في الدستور الجديد للإمبراطورية ذاتها، وليس في التغييرات الإقليمية. فقد أصبحت الولايات الجديدة التي يربو عددها على ثلاثمائة ولاية، حكومات ذات سيادة، ومنحت كل واحدة منها الحق في إقامة العلاقات السياسية مع الحكومات الأجنبية، وعقد المعاهدات معها، وذهب (صلح ويستفاليا) إلى أبعد من ذلك كثيراً، فأشترط الإمبراطور بأن لا يحق له سن القوانين، وجباية الضرائب، ودعوة الجنوب لحمل السلاح، وإعلان الحرب، وتعديل بنود معاهدة صلح ما، إلا بموافقة مجلس الإمبراطورية المؤلف من ثلاثمائة أمير، وذلك في اجتماع يعقدونه في (الرايخشتاغ)، واختيرت كل من (فرنسا، والسويد) لتكونا ضامنتين لـ (صلح ويستفاليا). على أن السويد، وأن كانت قد بلغت من الضعف درجة لا تستطيع معها تنفيذ تعهدها تنفيذاً فعالاً، فإن فرنسا بقيت تستفيد من هذه القاعدة القانونية للتدخل في شئون أوروبا الوسطى قرن ونصف من الزمن^٢. إن معاهدة ويستفاليا تُعدّ بحق ميلاد الدولة القومية في العلاقات الدولية، فأصبح للدولة حدود قومية، وجيش قومي، واقتصاد قومي، وملك لا يخضع لا لسلطة الكنيسة، ولا لسلطة الإمبراطور.

١ - د. محمد محمد صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠١-٣٠٥.

٢ - روبرت بالمر، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٤.

المبحث الثالث

صلح أوترخت ١٧١٣

أتبع ملك فرنسا (لويس الرابع عشر) منذ بداية حكمه سياسة حازمة، فلقد دام النزاع بين ملوك فرنسا من (آل بوربون)، و(آل هابسبورغ) ملوك النمسا مدة تزيد على قرن. وقد غلب على أمره فرع(آل هابسبورغ) النمساوي في (صلح ويستفاليا)، وبقيت فرنسا في حرب لعقد آخر من السنين مع فرع(آل هابسبورغ) الاسباني إلى أن تم (صلح البيرنيز) سنة ١٦٥٩. وكانت المقاطعات الاسبانية تواجه فرنسا من ثلاث جهات في الوقت الذي لم تنقض سنتان على تسلم (لويس الرابع عشر) الحكم، وذلك من الشمال الشرقي، والشرق والجنوب، غير أن أسبانيا كانت منهوكة القوى بحيث لم تعد تشكل تهديداً لفرنسا مثلما كانت في السابق، وبقدر ما أصبحت الآن سبباً مغرياً لها في التوسع، وأستطاع (لويس الرابع عشر) ملك فرنسا أن يعتمد على الشعور الوطني الذي ساد فرنسا لمساندته في تحقيق أطماعه بمد حدود فرنسا إلى (الراين)، و(جبال الألب)، وبدأ هجومه في سنة ١٦٦٧، إلا أن تحالف الهولنديين مع الإنكليز، بمساندة السويد تمكنوا من إيقافه، فقد انسحب جيش (لويس الرابع عشر) من الأراضي المنخفضة الاسبانية، وتصالح مع الهولنديين. وعلى أثر تحالفه مع (شارل الثاني) ملك انكلترا قام بحرب ضد هولندا، سنة ١٦٧٢، وغزا المقاطعات الهولندية على (نهر الراين) الأسفل، فأثار هذه المرة عدوه (وليم الثالث) ملك أور انج، وقد أستطاع (وليم الثالث) أن يجعل (آل هابسبورغ) النمساوي، والاسباني، ودوقية براندنبورغ، والسدادنمارك، يتحالفون مع الجمهورية الهولندية، فأكره (لويس الرابع عشر) على توقيع معاهدة (مغفكين) سنة ١٦٧٨، وتحلى على أثرها الفرنسيون عن أطماعهم إزاء (هولندا)، ولكنهم حصلوا من أسبانيا على مقاطعة(فرانشي كونتي) الغنية التي تحيط بـ (الألزاس) من الجنوب، وتمد سلطان فرنسا إلى الحدود السويسرية. وفي السنة التي أعقبت الصلح مباشرة، أي سنة ١٦٧٩، تغلغل (لويس الرابع عشر) في حدود الإمبراطورية الرومانية المقدسة المتفككة، وكان تغلغله هذه المرة في منطقتي (الألزاس، واللورين)، فأصبح لملك فرنسا على وفق (صلح ويستفاليا) حقوق في هاتين المنطقتين، ولكن شروط المعاهدة كانت غير واضحة، وقد أنشأ (لويس الرابع عشر) في هاتين المقاطعتين المحاكم الائتلافية، وهي التسمية التي أطلقها عليها، وكانت محاكم مدنية يقوم

فيها الحكام بفحص الشكاوى المذكورة من الأقسام المختلفة في (الألزاس، واللورين)، يصدرون فيها أحكامهم في مصلحة ملك فرنسا، وعلى اثر ذلك دخلت القوات الفرنسية هذا الإقليم، واحتلت في سنة ١٦٨١، مدينة (ستراسبورغ) التي كانت تُعد نفسها جمهورية صغيرة مستقلة بصفتها مدينة حرة في الإمبراطورية الرومانية المقدسة في أوربا، واحتجت البلاد الألمانية بأسرها على هذا الغزو المفاجئ الذي لم يعلن عنه، ولكن ألمانيا لم تكن يومذاك وحدة سياسية، فمنذ سنة ١٦٤٨، كانت كل حكومة في ألمانيا تدير سياستها الخارجية بنفسها ولقد جمع الإمبراطور (ليوبولد) قوى الكاثوليك في إتحاد لمجابهة فرنسا، وأجتمع الكاثوليك والبروتستانت أعداء (لويس الرابع عشر) سنة ١٦٨٦، في عصبة (أوكسبرغ) التي ضمت إليها الإمبراطور الروماني المقدس، وملكي إسبانيا والسويد، وناخبي بافاريا، وسكسونيا، والبالين، والجمهورية الهولندية، وفي سنة ١٦٨٦، كان ملك انكلترا ما يزال في حماية فرنسا، ولكن بعد ثلاث سنوات حينما أصبح (وليم) ملكاً على انكلترا انضمت انكلترا إلى العصبة أيضاً، وانفجرت حرب (عصبة أوكسبرغ) سنة ١٦٨٨، وانتصرت الجيوش الفرنسية في المعارك، ولكنها لم تستطع سوق أعداء هذه الكثرة خارج ميدان المعركة، ولم يستطع الأسطول الفرنسي التغلب على الأساطيل الموحدة من سفن الهولنديين، والانكليز، ورأى (لويس الرابع عشر) نفسه في مأزق حرج، وانتهى به الأمر إلى عقد (صلح ريزويك) في هولندا سنة ١٦٩٧، وقد وضع (صلح ريزويك) حلاً لحرب (عصبة أوكسبرغ) الطويلة تاركاً القضايا التي كانت حيث بدأت الحرب على حالها^١.

ثم جاءت حرب (الوراثة الأسبانية) التي استغرقت إحدى عشرة سنة من ١٧٠٢، حتى سنة ١٧١٣، وكانت أقل تدميراً من حروب الثلاثين عاماً، وكانت هذه الحرب من بين الحروب التي نشبت على نطاق واسع، وهي أول حرب كان فيها عامل الدين ضعيفاً، وكانت كذلك الحرب الأولى التي كان فيها العامل المؤثر، هو عامل التجارة والقوة البحرية، وكذلك كانت أول حرب بذل فيها الإنكليز المال بسخاء، وأستعمل في السياسات القارية، ثم إلى جانب هذا كله، فإنه باستطاعتنا أن نطلق عليها حرباً عالمية لتورط عالم ما وراء البحار بها، وشوها القوى الرئيسة في أوربا^٢.

١ - روبرت بالمر، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩١-٢٩٤.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

لقد كان المتطلعان إلى الإرث الأسباني هما ملك فرنسا، والإمبراطور الروماني المقدس، وكانا صهري (شارل الثاني) ملك أسبانيا، وكان كل واحد منهما يأمل في أن يضع عضواً أصغر من أعضاء أسرته على العرش الأسباني، وفي أثناء العقود الأخيرة من القرن السابع عشر اتفقت الدول المتحاربة بعقد عدة معاهدات مختلفة على تقسيم الممتلكات الأسبانية، وكانت الغاية من تقسيم التركة الإسبانية بين كلا المطالبين هي الإبقاء بهذه الوسيلة على توازن القوى في أوروبا، ولكن عندما توفي آخر الأمر (شارل الثاني) سنة ١٧٠٠، ظهر انه قد ترك وصية أشترط فيها أبقاء العالم الأسباني على حالته، وأن جميع الممتلكات الإسبانية بلا استثناء يجب أن تصبح من نصيب حفيد (لويس الرابع عشر)، وإذا رفض (لويس الرابع عشر) قبول هذه الممتلكات باسم حفيده البالغ خمس سنوات من العمر، فإن جميع الميراث يجب أن ينقل إلى ابن إمبراطور (آل هابسبورغ) في (فيينا)، وقرر (لويس الرابع عشر) قبول الوصية، لأن نفوذ فرنسا المتمثل في حكم أسرة البربون في فرساي، وفي حكمهم في (مدريد) حتى وأن بقي التاجان غير متحدين، سيمتد من بلجيكا إلى مضيق جبل طارق، ومن ميلانو إلى المكسيك، ومانيليا. وتصدى (وليم الثالث) ملك بريطانيا للأمر على الفور، فجمع سياسي أوروبا في حلف عُرف (بالتحالف الكبير) سنة ١٧٠١، إذ مات في السنة التالية قبل اندلاع الحرب، تاركاً (لويس الرابع عشر) متربحاً فوق ذروة مجده، ولكنه كان في الحقيقة قد هبأ ماكينته الحرب لسحق الملك الشمس (لويس الرابع عشر)، وشمل الحلف الكبير كلا من انكلترا، وهولندا، وإمبراطور روما المقدس (أيديته دوقية براندبورغ) وساندته فيما بعد البرتغال، ودوقية سافوي الإيطالية، وكان باستطاعة (لويس الرابع عشر) الاعتماد على (إسبانيا) التي كانت مخلصاً بالأخص في تطبيق وصية الملك الراحل^١.

وقد دارت الحرب في هولندا، وجنوب ألمانيا، وإيطاليا، وإسبانيا، وكان النصر حليف الفرنسيين أول الأمر، ولكن سرعان ما أحرز الحلفاء انتصارات فائقة بفضل قوادها العظام من أمثال القائد الانكليزي (مالبورو)، وتوالت الاندحارات على الجيش الفرنسي، وكاد الحلفاء المتقدمين في الأراضي الفرنسية يدخلون (باريس) لولا حدوث الانشقاق في صفوفهم. فقد تغيرت الوزارة في انكلترا سنة ١٧١٠، وجاءت إلى الحكم وزارة مiale إلى السلم، وعزلت القائد (مالبورو) من القيادة. كما أن

^١ - المصدر نفسه، ص ٢٩٦.

الفصل الثالث:

تطور العلاقات الدولية منذ الثورة الفرنسية

- المبحث الأول:

الثورة الفرنسية ١٧٨٩.

- المبحث الثاني:

الحروب النابليونية.

- المبحث الثالث:

مؤتمر فيينا ١٨١٥.

بوخارست، وكانوا على وشك عبور الدانوب إلى البلقان لما أعلن عن معاهدة (كجك كينارجي) في العام ١٧٧٤، وبموجبه تنازلت الدولة العثمانية عن ما يلي: -
آزوف وما جاورها من الأراضي شمال البحر الأسود إلى روسيا.
إستبقت الدولة العثمانية رومانيا لنفسها، وكذلك اليونان على أن يقطع السلطان وعده بإدارة أفضل لليونان، والبلقان.

أن تبحر السفن التجارية الروسية في المياه العثمانية.

أن تكون روسيا حامية الكنيسة الأرثوذكسية في الدولة العثمانية.

وبموجب معاهدة أخرى في العام ١٧٩٢، أصبح نهر دنيستر حدود بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية، وهكذا فإن روسيا وصلت إلى الحدود الطبيعية جنوباً، وأصبحت الدولة الرئيسة على البحر الأسود، حيث تبحر سفنها عبر المضائق التركية بسهولة، وأشرفت على المياه الدافئة، وعُدّت روسيا نفسها حليفة المضطهدين من المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية التي أخذت بالتدهور بسرعة بعد معاهدة كجك كينارجي^١.

وفي الوقت الذي كانت روسيا القيصرية تحارب الدولة العثمانية اتفقت مع بروسيا والنمسا في العام ١٧٧٢، على تقسيم بولندا، فأخذت روسيا القيصرية كل الأراضي الواقعة شرقي الدونا دنير، وأخذت بروسيا الغربية باستثناء ميناء دانزك. كما أخذت النمسا (غاليسيا) عدا مدينة (كار أكاو)، وبذلك حرمت بولندا من ربع أراضيها، وخمس سكانها، وفي سنة ١٧٩٣، قسمت بولندا مرة أخرى بين الدول الثلاث، وقسمت نهائياً في سنة ١٧٩٥، بين هذه الدول، وزالت بولندا من خارطة أوروبا، وحصلت بروسيا على مصب نهر الفستولا، في حين حصلت النمسا على القسم الباقي، والبقية الباقية من بولندا أصبحت من حصة روسيا^٢.

١ - المصدر نفسه، ص ٤٤٩-٤٥٠.

٢ - المصدر نفسه، ص ٤٥٠.

المخطات التجارية في الهند، وهكذا بدأت السيادة البريطانية في أمريكا الشمالية والهند، وأصبحت بريطانيا أعظم دولة بحرية في العالم¹.

أما روسيا القيصرية فقد أصبحت دولة أوربية عظمى في عهد (كاترين الثانية)، إذ تمكن بطرس الكبير أن يقضي على سيطرة السويد، ويستولي على المقاطعات السويدية شرقي (بحر البلطيق)، وبقيت (بولندا)، والدولة العثمانية في الغرب والجنوب يجب التخلص منهما. لقد كانت (بولندا) دولة قوية مهمة منذ القرن السادس عشر، وأدت بولندا دوراً بارزاً في السياسة الأوربية في القرن السابع عشر، ودافعت عن (النمسا) ضد الدولة العثمانية سنة ١٦٨٣، ولكن بحلول القرن الثامن عشر بدأت عوامل الضعف تنخر في (بولندا)، إذ أنها دولة فقيرة اقتصادياً ولا تستطيع تأسيس جيش قادر على مواجهة روسيا، وبروسيا، والنمسا، وكانت هناك عناصر روثينية في الجنوب، وألمانية في حوض البلطيق. وقد مارست الحكومة البولندية نوعاً من التسامح الديني والعنصري، لأن الروثينيين كانوا أرثوذكس، والألمان بروتستانت. لقد طالبت العناصر المختلفة في (بولندا) بالمساواة، وحقوق أكثر مما تمنحها الحكومة البولندية، ولما لم تلب مطالبهم استعان الألمان بالروسين، والارثوذكس الروثينيين بالروس، وكان (فريدريك الكبير، وكاترين الثانية) مستعدان لتلبية النداء، فأرسلت (كاترين) جيشاً لإخماد الثورة في (بولندا)، حيث كانت (روسيا) تتدخل في شئون (بولندا)، ولما عبر الجيش الروسي بعض أراضي الدولة العثمانية للوصول إلى (بولندا) نشبت الحرب بين الدولتين².

الحرب الروسية- العثمانية :

أستمرت الحرب بين الدولتين العثمانية وروسيا من سنة ١٧٦٨ إلى ١٧٧٤، فقد خشيت الدولة العثمانية من سياسة روسيا الخارجية التي كانت تنوي ضم (بولندا) ثم التفرغ للدولة العثمانية، وكانت فرنسا تشجع الأتراك في حربهم ضد روسيا القيصرية، ولكن (لويس الخامس عشر) كان في وضع مالي سيئ لا يستطيع الدخول في الحرب لإنقاذ (بولندا)، ولا يتمكن من تقديم المساعدات المالية للأتراك، وكانت الدولة العثمانية في تدهور مستمر، وكان الجيش العثماني في حالة يرثى لها من حيث التنظيم، والتسليح، والتدريب، فتوالت الهزائم على الجيش العثماني، واستولت روسيا القيصرية على (آزوف)، وولايتي ولاكيا، ومولدافيا في رومانيا، ودخل الجيش الروسي

1 - د. محمد محمد صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٣.

2 - المصدر نفسه، ص ٤٤٧-٤٤٩.

الصلح ساعد (ماريا تيريزا) على أن تحافظ على أملاكها^١، إذ أرادت (ماريا تيريزا) استعادة (سيليزيا) التي استولى عليها (فردريك الكبير)، فاقتربت من أمراء ألمانيا، وألغت عصبة الحكام، وكانت (سكسونيا) إحدى الدول التي يمكن الاعتماد عليها، كما أنها حاولت أن تخر فرنسا إلى جانبها بإعطائها مقاطعات (الراين)، ولما كانت (قيصر روسيا) ضد (فريدريك) استمالتها (ماريا تيريزا) بسهولة، أما انكلترا، فكانت في نزاع استعماري مع فرنسا في المستعمرات. وقد تجددت الحرب بين الدولتين سنة ١٧٥٤، في أمريكا، والهند، وعندئذ مالت (انكلترا) إلى جانب (بروسيا) على أن تضمن الأخيرة سلامة (هانوفر، وألمانيا) بصورة عامة، وعندئذ قررت (انكلترا) مساعدة (بروسيا) مالياً في حالة نشوب الحرب مع فرنسا، ولم ينتظر (فريدريك) ملك بروسيا إعلان الحرب فهجم على (سكسونيا)، وأخذ منها غرامة حربية، وجند لها جيش قوي، ثم تقدم الجيش الروسي نحو (بوهيميا)، ولكن في هذه الإثناء تقدمت الجيوش الفرنسية من الغرب، والسويدية من الشمال، والروسية من الشرق، والنمساوية من الجنوب، فأصبحت جيوش (بروسيا) محاطة من جميع الجهات، وهنا ظهرت عبقرية (فريدريك) بتخلصه من الدمار، إذ أن جيوشه كانت أقل من جيش أية دولة من الدول التي أعلنت الحرب عليها، وبسرعة فائقة تمكن أن يدحر الجيش الفرنسي في معركة (روزباخ) سنة ١٧٥٧، ثم رجع إلى (سيليزيا)، ودحر الجيش النمساوي في (ليونن) سنة ١٧٥٨، ثم الجيش الروسي في معركة (زوروندروف)، وقد اضطر (فريدريك) بسبب قلة جيشه أن يتخذ موقفاً دفاعياً، وأن يجند الأعداء، ويعفي الهاربين من جيشه، ولمدة خمس سنوات الباقية اتخذ موقفاً دفاعياً لعدم قدرته على الهجوم. وقد تقدم الجيش الروسي في (بروسيا) الشرقية، وأستطاع مع ذلك أن يدحر الجيش الفرنسي سنة ١٧٥٩، ودخلت اسبانيا الحرب بجانب فرنسا سنة ١٨٦١، وساعد الحظ (فريدريك) بأن مات قيصر روسيا، فانسحب الجيش الروسي من الحرب، واضطرت كل من (النمسا، وفرنسا) إلى عقد الصلح مع بروسيا، واجتمعت الدول في (باريس) لعقد الصلح سنة ١٧١٣^٢.

وكانت معاهدة (هبرنسرك) بين (فريدريك، وماريا تيريزا) نصراً كبيراً لبروسيا، فقد اعترفت (ماريا تيريزا) بانضمام (سيليزيا) إلى (بروسيا). أما فرنسا فقد خسرت مستعمراتها، ولم يبق إلا القدر اليسير من الجزر في المياه الأمريكية، وبعض

١ - د. محمد محمد صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤١.

٢ - المصدر نفسه، ص ٤٤٣.

كون البيت المالک النمساوي بعد إذلاله في (صلح ويستفاليا) بجيلين أو ثلاثة إمبراطورية جديدة من ممتلكات بالغة الأهمية، وعلى الرغم من شمولها (بلجيكا)، وامتدادها إلى (إيطاليا)، فإنها كانت في الحقيقة إمبراطورية تقع في أواسط نهر (الدانوب) بمقرها في (فيينا)، وباحتمالها بلاد (بلغاريا)، وبوهيميا سيطرت على المنطقة الشبيهة بالبحوض، والتي تحدها جبال الألب، وبوهيميا، وسلسلة جبال الكربات، وكان النفوذ الألماني قوياً في هذه المنطقة، ولذلك فإن الإمبراطورية كانت عالمية وغير قومية، إذ كانت أسماء النبلاء الحكيم، والهنغار، والكروات، والإيطاليين شائعة في بلاط (آل هابسبورغ)، وحكومتهم في الجيش. لقد جعلت الإمبراطورية كل البروتستانت أعدائها، كذلك كرهها الديمقراطيون، ولم تكن هذه الإمبراطورية مرغوبة من قبل الهنغار، والكروات، والجريك، والصرب، واليونانيين، والإيطاليين، لأنها وقفت في طريق تحقيق أمنهم القومية^١.

حرب الوراثة النمساوية:

أرتقت (ماريا تريزا) عرش إمبراطورية النمسا سنة ١٧٤٠، وهي السنة التي تسلم فيها (فريدريك الكبير) عرش (بروسيا) الذي كان قد بدأ أعماله باغتصاب (سيليزيا) من الإمبراطورة (ماريا تريزا). ولقد كانت هذه القضية جزء من المشكلة الكبرى التي جابهت الإمبراطورة في بداية عهدها، إذ عارض الطامعون تسلم امرأة عرش (آل هابسبورغ)، رغم أن والدها (شارل العاشر) قد أصدر مرسوماً يقضي بتوليها العرش من بعده، ورغم ما أحرزه من موافقة الدول الأوروبية على ذلك المرسوم. غير أنه عند وفاة (شارل العاشر) ظن بعض ملوك أوروبا أن سنحت الفرصة بتولي امرأة الحكم في النمسا ليقسموا أملاك (آل هابسبورغ). وقد اتفق كل من فردريك الكبير، وملك فرنسا، وملك اسبانيا البر بوي على ذلك، ولكن المصلحة أيضاً دفعت كل من (انكلترا، وهولندا) إلى جانب (النمسا) للحفاظ على التوازن الدولي في القارة، وكانت المنافسة الاستعمارية بين (انكلترا، وفرنسا) قد ساعدت على ذلك، وعرفت بالحرب التي نشبت من جراء ذلك (حرب الوراثة النمساوية). ولقد كانت الحرب طاحنة ظهرت آثارها في المستعمرات، وسميت في أمريكا بـ (حرب الملك جورج). نسبة إلى الملك جورج الثاني ملك بريطانيا، وانتهت بصلح (أكس لاشايل) سنة ١٧٤٨، ولم تحصل أي دولة على شيء بموجب هذا الصلح سوى (بروسيا) التي احتفظت بأملاكها في (سيليزيا). ولكن

^١ - المصدر نفسه، ص ٣٢٩-٣٣١.

(فيينا)، وعمم ما نسميه اليوم (رومانيا)، وساد على (التتر) في الساحل الشمالي من البحر الأسود، حتى أن ممتلكاتهم في أوروبا كانت انعكاساً لمجموعة ممتلكاتهم الأساسية في آسيا وأفريقيا. وكانت بولندا تمتد من نقطة تبعد مئة ميل عن شرقي (برلين) إلى مئة ميل عن غربي (موسكو)، بل أنها تمتد من بحر إلى بحر كما جاء في عبارتهم الوطنية القديمة، أي من (بحر البلطيق) الذي يحيط بمدينة (ريفا) حتى ساحل البحر الأسود الذي كان في قبضة خانات التتر الذين كانوا بدورهم تحت سيادة السلطان العثماني في القسطنطينية. أما الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فإنها امتدت من بولندا وهنغاريا إلى بحر الشمال¹.

ولم تكن هذه الإمبراطوريات الثلاث متشابهة فيما بينها بأية حال من الأحوال، فالإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت تحمل بعض التقاليد القديمة المسيحية، وكان لـ (بولندا) ارتباطات قديمة مع الغرب كذلك، أما (تركيا)، فكانت سلطة إسلامية لم تكن تتقبلها أوروبا. لقد كان الأتراك يحتلون (هنغاريا) منذ سنة ١٥٢٦، وظلت الأراضي الهنغارية لأجيال مسرحاً بالتناوب لحروب بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والدولة العثمانية، وفي سنة ١٦٦٣، أرسلت (تركيا) جيوشها زاحفة على (الدانوب)، فاحتشدت لها قوات مختلفة من الإمبراطورية المقدسة، ومن جميع البلاد المسيحية، وأكرهت الأتراك على قبول هدنة لمدة عشرين سنة، غير أن (لويس الرابع عشر) الذي كان منشغلاً في هذه السنين بضم حدود أوروبا الغربية أتجه بأنظاره إلى منطقة حوض الدانوب لعله يحصل على مغنم كبير، فحرض الأتراك (حلفاء فرنسا القدامى على أساس العداء المشترك ضد (آل هابسبورغ) على استئناف هجماتهم التي قاموا بها قبل انقضاء هدنة العشرين سنة وحاصر الأتراك بالفعل مدينة (فيينا) لمدة شهرين سنة ١٦٨٣، حتى وصلت نجدات دولية أخرى إلى مكان الحصار، وكانت تتكون من الجيش البولندي، وقوات البابا، وجمهورية البندقية التي انضمت إلى (آل هابسبورغ)، فانسحب الأتراك منها، لقد كان (آل هابسبورغ) الذين يضرب بهم المثل يحاربون على جبهتين، ضد الأتراك، وضد الفرنسيين، وألحقوا بالأتراك هزيمة في معركة (زنتا) سنة ١٦٩٧، وتحلى الأتراك في (صلح كارلو فتش) سنة ١٦٩٩، عن معظم (هنغاريا) بما في ذلك (ترانسلفانيا، وكرواتيا) لآل هابسبورغ، وأصبح آل هابسبورغ الآن مطلقى اليد في تطبيق مخططاتهم في الغرب، فدخلوا حرب (الوراثة الاسبانية) ليربحوا التاج الاسباني. لقد

١ - المصدر نفسه، ص ٣٠٥.

المبحث الرابع

الحروب والمنافسات الأوروبية

كانت (النمسا) التي ظهرت إلى الوجود سنة ١٧٠٠، مولوداً جديداً. وفي الحقيقة، وإن لم يكن ظهورها واضحاً كل الوضوح، مثل الدولتين الاخريتين، فقد سبق لـ (بيت هابسبورغ) النمساوي أن أدى دوراً بارزاً لمدة طويلة، وكانت مكانتهم في ما مضى تستند إلى زعامتهم للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وإلى صلات أسرتهم مع (بيت هابسبورغ) الحاكم في اسبانيا (الذي هو أغنى منهم). وقد انفارت هاتان الركيزتان في القرن السابع عشر، حيث خاب الأمل بقيام إمبراطورية فعالة من (آل هابسبورغ) في ألمانيا بعد حرب الثلاثين عاماً، واختفت من المسرح، إذ أنتقل الحكم في سنة ١٧٠٠، إلى البيت المالكي الفرنسي، واستولى البيت المالكي النمساوي في النصف الثاني من القرن السابع عشر على نقطة التحول الكبرى حينما برز من داخل الإمبراطورية المقدسة وبنائه إمبراطورة له، وواصل (آل هابسبورغ) في الوقت نفسه حكمهم أباطرة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وظلوا مغالين في الشئون الألمانية باعتمادهم على مصادر استمدوها من خارج ألمانيا لتثبيت نفوذهم، ويسطه على الأمراء الألمان. لقد كانت حرب الثلاثين عاماً كارثة على (آل هابسبورغ)، لأنهم أخفقوا في كشلكة ألمانيا مرة أخرى بغية تثبيت كيان الإمبراطورية المقدسة، وتعزيز سلطاتها. على إن حرب الثلاثين عاماً كانت من وجهة نظر جديدة نجاحاً بارزاً مهدت السبيل لقيام ملكية هابسبورغية جديدة، ففي إثناء هذه الحرب استأصلت هذه السلالة الحاكمة جذور البروتستانتية، والروح الثورية من جانب الإقطاع في النمسا من المقاطعات الموروثة، فاحتلت (بوهيميا) من جديد، وتم كشلكتها مرة أخرى. وقد كانت (بوهيميا) المقاطعة التي أضرم ثوارها حرب الثلاثين عاماً، ثم غزت في أثناء العقود من السنين التي تلت استعادتها لـ (بوهيميا) هنغاريا كذلك^١.

وسط شرق أوروبا:

كانت تحتل أوروبا بأسرها في سنة ١٦٤٨، من الحدود الفرنسية إلى موسكو ثلاث دول مترامية الأطراف، ذوات كيانات مفككة، وهي الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وجمهورية بولندا، والدولة العثمانية، وكان سلطان الأتراك قد امتد حتى خمسين ميلا من

١ - المصدر نفسه، ص ٣٢٨.

وكان أعظم الراجح هم (الانكليز)، وقد حصلت بريطانيا من بروزها، قوة عظمى، وتكونت الوحدة بين انكلترا وسكوتلندا في إثناء الحرب، وأصبحت ألان بريطانيا بقاعدتها في (جبل طارق، ومينوركا) قوة في البحر المتوسط، أما (بلجيكا) القوة التي كانت موجهة ضد بريطانيا، فإنها كانت بيد النمساويين، إلا أنها بعيدة جداً عنهم، وكان إعطاؤها لهم بغية مواجهة فرنسا، وكانوا قد أخذوها بإغراء من الدولتين البحريتين، وهما بريطانيا وهولندا، اللتان رأتا في انتقال ملكيتها إلى النمسا حلاً حسناً للمشكلة^١.

وكانت القوى التي شكلت الفرقاء في معاهدة (أوترخت) سنة ١٧١٣، باستثناء انكلترا المنظمة إليها، هي نفسها التي شاركت في (صلح ويستفاليا) سنة ١٦٤٨، وهي نفسها تصادق ألان على إتباع نظام العلاقات الدولية التي أقرها (صلح ويستفاليا). وقد وافقت القوى على قبول بعضها البعض الأخر أعضاء في النظام الأوربي، واعترفت كل واحدة بالأخرى دولة ذات سيادة ترتبط بعضها ببعض بمفاوضات حرة فقط، بالحرب، والمعاهدة، وتسوي خلافاتها بتبادل سهل من أراضي الإقليم يتم في إطار مصالح توازن القوى، وبصرف النظر عن الناحية القومية أو آمال الشعب التي يفترض أنها تؤثر فيها، وبوجود ألمانيا في ظل الفوضى الإقطاعية، وإيطاليا المستهان بها، وإسبانيا الخاضعة لفرنسا، فإن معاهدة (أوترخت) خلفت من فرنسا وبريطانيا كأعظم قوتين في أوربا تحملان رسالتي مبدئين، وتنشران أنموذجا من الحضارة، وأعظم ما فيها من ميزة هو أنها كونت خصائص حضارة العصر الحاضر^٢.

١ - المصدر نفسه، ص ٣٠١.

٢ - روبرت بالمر، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠١-٣٠٢.

الإمبراطور (جوزيف) الذي خلف (ليوبولد) سنة ١٧٠٥، قد توفي سنة ١٧١١، وارتقى العرش أخوه الإمبراطور (شارل) الذي كان قبل ذلك مرشح الحلفاء لعرش اسبانيا، ولم يكن الحلفاء يرغبون في توحيد التاج الاسباني بالتاج النمساوي بالشدة نفسها التي رفضوا فيها اتحاد التاج الاسباني بالتاج الفرنسي حفظاً على التوازن الدولي، فاضطرت الدول أن تعقد الصلح في مدينة (اوترخت) الهولندية سنة ١٧١٣^١.
وأهم ما جاء في هذا الصلح:

١. اعترفت دول الحلفاء بـ (فيليب الخامس) حفيد (لويس الرابع عشر) ملكاً على أسبانيا، ومستعمراً على أن لا يتحد التاج الاسباني بالتاج الفرنسي بالمستقبل.
٢. حصلت عائلة (هابسبورغ) النمساوية على نابولي، وسردينيا، وميلانو، وبلجيكا التي أصبحت تسمى (بالأراضي) المنخفضة النمساوية، واستمرت هذه التسوية إلى سنة ١٧٩٧.
٣. فازت انكلترا بحصة الأسد من الغنائم التجارية والاستعمارية بحصولها على نيوفولاند، ونوفاسكوتشيا والتي (كانت تسمى أركاديا)، وخليج هدسن من فرنسا، وحصلت على جبل طارق، وجزيرة مينوركا من اسبانيا، كما حصلت على الأفضلية في إصدار البضائع إلى ميناء (قادس) الاسباني، واحتكار تجارة العبيد، وحق إرسال سفينة من البضائع سنوياً إلى المستعمرات الاسبانية، ووعدهم فرنسا أن لا تساعد عائلة (ستيوارت) الانكليزية لاستعادة العرش الانكليزي.
٤. أما الهولنديين فقد استعادوا الحصون على الحدود الفرنسية- البلجيكية، ووعدهم (النمسا) بتقديم المساعدات المالية إليها لحرارتها. كما حصلت هولندا على حق احتكار التجارة في فمر (الشيلت).
٥. أصبح منتخب (براندنبرك) ملكاً على (بروسيا)، وأعترف الإمبراطور بذلك سنة ١٧٢٠، وبذلك تكونت نواة الوحدة الألمانية.
٦. أصبحت (دوقية سافوي) مملكة، وحصلت على جزيرة (صقلية)، ولما استبدلت صقلية (بسردينيا) أصبحت تسمى (مملكة سردينيا)، وبذلك تكونت نواة الوحدة الايطالية^٢.

١ - د. محمد محمد صالح، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٥.

٢ - المصدر نفسه، ص ٣٤٦.

الفصل الثالث

تطور العلاقات الدولية منذ الثورة الفرنسية

المبحث الأول

الثورة الفرنسية ١٧٨٩

كانت فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر تعاني حالة رديئة. فقد كانت حالتها المالية سيئة، وكانت مهددة بإفلاس خطر. أما حالتها الاجتماعية، فكانت أسوأ من ذلك بسبب فقدان المساواة الاجتماعية، والحرية السياسية، ونظام عادل للضرائب، وكذلك كانت الامتيازات الضارة التي يرجع أصلها إلى العصور الوسطى قد عمت جميع أنظمة المجتمع، فهناك امتيازات الكنيسة، وامتيازات النبلاء، وامتيازات جمعيات الأقاليم التشريعية، وامتيازات الهيئات القضائية، وكان الشطر الأكبر من أعباء الضرائب تقع على أكتاف الفقراء، وحرمت الطبقة الوسطى من المناصب في الجيش، والكنيسة، والقضاء، ولم يكن رجال الدين يدفعون الضرائب^١.

ولذا كان الشعب الفرنسي ناقماً على الأوضاع. فقد كانت فرنسا تحكم حكماً مطلقاً من قبل ملوك (آل بوربون) وفقاً لنظرية (الحق الإلهي)، ولم يتقبل هؤلاء الملوك فكرة (مشاركة الأمة) في إدارة الدولة، وتميز نظام الحكم بالتعسف، فضلاً عن الفوضى الإدارية، وعدم الكفاءة التي بدت واضحة للعيان، ولم يعد ذلك النوع من الحكم مقبولاً من الشعب الفرنسي الذي كان مقسماً إلى ثلاثة طبقات: طبقة رجال الكنيسة، وطبقة النبلاء، وطبقة عامة الشعب، وكانت طبقة رجال الكنيسة معفوة من الضرائب، وفي الوقت الذي كانت تتمتع به الطبقتين الأوليتين بالامتيازات تحملت الطبقة الثالثة عامة الشعب عبئ دفع الضرائب الكثيرة إلى الدولة، والكنيسة، والإقطاعيين^٢.

ولذا جاءت الثورة الفرنسية في ١٤ تموز من العام ١٧٨٩، لأن الملكية عجزت عن حل مشكلة الامتيازات، ولأن الشعب الفرنسي كان يعاني مشكلة اقتصادية كبرى، إذ أن موارد طعام الشعب لم تكن ميسورة ومضمونة، فمع كل ثروة

١ - ه. أيفشر، (تاريخ أوروبا في العصر الحديث ١٧٨٩-١٩٥٠)، تعريب احمد نجيب ووديع الضيع، دار المعارف، الطبعة التاسعة، مصر، ١٩٩٣، ص ٦-٥.

٢ - د. خليل علي مراد، وجاسم محمد حسن، ود. عبد الجبار قادر رءوف، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٧-١٣٩.

فرنسا الزراعية، وتترف طبقتها العليا كانت طبقة عامة الشعب عرضة بين آن وآخر لتلك الجماعات، وأهوالها^١.

لقد تأثرت الدول الأوروبية في أحداث الثورة الفرنسية. فقد كان آل بوربون في اسبانيا والصقليتين مرتبطين برابطة الدم مع الأسرة المالكة الفرنسية، فأى انتقاص من شأن هذه الأسرة يؤثر في تلك الأسر تأثيراً سيئاً، وأما الملكة ماري أنطوانيت فقد كانت تنتسب إلى أسرة هابسبورغ النمساوية المالكة، وقد صارت مصالح تلك الأسرة في خطر كبير، وكان الملك ليوبولد الثاني إمبراطور النمسا شقيق الملكة قد رأى في شخص فريدريك وليم الثاني ملك بروسيا حليفاً. وقد أصدر بلاغاً بلنتر، وفيه عدّ إعادة الملكية إلى فرنسا هدفاً مشتركاً لجميع ملوك أوروبا، ولكن البيان كان مجرد تهديد، لأن جيوش الحلفاء لم تكن مستعدة للحرب، ولكن مجرد التهديد كان كفيلاً بإثارة الهيجان في نفوس الشعب^٢.

ولما نجحت الثورة في إزالة الملكية ظهرت حركة مناوئة لها في بريطانيا، ولاسيما لدى الراديكاليين، وقاوم وليم بت رئيس وزراء بريطانيا آنذاك الصيحات التي نادى بها هؤلاء الراديكاليين لمحاربة الثورة، والقضاء عليها خشية من انتقال أفكارها إلى الدول الأوروبية الأخرى، علماً بأنه ظهرت من جهات مختلفة في أوروبا جماعات من أنصار فرنسا والثورة، إذ كانت مبادئ الثورة الفرنسية، ومثلها مبادئ الثورة الأمريكية قابلة للتصدير، وأكد وليم بت أن الشئون الداخلية لفرنسا لا تعني الحكومة البريطانية مطلقاً، في حين كان إمبراطور النمسا ليوبولد الثاني يشعر بان الثورة هي تهديد لدولته، ولكنه لم يتسرع في مقارعة الثورة، ومع ذلك أقلقت الثورة الفرنسية، وحكومتها الجديدة الدول الأوروبية، فكانت وبالاً عليهم، وبعد محاولة هروب الملك لويس السادس عشر، والملكة في حزيران ١٨٩١، ألقى القبض عليهما، وأصبحا سجينين لدى الثوار مما دفع إمبراطور النمسا مع ملك بروسيا إلى إعلان تصريح بلنتر الذي ذكرناه آنفاً إلى انه سيتخذ الخطوات العسكرية لإعادة النظام في فرنسا إلى نصابه، في حين أعلن الجيرونديين من قادة الثورة الفرنسية بأنه لا يمكن صيانة الثورة في فرنسا، إلا إذا عمت العالم أجمع،

^١ - ه.أ. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ٦.

^٢ - كارلتون هيز، (التاريخ الأوربي الحديث ١٧٨٩-١٩١٤)، ترجمة: د.فاضل حسين، جامعة الموصل، ١٩٨٧، ص ٢٠-٣٠.

وفكروا في حرب تدخل فيها الجيوش الفرنسية الدول المجاورة، فتتحد مع ثوار تلك الدول، وتطيح بالحكومات القائمة، وتقيم اتحاداً بين الجمهوريات^١.

ولما أشتد عنف الثورة الفرنسية عزم إمبراطور النمسا ليوبولد الثاني على التدخل، فتحالفت النمسا مع بروسيا ضد فرنسا، وكان الملكيون في فرنسا يعتقدون انه بمجرد الهجوم على فرنسا، فإن الحرب ستنتهي بإعادة أسرة آل بوربون إلى التاج الفرنسي. لقد أدى نشوب هذه الحرب في ٢٠ / نيسان / ١٧٩٢، إلى إعلان الثوار إنهاء الملكية، وإعلان الجمهورية، وتكوين حكومة الإرهاب. لقد عمقت هذه الحرب الشعور القومي الفرنسي بحيث أن كل مواطن فرنسي عدّها قضيته، وللمرة الأولى ظهرت فرنسا كأمة متحدة العناصر. كما أنّها أثارت روح الشعب الفرنسي الحربية بحيث أنّها شجعت بما فيها من خطب وتصريحات حماسية إلى بث الشعور بالتوسع الإقليمي ضد الدول الأخرى، وعزم ثوار فرنسا على عزل النمسا حتى يتمكنوا من اختطاف بلجيكا منها، ومد الحدود الفرنسية إلى نهر الراين، غير أن سوء تصرف الجيرونديين (من ثوار فرنسا) أوقع فرنسا يومئذ في نضال ضد بروسيا والنمسا من غير أن تكون متأهبة للحرب على الإطلاق، وأحرزت فرنسا الجمهورية في مستهل أيامها بضعة انتصارات، ونصبت خلال أسابيع سافوي ونيس، وولايات الراين، وبلجيكا تحت سيطرتها، لقد احتلت بلجيكا، وأخذت تهدد هولندا، وقامت بتحريض رعايا ملك بريطانيا في أيرلندا على العصيان^٢.

وفي أثناء ذلك أخذت الجيوش النمساوية والروسية تتراجع عن فرنسا، وتم نقل الحرب إلى الأراضي المنخفضة النمساوية، حيث موجود هناك حزب كبير يعدّ الفرنسيين محررين، وأعلن الثوار في فرنسا بان الشعب الفرنسي سيعدّ عدو له كل شعب يرفض الحرية والمساواة أو يبيدّها أو يرغب في مساندة الملوك والطبقات ذات الامتيازات^٣.

وكان إعدام لويس السادس عشر في ٢١ / كانون الثاني / ١٧٩٣، عملاً مؤثراً بالنسبة لدول أوروبا، فرغم إحراز فرنسا النصر في فالمي، فإن الموقف العسكري أخذ يتدهور بسرعة أثر دخول بريطانيا الحرب ضد فرنسا، وهناك أسباب أخرى لدخول بريطانيا الحرب، إذ إن أنجاز فرنسا لسلسلة من الانتصارات، حيث عبرت جيوشها

١ - روبرت ر. بالمر، (تاريخ العالم الحديث، الجزء الثاني، أوروبا من ١٧٤٠ إلى ١٨١٥)، ترجمة: د. حسن علي الننون، مراجعة: د. جعفر خصباك، مطبعة أسعد، ١٩٦٤، ص ٢٠٦-٢٠٩.

٢ - ه. أ. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦-٣٣.

٣ - كارلتون هيز، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦.

الراين عند مايتز، وغزوا بلجيكا، ودحروا الجيش النمساوي في معركة جيماب التي تُعدّ أعظم بكثير من معركة فالمي، وأعلنوا أنهم سيقدمون العون لجميع الشعوب الراغبة في استرداد حريتها، وكان هذا الإعلان بمثابة دعوة صريحة لجميع الشعوب في أن تنثور على حكامها المستبدين، وتهديد صريح لكل الحكومات التي تعتقد أن شعوبها راغبة في الثورة عليها، ولذا طردت بريطانيا السفير الفرنسي في لندن اثر وصول أنباء عن إعدام الملك، وفي الأول من شباط ١٧٩٣، سبقت فرنسا بريطانيا إلى إعلان الحرب ضدها، ولم تلبث اسبانيا أن انضمت إلى صفوف الدول المتحالفة ضد فرنسا^١.

وهكذا دخلت فرنسا الحرب، وهي تواجه تحالفاً أوربيا كبيراً يجمع بروسيا، والنمسا، وبريطانيا، وهولندا، وسردينيا، واسبانيا. وقد حلت أولى النكبات ببلجيكا التي احتلتها فرنسا، وفرضت عليها عملتها الورقية، وأعلنت ضمها إليها، وتوجهت بعد ذلك إلى هولندا إلا أنها اضطرت إلى التراجع بعد اشتداد ضغوط الجيوش النمساوية عليها في معركة نيرفندن التي أسفرت عن انتصار النمساويين، وفي الوقت الذي كان فيه الموقف الخارجي خطراً ظهرت في فرنسا قلاقل داخلية. فقد قامت في منطقة لافا نديّة حركة تطورت إلى حرب أهلية ضد الثورة الفرنسية، ونظامها الجديد مثله الإقطاعيون وفلاحوها^٢.

وفي صيف العام ١٧٩٣، تقلبت الحرب ضد القوات الأجنبية بين النصر والهزيمة، فقد استولت بروسيا من جديد على مدينة مايتز، ومضت قواتها لغزو الالزاس كما استولت النمسا، وهولندا، وبريطانيا على حصن كوندي الشمالي المهم، واستسلم بعد ذلك ميناء طولون الفرنسي، ومع ذلك، لم تنهار حكومة فرنسا بسبب ما تتمتع به من قدرة وتصميم في السيطرة على البلاد، وشن الحرب ضد العدو الأجنبي، وكذلك فإن تأليف لجنة الأمن العام، وسيطرة دانتون على هذه اللجنة مكن الفرنسيين من تحقيق النصر.

إن الفضل في تحول مجرى الحرب، وفي تحقيق النصر على جيوش الحلفاء إنما يرجع إلى فرنسا نفسها، وإلى ضعف الحلفاء في مواجهة فرنسا، إذ كان بينهم تباين في المصالح والأهداف، فسرعان ما ظهر التوتر بين النمسا وبروسيا بشأن مستقبل بولندا.

١ - أ.ج.جرانت، وهارولد تمبرلي، أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩-١٩٥٠، ترجمة: بهاء فهمي، مراجعة: د.احمد عزت عبد الكريم، الناشر مؤسسة سجل العرب، بدون تاريخ، ص ١٠٧.
٢ - المصدر نفسه، ص ١٠٨-١٠٩.

وقد تم الاتفاق الثاني لتقسيم بولندا في كانون الثاني ١٧٩٣، فقرر أن تنقسم بروسيا وروسيا الأراضي البولندية المتفق على اقتطاعها، وأن تعوض النمسا الأمر الذي يعدّ من حقها تطبيقاً لفكرة (التوازن الدولي) في الألزاس، واللورين عندما يتم الاستيلاء عليها من فرنسا. وقد تصاعد بمضي الوقت الأمل في أماكن غزو هذين الإقليمين، فأصبح موقف النمسا من حلفائها أقرب إلى العداء الصريح، وبدأت هذه الدول الثلاث تشعر بأنها قد تضطر إلى استخدام جيوشها على ضفاف نهر الفيستولا لا إلى جوار الراين، وفي ظل هذه الأوضاع تحول مجرى المعركة لمصلحة فرنسا. فقد استطاع الجيش الفرنسي أن يفك الحصار الذي ضربته القوات البريطانية على دانكرك في معركة هوندشوت في أيلول ١٧٩٣، وخرج الفرنسيون من المعركة ظافرين، وتمكنوا من فرض الحصار عن دانكرك كما حققوا عدة انتصارات عند الراين وفليري، في حين لم يبذل الحلفاء أية محاولة أخرى لاسترداد بلجيكا من الفرنسيين. وقد أظهر البروسيون الذين ساورهم الشكوك في نيات حلفائهم في بولندا رغبتهم الواضحة في الانسحاب من الحرب^١.

وقد جرى تقسيم بولندا للمرة الثالثة، ودارت مفاوضات التقسيم بين النمسا وروسيا، وأخفى أمرها عن بروسيا رغم أنها منحت نصيباً من الغنيمة، فإن ذلك لم يخفف بالمرّة من شعورها العدائي^٢.

وأخيراً تم في سنة ١٧٩٥، أقرار السلام بين بروسيا وفرنسا في صلح بازل، ويمكن تلخيص الشروط العامة للصلح بما يلي:-

• الشروط العلنية:

١. احتلال فرنسا للضفة اليسرى للراين.

٢. الاعتراف بحق بروسيا في القيام بدور الوسيط لأية دولة ترغب في الصلح

• الشروط السرية:

١. التعهد بتعويض بروسيا عن الأراضي التي جلت عنها في الضفة اليسرى للراين بأراضي أخرى في ألمانيا، وبذلك قبلت بروسيا أن يكون تعويضها عن الأراضي

الألمانية التي رضيت بالتخلي عنها لفرنسا على حساب الولايات الألمانية الصغرى

٢. تقرر أن يتم الاتفاق سراً فيما بعد بين فرنسا وبروسيا على رسم حدود أراضي

شمال ألمانيا التي وافقت فرنسا على الامتناع عن القيام بأية عمليات حربية فيها^١.

١ - المصدر نفسه، ص ١٢٠-١٢١.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٣٦-١٣٧.

وقد كان الصلح مهيناً لبروسيا. وقد حالت شروطه دون عدّها في ذلك الحين حامية بأي وجه من الوجوه لمصالح ألمانيا ككل، وكان كسب فرنسا هائلاً، إذ كان الصلح بمثابة انتصار لها، وأن لم يكن عسكرياً بحتاً، ولكنه انتصار على أية حال، على أعظم دولة عسكرية في القارة الأوروبية، إذ أصبح مؤشراً على انهيار كل مقاومة للجمهورية الفرنسية الفتية، وفي أيار من العام ١٧٩٥، عقدت هولندا، صلحاً مع فرنسا، ووعدت بالانضمام إلى جانبها في الحرب ضد بريطانيا، وفي تموز من العام ١٧٩٥، انسحبت اسبانيا من الحرب بعد أن تنازلت عن جزيرة سان دومينجو لفرنسا، وتعهدت بالتنازل عن بعض الأراضي الأخرى، فبقيت النمسا، وبريطانيا في الميدان^٢.

إن هذه الانجازات والانتصارات العسكرية، وموقف الجيش الفرنسي القوي في الجبهة دفع حكام فرنسا وزعمائها إلى تبني سياسة توسعية قديمة برروها برغبتهم بنشر مبادئ الثورة الفرنسية في أوروبا، بحيث تضعف النظم الملكية، والقوى الخليفة لها فيها، فلا تعود في المستقبل قادرة على مناوئة الحكم الجمهوري الثوري في فرنسا، وانطلاقاً من هذه الرغبة تبنت فرنسا مبدأ ضرورة امتداد أراضيها إلى حدود طبيعية آمنة مما فرض بالضرورة أن تعلن ضم بلجيكا، والولايات الألمانية على الضفة اليسرى للراين، والسافوي، وافيونيون، وبذلك يصبح نهر الراين بمثابة حدود بين فرنسا والأراضي الألمانية، وجبال الألب تُعدّ حدودها الفاصلة مع إيطاليا، وكان إعلان هذا المبدأ ظاهرة ذات إبعاد خطيرة، إذ لم يكن من المتوقع أن تقبله دول أوروبا الكبرى، وبصورة خاصة (بريطانيا، والنمسا) نظراً لما فيه من إخلال بمبدأ (توازن القوى) بين دول القارة الذي مادام تمسك به الجميع، وللحصول على موافقة واعتراف الدول الكبيرة بما قامت به فرنسا تعين على حكومة الإدارة مواصلة الحرب ضد النمسا وبريطانيا. وقد عهدت بهذه المهمة إلى نابليون بونابرت الضابط في الجيش الفرنسي الذي بدأ مهمته بقيادة حملة عسكرية ناجحة ضد القوات النمساوية المرابطة في إيطاليا، وكانت انتصاراته في الحملة بداية لنهاية حكم الثورة، وخاتمة لعهد جديد في فرنسا وأوروبا أدى فيه بونابرت الدور الأول والاهم^٣

١ - المصدر نفسه، ص ١٣٧.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٣٧-١٣٨.

٣ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نغمي، التاريخ المعاصر: أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، الجزء الأول، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٣، ص ٧٠.

المبحث الثاني

الحروب النابليونية

لما جاءت حكومة الإدارة سنة ١٧٩٥، كانت فرنسا ما تزال في حالة حرب مع النمسا، وكانت الخطة العسكرية تقتضي بتقدم الجيش الفرنسي عبر نهر الراين، وألمانيا الجنوبية، ومن هنا إلى الممتلكات النمساوية، وتقتضي بإرسال جيش آخر عبر جبال الألب، وإيطاليا الشمالية، ومن هناك إلى فينا. وقد تم تكليف نابليون بوناپرت بقيادة الجيش عبر إيطاليا لمحاربة النمسا، وفي خلال سنة واحدة تمكن من التغلب على خمسة جيوش نمساوية، واحتل جميع قلاع إيطاليا الشمالية، وقد اضطرت سردينيا إلى إعطاء نيس وسافوي، إلى فرنسا، وحين اقترب نابليون من فينا طلبت النمسا الصلح، فعقدت معاهدة كامبوفورميو، سنة ١٧٩٧، وبها نالت فرنسا الأراضي المنخفضة النمساوية، والجزر الأيونية، ونالت النمسا كتعويض جزئي لها عن جمهورية البندقية، وتعهدت بعدم التدخل في شئون إيطاليا، ونتيجة لهذه الحملة انتشرت سمعة نابليون انتشاراً مفاجئاً، وبعد هذه المعاهدة اتبعت حكومة الإدارة سياسة إحاطة فرنسا بجمهوريات موالية وتابعة لها، وقبل المعاهدة تحولت هولندا إلى جمهورية بتافيا، ثم جرى تحويل دوقية ميلانو، وجنوا، ودولة البابا، ومملكة الصقليين، والاتحاد السويسري، إلى جمهوريات، وفي الوقت نفسه جعل التجنيد إجبارياً، ونتيجة لذلك تألف تحالف ثان يضم بريطانيا، والنمسا، وبروسيا. وقد قدمت بريطانيا الأموال اللازمة، وبذلك استطاعت تجهيز جيوش كبيرة، وخلال العام ١٧٩٩، انتصر التحالف الثاني مراراً، وتم طرد الفرنسيين من إيطاليا، وانهارت أكثر الجمهوريات الموالية، وبدا كأن الحملة الإيطالية لم تكن، ولكن نابليون استطاع من سحب روسيا من التحالف الثاني عندما افلح في إقناع قيصر روسيا بإحياء كتلة الحياض المسلح الشمالية ضد بريطانيا، وتضم روسيا، وبروسيا، والسويد، والداينمارك، وفي الوقت نفسه أعدّ القنصل الأول نابليون حملة إيطالية ثانية ضد النمسا، وسرعان ما قاد جيشاً عبر جبال الألب، ونزل في وادي نهر البو، ثم جرت معركة مارنكو في حزيران من العام ١٨٠٠، وأندحر النمساويون اندحاراً تاماً، ثم انتصر جيش فرنسي آخر بقيادة مورو في موقعة هوهنلندن في جنوب ألمانيا، ولذلك طلبت النمسا الصلح، وعقدت معاهدة لونفيل، وبها أعيدت شروط معاهدة كامبوفورميو^١، وفي ظل معاهدة لونفيل ٩ شباط لعام ١٨٠١، وافق إمبراطور النمسا

^١ - كارلتون هيز، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦-٥١.

على خارطة لأوروبا وصلت فيها الحدود الفرنسية إلى ضفاف نهر الراين، واعترف بالجمهوريات الأربع التي أقامتها فرنسا، وهي جمهوريات باتافيا، وهلفاتيا، والألب الشمالية، وليجوريا، هذه الجمهوريات التي أنشأت لإغراض الدعاية والتأثير في الخارج، أما رئيس وزراء بريطانيا وليم بت، فلم يوافق على الإطلاق على تشكيل أوروبا على هذا النمط^١. وبموجب هذه المعاهدة قررت النمسا الانسحاب من إيطاليا نهائياً، وأن تطلق يد فرنسا في سويسرا، وهولندا، وإيطاليا^٢.

وقد قاد نابليون حملة فرنسية إلى مصر لغرض قطع المواصلات بين بريطانيا والهند. وقد وافق أعضاء حكومة الإدارة على ذلك، وبعد أن احتل نابليون مصر توجه إلى سوريا، إلا أن الحملة توقفت هناك، ونال أميرال البحرية البريطانية اللورد نيلسون انتصاراً عظيماً في خليج أبي قير، وبذلك قطع الاتصال بين جيش نابليون، وفرنسا، واثّر ذلك عاد نابليون إلى فرنسا^٣.

وبعد الانتصارات الفرنسية المتعاقبة على دول التحالف أثار التحالف الثاني، ولم يبق صامداً بوجه نابليون سوى بريطانيا، إلا أن نابليون كان مدركاً تمام الإدراك استحالة تحقيق النصر على بريطانيا، واحتلال بلادهم ما دامت السيادة في البحار للأسطول البريطاني^٤.

وأخذ نابليون يميل إلى مدة من الهدوء والسلام يتفرغ فيها لأوضاع فرنسا الداخلية، ولتنظيم شئون الأراضي الأوربية التي أطلقت يد فرنسا فيها بموجب صلح لونفيل. أما في بريطانيا فقد سادت هناك قناعة بضرورة تحقيق السلم مع فرنسا، وذلك لأن مصاريف الحرب الباهظة التي تكبدتها الخزينة الانكليزية لتمويل الحلفين الأول والثاني قد أرهقت الشعب البريطاني بالضرائب. كما أرادت بريطانيا التفرغ لقضية إيرلندا مما تم التوصل مع فرنسا إلى صلح أميان في ٢٧ آذار من العام ١٨٠٢، وبموجبه اعترفت بريطانيا بحدود فرنسا الطبيعية، أي بضم بلجيكا، وقسم من هولندا، وأراضي الضفة اليسرى للراين، وكذلك قبلت بريطانيا ببقاء النفوذ الفرنسي في إيطاليا، ويعتد هذا الصلح قمة انتصارات نابليون في عهد القنصلية ذلك انه حصل من بريطانيا على

١ - أ.ه. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠.

٢ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نغعي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦.

٣ - كارلتون هيز، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.

٤ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نغعي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦.

اعتراف شرعي وقانوني بزوال الملكية، وبكل التغييرات التي حصلت في فرنسا منذ ذلك الوقت^١.

ولم تلبث أن تجددت المعارك بين فرنسا وبريطانيا التي ألحقت بفرنسا خسارة كبيرة في معركة الطرف الأغر، فتشكل عندئذ التحالف الثالث ضد فرنسا بضم بريطانيا، وروسيا، والنمسا، والسويد، فروسيا لم تكن راضية عن تدخل نابليون المتزايد في الشؤون الألمانية، والنمسا كانت تنتظر منذ أمد طويل الفرصة المناسبة للعودة إلى الحرب، والثأر لكرامتها التي جرحها الفرنسيون أكثر من مرة، وقد أثار النمسا بصورة خاصة إعلان نابليون نفسه ملكاً على إيطاليا، وضم أراضي جنوا، وبارم، وبيامون، إلى الإمبراطورية الفرنسية، أما السويد، فكانت ناقمة على فرنسا، وغير راضية عن محاولاتها الهيمنة على شئون غرب أوروبا بأكملها. وقد عرفت الدبلوماسية البريطانية كيف تستغل مواطن الضعف عند هذه الدول، وجرتما في صيف العام ١٨٠٥ معها، وإعلان الحرب على فرنسا^٢.

لقد كانت دول أوروبا تنظر بعضها إلى بعض نظرة الأعداء، ويتوقع كل منهم الشر إلى الآخر، وكان يبدو أن قوة أي دولة خطر على بقية الدول، وأخذ ينظر إلى المكاسب التي أحرزتها فرنسا بعد الصلح قد زادت ساسة أوروبا التقليديين قلقاً على قلق، ومن المكاسب التي حققتها فرنسا بعد صلح أميان هو أقامتها لست جمهوريات شقيقة في أوروبا، وأصبحت إيطاليا مرتبطة أوثق الارتباط بمقدرات فرنسا، ولم تكف عن التدخل في شئون سويسرا^٣، وظهر هناك صراعاً وتنافساً حول الممتلكات البريطانية والفرنسية فيما وراء البحار. وقد سدت أبواب الممتلكات الفرنسية سداً يكاد أن يكون تاماً في وجه التجارة البريطانية، وكذلك استخدام المهاجرين الفرنسيين الصحف البريطانية لشن حملات من الهجوم العنيف المتواصل على القنصل الأول، وهكذا أعلن نابليون أن صلح أميان لم يعد له وجود، فأعاد احتلال نابولي، وأرسل جيشاً من ثلاثين ألف رجل إلى هولندا، واحتل هانوفر، وأعلن انه سيظل محتفظاً بها ما دام احتفظت بريطانيا بمالطة، وفتح روسيا، وبروسيا، بشأن التحالف معه، إلا أن الدولتين رفضتا ذلك^٤، وسرعان ما ظهر إلى الوجود من الجانب الأخر ائتلاف عظيم، فعاد وليم بت إلى الحكم في العام

١ - المصدر السابق نفسه، ص ٨٧-٨٨.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٠٣-١٠٤.

٣ - أ.ج.جرانت، وهارولد تمبرلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٠.

٤ - المصدر نفسه، ص ٢٠٢-٢٠٦.

١٨٠٤، متلهفًا إلى تسديد ضربة قوية إلى فرنسا و نابليون، وكانت خبرته بدبلوماسية أوربا لا تصارع. فقد أضاف إلى صفه أولاً السويد، وانضمت إليه روسيا، والنمسا، وقد شارك ملوك هذه الدول كرههم لمبادئ الثورة الفرنسية، و نابليون. أما بروسيا فرفضت الانضمام إليهم، في حين تحالفت فرنسا مع اسبانيا التي وقعت مع نابليون معاهدة مدريد في العام ١٨٠١، وكان نابليون يسعى إلى غزو الجزر البريطانية، وقهر بريطانيا في قعر دارها. وفي البحر الأبيض المتوسط انتصرت بريطانيا على أسطول نابليون في معركة الطرف الأغر، وفي بريطانيا كانت الأمة والحكومة شيئاً واحداً على نحو لا مثيل له في أي بلد من البلدان المعادية لنابليون، وهكذا تخلى نابليون عن فكرة غزو الجزر البريطانية^١.

ولما أعلن التحالف الثالث الحرب على فرنسا وصلت الجيوش الفرنسية إلى مدينة أولم، حيث كانت تتركز هناك على نهر الدانوب، وهناك جرت معركة فاصلة انهزم فيها النمساويون في ٢٠ تشرين الأول من العام ١٨٠٥، ولما كان الطريق الأقرب إلى مواقع أعدائه تقع في أراضي بروسيا المحايدة، فإنه لم يتردد في اجتياز حدودها، وخرق حيادها، وفي ٢ كانون الأول من العام ١٨٠٥، جرت أعظم معركة في تاريخ الإمبراطورية الفرنسية على هضبة اوسترليتز في النمسا، حيث ألحقت فرنسا بجيوش النمسا وروسيا هزيمة ساحقة وسريعة، فطلبت النمسا عقد الصلح، وفي ١٦ كانون الأول من العام ١٨٠٥، وقع صلح برسبورغ الشهير، والذي أذل النمساويون، وأطلق يد فرنسا في إيطاليا، وجنوب ألمانيا. أما روسيا القيصرية فقد انسحبت من الحرب عملياً دون أن توقع معاهدة صلح كما فعلت في المرة السابقة. أما بالنسبة لروسيا فقد فرض عليها نابليون معاهدة شائنة حطت كثيراً من كرامتها تعرف باسم معاهدة شونبرون جعل بعض أراضيها أمارات تابعة لفرنسا، وأعطى بروسيا مقاطعة هانوفر الغنية، وجرى توقيع المعاهدة في ١٥ كانون الأول من العام ١٨٠٥^٢.

ثم أعلن التحالف الرابع بين بروسيا، وروسيا، وبريطانيا، والسويد، وأستطاع نابليون أن يهزمهم في معركة بينا ثم تقدم في الأراضي البروسية حتى احتل مدينة برلين، ولما كانت الجيوش البروسية بقيادة ملكها تراجع باتجاه الحدود مع بروسيا لملاقاة

١ - نفسه، ص ٢٠٦-٢١٠.

٢ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نغمي، مصدر سبق ذكره، ١٠٥.

الحصول على موافقة النمسا، وكان مترنيخ يهدف صراحة إلى تحطيم إيطاليا، وتمزيق أوصالها، وكان يخشى من أن الدستور قد يؤدي إلى قيام ثورة ضد أفكاره^١.
والجزء الهام التالي من التسوية يخص هولندا، وبلجيكا، فقد أدمج البلدان في مملكة واحدة تحقيقاً للفكرة ذاتها، وهي تدعيم قدرة الدول الصغيرة على مقاومة فرنسا. كما اعترفت جميع الدول بسويسرا دولة مستقلة، وضمنت حدودها، واستعادت كل من أسبانيا، والبرتغال حدودها القديمة في أوروبا. أما الدانمارك فقد حرمت من النرويج التي تقرر تسليمها إلى السويد التي رفضت الانضمام إلى التحالف ضد نابليون ما لم تنل وعداً بالحصول على النرويج، وفي المؤتمر تم التوصل إلى بعض التسويات، فقد تم النظر بعين الإنصاف في مطالب الأفراد الذين أصيبت ممتلكاتهم في الحرب، وسويت هائياً المنازعات الخاصة بقواعد الأسبقية، والسلوك الدبلوماسي، وسن مبدأ ينظم شئون الأنهار الدولية، وتم إلغاء تجارة الرقيق للمبادئ الإنسانية، فحرمتها فرنسا، واسبانيا، وهولندا، والسويد، ووعدت البرتغال بتحريمها^٢.

نتائج المؤتمر:

منحت النمسا مركزاً مهماً في أوروبا، فقد امتد نفوذها من أقصى شبه الجزيرة الإيطالية إلى أقصاها، وخرجت من حروب الثورة والإمبراطورية الفرنسية ظافرة بأكثر حصة من الغنائم، فزاد عدد سكانها نحو أربعة ملايين ونصف مليون نسمة، وكادت سيطرتها على إيطاليا تكاد تكون تامة فقد نالت مملكة لومبارديا، ومقاطعة البندقية كما ذكرنا، واستعادت تريستا، والساحل الدلماسي، وأصبح هناك أميراً نمساوياً يحكم فلورنسا، وأميرة نمساوية تحكم بارما^٣.

أما فرنسا، فهناك من يرى أنها عوملت باعتدال، ولو أن بروسيا تمكنت من أن تنال مرادها، لكانت مقاطعتا الألزاس، واللورين من بين التضحيات التي فرضت وقتئذ على حكومة لويس الثامن عشر بعد عودتها إلى الحكم. لقد شعر كاستلري وزير خارجية بريطانيا بأنه من مصلحة بريطانيا أن تقدم كل معونة ممكنة لآل بوربون الأسرة الفرنسية المالكة كي تسترجع، وتحفظ بولاء الشعب الفرنسي لها، رغم الصدمة الكبرى التي إصابتها من بعدها عن أعجاز الإمبراطورية الحربية، لقد فرض على فرنسا أن تتخلى

١ - المصدر نفسه، ص ٢٨٢-٢٨٣.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

٣ - ه.أ.فشر، مصدر سبق ذكره، ص ١١١.

عن دوقية بويون، وشطر من الاردين إلى مملكة الأراضي المنخفضة، وأن تسلم حصون سارلوي، ولندا لألمانيا، وأن تدفع غرامة حرية قدرها ٧٥٠ مليون فرنك، وأن تخضع لجيش الاحتلال لمدة من ثلاث إلى خمس سنوات، وأن تعيد الكنوز الفنية التي سمحت لها معاهدة الصلح السابقة باريس الأولى بان تبقئها في يدها، ولكن لم يكن في هذه الشروط ما يتعذر على كرامة فرنسا الوطنية احتماله، غير أن الإحداث بررت مخاوف قيصر روسيا الاسكندر الذي أظهر ارتياحه في حكمة إرجاع آل بوروبون لحكم فرنسا، فلم يقدر تحالف أوروبا على إنقاذ فرنسا فيما بعد من براثن الانقلابات، وأن يحول دون عودة الانقلابات، وأن يحول دون عودة الأفكار البونابرتية، وتأسيس إمبراطورية ثانية فيما بعد، ولكن رغم جميع نقائص ذلك الصلح، فإنه منح أوروبا سلماً نسبياً مدة أربعين عاماً^١.

وفي المؤتمر انبعثت خطة وليم بت رئيس وزراء بريطانيا من جديد في العام ١٨١٣، ولكي تستخدم قاعدة لتسوية ما بعد الحرب، وتبدأ خطط بت بحصر المقترحات الروسية في أهداف ثلاثة رئيسة^٢:-

١. تحرير البلدان التي استعمرتها فرنسا منذ بداية الثورة ثم إعادة فرنسا إلى حدودها السابقة.

٢. العمل بعد تحرير هذه الأراضي من السيطرة الفرنسية لكي تنعم بالهدوء والطمأنينة، بحيث تشكل بذات الوقت حاجزاً أكثر فعالية ضد كل محاولة جديدة من جانب فرنسا.

٣. فإذا أستتب السلام وضع اتفاق عام يضمن الحماية والأمن المتبادل للدول المشتركة من شأنه أن يبعث في أوروبا نظاماً قائماً على الحق العام.

لقد قرر الحلفاء إحاطة فرنسا بسلسلة من الدول الثانوية تزود كل واحدة منها بجزام من القلاع تستخدم كمصد للهجمة الفرنسية الأولى، وتحمي مؤخرتها دولة كبرى، فهولندا تحرس الحدود الشمالية، ومن ورائها بروسيا. أما سردينيا فتحرس الجنوب، وتدعمها النمسا. أما الوسط، فيحميه الحلف النمساوي- البروسي، هذه الأوضاع العامة رأى البعض بأنه يجب أن تكرر ضمن معاهدة عامة توقعها كل الدول الكبرى لكي تضمن التسوية الجغرافية، كما تكون موضوع إتقان منفرد بين روسيا القيصرية،

١ - المصدر نفسه، ص ١١٥.

٢ - هنري كيسنجر، مصدر سبق ذكره، ص ٦٥.

أما بروسيا، فكانت تسعى إلى توسيع رقعتها، وكان الاسكندر يريد ضم بولندا لروسيا، وإقامة حكومات دستورية في أوروبا كما أراد إقامة نوع من النظام الجماعي في أوروبا^١.

في حين كان تاليران وزير خارجية فرنسا يرى بان قاعدة الحقوق الشرعية التي نادى بها هي أساس تسوية مؤتمر فينا، فالحقوق الشرعية هي التي أعادت أسرة بوربون إلى عرش فرنسا، وهي التي أنقذت سكسونيا لال وفتتر، وهي التي ثبتت سلطان البيت المالك في سردينيا، ولم يعط مؤتمر فينا أي اعتبار للقومية أو لرغبات السكان. فقد كان زعماء فينا أمثال مترينخ، وتاليران، وكاستلري، يؤمنون بأن رضاء أوروبا لا يمكن تحقيقه حسب رغبات الشعوب، بل ينال فقط بإطاعة السلطات الشرعية طاعة مطلقة تامة^٢.

وكان كاستلري، ومترينخ ويؤيدهما في هذا تاليران مهتمين غاية الاهتمام بخلق توازن القوى في قارة أوروبا، ولما كانا من ارستقراطي العهد القديم، فإنهما طبقا مبادئ القرن الثامن عشر على مشكلات الساعة القائمة، وإنهما لم يكونا قطعاً راغبين في إعادة الحدود الإقليمية التي اكتسبت قبل الحروب النابليونية، ولكنهما رغبا في استعادة ما أسماه (حريات أوروبا)، وكانا يعينان بذلك (حرية الدول الأوروبية) من تحكم دولة واحدة في شئوئها^٣
أسس التسوية:

إن الاتفاق حول الأهداف المشتركة لم يكن يخفي وجود خلافات بين الدول المتحالفة حول أسس التسوية. فقد حرص مترينخ وزير خارجية النمسا على إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الثورة الفرنسية، وضرب الحركات القومية في أوروبا، وشاركه في ذلك قيصر روسيا (الاسكندر الأول) الذي حرص أيضا على تأكيد سلطة روسيا على بولندا، وكان الأمير فون هاردنبرج الذي مثل ملك بروسيا وليم الثالث قد سعى إلى تأكيد زعامة بروسيا على الولايات الألمانية، في حين سعى كاستلري إلى إقامة توازن دولي يمنع أي دولة أو تحالف من مجموعة من الدول من السيطرة على القارة الأوروبية، مع تأكيد هيمنة بريطانيا على أعالي البحار^٤.

١ - روبرت ريبالمر، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٤.

٢ - ه. أ. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ١١٢.

٣ - روبرت بالمر، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٥.

٤ - د. محمد السيد سليم، تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين، القاهرة، دار الفجر الجديد للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، ص ٧٢.

لقد وقعت معاهدة فيينا في ٩ حزيران من العام ١٨١٥، وقبل انتهاء معركة واترلو، ويمكن وصف القسم الأول من المعاهدة بأنه تسوية التوازن الدولي، فالمبدأ السائد فيه هو حصول كل دولة عظمى على الأراضي التي كانت بجوزقتها في العام ١٨٠٥، أو ما يعادلها. وقد تم تحقيق ذلك إذا ما استثنينا حالة روسيا التي كانت تتفاوض من منطق القوة، فنالت أكثر مما كان يريد لها حلفاؤها، وحصلت روسيا على جزء كبير من بولندا واعدة بتكوين مملكة بولندية وطنية لها دستورها الخاص. وقد رأت بريطانيا والنمسا في هذه المكاسب الروسية أخلاقاً بالتوازن الدولي، وزاد من دواعي الانزعاج احتفاظ روسيا بجيش يقرب تعداده من مليون رجل، أي حوالي ضعف العدد الذي يراه البعض ضرورياً، وفي ألمانيا طبق مبدأ التوازن الدولي تطبيقاً عادلاً، وأن شكت بروسيا من أن الأراضي التي حصلت عليها أقل من تلك التي كانت تملكها في العام ١٨٠٥، وكان هذا صحيحاً، ولكنها كانت تسيطر في العام ١٨٠٥، على رقعة كبيرة من الأراضي البولندية. وقد بادلت بها ألان نصف سكسونيا، ومقاطعة الراين، وهي أراضي ألمانية أصلاً. وقد وازنت النمسا نفوذ بروسيا في ألمانيا بمنعها من ضم سكسونيا كلها كما كانت ترغب، كما أعاد مترنيخ بناء بافاريا كدولة قوية تستطيع الاطمئنان إلى تعاونها، وحصلت هانوفر بفضل صلتها ببريطانيا على كسب جيد من الأراضي. أما جميع الدول الألمانية الصغرى فقد رسمت حدودها، وفصلت معلمها على وفق أهواء النمسا أو بروسيا، ولم يوضع أي اعتبار تقريباً لمصالحها الخاصة. وقد هبط العدد الإجمالي للدول الألمانية الداخلة في الاتحاد الجديد إلى (٣٩) ولاية، واحتفظت النمسا بزعامة ألمانيا الفعلية، وإن لم تتخلف عنها بروسيا كثيراً^١.

والواقع أن النمسا لم تكن تهدف إلى الحصول على مكاسب في ألمانيا، وإنما في إيطاليا، فنالت ولاية البندقية، واستردت لمبارديا، أما بقية الدول الإيطالية، فكانت توابع تسير بالفعل في فلكتها. وقد حصلت بيد مونت على جنوا الأمر الذي يساعدها في الدفاع عن شمال إيطاليا ضد فرنسا، وأعيدت الولايات البابوية إلى الوجود، وأنشئت مملكة نابولي من جديد تحت حكم ملك من سلالة البوربون، ووعد ملك نابولي في معاهدة سرية عقدت بينه، وبين مترنيخ، وبموافقة كاستلري بالألا يمنح بلاده دستوراً دون

^١ - أ.ج.جرانت، وهارولد تمبرلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٢.

المبحث الثالث

مؤتمر فيينا ١٨١٥

عقد مؤتمر فيينا في أيلول من العام ١٨١٤، إذ لم يسبق أن شاهد العالم مثل هذا الاجتماع. فقد حضره ممثلين عن كل دول أوروبا، وكانت الإجراءات قد نظمت تنظيمياً دقيقاً محكماً بحيث أن جميع المسائل المهمة كانت تفصل فيها الدول الرئيسة الأربع: روسيا القيصرية، وبريطانيا، والنمسا، وبروسيا، إذ كانت أعداد الوفود التي حضرت المؤتمر كبيرة، وبميول، واتجاهات مختلفة، فلم يكن عندئذ من الممكن إجراء اجتماعات بصورة جدية، والوصول إلى حلول مقبولة للمشكلات المطروحة بمشاركة كل هذا الجمع من الدول، ولذا أتبع خطة عمل تقضي بأن يجتمع ممثلو الدول الأربع الكبرى المنتصرة في لجنة رباعية تدرس القضايا، وتناقشها، وتطرح لها الحلول، وتعرضها بعد ذلك على الدول الأخرى، ولكن من الناحية العملية، فإن هذه الدول الأربع الكبرى انفردت في توزيع المغام بينها، وعملت على رسم خارطة جديدة لأوروبا. أما الدول الصغرى، فكان عليها أن تقبل صاغرة ما تقره هذه الدول الأربع. وقد عدت فرنسا من الدول الصغرى أول الأمر غير أن رغبة المؤتمر في مراعاة جانب الملك لويس الثامن عشر، ومساعدته في تقوية دعائم عرشه في وجه خصومه الكثيرين في باريس جعل فرنسا تشترك فيما بعد على قدم المساواة مع الدول الكبرى^١.

أهداف المؤتمر:

وكان لهذه الدول أهدافاً مشتركة، وأهداف خاصة، فأما الأهداف المشتركة

فتمثل في:

١. رغبة الدول التي حضرت المؤتمر في القضاء على الأنظمة الثورية والجمهورية في أوروبا، وتحليصها من الأفكار التي زرعتها الثورة الفرنسية من اجل سلامة دول أوروبا.
٢. التمسك بمبدأ الشرعية القاضي بإعادة كل الحكام والأمراء الذين أبعدهم نابليون إلى دولهم، وإعادة حقوقهم الشرعية القديمة أينما كانت، والحفاظة بكل الوسائل على الأنظمة الاجتماعية التقليدية، وعلى سلامة العروش.
٣. عدم الثقة بفرنسا بوصفها مصدراً للشر والتمرد على الأنظمة التقليدية، ولهذا سعى أعضاء المؤتمر إلى أضعافها سياسياً وعسكرياً، وتقوية التيارات المحافظة والتقليدية في فرنسا بحيث لا تتمكن من الإضرار بأمن أوروبا بثورة جديدة^٢.

١ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نعني، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٤٠.

أما الأهداف الخاصة، فكانت النمسا ترى بعد فشل نابليون في غزوه لروسيا ضرورة بناء معادلات دولية جديدة من شأنها إيجاد حلول لمشاكل شائكة تزيدها الاعتبارات الجغرافية والتاريخية تعقيداً، فمن الناحية الجغرافية تقع النمسا في وسط أوروبا، وتحيط بها قوى لا تعرف متى تظهر عدائها لها، وفي أية مناسبة علماً أن هذا الموقع لا تعززه حدود طبيعية جغرافية، فضلاً عن ذلك أن سكانها خليط من قوميات مختلفة، كالجرمان، والسلاف، والماجيار، والايطاليين، لا تجمعهم لغة واحدة، ولا عرف واحد، فالنمسا بحكم أوضاعها المعقدة كانت مكان الاهتزازات والتغيرات للمنطقة بأسرها، وكان الاستقرار ضرورة حيوية بالنسبة لها، إذ كانت تشعر بأنه عليها أن تبدي أهمية الاعتدال، وحيوية توازن القوى، والحاجة إلى إطار الشرعية، وقدسيتها المعاهدات، وكان لاندحار نابليون اثر ايجابي وسلمي في النمسا، فمن الناحية الايجابية، تستطيع النمسا نتيجة لتفكك القوة العسكرية الفرنسية، ولأول مرة منذ ثلاث سنوات أن تتبع سياسة مستقلة حقاً، وغير مقيدة. أما من الناحية السلبية، فقد كانت تخشى النمسا مما يستتبع على تفكك القوة الفرنسية من فوضى، وما ينجم عن ذلك من عدم وضوح¹.

أما كاستلري وزير خارجية بريطانيا، فكان يرى بان بلاده تسعى إلى منع أوروبا من الوقوع تحت وصاية دولة ذات تطلعات عالمية، وأن قارة أوروبا إن وقعت تحت سيطرة دولة واحدة، فسوف يشكل ذلك تهديداً قاتلاً بالنسبة لها، وهذا يمنح بريطانيا مركزاً مهماً في أوروبا قائم على التوازن في القوى، إذ أن التوازن قد صيغ بتعابير سياسية أكثر منها اجتماعية يتركز على تجمع دول متساوية تقريباً في قوتها، لا على مبدأ الشرعية، وهدف بريطانيا بعد محاربتها انتشار الثورة خارج حدود فرنسا، إقامة أوروبا مجتمعة تكون السيطرة عليها مستحيلة، ويستند كاستلري إلى التحالف القائم على الحرب كما يستند إلى التعبير عن سياسة التوازن، وبما انه يرى في الحرب سلاحاً دفاعياً ضد محاولات السيطرة، فمن الطبيعي أن يرى في التحالف حماية من كل اعتداء محتمل، وبما أن محرك السياسة القارية الوحيدة لبريطانيا هو الاستقرار، فقد كان على لندن أن تنصب نفسها حكماً ما بين الدول المتخاصمة².

1 - هنري كيسنجر، درب السلام الصعب، ترجمة: علي مقلد، بيروت، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٤، ص ٢٩-٣٠.

2 - المصدر نفسه، ص ٥٦-٥٩.

ولم يستطع أن يؤدي دوراً في السياسة الأوروبية يؤهل له أهمية بلده، فضلاً عن أن نابليون أقام حاجزاً قوياً بين روسيا القيصرية وأوروبا يمكن استخدامه في كل وقت بمثابة جسر دائم بين فرنسا والحدود الروسية، وهي دوقية وارشو، التي أشرنا إليها، ونظراً لمسألة هذه الأخيرة إلى فرنسا عدّ هذا العمل مضرّاً بالمصالح الروسية، ودلالة على نيات سيئة لدى الفرنسيين^١.

وقد سعى نابليون إلى ضمان أكبر عدد من الدول للوقوف إلى جانبه في حالة صراع محتمل مع روسيا القيصرية، وكان القيصر يقوم بمحاولات مماثلة يشجعه عليها. وقد جرت الحملة على روسيا القيصرية في ١٢ نيسان من العام ١٨١٢، وأنسحب الروس إلى الخلف، حيث تقدم جيش نابليون، وعبر الأراضي الروسية، ودخل موسكو، فراها خالية من السكان، فانتظر من قيصر روسيا أن يعرض عليه الصلح، ولم يعرض عليه ذلك، فأنسحب نابليون، وأمر جيشه بالعودة إلى فرنسا خشية قيام ثورة داخلية هناك، وانضمام الدول الأوروبية لروسيا، وعند العودة قام الجيش الروسي بهجمات قوية ضد جيوش نابليون المنسحبة، وألحقوا فيها خسائر كبيرة، نظراً لبرودة الشتاء، وهطول الثلوج كابد الجيش الفرنسي خسائر جسيمة، وفي كانون الثاني من العام ١٨١٣، بدأ الجيش الروسي بمطاردة الجيش الفرنسي، وشن هجوماً معاكساً، فدخل أراضي بروسيا، وأحتل دوقية وارشو، الموالية لفرنسا، وبذلك قد أنتقل الروس من موقف الدفاع إلى الهجوم مشرعين بذلك قبالة أوروبا الأمل بإمكانية قهر نابليون بعد أن كان ذلك ضرباً من الخيال^٢.

إنهيار فرنسا النابليونية:

تشكل التحالف الدولي السادس في ٢٨ شباط من العام ١٨١٣، حينما عقدت بروسيا تحالفاً مع روسيا القيصرية وأعلنت الحرب على فرنسا في ١٦ آذار، وانضمت إليه كل من النمسا، وبريطانيا، فانتصر نابليون أول الأمر على الجيوش النمساوية المجتمعمة عند مدينة درسدن غير أن قواده خسروا معارك كثيرة خلال شهري آب وأيلول من العام ١٨١٣، وانتشرت الأمراض بين جنوده، ومات من أفرادها مائة ألف محارب، وعند ليبزيغ دارت معركة الأمم التي استمرت أربعة أيام اندحر فيها نابليون، واخذ يتراجع إلى أن اجتاز مع فلول جيشه في أواخر تشرين الثاني من العام

١ - المصدر نفسه، ص ١٢٤-١٢٦.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٢٤-١٢٦.

١٨١٣، نُهر الراين، وبذلك انتقل إلى موقع المدافع هذه المرة عن حدود فرنسا الطبيعية، فعبرت قوات الحلفاء الأراضي الفرنسية، وتقدمت منتصرة باتجاه باريس التي دخلتها في ٣١ آذار من العام ١٨١٤، فأعتزل نابليون عن العرش، وتم دعوة لويس الثامن عشر شقيق لويس السادس عشر لاستلام العرش^١.

وأثر ذلك وقعت معاهدة باريس الأولى في ٣٠ أيار من العام ١٨١٤، بين فرنسا والدول المنتصرة، وساد نصوص المعاهدة الكثير من الاعتدال من جانب الحلفاء، وتم بموجبها إعادة فرنسا إلى حدودها القديمة السابقة للثورة، وسمحوا لها فوق ذلك بالاحتفاظ ببعض المناطق والمدن في الالزاس، وجهات نُهر الراين، والقسم الأكبر من أراضي السافوي وافينيون، وكذلك تركوها تستعيد مستعمراتها فيما وراء البحار ما عدا جزر الانتيل، وبعض الجزر في المحيط الهادئ، ولم تفرض على الفرنسيين أية غرامة حربية أو قبول جيوش الاحتلال على أراضيهم^٢.

ونفي نابليون إلى جزيرة البال التي وافق الحلفاء على إعطائها له مع احتفاظه بلقب الإمبراطور، ولكنه سرعان ما هرب من منفاه في ٢٦ شباط من العام ١٨١٥، وأعاد تشكيل جيشه خلال ثلاثة أشهر بعد أن بلغ نصف مليون جندي، وقرر أن يبادر إلى القتال قبل أن تتجمع جيوش الدول الكبرى، ولكن الأخيرة استطاعت أن تدحره في معركة واترلو في ١٨ حزيران من العام ١٨١٥، وتم نفيه من جديد إلى جزيرة سانت هيلانة، وفي ٧ تموز من العام ١٨١٥، دخل الحلفاء مدينة باريس للمرة الثانية، ومعهم الملك لويس الثامن عشر، وفي ٢٠ تشرين الثاني من العام ١٨١٥، تم توقيع معاهدة باريس الثانية التي كانت اشد وأقسى من سابقتها، إذ فرضت هذه المعاهدة على فرنسا أن تدفع غرامة حربية تبلغ سبعمائة مليون فرنك ذهب، وتعويضات تقدر بأكثر من ثلاثمائة مليون فرنك، وأن تقبل فرنسا، ولمدة خمس سنوات في بعض مقاطعاتها جيوش احتلال تبلغ ١٥٠ ألف جندي تتولى الخزينة الفرنسية دفع نفقاتهم، وأعيدت فرنسا إلى حدودها في زمن لويس السادس عشر، ولم يسمح لها بأن تحتفظ من الأراضي التي استولت عليها في زمن الثورة، إلا بمدينة نيس، وقسم من أراضي السافوي^٣.

١ - المصدر نفسه، ص ١٢٦-١٢٨، وانظر كذلك: بالمر-الجزء الثاني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٢.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٢٩، وانظر كذلك: أ.ه. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٦.

٣ - المصدر السابق، ص ١٣٠-١٣٢، وانظر كذلك: أ.ه. جرانت. وهارولد تمبرلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٧.

القيصر الذي هب لنجدته فقد لحق بها نابليون، وانتصر عليها، وعلى حلفائها الروس في معركة فريدلاند سنة ١٨٠٧، فبادرت الدولتان لطلب الصلح^١.

وفي ٢٢ حزيران من العام ١٨٠٧، عُقدَ اجتماع بين نابليون، وقيصر روسيا، واتفقا على عدم خسارة روسيا لأي جزء من أراضيها، ومساعدتها من قبل فرنسا لتحقيق مصالحها في فنلندا، مقابل اعتراف القيصر بكل التغييرات التي أجراها وسيجربها نابليون في الأراضي الألمانية بموجب معاهدة الصلح مع بروسيا، وفي ٨ تموز من العام ١٨٠٧، وقعت معاهدة تليست التي حملت لبروسيا عقوبات شديدة الصرامة^٢.

فأقام نابليون دوقية تدعى دوقية وارشو خاضعة لحكم ملك سكسونيا في الجنوب، وأنشأ مملكة ويستفاليا في الغرب، ونصب عليها أخاه جيروم، وضم إليها عدة ولايات سلخها من بروسيا، وفرض عليها تعويضات حربية باهظة، واستقرار جيش احتلال ثقيل الوطأة والنفقة على أرضها، وتحديد قواتها المسلحة تحديداً دقيقاً كما أستطاع أن يضمن صداقة قيصر روسيا^٣.

ولما لم يتمكن نابليون من إخضاع بريطانيا فرض عليها الحصار القاري، وذلك في سنة ١٨٠٦، واضطرت أكثر الدول الأوروبية أن تتجاوب مع هذا الحصار طوعاً أو كرهاً، ولما رفضت البرتغال الالتزام بذلك بسبب الصلات الاقتصادية والسياسية بينها، وبين بريطانيا فقد احتلت فرنسا البرتغال سنة ١٨٠٧، كما احتلت اسبانيا، ووقف الأسباب منذ البداية موقف العداء من المحتل الفرنسي، ولكن المقاومة الاسبانية كانت ضارية، واستطاعت أن تلحق بالفرنسيين هزيمة منكرة في معركة بايلن سنة ١٨٠٨، وشجعت هذه المقاومة دول أوربا على المضي قدماً في الثورة على الاحتلال الفرنسي، ومنهم النمسا التي كانت تستعد للمدة ١٨٠٥، و ١٨٠٩، للحرب وتقوية جيشها، وتطوير صناعاتها بانتظار فرصة مناسبة للثأر من الفرنسيين، وأستطاع نابليون أن يلحق بالنمسا هزيمة كبرى في معركة واغرام على أثرها طلبت النمسا الهدنة، وباشرت مفاوضات الصلح، وتم ذلك في معاهدة فينا، إذ فرض على النمسا غرامة حربية باهظة تبلغ ٨٥ مليون فرنك ذهبي، وعلى الصعيد العسكري قضت بألا يزيد عدد جنود

١ - المصدر نفسه، ص ١٠٧.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٠٧.

٣ - أ.ه. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣.

جيوشها في المستقبل بأي حال من الأحوال على ١٥٠ ألف جندي، وتم سلخ من النمسا أراضي يقطنها ما يقارب من أربعة ملايين مواطن^١.

ولم تكن حصيلة الحصار القاري الذي فرضه نابليون على بريطانيا ايجابية، ذلك ان كل ما فعله لم يقض على تجارة الانكليز واقتصادها، لأنها كانت مسيطرة سيطرة شبه تامة على البحار، ولديها أسطول يمكنه مواجهة أساطيل أوروبا كلها مجتمعة، ثم أن بريطانيا احتلت بعض الجزر الصغيرة في بحر المانش، والمحيط الأطلسي، وكذلك في البحر المتوسط جعلتها قاعدة لتهديب البضائع إلى أوروبا، ثم أن الإمبراطورية العثمانية أعطتها تسهيلات تجارية ممتازة في أراضيها، كما حصلت على تسهيلات مماثلة في مستعمرات اسبانيا والبرتغال في أمريكا، وبفضل هذه التدابير اجتازت بريطانيا الأزمة الاقتصادية الخانقة التي أحقت بها في السنة الأولى للحصار، وارتفعت صادراتها تدريجياً من معدل (١٠٠) في سنة ١٨٠٥، وإلى معدل (١٣٠)، في سنة ١٨٠٩، كما قدمت بريطانيا مساعدات لاسبانيا للتخلص من احتلال نابليون. فقد حقق الانكليز سلسلة من الانتصارات الصغيرة على الفرنسيين بمساعدة عناصر من الثوار الأسبان والبرتغاليين^٢.

غزو روسيا القيصرية:

يعود غزو نابليون لروسيا بسبب رفضها علنياً في كانون الأول من العام ١٨١٠، إغلاق موانئها في وجه السفن المحايدة، واتخاذها تعريفية جمركية ملائمة لواردات المستعمرات الانكليزية، ولكنها ضارة بالواردات الفرنسية، ولم يكن نابليون مستعداً أن يطبق انحراف قيصر روسيا عن تأييد النظام القاري. وقد كان نابليون لا يثق بالقيصر، ولم يكن القيصر يبادل الثقة، وأن الحصار المتواصل المفروض على بريطانيا كان قد أضر بتجارة روسيا أكثر من أي بلد آخر^٣. فقد كانت روسيا القيصرية تتبع عادة لانكلترا الحبوب، والغلل، والخشب، والكتان، مما يشكل قسماً رئيسياً من صادراتها إلى الخارج، وبالمقابل أعتاد الروس الحصول عن طريق التجار والصناعيين الانكليز الكثير من السلع الضرورية. وقد أضرت سياسة الحصار القاري كثيراً بروسيا، فضلاً عن ذلك أن قيصر روسيا لم يحصل على مكاسب من تحالفه مع فرنسا، فهو لم يستطع أن يحقق مطامعه في الإمبراطورية العثمانية، وبصورة أخص إطلاق يده في أستنبول والمضائق،

١ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نغعي، مصدر سبق ذكره، ص ١١١-١١٨.

٢ - المصدر السابق نفسه، ص ١١٩.

٣ - أ. ه. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٢-١٠٣.

٤ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نغعي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٢-١٢٣.

تقنن في ذلك العهد بقواعد قانونية، كما حصل ذلك تدريجياً خلال القرن التاسع عشر. وفي فينا أصبحت قواعد العدل، واحترام حقوق الآخرين، والحكمة، والاعتدال في الإطماع تعتبر شيئاً أساسياً مناقضاً لسياسة نابليون، حتى أن الاسكندر الأول بعد حكم المائة يوم لنابليون والانتصار عليه في واترلو حاول في معاهدة الحلف المقدس أن يعمل على تأسيس العلاقات الدولية على قواعد الأخلاق نفسها التي تسود علاقات الأفراد.

لقد خرجت أوروبا في مؤتمر فينا من الحرب، ولم تكن لها نية في العودة إليها، ولذلك أرادت أن يكون هنالك حل وسط يسوي بين المنافع والمطامع المتناقضة، وهذا الحل الوسط لا يمكن أن يقوم إلا بتنازل متبادل بين الدول. لقد أوصت فكرة التوازن التي أقامها المؤتمر بتأسيس دول وسط على درجة من القوة تستطيع أن تكون أهلاً للحياة بنفسها، وأن تناهض مطامع الدول الكبرى، وتلمس الفكرة ذاتها في مفهوم الدول الفاصلة عن حدود الدول العظمى الطموحة بغية الحفاظ على حدودها، وذلك مثل مملكة البلاد المنخفضة شمال فرنسا، ولتوطيد هذا التوازن قرر أعضاء المؤتمر حذف الدول الصغرى التي كانت عدة، في وسط أوروبا. أما الطرق التي اتبعها الحلفاء لتحقيق هذا التوازن هو إيجاد حصص، وشكلت دول بناء على حسابات قامت بها لجنة الإحصاء، واتخذت هذه كقاعدة لذلك ثلاثة عناصر: (المساحة، والموارد، والسكان)، وبتخاذ هذه العناصر الثلاث كانت تسوى الحصص المتوازنة، فعلى سبيل المثال، أضاعت بروسيا ثلاثة ملايين ونصف المليون من السكان لروسيا عن بعض الأراضي في بولندا، وعوضت عن ذلك بإعطائها بعض المناطق، وعلى وفق هذا المفهوم حذفت فكرة الحدود الطبيعية التي نادى بها الثورة الفرنسية¹.

¹ - دنور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية، الجزء الأول، يقضه القومية الأوربية والقومية الوطنية، لبنان، دار الفكر الحديث، ١٩٦٧، ص ٢٧٧-٢٨٣.

وبريطانيا اللتين تشكلان النموذجاً مزدوجاً، وهكذا تتلخص طبيعة العهد البريطاني، وتعلن الحرب باسم الأمن وليس باسم العقيدة، وضد سيطرة شاملة، أما الهدف من وراء ذلك وهو تأمين توازن القوى عن طريق تصغير فرنسا، وتكبير الدول المركزية، وهذا التوازن بالنسبة لبريطانيا يجب المحافظة عليه بوصفه ضماناً جغرافية^١، وبما أن بريطانيا بعيدة نوعاً ما عن الخصومات في القارة فقد كان بمقدورها الدفاع عن الحلول التي تؤمن هدوءاً عاماً، وهي لا تستطيع ذلك إلا بقدر ما ينتفي الشك عنها بأنها تتحرك من مواقع أنانية، ولهذا السبب لم ينفك كاستلري بالتشديد على الاعتدال، وعن إقامة سلم قائم لا على التفوق والسيطرة، بل على التوازن، وعلى السعي وراء الوئام، وليس الانتقام^٢.

أما بروسيا، فكانت تواجه معضلة ليس لها حل، فقد أدت هزيمة العام ١٨٠٦، قبالة نابليون إلى جعلها دولة من المرتبة الثانية، واقتطعت أراضيها بما يعادل الثلثين، وأدت حملة بروسيا على أن بولندا أصبحت مجرد تابع لنابليون، واستخدمت يومئذ كمستودع تموين للجيش الأكبر، وحارب جيشها الاحتياطي تحت أمرة فرنسية^٣.

لقد بين مؤتمر فينا أن أوروبا، ولأول مرة منذ قرون كانت بحاجة إلى البناء، والإنشاء على أسس جديدة، لأن التوسع النابليوني قد وصل إلى نهر الفيستولا، فضلاً عن أن أكثر المشاق التي عاناها الأوروبيون بسبب كثرة الحروب كونت ضرورة فرضت على الدول الأوروبية البحث عن سياسة تستطيع بواسطتها الحيلولة دون عودة الحرب مرة أخرى، ولذا كان لزاماً عليها أن تؤسس نظاماً أوروبياً جديداً لا يقوم على القوة، والحرب، واقتطاع، وتقسيم الأراضي. لقد تصور قيصر روسيا الكسندر الأول سيد السياسة الأوروبية بعد نصر العام ١٨١٤، أن أوروبا بحاجة إلى بناء أسس عادلة تعمل على توطيد السلام الأوربي على أسس ثابتة وممتينة، وكان هذا النظام الأوربي المزمع إنشائه يقوم على نبذ فكرة القوة في تحقيق الأهداف السياسية كما يقوم أيضاً على اعتبار عدم جدوى تغيير الوضع القائم بعد صدور الصك النهائي للمؤتمر في ٩ حزيران ١٨١٥، وكانت الغاية من ذلك هو بناء السلام الأوربي على أساس عقد جماعي، وكذلك عمل المؤتمر على إخضاع العلاقات الدولية إلى قواعد العقل، والعدل، والاحترام المتبادل، أي إلى مجموع القواعد التي يطلق عليها اسم حقوق البشر، والتي لم

١ - المصدر نفسه، ص ٦٦.

٢ - المصدر نفسه، ص ٦١.

٣ - المصدر نفسه، ص ٣٥.

الفصل الرابع:

تطور العلاقات الدولية بعد مؤتمر فيينا

- المبحث الأول:

الخارطة الأوروبية الجديدة

- المبحث الثاني:

المؤتمرات الدولية بعد مؤتمر فيينا

- المبحث الثالث:

المسألة الشرقية

ولما سببت الثورة الفرنسية، ونايوليون المتاعب العديدة لحكومات أوروبا حتى أصبحت الفكرة المسيطرة على عقول ساسة أوروبا هي العمل على منع عودة الثورة الفرنسية، ونايوليون، وما شابهها منعاً باتاً. فقد عقد المنتصرون في العام ١٨١٥، العزم على العمل على منع تكرار الثورة الفرنسية، وضرورة اجتثاث كل رأي حر من أصوله على الفور لكي لا يؤدي إلى قيام بيئة ثورية جديدة في أوروبا، وكان طبعياً أن تكون أحاسيس البغضاء والخوف من الثورة على أشدها في الدول الثلاث التي غزت جيوشها نايوليون أراضيها فقد اتفق ملوك بروسيا، وروسيا، والنمسا على أن واجبههم إزاء أوروبا والحضارة يقتضي تحالفهم من أجل القضاء على الثورة الفرنسية، وسرعان ما انضمت إليهم بريطانيا، وقد تعهدت هذه الدول باستمرار العمل على إقصاء بيت بونابرت عن فرنسا، ولكن لم يبدو في خاطر تلك الدول أن يقيموا عصبة أمم غير أنه نص في مواد هذا التحالف الرباعي على وجوب اجتماع ممثلي الدول المتعاقدة في مراحل يتفق عليها للبحث في مصالحها المشتركة، وفي الشؤون التي تمس السلام في أوروبا، ولم يكن في ذلك الوقت أية أمكانية على تحقيق أفضل من هذا التضافر المؤلف من دول أربع عظمى مرتبطة معاً بعهود العمل على صيانة قضية السلام الأوربي إلا أنه لم يمر وقت طويل حتى أصبح واضحاً أن إتحاد تلك الدول كان أسماً أكثر فيه حقيقة. فقد كان مترنيخ يبغى جعل التحالف الرباعي أداة فعالة لقمع الحركات الحرة في جميع أرجاء أوروبا، في حين كان كاستلري يرى انه ليس جزءاً من واجب الدول الأربع ان تتدخل في الشؤون الداخلية للدول، وكان يرى ضرورة تقوية ألمانيا كي تصبح سداً في وجه كل من فرنسا وروسيا، وعلى الرغم من تقديره الكبير لأهمية التحالف مع النمسا كدعامة من دعائم المبادئ المحافظة الأوربية، فإنه لم يكن يرغب في جر بريطانيا إلى التورط في مشاحنات الدول الأوربية^١.

لقد أتسمت الحقبة التي أعقبت معاهدة باريس، ومؤتمر فيينا بالتعاون الوثيق بين كاستلري، ومترنيخ، وكان هذا التعاون قد واجه أزمات مختلفة صدعت التحالف، ويرجع اتفاق أهداف هاتين الشخصيتين إلى تلاقي مصالحهما من جهة، وإلى ضغوطات قيصر روسيا من جهة أخرى، وما دام أن بريطانيا كانت تبحث عن أمنها في استقرار القارة، فإن النمسا كانت حليفها الطبيعية، وكانت هاتان الدولتان تدافعان عن الوضع

^١ - أ.ه. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ١١٦-١١٩.

الفصل الرابع

تطور العلاقات الدولية بعد مؤتمر فينا

المبحث الأول

الخارطة الأوروبية الجديدة

يمكن عدّ قرارات مؤتمر فينا، والمعاهدات الملحقة به أعظم اتفاق دبلوماسي تم التوصل إليه في أوروبا منذ صلح ويستفاليا. وقد كان لهذه القرارات نواحي إيجابية. فقد قبل الفرنسيون نتائج فينا، لأنها ألحقت بفرنسا أقل قدر ممكن من الخسائر، فضلاً عن ذلك أن قرارات المؤتمر أدت إلى إيجاد حل للمشكلة البولندية التي كانت إحدى المشكلات في القرن الثامن عشر، وأثارت عدة حروب بين روسيا، وبروسيا، والنمسا، وربما كان هذا أحد الحلول التي أهدت سبباً رئيسياً لخلاف الدول الكبرى في أوروبا الوسطى والشرقية، ولكنه من جهة أخرى جاء هذا الحل على حساب آمال الشعب البولندي الذي فقد وجوده نهائياً كدولة وكامة، وفي ألمانيا تحققت التسوية، ولو أنها أيضاً كانت على حساب آمال الألمان، من حدة الصراع الذي أستمروا خمسون عاماً تقريباً بين بروسيا والنمسا حول الزعامة بين الدول الألمانية، وكذلك أطلقت قرارات المؤتمر يد بروسيا في شرق أوروبا، وجعلت من ألمانيا وإيطاليا مناطق النفوذ النمساوي. أما البحار، والمحيطات، والمواصلات الدولية. فقد أصبحت حكراً لبريطانيا، ولكي لا تحول أي من هذه الدول الثلاث أن تتجاوز الحدود المرسومة لها في فينا مما قد يعكر السلام الأوربي كانت هناك دولتان تمارسان دور صمام الأمان، ففرنسا ظلت دوماً تترصد النمسا لتمنعها من أن توسع مناطق نفوذها في إيطاليا وبروسيا كانت تسعى دوماً لمعارضة كل تزايد للنفوذ الروسي في شرق أوروبا والنمساوي للعالم الجرمانى، وفوق هذا وذلك تكفلت انكلترا بمراقبة سياسة القيصر الروسي تجاه الإمبراطورية العثمانية، ومنعه من أحداث تغيير أساسي في البحر الأسود، والمضائق التركية، والواقع أن هذا النظام على ما فيه من تناقضات قد نجح في صيانة السلم الأوربي حتى منتصف القرن التاسع عشر، وهو الأمر الذي لم يكن يتوقعه أكثر المتفائلين من بين الساسة الذين رسموا خارطة أوروبا السياسية بعد سنة ١٨١٥^١.

١ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نغمي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩-١٥٠.

فيما بينها بالتشاور عن طريق مؤتمرات دبلوماسية بصورة دورية أو كلما بدا السلام مهدداً، واتخاذ العمل المشترك ضد أية محاولة للعدوان^١.

وفي أثناء ذلك قدم القيصر مشروعاً خاص به لحفظ السلام، إذ شعر أن القوة المادية، كما يصورها الحلف الرباعي ليست كافية، ويجب أن تستكمل بحلف مسيحي روحي، ولذلك أقنع في أيلول من العام ١٨١٥، ملك بروسيا، وإمبراطور النمسا، ليؤلّفاً معه حلفاً مقدساً، وبه أعلن الرؤساء الثلاثة عزمهم الثابت على إدارة دولهم، وفي علاقاتهم الدولية مع الحكومات الأخرى على أن يتخذوا دلالتهم الوحيدة والمتمثلة في مبادئ الدين المسيحي، وكان الاسكندر السياسي الوحيد الذي أخذ الحلف المقدس مأخذ الجد دون مترنيخ، في حين نظر إليه الآخرون بارتياح. أما الأحرار فقد عدّوا الحلف المقدس تجسيداً لمؤامرة شيطانية للقضاء على الحرية الفردية والقومية، وكان كل من كاستلري، ومترنيخ لا يثقان بموقف قيصر روسيا الطموح، والجيش الكبير الذي أحفظ به في بولندا، والذي كان على أهبة الاستعداد للحرب، وهذا ما زاد في رغبتهما في تعزيز وتقوية الحلف الرباعي، وإبقاء روسيا ضمن قيودها وحدودها، ولذلك رأينا أنه في سنة ١٨١٨، وحينما وفت فرنسا بالتزاماتها المالية إلى الحلفاء قبل سنتين من الموعد المحدد، وأظهرت بصورة مستمرة نياتها السلمية عندما عقد أول مؤتمر من المؤتمرات الدولية التي قررها المحفل الأوربي في أكس لاشايل، إذ وافق الحلفاء على سحب جيوشهم الحليفة من الأراضي الفرنسية، وتم قبول فرنسا في عضوية المحفل الأوربي على قدم المساواة مع النمسا، وبريطانيا، وبروسيا، وأصبح الحلف الرباعي حماسياً^٢.

١ - كارلتون هيز، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩.

٢ - المصدر نفسه، ص ٩٩-١٠٠.

القائم، الأولى أن الاستقرار هو هدفها في القارة، والثانية أن مصيرها يتعلق بهذا الاستقرار، وهما تتفقان أيضاً في النظرة إلى التوازن الأوربي، فهما يدعمان وجود أوروبا قوية وموحدة من اجل ضمان الهدوء في القارة وأن النمسا قوية هي الركيزة في أوروبا الوسطى. فضلاً عن ذلك تواجه كل من بريطانيا والنمسا روسيا القيصرية التي استطاعت أن توسع حدودها، خلال جيل من الزمن، من الدينير إلى الفستولا. لقد عاجلت اتفاقيات السلام، والصك الثاني لمؤتمر فينا مسألة توزيع الأراضي في أوروبا، وأما مسألة الضمانات التي قدمتها هذه الاتفاقيات فقد ظلت موضع جدل. فقد اعتقدت بريطانيا بأن معاهدة العام ١٨١٥، كانت تهدف إلى مواجهة قيام فرنسا باعتماد جديد، في حين اعتقد الروس بان المعاهدات تتضمن ضمان الوضع القائم داخل وخارج الحدود الوطنية لكل دولة، وأن اتفاقيات التحالف الموجهة ضد فرنسا بينت أن أوروبا كانت في حدود تنظيم نفسها، ولو جزئياً، في الأقل، وعلى أساس الخوف من عدو مشترك، وكان كاستلري قد أدخل عنصراً جديداً، لم يكن قائماً في العلاقات الدولية بين الدول الكبرى، وهو إقامة حكومة على مستوى أوروبا^١.

وهكذا ظهر التحالف المقدس في ٢٦ أيلول من العام ١٨١٥، بإتحاد وثيق من الدول الأوروبية الثلاث روسيا، وبروسيا، والنمسا، وكانت سياسته تهدف إلى مقاومة مبادئ الحرية، والقضاء على الثورات، وهو التحالف الذي أجم الحياة الفكرية في ألمانيا، وقمع الحركات الدستورية التي قامت في ايطاليا، وأرجع أسبانيا إلى الحكم المطلق، ورفض الاعتراف بديمقراطيات أمريكا الجنوبية. وقد اصطدم هذا التحالف المقدس اصطداماً عنيفاً بفلسفة بريطانيا السياسية التي تميل إلى الحرية، إذ أن بريطانيا رفضت الانضمام إليه^٢.

لقد أراد مترنيخ أن يقلل من احتمالات الصدام في المستقبل، وذلك بالاستمرار في التحالف بين الدول الكبرى الذي سبب سقوط نابليون، وتحويله إلى محفل سلام دائم، ولهذا الغرض أفلح مترنيخ في عقد معاهدة باريس الثانية في تشرين الثاني من العام ١٨١٥، بعد وقت قصير من عقد معاهدة فينا وفي هذه المعاهدة جعل بريطانيا، وروسيا، وبروسيا، تتفق مع النمسا في تقوية التحالف الرباعي الذي أوقف الحرب، وإدامته كوسيلة لضمان التسوية السلمية، فهذه الدول الأربع التي كونت المحفل الأوربي تعهدت

^١ - هنري كيسنجر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٦٨-٢٦٩.

^٢ - أ.ه. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩.

وشرعية عقد مثل هذا الاجتماع الذي يناقش قضايا داخلية خاصة بها، على أن ترسل مندوبين عنها يشاركون في أعمال المؤتمر^١.

إن تمسك بريطانيا بهذا القرار قد ظهر وبشكل عملي بعد ثورة أسبانيا سنة ١٨٢٠، والتي أجبرت الملك الاسباني على القبول بدستور العام ١٨١٢، والذي عدّه الشعب الاسباني مكسباً ديمقراطياً، وحاول قيصر روسيا منع ملك اسبانيا عن هذا العمل عن طريق إرسال جيش لإلغائه بالقوة، إذا حزم الأمر، إلا أن بريطانيا أصدرت وثيقة رسمية في أيار من العام ١٨٢٠، أكدت فيها على تعهدها بمنع عودة نابليون أو أي فرد من أفراد أسرته إلى العرش، وبالحفاظة على التدابير الإقليمية المتفق عليها في فينسا بالقوة المسلحة لمدة عشرين عاماً، وعليه تعدّ بريطانيا أن الثورة الاسبانية مسألة داخلية لا تشكل خطراً على البلاد الأخرى، وأن دوافع بريطانيا في موقفها من اسبانيا باعتبار الأخيرة ذات سواحل وموقع مهم على البحر المتوسط، والمحيط الأطلسي، ولها ممتلكات واسعة فيما وراء البحار مما له علاقة بقوة بريطانيا البحرية، وخشيتها من سيطرة فرنسا على هذه المنطقة.

إن الموقف البريطاني جاء نتيجة لتراكم عدة أحداث توجتها القضية الاسبانية، وربما يكون تدخل مترنيخ في شئون الولايات الألمانية سنة ١٨١٩، إحدى المؤشرات التي لم ترضَ عليها بريطانيا، والتي تبين الفرق بين التفسير النمساوي والبريطاني لمسألة المحافظة على الحدود السياسية، والتوازن الدولي الذي أقره مؤتمر فينسا. لقد أخذ مترنيخ يتشدد تجاه الحركة القومية التي بدأت تتصاعد عند الألمان، إذ ظهر في ألمانيا بعد مؤتمر فينسا العديد من الكتاب والمثقفين الألمان يبشرون بمبادئ الثورة الفرنسية، ويدعون لتوحيد ألمانيا في كتاباتهم، وعلى مجد التاريخ الألماني، وحضارتهم^٢.

ولهذا كان هناك اختلاف في وجهات النظر بين كل من روسيا القيصرية والنمسا من جهة، وبريطانيا من جهة أخرى، إذ كانت بريطانيا تحشى مما قد يسعى إليه قيصر روسيا من سياسات توسعية تجاه البلقان، والبحر الأسود، والمضايق، وساد موقف بريطانيا في نهاية المطاف، إذ صدر بيان عن المؤتمر حدد فيه حالات التدخل في شئون الدول الأخرى^٣.

١ - أ.ج.جرانت وهارولد تمبرلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٨-٢٨٩، وانظر كذلك د.محمد مظفر الأدهمي، تاريخ اوربا في القرن التاسع عشر، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٨، ص ٧٠.

٢ - د.محمد مظفر الأدهمي، المصدر نفسه، ص ٧٢-٧٣.

٣ - د.عبد العزيز سليمان نوار، ود.عبد المجيد نغعي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٨-١٦٠.

المبحث الثاني

المؤتمرات الدولية بعد مؤتمر فينا

عقدت بعد مؤتمر فينا سلسلة من المؤتمرات الدولية لمناقشة القضايا الأوروبية بين

الدول الأوروبية الكبرى، وهي:

أولاً: مؤتمر أكس لاشابيل، أيلول في العام ١٨١٨:

إذ عُقدَ هذا المؤتمر للنظر في قضية جلاء الجيوش الأوروبية التي احتلت فرنسا لتخليصها من نابليون، وإعادة عرش فرنسا إلى لويس الثامن عشر، وكانت معاهدة باريس الثانية قد نصت على هذا الاحتلال، إذ حضر المؤتمر قيصر روسيا، وملك بروسيا، وإمبراطور النمسا يرافقه وزير خارجيته مترنيخ، ووزير خارجية بريطانيا كاستلري، ودوق ولينغتون، ورئيس وزراء فرنسا، وبالنظر لالتزام فرنسا بقرارات مؤتمر فينا، وما أبدته من رغبة في السلام، ومسعى في حفظ التوازن الدولي وافقت الدول الحليفة على الجلاء عن الأراضي الفرنسية، وكانت فرنسا قد تعهدت بدفع جميع ما تبقى عليها من تعويضات وغرامات بموجب هذه المعاهدة مرة واحدة، ويعود الفضل في ذلك إلى رغبة قيصر روسيا بإعادة فرنسا على قدم المساواة مع الدول الأخرى من أجل أن تكون حليفة له في غرب أوروبا، ولا يمكن أن يغفل صداقته المتينة مع رئيس وزراء فرنسا ريشليو، ويمكن أن نشير أيضاً أنه بسبب مخاوف بريطانيا من تجدد أخطار الثورة الفرنسية وقعت الدول الأربع الكبرى بروتوكول سري أكدت فيه تمسكها بمبادئ التحالف الرباعي، وقرارات مؤتمر فينا^١.

وقد أثرت قضايا أخرى في المؤتمر، منها ما آثاره قيصر روسيا بخصوص مسألة المطالبة التي بدأت تطرح في بعض الأماكن بخصوص التغيير الدستوري، والأفكار الثورية سواء في إيطاليا أو ألمانيا أو إسبانيا، وأقترح لمعالجة هذا الأمر أقرار مبدأ التدخل في شئون الدول الأخرى الداخلية عند الضرورة. وقد تحمس لهذا المقترح مترنيخ، في حين عارضته بريطانيا بشدة، إذ سادت في النهاية وجهة نظر الأخيرة بإصدار بيان تم فيه تحديد الحالات التي يمكن التدخل فيها، إذ اشترط البيان المذكور أن لا يجتمع أعضاء التحالف الخماسي لبحث قضية دولة أخرى إذا لم تطلب تلك الدولة، وبصورة رسمية

^١ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نغمي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٧-١٥٨.

ثانياً: مؤتمر (كارلسباد) ١٨١٩:

بالنظر لنشاط الحركة الوطنية في ألمانيا، ولاسيما في الأوساط الجامعية فقد عقدت هذه الأوساط في جامعة (ينا) سنة ١٨١٧، أول مؤتمر عام للطلاب الألمان. وقد شغلت هذه التطورات بآل مترنيخ، ونظراً لاغتيال احد الطلاب الوطنيين كاتباً وصحفيّاً بروسياً معروفاً بصلته بقيصر روسيا، أستغل مترنيخ هذه الحادثة، ودعا إلى عقد مجلس الاتحاد الجرمانى (الدايت) في (كارلسباد) الذي أقر فرض قيود في جميع أنحاء ألمانيا على الحريات الشخصية، وأعاد الرقابة على الصحف، والمطبوعات، والجامعات، وقرر مجلس الاتحاد بصورة استثنائية تعيين لجنة رقابة دائمة للإشراف على نشاط وأعمال الجامعات الألمانية، ولما كانت جميع الدول الألمانية سواء عن قناعة أو خوف قد ألزمت بتنفيذ هذه القوانين فقد رأت فيها جماهير الألمان محاولة من جانب التحالف المقدس، ومترنيخ لفرض سياسة رجعية استبدادية في كل أنحاء ألمانيا^١.

ثالثاً: مؤتمر(تروباو) لعام ١٨٢٠:

إن إخماد الحركة المطالبة بالحريات في ألمانيا لم يرهب المناطق الأوربية الأخرى، وفي مقدمتها إيطاليا التي فقدت شعبيها الاحترام، والمودة للعوائل التي أعيدت لعروشها، وانتهت هيبه النظام القديم الذي أخذت الشعوب تنظر إليه على انه نظام مستغل وغاصب، ومن ناحية أخرى فقد ألهمت مبادئ الثورة الفرنسية المشاعر في إيطاليا، وقلبت القيم والمفاهيم رأساً على عقب، فأصبحت العلمانية هي السائدة بعد أن كانت سلطة الكنيسة واسعة الانتشار قبل ذلك. وقد تم ذلك في مملكة لومبارديا-البندقية، ومملكة بيد مونت- السار دية، وفي نابولي، حيث فرض في المملكة الأولى القانون النمساوي، وليس الايطالي، وحصرت الوظائف العليا بيد النمساويين أو الألمان، وكان الجنود الذين يحتلون البلاد يظهرون قساوة واستعلاء، أما في المملكة الثانية فقد أعيدت الامتيازات الإقطاعية، والمحاكم الكنسية، وفي نابولي أعيدت الأموال والممتلكات إلى المهاجرين، وصدر عفو عن أعداء الثورة الفرنسية. وقد ظهرت في المدن الايطالية بواكير التنظيم السري المعادي للأنظمة المستبدة المرتبطة بالنمسا وقد قاد هذه التنظيمات، وانضم إليها، وأيدها عناصر مؤثرة في المجتمع، وهي البرجوازية التجارية التي فشلت تجارها بالرسوم والمكوس الداخلية، وبعودة التشريعات القديمة مع استرجاع الامتيازات إلى طبقة النبلاء، وأن نمو ونشاط الحركة الفكرية في شمال إيطاليا، وخصوصاً في مملكة لومبارديا- البندقية، وتطور التنظيمات السرية، وانتشارها في إيطاليا قد أدى إلى اندلاع

^١ - المصدر نفسه، ص ١٦١.

ثورة في نابولي سنة ١٨٢٠، توسعت وتحولت إلى ثورات امتدت إلى مملكة لومبارديا-البندقية، وبيد مونت، وكان لثورة اسبانيا لسنة ١٨١٢، صدى مباشر في قيام ثورة نابولي، وغيرها من المدن الايطالية، وتحت تأثير ذلك أضطر ملك نابولي إلى تقديم الوعد للفحامين بإعلان دستور البلاد على أن يكون هذا الدستور هو الدستور الاسباني لسنة ١٨١٢^١.

وكان ذلك ضربة لمتريخ الذي كان يجابه صعاب مماثلة في اسبانيا، وألمانيا، ولاسيما أن الثورة امتدت إلى الشمال الايطالي، واتخذت طابع العنف والرغبة الواضحة في التخلص من النفوذ النمساوي، لقد رأى متريخ أن تساهله في مكان واحد سيؤدي حتماً إلى تشجيع الآخرين في ايطاليا، وبقية أنحاء أوروبا على الثورة، ومن ثم افهيا النظام الأوربي الذي تم اقامته سنة ١٨١٥، ولذلك قرر متريخ إرسال حملة عسكرية إلى ايطاليا متذرعاً بمبادئ التحالف المقدس، غير أن الفرنسيين الذين كانوا يرغبون في الحد نفوذ النمسا في ايطاليا عامة، أبدوا معارضة شديدة لهذا التدخل، وتذرعوا بالتصريح الصادر عن الدول الكبرى عقب مؤتمر أكس لاشايل، والذي يشترط القيام بالتدخل في شئون دولة أوربية أن تطلب هذه الدولة نفسها مثل هذا التدخل، ولما لم تكن نابولي قد طلبت مثل هذا الأمر من النمسا أو من الدول الكبرى، فلا مبرر إذن لتدخل عسكري من قبل متريخ. وقد أسفرت معارضة الفرنسيين عن اتفاق الدول الكبرى على عقد مؤتمر خماسي في مدينة تروباو في سليزيا في تشرين الأول من العام ١٨٢٠، وحضر المؤتمر قيصر روسيا، وملك بروسيا، وإمبراطور النمسا، وسفير بريطانيا في فينا، وتمثلت فرنسا بسفيريها في النمسا وبروسيا. وقد أرادت روسيا القيصرية توسيع مبدأ التدخل، وإطلاقه بصورة خاصة من أجل معالجة مشكلات اسبانيا وأميركا اللاتينية، في حين كان متريخ، ومعه جميع المؤتمرين يريدون حصر المؤتمر بمعالجة المشكلة الايطالية، وبصورة خاصة مشكلة نابولي، إلا أن وجهة النظر النمساوية انتصرت في النهاية، وتقرر السماح بان تتولى حل المشكلة الايطالية، وذلك لكي لا يتجرأ في المستقبل أي شعب للتجاوز على حقوق وسلطات عرش بلاده^٢.

وفي البروتوكول الصادر عن المؤتمر في ١٩ تشرين الثاني من العام ١٨٢٠، برز أسم التحالف المقدس، وأهميته، ودوره في استقرار أوروبا، وهذه دلالة على ابتعاد بريطانيا عن سياسة الدول الكبرى، وعدم تأييدهم لسياستها في التدخل. كما جاء في

١ - د.محمد مظفر الادهمي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣-٧٤.

٢ - د.عبد العزيز سليمان نوار، ود.عبد المجيد نغعي، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٣-١٦٤.

البروتوكول المذكور تنديد بالثورات في اسبانيا، وأميركا اللاتينية، وإيطاليا باعتبارها مضرّة بالنظام العام، ودعوة لمساعدة كل الحكومات الشرعية القائمة إذا ما تعرضت لأخطار ثورية^١.

رابعاً: مؤتمر (ليباخ) في كانون الثاني ١٨٢١:

كان هذا المؤتمر امتداداً لمؤتمر تروباو، فقد انعقد بعده بثلاثة أسابيع، وارتبطت مسألة عقد هذا المؤتمر بحضور ملك نابولي الذي ما أن غادر بلاده في ١٦ كانون الأول من العام ١٨٢٠، حتى أعلن عن تراجعه عن كافة الوعود التي قدمها لشعبه. وقد حضر المؤتمر جميع أعضاء المؤتمر السابق في تروباو. وقد أعلن المؤتمر في ١٢ كانون الثاني إلغاء دستور نابولي الجديد، وتقرر إرسال حملة عسكرية نمساوية لقمع الثورة هناك على نفقة السكان المحليين، ولاحتيال بلادهم، ولم تستطع جميع محاولات الفرنسيين في المؤتمر من عرقلة إرسال الحملة العسكرية، ولم يؤد اقتراحهم بتوسط البابا بين ملك نابولي، ورعاياه إلى نتائج إيجابية، وأستطاع النمساويون من تحقيق نصر سريع في نابولي، وزاد من نفوذهم في إيطاليا، ودعم مركز مترنيخ في بلاده وخارجها، ولم يكتف مترنيخ بذلك، بل استصدر من المؤتمر بلاغاً يعلنون فيه رغبتهم في القضاء على كل المؤسسات الدستورية الحرة القائمة في إيطاليا. وقد حقق مترنيخ فيه إنجازاً كبيراً، إذ تراجعت إيطاليا كلها عن مواقفها، والحكام الإيطاليون كلهم باتوا مدينين بعروشهم ونفوذهم لمترنيخ، والجيوش النمساوية المنتشرة في إيطاليا، إلا أن أبرز ما تبين من سير أعمال المؤتمر الابتعاد المتزايد للسياسة البريطانية عن الاتجاهات الرجعية لكل من النمسا وروسيا، وإذا كانت بريطانيا قد مثلت في المؤتمر بمندوب برتبة سفير، إلا أنه لعب دور المستمع في أحيان كثيرة، ولذا رأينا أن قرارات المؤتمر تصدر باسم التحالف المقدس، وتمجد أهدافه، ومبادئه دون أن يكون هناك ذكر للتحالف الرباعي. وإذا صرحت بريطانيا عن عدم معارضة الحملة العسكرية النمساوية على نابولي، فإنها قد فعلت ذلك لأن الدول الكبرى قد وضعتها قبالة الأمر الواقع، وبررت رضاها بان الثورة في نابولي التي شارك فيها العسكريون كانت انقلاباً ضد سلطة شرعية، وهو أمر لا يقره النظام السياسي في بريطانيا^٢.

خامساً: مؤتمر فيرونا في العام ١٨٢٢:

١ - المصدر نفسه، ص ١٦٤.

٢ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نغعي، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٥-١٦٦.

ناقش هذا المؤتمر القضية الاسبانية، إذ كان ملك الأسبان عقب انهيار إمبراطورية نابليون سنة ١٨١٥، قد ألغى الدستور الذي صدر في سنة ١٨١٢، والذي منح الشعب الاسباني حريات واسعة، وقدراً من المشاركة في تقرير حياته، وعرفت اسبانيا منذ سنة ١٨١٥، حكماً ملكياً مستبداً أعاد للكنيسة، ولكبار الملاكين كل ما كان لهم قبل الحكم الفرنسي من نفوذ، وثروة وسلطان، وكانت اسبانيا تعاني مصاعب الحكم في مدريد، وقوى المعارضة بصورة خاصة معارضة الأحرار لسياسة الملك الاستبدادية المطلقة، وأثر تمرد حدث بين العسكريين في مدينة قادش سنة ١٨٢٠، بسبب رفضهم الذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية انتشرت الثورة في كل أنحاء البلاد، وقادها الأحرار، واجبروا الملك في نهايتها على تغيير أسلوب حكمه، والعودة إلى القبول بدستور العام ١٨١٢، الديمقراطي، وأخذ الملك يتصل سراً بالقيصر الروسي الذي كان يعطف على العرش الاسباني، ويود مساعدته ليس في مواجهة خصومه في الداخل فقط وإنما أيضاً في تثبيت نفوذ اسبانيا في كل مستعمراتها الجنوبية. كما طلب العون أكثر من مرة من لويس الثامن عشر، إذ يمت العرش الاسباني بصلبة إلى آل بوربون. وقد لاقى دعوات الملك الاسباني صدى ايجابي للغاية في الأوساط الملكية في باريس، ولا سيما لدى الأوساط اليمينية التي كانت تتشوق إلى أية فرصة تظهر فيها مقدرة فرنسا العسكرية، وتحقق انتصارات تعوض عن هزيمة الإمبراطورية الفرنسية، ثم انه في اية حرب تخوضها فرنسا دفاعاً عن ملك شرعي اعتدي على حقوقه سيكون إظهاراً لحسن نياتها، وإخلاصها للنظم الرجعية القائمة في أوروبا، واستعادة لدورها كدولة كبرى في أوروبا من حقها أن تعمل وتشارك في تقرير أمور القارة كلها بعد أن استغرقت عزلتها وقتاً طويلاً. وتدخلت فرنسا عسكرياً في اسبانيا لإنقاذ العرش الاسباني، وأعيد الملك الاسباني فرديناند إلى عرشه، وفي ظل ذلك عقد مؤتمر دولي في فيرنا في إيطاليا، وبالرغم من الرفض البريطاني للتدخل الفرنسي في اسبانيا تم إصدار تصريح من المؤتمر يؤيد فيه هذا التدخل الفرنسي في اسبانيا. وقد عدّ الفرنسيون هذا الانتصار بمثابة تعويض للهزيمة التي لحقت بهم في واترلو، وتأكيدها لعودة فرنسا لممارسة دورها في أوروبا كدولة كبرى^١.

^١ - المصدر نفسه، ص ١٦٧-١٦٨.

المبحث الثالث

المسألة الشرقية

في أواخر القرن الثامن عشر أخذت المسألة الشرقية في التطور، وتأثرت في عدة عوامل منها، ضعف السلطان المتزايد في القسطنطينية، وظهور عدد من القوميات المسيحية الفتية في شبه جزيرة البلقان، واثار الأمرين في سياسة الدول العظمى، وتعرضت الدولة العثمانية في السنوات ١٧٨٨ - ١٧٩١، لتحدي روسي نمساوي مشترك، وأعلنت روسيا القيصرية بأنها حامية للمسيحيين في الدولة العثمانية، ومنذ بداية القرن التاسع عشر أخذت روسيا تتوغل إلى جنوب ساحل البحر الأسود، وكانت تسعى إلى إضعاف الدول العثمانية، إذ أخذ القيصر يطلق عليها الرجل المريض، في حين راحت بريطانيا تراقب الموقف، وأظهرت مولاة تجاه الدولة العثمانية، وأخذت تشعر، مع النمسا، بان الدولة العثمانية أصبحت تشكل خطراً لا بسبب قوتها وإنما بسبب ضعفها. وكانت بريطانيا تسعى إلى حماية تجارة البحر المتوسط، والدفاع عن القسطنطينية ضد أي هجوم خارجي، بدأت المتاعب من قوميات البلقان التي سعت لتحقيق استقلالها عن الدولة العثمانية، في حين استغلت الدول الكبرى هذه المشكلات للتدخل لمصلحة هذه القوميات وكانت تركيا تدرك أن ثورة هذه القوميات امرأ لا يمكن قبوله ولذلك استخدمت القوة لإفنائها أو اللجوء أحياناً للإصلاحات لترضية الدول الكبرى^١.

وفي القرن التاسع عشر ظهرت عدة ثورات من جانب هذه القوميات مما أسفر عن وقوع عدة حروب عثمانية-روسية، فضلاً عن الحروب مع فرنسا وبريطانيا، ففي رومانيا كانت هذه القوميات تسكن إقليم مولدا فيا، وولاشيا (البغدان، والافلاق) رومانيا الحديثة حيث كانتا تعدان ولايتين منفصلتين لكل منهما وضع شبه مستقل، ووال يختار من بين الأهالي. أما (الصرب، واليونان) فهم أكثر خضوعاً للدولة العثمانية من (مولدا فيا، ووالاشيا) اللتين لم يقطنهما عثمانيون كثيرون، وجاءت الشرارة الأولى في سبيل الحرية من الصرب، إذ بدأت ثورتهم في العام ١٨٠٤، والتي لم تنجح، في حين نجحت ثورة ١٨١٥، من أجل الحصول على الاستقلال، وكذلك ثار اليونانيون في العام ١٨٢٠، وقد آثار ذلك خواطر الدول الكبرى في أوروبا، فاتفقت (بريطانيا، والنمسا) على أن الصراع بين الدولة العثمانية، والثوار اليونانيين لا يخص سواهما، وأن واجبهما

١ - أ.ج.جرانت وهارولد تمبرلي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠١-٤٠٢.

هو التقليل من ميدان الصراع، وذلك بعدم استخدام القوة وكان وزير الخارجية البريطاني (كاننج) يؤمن بأن فتح المجال لروسيا القيصرية سوف يدفعها لاحتلال اليونان، ومن ورائها تركيا إن هي حاولت تسوية النزاع عن طريق الحرب، وأستمر الموقف على هذا الحال من العام ١٨٢٠، حتى نهاية العام ١٨٢٥، حتى حدث تحول مهم حينما استعان السلطان العثماني بوالي مصر محمد علي لمساعدته في مكافحة الثورة في اليونان، فأرسل محمد علي ابنه إبراهيم على رأس جيش منظم إلى المورة، حتى وصل الأمر إلى أن تعلن روسيا القيصرية بأنه لا بد من التدخل لإنقاذ اليونانيين، وهنا قرر كاننج العمل مع روسيا القيصرية في تشديد الضغط على السلطان من أجل تفادي الحرب. أما النمسا فقد بقيت بعيداً عن ذلك، إذ وقعت بريطانيا مع روسيا اتفاقية في ٤ نيسان من العام ١٨٢٦، تقرر بمقتضاها حث تركيا على عقد هدنة مع اليونانيين، ومنحهم قدرأ من الحكم الذاتي، وانضمت إليهما فرنسا، وفي العام ١٨٢٧، حدثت معركة نافارين البحرية، إذ تحطم فيها الأسطول التركي المصري على يد الأساطيل البريطانية، والفرنسية، والروسية المشتركة، فالت على أثرها اليونان استقلالها التام^١.

وفي أوائل العام ١٨٢٨، أعلنت روسيا القيصرية الحرب على الدولة العثمانية بالرغم من اعتراضات بريطانيا وفرنسا، إذ كان هدف روسيا آنذاك القضاء على الإمبراطورية العثمانية، وتمكن الجيش الروسي من إلحاق عدد من الهزائم الأولية بالجيش العثماني، وتمكن من الوصول إلى أدرنة في صيف العام ١٨٢٩، مما دفع بالسلطان إلى التوقيع على معاهدة أدرنة في ٤ أيلول من العام ١٨٢٩، ومع أن روسيا قد حصلت في هذه المعاهدة على بعض الأراضي في آسيا على حساب تركيا مما أدى إلى توسعها في القوقاز، إلا أنها لم تحصل، ولم تحاول الحصول على كسب مماثل في أوروبا، فظل همر بروت الواقع في أقصى شمال مولدافيا هو الحد الفاصل بينها، وبين تركيا. ذلك أن سياسة روسيا القيصرية في أوروبا لم تكن تسعى إلى الضم، وإنما إلى التغلغل السلمي، ثم أعلن استقلال اليونان بعد مجيء بالمرستون في بريطانيا في العام ١٨٣٢، واعترف بذلك من قبل روسيا، وبريطانيا، وفرنسا، أما الصرب فقد وقف أميرها إلى جانب استخدام روسيا كوسيلة في صراعاته مع الأتراك، ومنذ العام ١٨٢٩، حتى العام ١٨٣٩، تحولت سياسة روسيا من السعي إلى القضاء على الدولة العثمانية إلى المحافظة على سلامة هذه الأخيرة،

^١ - المصدر نفسه، ص ٤٠٤-٤٠٥.

إذ أوصت لجنة روسية عينها القيصر بان سياسة القضاء على الدولة العثمانية ستؤدي إلى نشوء دول بلقانية صغيرة يكون من الصعب السيطرة عليها في المستقبل، في حين أن لروسيا ألان في تركيا حقوقاً تكفلها المعاهدات، ونفوذاً تستطيع أن تعززه عن طريق السيطرة الاقتصادية، والتغلغل السلمي، وقد نال قيصر روسيا نيقولا تأييد النمسا لسياسته هذه مدة عشر سنوات، والواقع أن فرنسا هي التي قامت بالسعي لتمزيق الدولة العثمانية للمدة ١٨٣٠-١٨٤١، ففي هذه المدة احتلت الجزائر سنة ١٨٣٠، وأيدت ثورة محمد علي في مصر ضد تركيا، وسعت عن هذا الطريق إلى الحصول على المساعدة لتحقيق مشروعاتها الخاصة بالبحر المتوسط. أما بريطانيا فقد ظلت تسعى على المحافظة على الإمبراطورية العثمانية، فوقفت موقف الضد من مشاريع فرنسا^١.

وكانت المشكلة الحقيقية تكمن في مصر. فقد أصبحت تبعية محمد علي والي مصر إلى الدولة العثمانية تبعية اسمية، ولكنه مع ذلك، أرسل قواته لمساعدة السلطان في إخضاع اليونان. وقد كان محمد علي قد فاز بولاية كريت، وأخذ يتطلع للسيطرة على ولايات الشام، فشعر السلطان بالريبة، فلما أحسن محمد علي بالخطر أمر ابنه إبراهيم، وأصدر إليه تعليماته بشن حرب وقائية ضد السلطان، ولما أرسل له السلطان جيشه أستطاع إبراهيم أن يدحره، فطلب السلطان مساعدة روسيا، فقدمت له المساعدة العسكرية، ولكن فرنسا وبريطانيا ضغطت على السلطان للتراضي مع محمد علي، فوافق السلطان على ذلك، حيث تنازل له في أواخر نيسان من العام ١٨٣٣، على فلسطين، ودمشق، وجميع بلاد الشام، وسمح له باحتلال موانئ (أضنة)، وشرعت روسيا القيصرية في سحب قواتها من آسيا، ولكنها أرغمت السلطان على توقيع معاهدة سرية سميت (هنكيار اسكله سي) في ٨ تموز من العام ١٨٣٣، على أساس إقامة حلفاً دفاعياً بين الدولتين. وقد تنازلت روسيا بموجب نص سري لم يتسرب مضمونه إلا تدريجياً عن حقوقها في الحصول على المعونة العسكرية من الدولة العثمانية مقابل موافقة الأخيرة على إغلاق مضيق الدردنيل في وجه السفن الحربية عند الحاجة كانت عبارة عند الحاجة تعني في الحقيقة عند طلب روسيا القيصرية، ولو نفذت المعاهدة فعلاً لأصبحت تركيا تابعة لروسيا إلا أنه من الناحية العملية، فإن دخول سفن روسيا الحربية في المضيقين كان معناه الاشتباك في حرب مع بريطانيا، ثم أن فرنسا كانت لديها أسباب

^١ - أ.ج.جرانت، وهارولد تعبرلي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٨.

قوية لمناصرة مصر ضد السلطان. لقد أخذ بالمرستون ييدي تأييده المطلق لسلامة الباب العالي في مواجهة مصر، فأخذ يتمتع بحظوة عند السلطان، وأصبح بإمكانه القول أن السلطان يمكن أن يستند إلى دعم بريطانيا لا روسيا إن هو تمكن من التغلب على خطر محمد علي^١.

وأراد السلطان أن ينتقم من محمد علي والي مصر، فأرسل في العام ١٩٣٩، جيشاً تركيا إلى (بيرة جك) على نهر الفرات، وأتفق رأي فرنسا وبريطانيا على إرسال أسطول مشترك إلى البوسفور في حالة دخول الروس إلى تركيا، إلا أن الأوان قد فات، إذ كان آخر عمل قام به السلطان قبل وفاته هو إصدار الأمر إلى قواده لمهاجمة إبراهيم، وخسر السلطان عدة معارك قبالة إبراهيم، وأستسلم الجيش العثماني لوالي مصر، فأسرعت بريطانيا بإرسال قوة بحرية، وضربت حصاراً حول الإسكندرية رغم رفض فرنسا التعاون معها. وقد رد (بالمرستون) على هذا الرفض بالدعوة إلى عقد مؤتمر للدول العظمى في فيينا، فلما سارت المفاوضات في بطأ، وتدخلت روسيا في الأمر، وعمدت فرنسا إلى الماطلة أمسك بالمرستون الزمام بيديه، ودفع الجميع لتحقيق أهدافه. فقد أكتمل نصر بالمرستون بتوقيع اتفاقية في ١٣ تموز من العام ١٨٤١، تعهدت بموجبها الدول العظمى والسلطان بعدم السماح بدخول السفن الأجنبية إلى الدردنيل، والبوسفور، على أن روسيا ظلت تؤمن بسريرتها بإمكان التمسك بمعاهدة (هنكيار أسكسله سي)، وعلى ما يبدو أن اغتنام القيصر لهذا كان خاطئاً، فالسلطان كان يعدّه عدو أضطر لطلب مصاحبته في أوضاع الخطر التي مر بها، ولما كان نيقولا بعيداً كل البعد عن أدراك ذلك فقد سعى إلى تحقيق تقارب مع بريطانيا، والتوصل معها إلى تفاهم^٢.

^١ - المصدر نفسه، ص ٤١٠.

^٢ - أ.ج. جرانت، وهارولد تميرلي، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٥.

الفصل الخامس:

تطور العلاقات الدولية منذ منتصف القرن التاسع عشر

المبحث الأول:

حرب القرم.

المبحث الثاني:

الوحدة الإيطالية.

المبحث الثالث:

الوحدة الألمانية.

المبحث الرابع:

المسألة الشرقية.

المبحث الخامس:

سياسة توازن القوى.

الفصل الخامس

تطور العلاقات الدولية منذ منتصف القرن التاسع عشر

المبحث الأول

حرب القرم

عملت روسيا القيصرية على استغلال الحركات القومية المتصاعدة في البلقان، ومحاربة العثمانيين لهذه الحركات كوسيلة لتوسيع نفوذها، فعملت على ممارسة ضغط طويل المدى على الدولة العثمانية، وفي الوقت نفسه قام تنافس كبير بين الإمبراطورية النمساوية وروسيا القيصرية حول الاستيلاء على ممتلكات الدولة العثمانية، وقد استغل قيصر روسيا (نيقولا الثاني) المشاعر القومية في البلقان بحروب شنتها روسيا ضد العثمانيين للمدة ١٨٢٨-١٨٢٩، إذا لم يكنف بتأييد استقلال اليونان، والحكم الذاتي للصر، وبعض الامتيازات للرومان، بل كسب للإمبراطورية الروسية منطقة واسعة في القفقاس، وسمعة باعتبار روسيا الصديق الدائم لجميع الأرثوذكس، والشعوب السلافية. وقد عزز هذه السمعة في العام ١٨٤٩، بحملة عسكرية ضد الهنغار الذين كانوا يضطهدون الكروات، والسلاف، والسلوفاكين، والرومان الأرثوذكس، وبعد ذلك ادعى متفاخراً بحمايته لكل المسيحيين الأرثوذكس. ومما لاشك فيه أن مبدأ التوسع نحو المياه الدافئة يعدّ من المبادئ الأساسية التي قامت عليها سياسة روسيا القيصرية منذ عند بطرس الأكبر، وأستمر حلفائه من بعده من القياصرة على فُهج تلك السياسة معتقدين بان مسألة السيطرة على المضائق، والتحكم في مرور السفن الحربية الراغبة في دخول البحر الأسود تمثل شيئاً أساسياً في حماية الحدود الروسية في القفقاس، وسواحل البحر الأسود، فضلاً عن ذلك أن السيطرة على المضائق تمثل وسيلة للسيطرة على العلاقات التجارية بين موانئ البحر الأسود من جهة، والبحر المتوسط من جهة أخرى، وفي الوقت نفسه أن سياسة التوجه نحو المياه الدافئة تعني توسيع الممتلكات الروسية على حساب الأراضي العثمانية سواء كان ذلك في آسيا الصغرى أم في شبه جزيرة البلقان، وشرقي أوربا، فقامت السلطة القيصرية بذل مساعيها من اجل تحقيق هذه الأهداف، فأحياناً تحت شعار حماية الشعوب السلافية من الحكم العثماني، وشعار حماية الأرثوذكس والرعايا المسيحيين في أرجاء الدولة العثمانية، ثم مسألة السيطرة على الأماكن المقدسة^١

١ - د. محمد محمد صالح، ودياسين عبد الكريم، ودينوري السامرائي، تاريخ أوربا في القرن التاسع عشر، جامعة بغداد، ١٩٨٥، ص ١٩٦-١٩٧.

والحق لم يكن التقارب الروسي - العثماني بالنسبة لروسيا سوى هدنة مؤقتة، فلم تتخل روسيا أبداً عن هدفها الدائم، وهو تقسيم الدولة العثمانية، وفي العام ١٨٥٣، عرضت روسيا القيصرية على بريطانيا مشروعاً لتقسيم الدولة العثمانية تأخذ روسيا بمقتضاه البسفور، وتحتل الأستانة مؤقتاً، في حين تأخذ بريطانيا مصر، وجزيرتي قبرص، وكريت، أما صربيا، وبلغاريا، والأفلاق، والبغدان، فتتحد في دول مستقلة تحت النفوذ الروسي. وقد رفضت بريطانيا هذا المشروع لعدة أسباب: فهو لا يتفق مع سياستها التقليدية التي تقضي بالمحافظة على الدولة العثمانية، والحيلولة دون استيلاء الروس على البسفور، والمضايق، فضلاً عن ذلك أن الدولة العثمانية قد زادت من تجارتها مع بريطانيا، فأصبحت من كبار المشترين للمنتجات البريطانية المصنعة، ومن كبار الموردين للمواد الغذائية. حيال رفض بريطانيا للمشروع الروسي طلب القيصر نيقولا الأول من السلطان العثماني عبد المجيد عقد معاهدة بين الدولتين تعترف بمقتضاها الدولة العثمانية لروسيا بحق حماية الرعايا الأرثوذكس المسيحيين في الدولة، كذلك طلب القيصر سحب الامتيازات الممنوحة للرهبان الكاثوليك في بيت لحم في فلسطين، وكانت الدولة العثمانية قد منحت الامتيازات للرهبان الكاثوليك في الأماكن المقدسة في فلسطين بناء على طلب نابليون الثالث، فطلبت روسيا إعطاء تلك الامتيازات للرهبان الأرثوذكس. وقد وافق السلطان على منح الرهبان الأرثوذكس امتيازات معينة في الأماكن المقدسة، ولكنه رفض الاعتراف بحق روسيا في حماية الرعايا الأرثوذكس في الدولة العثمانية أو عقد تحالف دفاعي مع روسيا، وكان رفض السلطان لهذه المطالب السبب في اندلاع حرب القرم. ففي تموز من العام ١٨٥٣، عبر الجيش الروسي نهر بروت داخل مولدافيا، ووالاشيا، فبذلت النمسا جهودها في منع اندلاع الحرب عن طريق عقد مؤتمر فيينا، والعمل على صياغة إعلان يهدف إلى حماية المسيحيين في البلقان دون الإقرار بحق روسيا في التدخل. وقد رفضت تركيا هذا التصريح. أما روسيا فقد قبلته، فأعلنت تركيا الحرب ضد روسيا في ٤ تشرين الأول من العام ١٨٥٣، وقد أيدت فرنسا وبريطانيا الدولة العثمانية، فسياسة بريطانيا الخارجية التقليدية كانت تقوم على تأييد تركيا، والغيرة من روسيا معتقدة أن توسع الأخيرة في البحر المتوسط من شأنه أن يهدد مصر، والطريق إلى الهند. وقد ساعد نفوذ بالمرستون، والصحافة الانكليزية على تشجيع الحرب في نفوس الانكليز. أما فرنسا، فأثما سعت إلى الحفاظ على هيبتها في الشرق، وكما أن اعتماد نابليون الثالث على الحزب الكاثوليكي، إذ كان يسعى إلى أن تنال بلاده مكانة في نجد والنصر، ولهذا اجتازت الأساطيل الفرنسية والبريطانية

المشركة الدرديليل في نهاية تشرين الأول من العام ١٨٥٣، إظهاراً لتأييد الدولتين المعنوي لتركيا، في حين كانت هذه الأساطيل على مقربة من القسطنطينية حين حدث أن هاجم أسطول روسي أسطولا تركيا فدمره بالقرب من سينوب، فرأت فرنسا وبريطانيا أن هذا العمل الذي هو من أعمال الحرب، أهانه لهما، وأعلنتا الحرب على روسيا القيصرية في آذار من العام ١٨٥٤، واستطاعت الجيوش البريطانية الفرنسية أن تخرج الروس من مقاطعتي مولدايفيا، وولاشيا^١.

وأعلنت بريطانيا وفرنسا عدة نقاط تبين أهدافها من دخول الحرب، وكانت هذه النقاط تنطوي على فوائد جمة لبريطانيا، بأنها كانت:

١. تحرم روسيا بعد هزيمتها من نفوذها في البلقان.
٢. تحرم أبقاء سفن حربية في البحر الأسود.
٣. وكان فيها نفع كبير للنمسا، إذ أن مقاطعتي الأفلاق، والبغدان، ونهر الدانوب سيتحرر من روسيا القيصرية، أما فرنسا فلم تكن سأتجني إلا فوائد ضئيلة القيمة، مع أنها هي التي ستقدم الجانب الأكبر من القوات المقاتلة^٢.

صحيح أن دخول نابليون الثالث الحرب إلى جانب بريطانيا كان سعياً منه إلى المجد، ولكن كانت هناك له رغبة جامحة في تعديل معاهدات العام ١٨١٥، وكان يريد أن يتم ذلك ضمن مؤتمر أوربي ما أمكن، وأراد كذلك أن يقدم المساعدة للإيطاليين في سبيل تحقيق أمانهم القومية، وثالثاً سعى إلى تجنب الأخطاء التي أدت إلى سقوط الإمبراطورية الفرنسية الأولى، فقد سعى نابليون الثالث على عقد تحالف مع بريطانيا حتى لو أدى ذلك إلى الدخول في حرب مع روسيا القيصرية. لقد كان الروس محل مقت (الأكليروس) الفرنسي لنظره لهم كأمة منشقة عن الأيمان الصحيح، وكانوا محل عدااء الجمهوريين الفرنسيين لنظم الحكم الاستبدادية القائمة في بلادهم^٣.

إذن حقق نابليون الثالث أكثر مما حققه نابليون الأول فقد أنجز تحالفاً مع بريطانيا، ولكنه حقق ذلك على حساب التخلي عن المخططات النابليونية في أوروبا. فقد أخفق في توسيع نطاق الحرب في الشرق الأدنى وجعلها تمتد من إيطاليا إلى الراين، وأن التحالف بين فرنسا وروسيا أستقر على التظاهر بين الدولتين، فتوقع نابليون أن روسيا سيعدون هزيمتهم في الشرق الأدنى مستمرة، ومع هذا سيوافقون على قلب الوضع

١ - أ.ج.جرانت، وهارولد تميرلي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٣-٤٢٦.

٢ - أ.ه.فشر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٣.

٣ - المصدر نفسه، ص ٢٢٢-٢٢٣.

الراهن في غرب أوروبا، في حين سعى الروس بأن يبقى نابليون الثالث، محافظاً على غرب أوروبا، ومع ذلك سوافق على نقضهم تسوية الصلح في الشرق الأدنى، وكان توقع الروس أبعد الأمرين عن الواقع فبعد العام ١٨٥٦، كان الروس غير مباليين بمستقبل النمسا في إيطاليا^١.

لقد وقع الاختيار على سياستبول، القاعدة البحرية العظمى للإمبراطورية الروسية في البحر الأسود لتكون الهدف الحربي الرئيس، لحملة كان أكبر ما ترمي إليه هو تدمير قوات العدو البحرية، ولهذا فبعد أن جلا الروس عن مقاطعتي (الافلاق، والبغدان) انتهى بذلك القتال في وادي الدانوب، حيث أبحرت قوة ضخمة متنوعة من الانكليز، والفرنسيين، والترک من ميناء وارنا البلغاري في منتصف أيلول من العام ١٨٥٤، قاصدة الميناء الروسي من وادي الدانوب من غير معونة أجنبية، وذهب بذلك كل خطر عليهم يأتي من تقدم الروس صوب الأستانة^٢.

وفي تشرين الأول من العام ١٨٥٤، قام الحلفاء بهجوم مكثف على سياستبول لكنهم اصطدموا بمقاومة عنيفة، فاضطروا إلى فرض حصار طويل الأمد، وأستمر الحصار مدة (١١) شهراً، وبدت القوات الروسية تعاني نقصاً من السلاح والعتاد. وقد كلف حصار سياستبول الحلفاء غالياً، فاشتدت في بريطانيا وفرنسا حركة المناهضة للحرب، وفي ٢٦ كانون الثاني سنة ١٨٩٩، أعلنت سردينيا انضمامها في الحرب بجانب الحلفاء رغبة منها في اكتساب صداقتها لحل المسألة الإيطالية لمصلحتها على أن ترسل إلى القرم خمسة عشر ألف جندي، فأزداد الأمل بعقد الصلح، وبدأت المفاوضات في فينا، وكان سقوط سياستبول السبب المباشر في تقرير مصير الحرب، فأضطر الاسكندر الثاني إلى التسليم وقبول معاهدة باريس في ٣٠ آذار من العام ١٨٥٦، وكان من أهم بنود المعاهدة:

١. إدخال الدولة العثمانية عضواً في الحفل الأوربي.
٢. قبول مبدأ تحكيم الدول في حالة وقوع خلاف بين الدولة العثمانية، وبين إحدى الدول الأوربية.
٣. تشترك الدول الأوربية في ضمان استقلال الدولة العثمانية ووحدها.

^١ - أي جي بي تايلر، الصراع على السيادة في أوروبا ١٨٤٨-١٩١٨، ترجمة: د.كاظم هاشم نعمة، ود.يونيل يوسف عزيز، جامعة الموصل، ١٩٨٠، ص ١٢٣.

^٢ - أ.ه. فشر مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٣.

٤. تعهد السلطان بإدخال الإصلاحات في بلاده دون التفرقة بين رعاياه على أساس الدين أو القومية.

٥. إعلان حياد البحر الأسود، وفتح كافة موانئه للتجارة الدولية على أن تغلق في وجه السفن الحربية.

٦. منع روسيا القيصرية من بناء الحصون والقلاع العسكرية على سواحل البحر الأسود.

٧. إعادة مدينة قارص إلى الدولة العثمانية، والاعتراف بالسيادة الروسية على شبه جزيرة القرم^١.

لقد كانت معركة القرم معركة غير حاسمة لأغلب الدول، ولم يأت مؤتمر باريس بتغيير كبير. أما بالنسبة لروسيا فقد كانت الحرب حاسمة، وكان المؤتمر نكسة لا مثيل لها من قبل، ولذلك كانت السياسة الروسية بعد المؤتمر لها وحدة هدف افتقرت إليها سياسة بقية الدول، ولم تهتم هذه السياسة بشئ سوى تعديل معاهدة باريس، ولعل روسيا قبل العام ١٨٥٤، إغفلت كل شئ في أوروبا لأجل مصالحها القومية أو من أجل شرفها القومي طيلة خمس عشرة سنة، ففي القرن الثامن عشر، وحتى بداية القرن التاسع عشر كان البحر الأسود، والشرق الأدنى أهم مجالين لطموحات روسيا الاستعمارية. أما بعد معاهدة باريس، فلم يعود كذلك، ولم يبق لروسيا الاستعمارية مستقبل إلا في آسيا. أما اهتمامها بالبحر الأسود فكان دفاعياً، فمكاسب البلقان كانت محدودة إذا ما قورنت بمكاسب وسط آسيا، والشرق الأقصى، إذ كانت روسيا تريد كسب ود نابليون من أجل حمايتها من النمسا وبريطانيا، ولم يكن ذلك مجرد محاولة للتفريق بين الحلفاء، بل أعتقد فعلاً أن روسيا بحاجة إلى هذه الحماية، وحاولت روسيا كسب ود نابليون عارضة عليه استعدادها للتنازل عن بلغراد مقابل أي تعويض يقدر له نابليون. كما طلبت من نابليون التوقيع على معاهدة سرية تضمن تنفيذ معاهدة باريس، ولما كانت المعاهدة حصيلة هزيمة روسيا، فأن هذا الاقتراح بدا غريباً^٢.

أن مؤتمر باريس كان من الناحية النظرية أول اجتماع أوروبي يعقد منذ مؤتمر فيرونا العام ١٨٢٢، إذ أن جميع الاجتماعات ما بين العام ١٨٢٢، وإلى العام ١٨٥٦،

١ - د. محمد محمد صالح، ود. ياسين عبد الكريم، ود. نوري السامرائي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٣-٢٠٤.

٢ - أي جي بي تيلور، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٤-١٢٦.

كانت عبارة عن مشاورات بشأن مواضيع محددة، بل كان مؤتمر باريس اجتماعاً لتسوية المسائل الخاصة بالشرق الأدنى أكثر منه نجاحاً كمؤتمر لمناقشة الشؤون الأوروبية^١. وقد حسمت المعاهدة مشكلة العلاقات بين روسيا والدولة العثمانية في ثلاثة سبل. فقد أعطى الأتراك وعداً تلقائياً للقيام بالإصلاحات، وعدّ البحر الأسود محايداً، وأصبحت الولايات الدانوبية مستقلة عن روسيا القيصرية.

ويرى البعض بأنه حيال النقطة الأولى لم يف الأتراك العثمانيين بوعدهم، وكان حياد البحر الأسود أعظم أنجاز لسنة ١٨٥٦، فقد ظهر أن هذا الحياد قد زود الدول الغربية بما كانت تسعى إليه منذ مدة، بحاجز إزاء روسيا دون أن تتكلف بأي جهد، إلا أن الحياد شأنه شأن جميع فقرات نزع السلاح في معاهدة صلح، فقد كانت محاولة للإبقاء على ميزان القوى آنذاك مع وجوب تغييره، فكان على الروس أن يعدوا بأنهم سوف ينظرون إلى البحر الأسود دائماً، وكان الأساطيل البريطانية والفرنسية تبحر فيه، في حين كانت هذه السفن قد أختفت منه. كما أفتقر الحياد إجراء تنفيذه باستثناء حسن نية الروس، وإذا توفرت مثل هذه النية، فلا حاجة للحياد. لقد زادت كراهية الروس للمعاهدة، وجعلوا إلغاء الفقرات التي تخص البحر الأسود الهدف الأساس لدبلوماسيتهم.

لقد كان تحرير الولايات الدانوبية، والذي أدى في النهاية إلى استقلال رومانيا الإنجاز الحقيقي لمعاهدة باريس. وقد اعتمد هذا الاستقلال على رادع حقيقي هو غير روسيا والنمسا، فالنمساويون أبعدوا الروس عن طريق التهديد بالحرب في أب من العام ١٨٥٤، ولكنهم لم يحصلوا على شيء، لأنهم رفضوا أن يدفعوا ثمن تأييد الدول الغربية بالأجلاء عن لبارد يا، وفينيسيا، فكان على القوات النمساوية التي بقيت تمثل الولايات أن تنسحب بعد عقد الصلح^٢.

١ - المصدر نفسه، ص ١١٧.

٢ - المصدر نفسه، ص ١١٩.

المبحث الثاني

الوحدة الإيطالية

كانت إيطاليا في النصف الأول من القرن التاسع عشر مكونة من عدة دول، ١/ مملكة سردينيا، موجودة في شمال شبه الجزيرة، ٢/ دولة البابا، موجودة في وسط شبه الجزيرة، ٣/ مملكة الصقليتين، وتضم الجزء الجنوبي كله في شبه الجزيرة، وجزيرة صقلية، ٤/ دوقيات إيطاليا الوسطى، وهي دوقيات توسكانيا الكبرى، وبارما، ومودينا، وكان القسم الشمالي منها تحت نفوذ النمسا، حيث كانت تملك المنطقة اللومباردية-البندقية، وتمارس نفوذها في توسكانيا، ودوقية بارما، ومودينا، وعلى رأسهما أميران نمساويان وأخيراً أبرمت مملكة الصقليتين بعد العام ١٨١٥، معاهدة تحالف سرية مع إمبراطور النمسا^١.

وكانت القومية في إيطاليا قضية من القضايا المهمة التي شغلت أوروبا طيلة القرن التاسع عشر، وظلت من العام ١٨٣٠، إلى العام ١٨٦٠، مدرجة على جدول أعمال الدبلوماسية الأوروبية، لأنها لم تكن قضية إيطالية فقط، لأن مصير إيطاليا لم يكن متعلقاً بها وحدها، وكانت القضية الإيطالية من وجهة النظر التاريخية والسياسية قضية تعبير جغرافي على حد قول مترنيخ، ولكن الواقع يؤيد فعلاً وجود قومية إيطالية حقيقية ضمن إطار جغرافي إيطالي واضح المعالم^٢.

والحق، لم تكن في إيطاليا اختلافات عرقية على الرغم من أن هناك اختلافات عميقة في النفسية والسلوك بين سكان أجزائها، ومن جهة أخرى موجود في إيطاليا جنس إيطالي تكوّن جغرافياً وتاريخياً بتأثير التقاليد، والحركات التاريخية والاقتصادية، وبانصهار العناصر الأجنبية في السكان الأصليين، وتشكيل شعب واحد عرف باسم الشعب الإيطالي. كما موجود في إيطاليا دين واحد هو الدين المسيحي، ومذهب واحد هو الكاثوليكي، وموجود في إيطاليا تقاليد إيطالية ترجع جذورها إلى الإمبراطورية الرومانية، وعز روما القديم وإلى روما الحبرية البابوية في العصر الوسيط، وأصبحت عظمة هذا المجد الإيطالي الماضي مرجعاً للقوميين الإيطاليين جميعاً دون استثناء، لا فرق في ذلك بين شمال إيطاليا وجنوبها، وفي الحقيقة موجود في إيطاليا قومية إيطالية حقاً، لأن

١ - دنور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية، بقطة القوميات الأوروبية، الجزء الثالث، الوحدات القومية، دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٩، ص ١٣٣.

٢ - دنور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية، بقطة القوميات الأوروبية، الجزء الثاني، الحرية والقومية، دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٩، ص ١٠٨.

مقومات القومية متوفرة فيها، ولكن ما كان يعوز ايطاليا آنذاك إنما هو الإرادة والقوة لإدخال هذه الشخصية القومية في إطار سياسي موحد، ولا نرى في ايطاليا قبل العام ١٨٣٠، حركة وحدة ايطالية، وما ذلك إلا لأن قوى التماسك، وقوى التفتت كانت في حالة صراع، ولاسيما أن الأوضاع السياسية والاجتماعية كانت تعمل لمصلحة التفرقة. لقد بسط التقسيم الذي وضعه مؤتمر فينا في العام ١٨١٥، التقسيمات القديمة، وأقام سبع دول مكانها^١.

لقد ظهرت في ايطاليا الحركة الإبداعية الرومانتيكية التي بدأت منذ العام ١٨١٦، وكذلك كان ماتزيني أحد رواد الحركة القومية الايطالية الذي نقد المدرسة الإبداعية، ونظر إلى الشعب الاسباني الذي ثار على نابليون الأول، ونجح في طرد الأجنبي، واستخلص من ذلك نتيجة، وهي أن المتطوعين الذين يجرهم الإيمان أعلى من الجيوش المنظمة، وأن الجيوش النظامية تمنى بالإخفاق قبالة الحركة الشعبية، ولكن لإثارة الجماهير يجب أن يقدم لها مثل أعلى، وهو الأمة، وكان ما تزيني أول من أعطى للحركة الثورية الايطالية برنامجاً قومياً، فحتى ذلك الحين كانت الحركة الثورية حركة محلية، ولكنها بما تزيني أصبحت قومية^٢.

ومنذ العام ١٨٤٠، جرى في ايطاليا تغيير مهم في واقع الحال، وفي الأفكار معاً، فقد أدت الحوادث إلى رفض العقائد الفحمية، وتوطد نوع من النفوذ، والتوغل عبر الحدود بعد أن ظلت حتى ذلك الحين كنتيجة تفصل الدول بعضها عن البعض، وأصبح بالإمكان تشكيل حركات غير منفصل بعضها عن بعض كما كانت في السابق، وتشكيل حياة قومية، وتنافس على شروط هذه الحياة^٣.

لقد تأثر الايطاليون أيضاً في شعارات ومبادئ الثورة الفرنسية، ومن بينها مبدأ القومية، وكان لنابليون بونابرت دور مهم في ذلك، فقد قام بغزو ايطاليا سنة ١٧٩٦، باسم الحرية، ووعد الايطاليين بوصفه محرراً. وقد خضعت لنفوذه معظم الأراضي الايطالية باستثناء جزيرة صقلية، أستمر الحكم الفرنسي في ايطاليا حتى هزيمة نابليون قبالة التحالف الأوربي سنة ١٨١٤^٤.

١ - المصدر نفسه، ص ١٠٩.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٢٤-١٢٥.

٣ - المصدر نفسه، ص ١٢٩.

٤ - د. خليل علي مراد، وجاسم محمد حسن، ود. عبد الجبار قادر غفور، دراسات في التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، جامعة الموصل، كلية التربية، ١٩٨٨، ص ١٨٧.

وفي سنة ١٨١٥، قرر مؤتمر فينا استناداً إلى مبدأي الشرعية، وإعادة القديم إلى قدمه اللذين شكلا أساس مقررات المؤتمر المذكور، أعادت الأوضاع في إيطاليا إلى ما كانت عليه قبل الحكم الفرنسي مع منح النمسا بعض المكاسب هناك، وإذا كان مترنيخ قد نجح في تمزيق أوصال إيطاليا مجدداً، فإن القضاء على آمال الإيطاليين ومشاعرهم القومية الناشئة كان ضرباً من المحال. وقد تأكد ذلك بعد سنوات قليلة من مؤتمر فينا. فقد تشكلت في إيطاليا جمعيات سرية دعت إلى استخدام القوة ضد تسلط النمسا على إيطاليا، وضد الملوك، والحكام المستبدين في إيطاليا، وإعادة الحكم الدستوري فيها، ومن أبرز هذه الجمعيات جمعية الفحاميين التي تشكلت في نابولي، وانتشرت بين صفوف رجال الجيش، والفئات المستتيرة من الشعب في عموم إيطاليا، وقمعت ثورات عدة في إيطاليا من قبل الجيش النمساوي، ومنها ثورة العام ١٨٢٠، وفي سنة ١٨٣٠، حدثت ثورة ثانية، ففي تموز من تلك السنة نشبت الثورة في فرنسا، ونجحت في الإطاحة بحكم الملك شارل العاشر آخر ملوك آل بوربون، وإقامة ملكية دستورية، وتنصيب لويس فيليب من أسرة أورليان ملكاً على فرنسا، وعلى أثر ذلك انتشرت الثورة في عدة أماكن من أوروبا. فقد ثار البلجيكيون ضد الهولنديين، والبولنديين ضد الروس، وفي إيطاليا أيضاً، لكن ثبت بعد فترة وجيزة إن لويس فيليب ملك فرنسا لم يكن عازماً على توريط بلاده في حرب ضد النمسا من أجل إيطاليا، فأراد نيل الرضا من الدول الأوروبية الأخرى، واعترافها بمركزه في فرنسا، وأن يكون لفرنسا دوراً يؤديه في إيطاليا بحجة الحفاظ على التوازن الدولي الذي اختل لانفراد النمسا بالعمل في إيطاليا، وهكذا بدلا من مد يد العون لثوار إيطاليا تدخلت القوات النمساوية والفرنسية جنباً إلى جنب ضدهم، وقضت على ثورتهم بعد أن حققوا نجاحاً في بادئ الأمر^١.

وكان في إيطاليا ثلاثة اتجاهات للوحدة، فهناك الاتجاه الذي يدعو إلى تأسيس الجمهورية الإيطالية الموحدة، وهناك اتجاه آخر يدعو إلى إقامة وحدة إيطالية بزعامة البابا، وإلى جانب هذين الاتجاهين كان هناك اتجاه يدعو إلى إقامة دولة إيطالية موحدة في ظل نظام ملكي دستوري بزعامة الأسرة المالكة في سردينيا^٢.

وفي سنة ١٨٤٨، قامت عدة ثورات قومية في أنحاء مختلفة من أوروبا بما في ذلك إيطاليا، ففي شباط من العام ١٨٤٨، قامت الثورة في فرنسا، ونجحت في إسقاط ملكية

١ - المصدر نفسه، ص ١٨٠.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٨٣.

لويس فيليب، وفي آذار من العام ١٨٤٨، حدثت مظاهرات كبيرة في فينا أدت إلى فرار المستشار مترنيخ إلى لندن، وتبع ذلك ثورات مماثلة في الجر، وبوهيميا، وألمانيا، والسدا نمارك، وهولندا، وكانت ايطاليا مهياً تماماً لانتشار الحركة الثورية، فقد كسبت جمعية ايطاليا الفتاة إلى صفوفها أعضاء كثيرون في شتى أنحاء البلاد، وفي البندقية قامت ثورة ضد حكامها النمساويين، وإعلان البندقية جمهورية مستقلة، وكذلك ثورة في لمبارديا، ولم تقف النمسا مكتوفة الأيدي إزاء ما حصل في ايطاليا، فقامت بسحق الثورة، وأعدت احتلال لمبارديا، والبندقية^١.

وكان كافور رئيس وزراء سردينيا احد دعاة الحركة الوطنية، والوحدة الايطالية قد أدرك بأن مملكة سردينيا بسكانها البالغ عددهم أقل من خمسة ملايين نسمة قد لا يكون بإمكانها توحيد ايطاليا اعتماداً على إمكانياتها الذاتية مادام أن دولة قوية، مثل النمسا تحول دون تحقيق هذا الهدف الكبير، ولذلك وضع في اعتباره ضرورة الحصول على دعم خارجي في مواجهة النمسا، ولهذا فإنه حاول كسب تحالف ايطاليا مع فرنسا في كفاحها الأول ضد النمسا.

إن فرنسا دولة قوية، ولها حدود مشتركة مع ايطاليا، لهذا يعني، إن العون الفرنسي يكون سريعاً وفعالاً في حالة تحقيق التحالف معها، وثانياً: إن فرنسا رغم تدخلها في أكثر من مناسبة ضد الحركة الثورية في ايطاليا - كما فعلت النمسا - كانت تنظر بعين عدم الرضا إلى هيمنة النمسا في ايطاليا، وثالثاً: فإن نابليون الثالث لم يكن غريباً عن ايطاليا، والحركة الثورية فيها فقد كانت الدماء الايطالية تجري في عروقه^٢.

وكانت خطوة كافور الأولى المهمة في ميدان السياسة الخارجية هو: مساهمة مملكة سردينيا في حرب القرم إلى جانب بريطانيا، وفرنسا، والدولة العثمانية، ضد روسيا القيصرية في كانون الثاني من العام ١٨٥٥، وبعد خسارة روسيا الحرب، وعقد الصلح في باريس في آذار من العام ١٨٥٦، عرض كافور القضية الايطالية على الدول الكبرى المشاركة فيه، ونجح في كسب تعاطفها تجاه أماني الايطاليين القومية، فضلاً عن حصوله على اعتراف هذه الدول بحق مملكة سردينيا في الدفاع عن حقوق الشعب الايطالي. وقد حث كافور نابليون الثالث على مساعدة سردينيا، إلا أن نابليون الثالث لم يكن بإمكانه اتخاذ قرار سريع في ذلك بسبب الموقف الداخلي في فرنسا فقد كان

١ - المصدر نفسه، ص ١٨٥.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٨٨.

رجال الدين ضد الوحدة الإيطالية، وكان موقفهم هذا منسجماً مع موقف البابايوس التاسع، في حين كان الأحرار الفرنسيون يؤيدون مد العون لإيطاليا ضد النمسا، وفي سنة ١٨٥٨، غير نابليون الثالث رأيه بعد تعرضه لمحاولة اغتيال من قبل متطرف إيطالي، ولنع تكرار مثل هذه المحاولة، ورغبة منه في التقرب إلى الأحرار الوطنيين في فرنسا والعالم قرر نابليون مساعدة سردينيا بدعمها ب(٢٠٠) ألف جندي فرنسي لطرد النمساويين من إيطاليا، وتكوين دولة إيطالية موحدة، ومملكة أخرى في وسط إيطاليا، ودولة بابوية مركزها روما، ومملكة نابولي، وأن ترتبط هذه الكيانات الأربعة بعد ذلك برباط تعاهدي يرأسه البابا، وأن تحصل فرنسا مقابل ذلك على سافوي، ونيس¹.

أما بالنسبة لنابليون الثالث فقد كانت إيطاليا تمثل بلا شك قيمة أكبر في توازن القوى الأوربي أكثر مما أصبحت عليه فيما بعد، وعلى كل حال، لم تكن إيطاليا ذات أهمية كبيرة حتى العام ١٨٥٨، واهتمام نابليون الثالث الشديد بإيطاليا كان سببه خوف بدون وعي من تجربة القوة في الراين، وكانت فوق قوة فرنسا، ومع ذلك فإن تحطيم سيادة الهيمنة الفرنسية في وسط أوروبا كان السمة الحاسمة لتسوية فينا، وكانت إيطاليا في أحسن الأحوال باباً خفياً إلى وسط أوروبا، وكان اهتمام نابليون الثالث الشديد بإيطاليا اعترافاً بضعف فرنسا، وإن المسألة التي يحتمل أن يكون لإيطاليا أهمية فيها هي الصراع من أجل السيطرة على البحر المتوسط، ولكنه قرر الدخول في هذا الصراع من أجل أوروبا، ذلك الصراع الذي اعتمدت عليه عظمة فرنسا².

وأقتنع نابليون بأن سياسة شجب تسوية فينا في العام ١٨١٥، دون محاولة تحطيمها لسياسة التحالف الليبرالي مع بريطانيا إنما كانت سياسة مستحيلة، ويجب عليه أن يرجع إلى التحالف المحافظ مع النمسا، أو أن يتقدم إلى الأمام، فيدخل في حلف مع القومية الإيطالية، وكان واضحاً أي الطريقين يختار، وكان يشعر بكرهية شديدة تجاه النمسا، ولم تفلح الصداقة مع بريطانيا، ولهذا جاءت مباحثات نابليون الثالث مع كافور، وتم الاتفاق في بلومبير في ٢٠ تموز من العام ١٨٥٨، وبموجبه تعهد نابليون بتقديم المساعدة لمملكة سردينيا في إخراج النمسا من لومبارديا، والبندقية، وتعهد كافور لقاء ذلك بالتخلي لفرنسا عن نيس وسافوي. وقد تقهقر النمساويون في معركتي ماجنتا، وسولفرينو، وأحرز الإيطاليون والفرنسيون نصراً شاملاً، ولكن خوف نابليون الثالث

١ - المصدر نفسه، ص ١٨٩.

٢ - أي. جي. بي. تيلور، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٤.

من رد فعل ألمانيا سارع بإثباته الحرب، ولم تكن ألمانيا مستعدة أن تنظر بعين الرضا إلى إذلال دولة ألمانية على يد فرنسا وإيطاليا. وقد عرض هدنة على إمبراطور النمسا فرانسوا جوزيف الذي قبلها بسبب فداحة الخسائر التي كابدتها جيشه، ولكن هذه لم تكن السبب الوحيد، فالجرح كانت تسعى للثورة، والحاجة تدعو إلى توفير القوات اللازمة لقمعها، ثم أن احتمال تدخل بروسيا لم يكن ملائماً بالمرّة للدبلوماسية النمساوية، ولما سيصاحبه حتماً من تنازلات لبروسيا في ألمانيا لم يكن إمبراطور النمسا راغباً فيها، وعلى هذا الأساس وضع الصلح في فيلا فرانكا، وتم الاتفاق على تسليم لومبارديا إلى نابليون ليتولى بدوره تسليمها إلى الملك فكتور عمانوئيل، وعلى تأييد فرنسا والنمسا بعد ذلك لقيام اتحاد إيطالي برئاسة البابا الاسمية، واستمرار تبعية البندقية للنمسا مع اشتراكها في الاتحاد الإيطالي¹.

لقد تشكلت مملكة إيطاليا فعلاً في آخر العام ١٨٦٠، ورسمياً في بداية العام ١٨٦١، ولكن دون توحيد لجميع أجزائها. وقد نجحت الحركة القومية الإيطالية نجاحاً بفضل أزمة دولية، وهي الحرب البروسية-النمساوية، والتي على أثرها انتزعت إيطاليا البندقية من النمسا في العام ١٨٦٦، وكان واضحاً أن الحكومة الإيطالية لا تستطيع لوحدها أن تقوم بحرب جديدة ضد النمسا، ولذا كان من المنطق أن تفكر في البحث عن حلف مع بروسيا التي كانت في صعوبات مع النمسا منذ مجيء بسمارك إلى رئاسة الحكومة، ولكن كان ينبغي على إيطاليا أن توفق بين التحالف مع بروسيا، والحفاظ على صداقتها مع فرنسا، ولم يسع الملك فكتور عمانوئيل بأي ثمن أن يفسد علاقته مع فرنسا، وكان يفكر بأنه إذا أفسد علاقته مع فرنسا، ربما يكون قد جازف مجازفة خطيرة، لأن فرنسا يمكن أن تعقد حلفاً مع النمسا، ولو مع نجدة بروسيا^٢.

لقد كان الإيطاليون يخشون من تخلي بروسيا عنهم، ولكن انطباع الإيطاليين في أثناء حرب العام ١٨٥٩، أن نابليون الثالث لا يتمسك بتعهداته، وأنه تخلى عنهم في منتصف الطريق، وتساءلوا فيما إذا كان الأمر كذلك مع بروسيا. ؟ لقد قبل نابليون الثالث أن يعطي إيطاليا ضماناً بأنه إذا تخلت بروسيا عنها، فإنه سوف لن يترك النمسا تسحقها، وفي هذه الشروط تستطيع إيطاليا أن تبرم اتفاقاً مع بروسيا، وهكذا وقعت بين بروسيا وإيطاليا معاهدة ٨ نيسان في العام ١٨٦٦^٣.

١- أ.ج.جرانت وهارولد تمبرلي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٥٧-٤٥٨.

٢- دنور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية، الجزء الثالث، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٠-١٧٧.

٣- المصدر نفسه، ص ١٧٩.

المبحث الثالث

الوحدة الألمانية

لم تكن ألمانيا تشكل في القرن الثامن عشر وحدة سياسية واحدة، وإنما تكونت من عدد كبير من الولايات والدويلات يزيد عددها على الثلاثمائة، وكانت هذه الولايات والدويلات مرتبطة من الناحية النظرية بالنمسا، إذ أن أباطرتها كانوا أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، إلا أن كل واحدة منها كانت مستقلة من الناحية الفعلية، ولم يكن لها شأن مهم يذكر عدا مملكة بروسيا التي استطاعت بفضل تقاليدها العسكرية الصارمة، وجهود ملوكها الأقوياء أن تصبح مملكة قوية ليس في ألمانيا فقط، وإنما إحدى الدول الكبرى في أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر^١.

وتأثرت اليقظة القومية في ألمانيا بجملة من العوامل، منها تأثر ألمانيا في شعارات ومبادئ الثورة الفرنسية. كما احتلت ألمانيا على يد نابليون بونابرت في بداية القرن التاسع عشر، فمن جهة قام نابليون بضم قسم من الولايات الألمانية إلى فرنسا، والقضاء على قسم آخر منها، وتقليص عدد الولايات الألمانية المتبقية إلى ٣٩ ولاية فقط، وقام بإنشاء اتحاد الراين الذي ضم بعض الولايات الألمانية، وكان غرض نابليون آنذاك إقامة دولة قوية تالفة في ألمانيا يوازن بها نفوذ كل من النمسا وبروسيا^٢.

وقد أقر مؤتمر فيينا لعام ١٨١٥، إنشاء اتحاد جرمانى تشترك فيه جميع الدول الألمانية، وضم النمسا أيضاً، فضلاً عن بروسيا، وكانت الغاية من مساعي مترنيخ هو أن يضع هذا الاتحاد تحت سيطرة النمسا ليقضي على كل محاولة لجعل بروسيا تتزعم الاتحاد الجرمانى، وأعترف مؤتمر فيينا بأن رئيس الاتحاد الدائم هو إمبراطور النمسا، وتم الاتفاق على أن ينشأ مجلس للاتحاد تمثل فيه جميع الدول، ويدعى اللديت، وكان مركزه الدائم في مدينة فرانكفورت. أما مهمة هذا المجلس، فكانت البت في الخلافات التي قد تنشأ بين دول الاتحاد، وتقرير الأمور التي تمم الجميع، ولكن الواقع أن هذا الاتحاد كان عديم الفائدة، ضعيف النفوذ، ذلك أن إحدى مواد الدستور كانت تفرض حصول الإجماع لتقرير الأمور المهمة، وليس من العقول أن يحصل أجماع بين جميع دول الاتحاد بسبب اختلاف وجهات النظر فيما بينها، وكانت النمسا تريد الحفاظ على الاتحاد بأي ثمن

١ - د. خليل علي مراد، وجاسم محمد حسن، ود. عبد الجبار قادر غفور، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٥.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٩٧.

لأسباب كثيرة، فهو: أولاً يؤمن لها السيطرة، والزعامة على العالم الجرمانى، ثم أن بقاء الاتحاد يلزم بروسيا، ولو بصورة ضئيلة وشكلية بالتقيد بسياسته، فضلاً عن ذلك أن النمسا كانت ترى في بقاء الاتحاد بشكله الحاضر حاجزاً قبالة تزعم بروسيا للعالم الجرمانى، وتفردا بتحقيق الوحدة الألمانية التي كانت أشد ما تحشاها النمسا. أما بروسيا، فكانت تريد تدمير ذلك القيد الذي طوقها به مؤتمر فينا، والانطلاق نحو سياسة قومية مستقلة. كما كانت ترى في بقاء الاتحاد بقاء للسيطرة النمساوية على الوطن الألماني، ومن ثم بقاء بروسيا رغم قوتها ونشاطها تحت السيطرة النمساوية¹.

ومن أسباب يقظة ألمانيا القومية، النمو الاقتصادي فيها، إذ بدأت الصناعة الألمانية الكبرى بالنمو في المدة الواقعة بين العام ١٨٥٠، وإلى ١٨٦٠، فقد بدأ بنمو إنتاج الفحم، ومنذ العام ١٨٥٠، كانت ألمانيا في الصف الثاني في أوروبا كمنتج للفحم، وتأتي مباشرة بعد بريطانيا، وحدث تطور في وسائل النقل، وهذا ما ساعد على تطور الفكر عند الألمان وسمحت بانتشار الصحف، ومن جهة أخرى أن نمو الإنتاج كان يصاحبه نمو الطبقة الرأسمالية، وكان هؤلاء الرأسماليون الألمان، وكبار الصناعيين، وكبار التجار، يرغبون بإنشاء دولة ألمانية قوية كي تستطيع أن تحمي مصالحهم، وتكون قادرة على خلق نظام نقدي عام. فضلاً عن ذلك، فإن الأزمة الدولية لعام ١٨٥٩، قد أثارت قضية المبارديا- البندقية التي كانت خاضعة للاحتلال النمساوي، وفي الوقت الذي وقف فيه نابليون الثالث إلى جانب إيطاليا رفضت بروسيا المشاركة فيها، وأعلنت حيادها.

لقد أثارت هذه الأزمة الرأي العام في الولايات الألمانية، لأن كثيراً من الألمان فكروا بأن ألمانيا بحاجة إلى أن تكون قوة دولية، ودلت تجربة العام ١٨٥٩، على أن الإتحاد الجرمانى كان عملياً عاجزاً في السياسة الدولية بسبب اختلاف بروسيا والنمسا، وكان الألمان يخشون من توسع طموحات نابليون الثالث من أن تشمل ألمانيا^٢.

وفي الوقت الذي انتهت فيه حرب العام ١٨٥٩، ظهرت في ألمانيا يقظة حركت فيه الرأي لمصلحة الوحدة، وهذا الرأي العام أخذ يناقش قضايا، مثل: علاقات بروسيا مع النمسا، وما إذا كان على بروسيا أن تساعد النمسا في حربها ضد فرنسا، ورأى البعض بأن من واجب ألمانيا ألا تزج نفسها في تلك الحرب^٣.

١ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نعني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩-٢٧٠.

٢ - د. نور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية، الجزء الثالث، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦-٢٨.

٣ - المصدر نفسه، ص ٢٩.

وقد ظهرت ثلاثة اتجاهات في ألمانيا حول تحقيق الوحدة هي:

الاتجاه الأول: اتجاه الوحدة الألمانية تحت إدارة بروسيا مع إبعاد النمسا، وهو الاتجاه الذي ساد دستور العام ١٨٤٨، (اتجاه ألمانيا الصغرى).

الاتجاه الثاني: اتجاه الوحدة الألمانية التامة التي تشمل جميع الألمان بما فيها ألمان النمسا. الاتجاه الثالث: وهو اتجاه من يرغبون تحقيق الوحدة الألمانية بحيث تشمل فيه الإمبراطورية النمساوية كلها في اتحاد الدول الألمانية بالرغم من أن أكثرية الشعب في هذه الإمبراطورية، كانت سلافية، وغير ألمانية^١.

وفي العام ١٨٦٢، وضعت الحكومة البروسية بدورها مشروع إصلاح يقترح إدخال جميع الدول الألمانية كلها، عدا النمسا في دولة اتحادية بإدارة بروسيا، ويكون لهذه الأخيرة في هذه الدولة الاتحادية قيادة الجيش، وممارسة السلطة التنفيذية الاتحادية. إما النمسا فقد رأت نفسها مبعدة عن الدولة الألمانية، إذ اقترحت الخطة البروسية عليها تحالفاً مع الاتحاد الألماني، والفائدة التي يؤمنها هذا الاتحاد إلى النمسا هي انه يضمن لها امتلاك جميع أراضيها حتى الأراضي غير التابعة للإتحاد الجرمانى. وقد رفضت النمسا هذه الخطة البروسية، ومعها بعض الولايات الألمانية، وكانت الحكومة النمساوية ترغب في كسر الاتحاد الجرمانى^٢.

ودخلت بروسيا الحرب مع الدانمارك بسبب دوقيتي شلنفيك، وهولشتاين التي يحكمها ملوك الدانمارك، ولكنهما صارتا سنة ١٨٦٣، مثار خلاف بين الدانمارك من جهة، وبروسيا والنمسا من جهة أخرى، وكانت بروسيا تسعى إلى ضم الدوقيتين إليها بسبب وجود العنصر الألماني فيها، بل أن هولشتاين كانت أكثريتها من الألمان، وفي كانون الثاني من العام ١٨٦٤، اندلعت الحرب بين الدولتين، وغزت القوات البروسية المقاطعتين، وهزمت الجيش الدانماركي، وقبلت الدانمارك الصلح، ووافق ملكها على إعادة الدوقيتين بموجب معاهدة فينا في ٣٠ تشرين الأول من العام ١٨٦٤، فضلا عن دوقية لاونبرج، وأصبح حكم الدوقيتين ثنائياً بين بروسيا والنمسا تم بموجبها أن تحكم النمسا هولشتاين، وتحكم بروسيا شلنفيك ولا نبرج^٣.

١ - المصدر نفسه، ص ٢٩.

٢ - المصدر نفسه، ص ٣٤-٤٠.

٣ - أ.ه. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٣-٢٦٥.

وكان بسمارك رئيس وزراء بروسيا يسعى إلى أن تنسحب النمسا من ألمانيا، وتسلم بسيطرة ألمانيا على الدوقيتين، وتمتنع عن معارضة تأليف اتحاد تعاهدي شمالي تحت زعامة بروسيا، وسعى إلى منع إقامة تحالف بين النمسا وفرنسا، وكان من الأفضل له إلى حد بعيد ألا يقحم في ذلك الوقت، مسألة ضم الاتحاد الجنوبي لألمانيا، وأن يسمح للألمان الجنوبيين أن يندمجوا في الاتحاد البروسي، حينما يشاءون، وكيفما يريدون، فاقتدى نهجاً يضمن لهم رضاهم^١.

واندلعت الحرب في العام ١٨٦٦، بين النمسا وبروسيا، وأدت إلى انقسام الدويلات الألمانية. فقد أيدت دول الجنوب، وبعض دول الوسط، وهانوفر الشمالية النمسا، في حين أيدت الدول الأخرى، وكانت دولاً صغيرة بروسيا، فانقسمت ألمانيا إلى قسمين، وأستطاع الجيش البروسي أن ينتصر على الجيش النمساوي، وفي ٢٦ تموز من العام ١٨٦٦، وقع صلح براغ بين الدولتين. وقد قام هذا الصلح على أساس أن يكون اتحاد ألمانيا الشمالية تحت إدارة بروسيا، وألمانيا الجنوبية مستقلة، والأراضي النمساوية منفصلة عن ألمانيا، ومن جهة أخرى تستطيع بروسيا أن تضم عدداً من الأراضي في ألمانيا الشمالية^٢.

وفي حرب العام ١٨٦٦، مع النمسا كان بسمارك يوجه جهوده نحو إيطاليا لكي يتحالف معها، فكانت لإيطاليا قضية معلقة مع النمسا هي قضية البندقية. وقد وقعت معاهدة تحالف معها في ٨ نيسان من العام ١٨٦٦، في حين أخذ من جهة ثانية يعمل على إثارة المشكلات بوجه النمسا لكي يجعلها تثور، وتعلن الحرب مما يجعل بروسيا لا تظهر قبالة الدول الأوروبية بمظهر الدولة المعتدية^٣.

أما روسيا القيصرية فقد بني بسمارك سياسة خارجية على أساس قيام محور روسيا وبروسيا، إذ أنه عدّ روسيا دائماً حليفته الطبيعية، إذ ليس لروسيا أي مطامع في أوروبا الوسطى تنافس مصالح بروسيا، وأن المصالح الروسية موجودة في البلقان، والشرق، حيث لم يكن لبروسيا أية مطامع. وقد وقفت روسيا إلى جانب بروسيا^٤.

١ - المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

٢ - د. نور الدين حاطوم، الجزء الثالث، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥-٥٧.

٣ - د. عبد العزيز سليمان نوار، د. عبد المجيد نغعي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٣-٢٧٥.

٤ - المصدر نفسه، ص ٢٧٤-٢٧٥.

لقد أدت حرب العام ١٨٦٦، إلى تفويض ألمانيا الكبرى هانبا، أي إلى التخلي الكلي عن الصيغة التي بموجبها تستطيع أن تشمل جميع الأراضي النمساوية، وبالمقابل لم تساعد حرب العام ١٨٦٦، بسمارك على تحقيق الوحدة الألمانية تحت شكل ألمانيا الصغرى، أي ألمانيا التي تضم كل الأراضي الألمانية عدا النمسا، وفي الواقع أصبح على ألمانيا الجنوبية حسب صلح براغ أن تبقى مستقلة، وهذا حل ناقص لقد كان بسمارك يرى بان الاتحاد الألماني لا يمكنه أن يعمل، وغير قابل للحياة، ما يجب عمله هو طرد النمسا، وعندئذ يمكن بناء البلاد الألمانية من جديد، وينتظم أكثر تحت شكل ألمانيا الصغرى. لقد أراد بسمارك توحيد جميع الأراضي الألمانية بزعامة بروسيا دون النمسا، واكتفى بالنتيجة بتشكيل اتحاد ألمانيا الشمالية، وترك دول ألمانيا الجنوبية مستقلة^١.

وقد نظم بسمارك اتحاد ألمانيا الشمالية، ودخل الدستور في حيز التنفيذ في الأول من تموز من العام ١٨٦٧، وألغت معاهدة براغ الاتحاد الجرمانى لعام ١٨١٥، وقررت أن تبقى الدول الألمانية في الجنوب مستقلة، وأن تدخل الدول الواقعة في شمال خط الماين في اتحاد ألمانيا الشمالية.

إن وحدة ألمانيا لم تكن إذن تامة، وسعى بسمارك لإدخال دول الجنوب الألمانية في الاتحاد الألماني، حيث أيدت دول الجنوب النمسا، وأستخدم بسمارك أسلوب أحر حيال دفع دول الجنوب للانضمام إلى اتحاد الدول الشمالية ألا وهو الخوف من فرنسا، ففي تموز من العام ١٨٦٦، أعلن بسمارك في ألمانيا الشمالية عن عزمه على ضم بعض الأراضي، وبخاصة مملكة هانوفر، وهس، وكان مضطراً إلى طلب موافقة نابليون الثالث، الذي أعطى الموافقة، وطلب بالمقابل تعويضات إقليمية، فطلب لفرنسا أراضي السار، وطلب لاندوا بالاتينا البافارية، وكذلك الأراضي الهسية، والواقعة على الضفة اليسرى لنهر الراين، ولكنه لم يحصل على تعويض ارضي. لقد أستخدم بسمارك طلب التعويضات الفرنسي ليفزع دول الجنوب، ويربها بأنها إذا بقيت منعزلة، فلها ما تخشاه من فرنسا، وأن من مصلحتها أن تحصل على حماية بروسيا لها، فضلاً عن هذه الحماية تفترض وجود تحالف بين بروسيا ودول الجنوب، ووقعت بروسيا تحالفات سرية مع دول الجنوب. وقد نشر بسمارك هذه التحالفات في الجريدة الرسمية لبروسيا، وكانت هذه ضربة قاسية للسياسة الفرنسية، في حين كانت السياسة الفرنسية تخشى من الوحدة

^١ - د. نور الدين حاطوم، الجزء الثالث، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠.

الألمانية، وتسعى إلى الحفاظ على الأقسام الثلاثة، أي على الاتحاد الشمالي الألماني، والنمسا، ودول الجنوب المستقلة، ولا شك أن نشر بسمارك معاهدات التحالف السرية كان من أجل توجيه ضربة مخزية لنابليون الثالث، وهكذا ارتبطت دول ألمانيا الجنوبية بروسيا بحلف عسكري، وساد الاعتقاد في دول ألمانيا الجنوبية بأنه لا حياة اقتصادية ممكنة لدول الجنوب خارج الاتحاد الألماني .

لقد جاءت حرب العام ١٨٧٠، بين بروسيا وفرنسا الوسيلة المناسبة لبسمارك لتحقيق الوحدة الألمانية، وأدت حرب السبعين إلى تنفيذ معاهدات التحالف السرية المبرمة في شهر آب من العام ١٨٦٦، بين اتحاد دول ألمانيا الشمالية، ودول الجنوب. فقد زحفت جيوش دول الجنوب تحت قيادة بروسيا، إذ قوت هذه الحرب الوحدة الألمانية، وكان منطقياً أن تخرج الوحدة منها^١.

لقد عمل بسمارك على عزل فرنسا دولياً قبل نشوب الحرب مباشرة، فقد ضمن حياد النمسا وروسيا القيصرية. كما أبعده بريطانيا عن فرنسا بنشر مطالبة نابليون الثالث ببلجيكا التي كانت بريطانيا تحرص أشد الحرص على استقلالها، وانتهت الحرب في أيار من العام ١٨٧١، بمعاهدة فرانكفورت التي عقدت بين بروسيا، وحكومة الدفاع الوطني الفرنسي التي تشكلت في ٤ أيلول من العام ١٨٧١، أثار هزيمة نابليون الثالث، وقد نزلت فرنسا بموجب المعاهدة عن الألزاس، واللورين، وميز، إلى بروسيا. كما فرضت على فرنسا غرامة حربية مقدارها خمسة آلاف مليون فرنك نحو مليار دولار، وتقرر أن يستمر الاحتلال الألماني للأجزاء الشمالية من فرنسا حتى يتم دفع الغرامة الحربية التي دفعت فيما بعد.

إن من أهم نتائج الحرب مع فرنسا هي توحيد ألمانيا، فقد أثارت مشاركة الألمان الجنوبيين في الحرب مع الألمان الشماليين، موجة من الحماس، والشعور القومي تغلبت على المنافسات بين الحكام، وعلى شكوك الأحرار في بروسيا، ونظامها السياسي. وقد عقدت معاهدات التوحيد بين بسمارك، ممثلاً عن اتحاد شمالي ألمانيا، وبين حكومات الدول الألمانية الجنوبية في تشرين الثاني من العام ١٨٧٠، أي قبل انتهاء الحرب مع فرنسا، وتقرر بعد ذلك تغيير أسم الاتحاد الألماني إلى الإمبراطورية الألمانية، ولُقب ملك بروسيا بالإمبراطور في ١٨ كانون الثاني من العام ١٨٧١^٢.

١ - المصدر نفسه، ص ٩٠-١٠٤.

٢ - د. خليل علي مراد، وجلسم محمد حسن، ود. عبد الجبار قادر غفور، مصدر سبق ذكره، ص ٢١١-٢١٢.

المبحث الرابع

المسألة الشرقية

في العام ١٨٧٥، كانت مصالح الدول الكبرى متعارضة، وبقي الروس يشعرون بأهانة إغلاق المضائق، علماً أن موقفهم سيكون أصعب لو فتحت المضائق، وهم بدون أسطول في البحر الأسود، في حين بقي النمساويون يعتمدون على الملاحة في نهر (الدانوب) بعدة أهم حلقة وصل مع العالم الخارجي، وأستمر البريطانيون يشعرون بحاجة إلى الإمبراطورية العثمانية بوصفها حاجزاً محمداً كبيراً لضمان شرق البحر المتوسط، والشرق الأدنى، واحتاجوا إليها أكثر من السابق منذ فتح قناة السويس في العام ١٨٦٩، وظل الفرنسيون الممولين الأساسيين للدولة العثمانية، في حين احتل البريطانيون المترلة الثانية، ولم يرغب أيّاً من هؤلاء إثارة المسألة الشرقية، وكانت ألمانيا من دون القوى الكبرى تفضل تسوية شاملة لهذه المسألة، إذ لا مصلحة لها في الشرق الأدنى. فقد خشى بسمارك أن يتورط في نزاع لا يكسب منه شيئاً، ولذلك حلم بتقسيم مستحيل من شأنه تسوية المسألة إلى الأبد. لقد كانت الأماكن المقدسة مناسبة لاندلاع حرب القرم، وأصبحت الفضاخ في بلغاريا محور المسألة الشرقية بعد عشرين سنة، ثم تخللها مسألة جديدة، وهي النضال القومي، وحالما ثار سلاف البلقان قدمت لهم روسيا المساندة، إذ أنها تتعاطف مع الشعوب السلافية من أجل توحيدهم تحت حكم القيصر^١. وفي إمبراطورية النمسا، والمجر، كانت هناك تيارات متضاربة، فقد اعتقد

مترنيخ قبل نصف قرن أن الإمبراطورية العثمانية ضرورية لأمن النمسا، ورأى بعض النمساويون أن الإمبراطورية العثمانية منفعة خلقتها العناية الإلهية (للنمسا- والمجر)، فتركيا تحافظ على الوضع الراهن للدول البلقانية الصغرى، وتحول دون تطلعاتها القومية، فإذا ما ذهب البوسنة، والهرسك إلى صربيا، أو الجبل الأسود، أو تكونت دولة جديدة هناك، فسوف تصاب النمسا، والمجر بالضرر^٢.

وفي العام ١٨٧٥، اندلعت في البوسنة والهرسك ثورة ضد الحكم العثماني أثارها البؤس، والشقاء التي كان يعانيها الفلاحين، وامتدت أثارها إلى بلدان الجبل الأسود والصرب وبلغاريا، وانتشرت انتشاراً واسعاً، وأمتد نطاق الشعور القومي

١ - أي جي بي تايلور، الصراع على السيادة في أوروبا، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٢.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٧٤.

أسلافي في البلقان بشكل ليس له مثيل، ولكن الدولة العثمانية استطاعت من القضاء عليها^١.

إن الاتجاه الجديد في المسألة الشرقية غير تركيب العلاقات الدولية، فلم تعد بريطانيا وفرنسا قمتان بالمضائق مثلما كان سابقاً، وفي العام ١٨٧٨، كان اهتمام بريطانيا ما يزال منصباً على مقاومة روسيا القيصرية ولكنها أخذت تتراجع بعد عشرون عاماً، في حين بقيت النمسا والمجر وحيدة. وقد فرض هذه بدوره المسألة الشرقية على ألمانيا، فكانت مشكلة الدبلوماسية البروسية في العام ١٨٥٤، منع النمسا من إعطاء المساعدة لفرنسا وبريطانيا. أما في العام ١٨٧٦، والسنين التي بعدها، فكان ضمان قيام بريطانيا بمساعدة النمسا - المجر^٢.

لقد اعتقدت روسيا القيصرية أن الدولة العثمانية زائلة، وتوقعت انهيارها. فقد صممت على تجنب عزلة حرب القرم، ولذلك تعلقت بصدقة النمسا - المجر، وكان قيصر روسيا يسعى إلى صراع مع بريطانيا وفرنسا حول مسألة التعاون في الشرق الأدنى، وطرح فكرة تقسيم الدولة العثمانية على أن تكون مصر من حصة بريطانيا، إلا أن الأخيرة رفضت ذلك^٣.

لقد كانت خيبة قيصر روسيا هو الطلب من ألمانيا دفع ما نالته من مساندة روسيا لها في العام ١٨٦٦، والعام ١٨٧٠، فطلب من ألمانيا المحافظة على حياد النمسا - المجر عن طريق التهديد بالحرب، في حين يتفرغ الروس لمحاربة الأتراك، ولكن بسمارك رفض أن ينحاز إلى جهة معينة فقد أراد إطلاق حرية روسيا في الشرق الأدنى على أن يكون ذلك بالاتفاق مع النمسا - المجر، وليس بالحرب ضدها، ولاسيما بحرب قد تؤدي إلى تحطيم النمسا، وبعد أن أخفق الروس في نيل المساعدة الألمانية حاولوا دون اندفاع كسب مساندة فرنسا، ولكن خاب ظنهم، مرة أخرى. فقد رفضت فرنسا حتى في زمن عظمة نابليون أن تختار ما بين روسيا وبريطانيا حالما انتهت حرب القرم، فكيف بفرنسا المدحورة، وهي بحاجة إلى رعاية لكلتا الدولتين ضد ألمانيا، وكان من حسن حظ الفرنسيين أن جاءت الأزمة الشرقية في وقت مناسب لهم، ففوق الأزمة بعد حرب العام ١٨٧٠، بقليل مكنتهم من التستر بضعفهم، وكانت أزمة الشرق الأدنى كسباً حقيقياً لفرنسا في المستقبل، إذ قدر لها أن تقدم عصبة الأباطرة الثلاثة، وربما أن تنظر

١ - أ.ه. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٠.

٢ - أي. جي. بي. تايلور، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٥.

٣ - المصدر نفسه، ص ٢٧٨.

روسيا القيصرية من ألمانيا، ومع ذلك، فلم يكن هناك خطر توتر العلاقات بين روسيا القيصرية وفرنسا^١.

ومع تصميم قيصر روسيا القيصرية شن الحرب على الدولة العثمانية، فإنه كان كذلك مصمماً على تجنب أخطاء حرب القرم أي عدم محاربة الدولة العثمانية، وكل الدول الأوروبية هذه، إذن بقي قبالة الدبلوماسية الروسية طريقان: أما أحياء محفل الدول العظمى، أو تحقيق مساومة مستقلة مع النمسا- المجر، ولم تحقق روسيا النجاح في الطريق الأول، إلا أنها أفلحت في الطريق الآخر^٢.

وقد تمنى الروس حياد النمسا والمجر غير أنهم كانوا أكثر اعتماداً على رضا النمسا والمجر لعدم وجود أسطول لهم في البحر الأسود، فالنمسا والمجر لم تكن في حالة استعداد دائم للحرب ضد الدولة العثمانية، بل أراد الجنرالات النمساويون دخول الحرب مع روسيا ضد الدولة العثمانية إذا كان لابد من دخول الحرب، ولكن الحكومة النمساوية كانت تريد تجنب الحرب التي يمكن أن تهدد امتيازات الهنغارين في المملكة الثنائية، بيد أن الروس أغفلوا هذا كله بسبب حرصهم على الفوز بحياد النمسا- المجر. فقد أرادت النمسا- المجر الحصول على اليوسنة والهرسك على أن تكون صربيا، والجلب الأسود حاجزاً محايداً تفصل بين الجيشين الروسي والنمساوي- المجري، وإلا تقام دولة كبرى للسلاف أو غيرهم إذا انهارت الدولة العثمانية، ومقابل ذلك ستمسك النمسا- المجر بحياد في حالة اندلاع الحرب بين روسيا القيصرية والدولة العثمانية^٣.

والحق، في أعقاب الانتصارات الكبرى التي أحرزتها بروسيا على كل من النمسا وفرنسا أصبح التوازن الدولي غير واضح الاتجاهات، فألمانيا أصبحت عملاق في قلب أوروبا، ولكن لا تستطيع أن تسيطر عليها، وفرنسا مهزومة، وتعاني اضطراب سياسي شديد، ومع هذا كانت قادرة على أن تحد من نشاط هذا العملاق، خاصة وأن بريطانيا لم تنتهز هذه الفرصة، وتنقض على فرنسا حفاظاً على التوازن الدولي، وحتى لا تزداد الإمبراطورية الألمانية قوة على قوة، وكانت كل من روسيا والنمسا لا تريدان أن تتطور الأمور إلى ما هو أعقد مما وصلت إليه، ومن ثم كان هناك نوع من التوازن الدولي القائم على القلق من تطورات المستقبل^٤.

١ - المصدر نفسه، ص ٢٨٢-٢٨٤.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٨٥.

٣ - المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

٤ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نغني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٣.

إن ضعف الدولة العثمانية عسكرياً، واقتصادياً، وسياسياً، هو الذي زاد من أطماع الدول الأوروبية فيها بحيث نشأت المسألة الشرقية، وهذه الأطماع الأوروبية في الدولة العثمانية قديمة وعميقة الجذور، وكانت قوة الدولة العثمانية تمنع ظهور تكتل أوربي ناجح ضدها، وتمنع كذلك من توسع أوربي على حسابها— حتى نمت روسيا القيصرية وقوت، ووصلت قواتها حتى باريس سنة ١٨١٤-١٨١٥، وحتى وصلت مشارف القسطنطينية سنة ١٨٢٨-١٨٢٩، الأمر الذي كان يثير مخاوف الدول الأخرى، وليس الدول الأوروبية المجاورة لها وإمبراطورية النمسا فقط، وإنما كذلك الإمبراطورية البريطانية أيضاً^١.

لقد كان هناك تسابق روسي- نمساوي على وراثة الدولة العثمانية في البلقان خاصة بعد حرب القرم، وبعد اندحار النمسا في العام ١٨٦٦، إذ لم يعد وجه النمسا نحو ألمانيا، وإنما رأت مجالها الحيوي في البلقان، فأصبحت أية أحداث سياسية في البلقان ذات مساس بإمبراطورية النمسا- المجر بينما كانت روسيا القيصرية قد ركزت في تزعم الحركة السلافية. وهي حركة ضارة بكل من الدولة العثمانية، وإمبراطورية النمسا- المجر، إذ أن هذه الحركة كانت تهدف إلى استقلال الشعوب السلافية الواقعة تحت حكم هاتين الإمبراطوريتين، وإلى تقوية النفوذ الروسي في البلقان يجعل هذه الشعوب السلافية مخلب قط للسياسة الروسية^٢.

إذ كانت هناك مخاوف من أن تضع روسيا القيصرية يدها على منفذ لأي خطوط المواصلات العالمية عبر آسيا الوسطى أو عبر الشرق الأدنى إلى الهند مستغلة ضعف الدولة العثمانية، والحماس لدى مسيحيي روسيا القيصرية، وغمو التعصب السلافي القومي المسيحي في البلقان، ولا شك أن المقاومة الانكليزية- الفرنسية- النمساوية الشديدة للاندفاع الروسي على حساب الدولة العثمانية كانت هي السبب وراء تأخير تصفية هذه الدولة، ولكن الأمور اختلفت بعد أن تجلت قيمة الوفاق الروسي البروسي الذي مكن الروس من ضرب الثورة البولندية سنة ١٨٥٦، والتي كانت تقيد النشاط الروسي البحري-العسكري في البحر الأسود، مع ملاحظة أنه في ذلك الوقت أصبحت روسيا تهدد قلب الدولة العثمانية من جهتين جبهة أرمينيا- ارضروم، وجبهة البلقان، ومن الملاحظ أن حاجة بسمارك إلى روسيا بعد العام ١٨٧١،

١ - المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٩٥.

أصبحت أقل عنها قبل ذلك، ومخاوف روسيا القيصرية من ألمانيا بعد العام ١٨٧١، أصبحت أكثر بكثير عن مخاوفها من قبل تلك السنة.

لقد كان هناك نمواً متزايداً في المصالح الأوربية في الدولة العثمانية في الوقت نفسه الذي كانت فيه بريطانيا مطمئنة منذ حرب القرم إلى سياستها الخاصة بمستقبل الشرق الأوسط^١.

ولما اندلعت الحرب الروسية العثمانية لعام ١٨٧٧، كانت هناك توقعات بان تقف بريطانيا بقوة إلى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا مثلما تم في حرب القرم، ولكن الأوضاع، والأهداف، والتوازن الدولي قد اختلفت مما دفع ذلك بالسلطان العثماني إلى طلب وقف الحرب في ٣١ كانون الثاني العام ١٨٧٨، ثم فرضت روسيا القيصرية على الدولة العثمانية معاهدة سان ستيفانو في ٣ آذار من العام ١٨٧٨، تلك المعاهدة التي أدت إلى تحرك دولي سريع، ويرجع ذلك إلى النتائج التي تمخضت عنها المعاهدة، ومنها ظهور دولة بلغاريا الكبرى على حساب الممتلكات العثمانية، وعلى حساب الآمال اليونانية، ووسط حذر بريطانيا وشكوكها من هذه الدولة الجديدة، ومدى تأثيرها في الدولة العثمانية التي أصبحت تحت رحمة روسيا وحلفائها في البلقان، ومما زاد من مخاوف بريطانيا في هذه المعاهدة. إن روسيا كانت قد استولت في الجهة الغربية على قارص، وأردهان، وباطوم، وعلى معظم أرمينيا، الأمر الذي يؤدي حسب وجهة النظر البريطانية- إلى قرب الجيش الروسي من شمال العراق، والخليج العربي، وإلى الهند، حيث المصالح البريطانية، ولكن بسمارك أستطاع أن يقدم حلاً للمشكلة عن طريق عقد مؤتمر برلين في العام ١٨٧٨، إذ تم الأنفاق على ما يلي:-

١. تصبح بلغاريا تحت السيادة الاسمية للسلطان العثماني، ويكون لها حكومة خاصة بها، وجيش وطني.
٢. فصل الروميلي الشرقي عن بلغاريا الكبرى، ووضعه تحت الحكم المباشر العثماني، وبذلك تكون قد تقلصت جداً (بلغاريا).
٣. توضع البوسنة والهرسك تحت الاحتلال النمساوي على أن تظل الإدارة العثمانية في سنجق نوفي بازار.
٤. استقلال الجبل الأسود.
٥. استقلال الصرب.

١ - المصدر نفسه، ص ٢٩٦.

٦. استقلال رومانيا التي حصلت على إقليم دوبرجة، ولكن فقدت بساراييا التي جعلت عليها روسيا.

٧. نزول السلطان العثماني عن أردهان وقارص وباطوم، إلى روسيا.

٨. يتعهد السلطان بمنح حرية الاعتقاد الديني في الدولة العثمانية، وأن لا تكون عقيدة المواطن العثماني عقبة أمامه في سبيل التمتع التام بالحقوق السياسية والدينية^١.
لقد استطاعت الدبلوماسية البريطانية أن تحقق بعض المكاسب حينما عملت على تفويض معاهدة سان ستيفانو بمنع ظهور بلغاريا الكبرى، كما أن إعادة الروملو الشرقي إلى الدولة العثمانية حتى جبال البلقان أعطى للعثمانيين حدوداً طبيعية يمكن الدفاع عنها بسهولة^٢.

كما حققت الدبلوماسية البسماركية نجاحاً باسم المصالحة، والتعويض. فقد قوي النفوذ الروسي في شرق البلقان، في حين قوي النفوذ النمساوي في غربه، ومثلما حصلت روسيا القيصرية على قارص، وباطوم، وأردهان، فإن بريطانيا حصلت في معاهدة سرية مع السلطان العثماني على قبرص، حيث أن هذه الجزيرة كانت في نظر بريطانيا قاعدة يمكن منها صد أية محاولات روسية عسكرية للوصول إلى العراق^٣.

في حين عدت فرنسا أن تلك الاتفاقية السرية البريطانية-العثمانية بشأن التنازل عن قبرص إنتكاسة لها، وطالبت بتعويض لها، فوافقت بريطانيا على حرية تصرف فرنسا في تونس. كما أتفقتا على أن يكون نفوذ كل منهما متساوياً في مصر بحيث لم يعد للمصريين القدرة على تدبير أمورهم، ولكن لم تلبث بريطانيا أن خشيت من قدرة فرنسا على تحويل حوض البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية بعد احتلالها لتونس في العام ١٨٨١، فعملت على الإنفراد بمصر، واحتلالها فعلاً في العام ١٨٨٢^٤.

ولهذا أستطاع بسمارك أضعاف معاهدة سان أستيفانو، مما كان سبباً في إضعاف رابطة الأباطرة الثلاث، وكان إنزعاج روسيا القيصرية أمراً أفاد الدبلوماسية الفرنسية، بل فرصة لتكون فرنسا الحليف الذي تبحث عنه في أوروبا، وأن هذا الغدر الانكليزي-الروسي-الفرنسي-النمساوي بالدولة العثمانية، وخروج ألمانيا دون الحصول على أي أرض عثمانية من العوامل التي دفعت حكومة السلطان عبد الحميد الثاني إلى التقارب مع ألمانيا، والأستفادة من تقدمها العلمي والعسكري^٥.

١ - المصدر نفسه، ص ٣٠٠-٣٠١.

٢ - المصدر نفسه، ص ٣٠٢.

٣ - المصدر نفسه، ص ٣٠٢.

٤ - المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

٥ - المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

المبحث الخامس

سياسة توازن القوى

لقد أدرك بسمارك بعد تحقيق الوحدة الألمانية، وانتصاره على فرنسا بأن هذه الأخيرة لا تسعى إلى المصالحة، وروسيا لا يمكن الركون إلى صداقتها، والنمسا ما زالت تشعر بسخط على ألمانيا، ولذا سعى بسمارك إلى كسب ود وصداقة روسيا القيصرية من غير إغضاب بريطانيا، ومع النمسا من غير ابتعاد روسيا عنه، وكانت سياسته بحاجة إلى دهاء وكياسة، وهذا ما توفر في بسمارك، ولذا حاول قدر الإمكان إبعاد الخطر الفرنسي عن ألمانيا، وذلك بتشجيع فرنسا على الدخول في منافسات في شمال أفريقيا. فقد شجعها على احتلال تونس كي تتصادم مع إيطاليا، وشجع بريطانيا على أملاك مصر كي تتشاجر مع فرنسا، وكانت الاتفاقات البحرية الانكليزية- الإيطالية لسنة ١٨٨٧، ثماراً للسياسة نفسها التي سعى إليها، والتي كانت تهدف إلى عزل فرنسا، وحرمانها في أن يكون لها صديق في أوروبا. أما شرق أوروبا فقد سعى بسمارك إلى منع تكوين تحالف دولي قد تنظمه فرنسا ضد بلاده. كما عمد إلى تطوير علاقة بلاده مع روسيا التي كان يرى في دبلوماسيتها خادعة وماكرة، وأن صداقتها متقلبة، وكان يرى أنه إذا أضطر إلى الاختيار بين روسيا القيصرية والنمسا، فإنه سيؤثر في الدوام اختيار النمسا، ولهذا فإنه عندما سويت الخلافات البلقانية سنة ١٨٧٨، عمل على إبرام معاهدة سرية مع النمسا، ومن وراء ظهر حليفته روسيا القيصرية، وكان هذا العمل عاملاً حاسماً في تاريخ أوروبا، فإن بسمارك وضع بلاده بهذه المعاهدة السرية في صف النمسا في نضالها القادم المرتقب ضد جامعة الأمم السلافية^١.

وأبرم هذا التحالف الثنائي بين النمسا وألمانيا سنة ١٨٧٩، ثم أصبح بانضمام إيطاليا إليه سنة ١٨٨٢، التحالف الثلاثي، وهو التحالف الذي أستمر حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، وأنه كان حجر الزاوية لقيام هذه الحرب، ولم يكن بسمارك يسعى إلى إثارة حروباً بين النمسا وروسيا، بل كان يسعى إلى تجنب مثل هذه الحروب، وكانت أوروبا على وشك الدخول في حرب في أثناء الحروب البلقانية.

إن الأوروبيين قد عرفوا بأن الصرب كانوا يعملون بإيعاز من النمسا، وكان أمير الصرب مقيتاً في عين روسيا، وأن البلغار كانوا خاصة من إتباع روسيا القيصرية، فإذا

^١ - أ.ه. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٥-٣٩٠.

سمح لهذا الشجار بين بلغاريا، والصرب، بأن يطول أكثر مما يطول، فإنه ربما يؤدي إلى احتكاك بين روسيا والنمسا، وأن ذلك سيجر جهوده لتجنب حرباً كهذه، في حين وقفت بريطانيا حرة قبالة المحالفات المضادة لفرنسا، وفي عزلة تامة، فلم تجرأ حكومة انكليزية حرة كانت أم محافظة على أن تربط الشعب الانكليزي بجائيل السياسات الأوروبية^١.

أما الألمان، فكانوا على درجة من الحساسية بمجمل العلاقات الأوروبية. فقد شعروا بأن صداقة بريطانيا تعني عداوة الروس، فلاح لبعض ساستهم أبرام معاهدة سرية مع بريطانيا تبعتها عن فرنسا فكرة جذابة، وحاول بسمارك تحقيقها مع الحكومة البريطانية، ولكن السياسة الانكليزية أعلنوا أنهم يكرهون الدخول في معاهدات سرية، وقالوا أنه لابد من اطلاع البرلمان، والملكة عليها، ولما كانت الحكومات الانكليزية تتغير دوماً، وليس هناك ضمان عند بسمارك في عدم تغيير وزارة ما انكليزية سياستها، ولهذا لم تبرم معاهدة بين ألمانيا وبريطانيا خلال حكم بسمارك، كما أن ألمانيا بدخولها حلبة الاستعمار ضاعفت كثيراً من فرص الاحتكاك بينها وبين انكلترا. فقد كان هناك احتكاك بين الدولتين بصدد فيجي، وغيانا الجديدة، وبصدد أفريقيا الجنوبية الغربية، وأفريقيا الوسطى، وحينما تكون العلاقات الألمانية جيدة مع روسيا كان في وسع بسمارك أن يتجابه مع بريطانيا مما يؤدي إلى أرضاء الحكومة القيصرية، والشعب الألماني، إلا أن إثارة انكلترا، وتحديها لم تكن بأمانة العواقب إلا حينما تكون علاقاته مع روسيا ودية، ولكن عند ظهور أول بادرة لتكدر العلاقات الروسية- الألمانية كانت بريطانيا ترجع إلى أرضائه^٢.

ومع هذا ظل بسمارك لا يشعر باطمئنان، لأنه برغم تحالف العواهل الثلاثة، وبرغم التحالف الثلاثي، والتفاهم بين ايطاليا وبريطانيا، وبرغم محالفات النمسا والمجر الأخرى مع الصرب ورومانيا، وبرغم معاهدة سرية تأكيدية أبرمها مع روسيا القيصرية سنة ١٨٨٧، برغم هذا كله بقي بسمارك خائفاً يجثم فوق صدره شبح نشوب حرب تجبر فيها ألمانيا على القتال في جبهتين^٣.

١ - المصدر نفسه، ص ٣٩١-٣٩٢.

٢ - المصدر نفسه، ص ٣٩٣-٣٩٤.

٣ - المصدر نفسه، ص ٣٩٤.

لقد ركز بسمارك جهوده في ميدان السياسة الأوروبية ليكفل دور الزعامة في القارة الأوروبية، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف ربط ألمانيا بسلسلة من الأحلاف والاتفاقيات الدولية:-

١. اتفاق الأباطرة الثلاثة سنة ١٨٨١، وضم ألمانيا وإمبراطورية النمسا- المجر، وروسيا وقد انقضى سنة ١٨٨٧.

٢. الحلف الثلاثي سنة ١٨٨٢، والذي ضم ألمانيا، وإمبراطورية النمسا- المجر، وإيطاليا، وتجدد لعدة مرات حتى الحرب العالمية الأولى. وقد ضعف مفعوله بعد إقصاء بسمارك عن السلطة.

٣. حلف ثلاثي آخر، ضم ألمانيا، وإمبراطورية النمسا- المجر، ورومانيا، وابرم في سنة ١٨٨٣.

٤. اتفاق إعادة التأمين سنة ١٨٨٧، وهو اتفاق سري بين ألمانيا وروسيا وكان الغرض منه تأمين سلامة روسيا ضد عدوان محتمل قد يقع عليها من جانب إمبراطورية النمسا- المجر، وكان هذا الاتفاق يعدّ حجر الزاوية في الدبلوماسية البسماركية التي تلخص في التحالف مع إمبراطورية النمسا- المجر، وفي الوقت ذاته الاحتفاظ العلاقات ودية مع روسيا القيصرية.

٥. اتفاق أيار في العام ١٨٨٧، بين إيطاليا واسبانيا، وقد انضمت إليه ألمانيا، وإمبراطورية النمسا- المجر، للمحافظة على الوضع الراهن في البحر المتوسط، وبلاد المغرب^١.

قبالة هذا التكتل الضخم بزعامة ألمانيا، رأت فرنسا نفسها في عزلة تامة خصوصاً أنّها كانت في صراع مستمر مع بريطانيا بسبب تنافس البلدين في الميدان الاستعماري في أفريقيا والشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا، ومن الجدير بالذكر أن بريطانيا اتبعت في العهد البسماركسي سياسة العزلة المجيدة، فلم تهتم كثيراً بميزان القوى في أوروبا في ذلك الوقت إلا بالقدر الذي يمكنها من توسيع وتوطيد أركان إمبراطوريتها الاستعمارية الكبرى، وهذا هو السبب الذي دعاها إلى التعاون مع إيطاليا ومع إمبراطورية النمسا- المجر اتفاق العام ١٨٨٧، على اعتبار أن هاتين الدولتين تنافسان فرنسا في شمال أفريقيا وروسيا القيصرية في البلقان على التوالي. وقد حقق النظام البسماركسي استقراراً كبيراً

^١ - د. سمعان بطرس فرج الله، (العلاقات السياسية الدولية في القرن العشرين)، الجزء الأول، ط١، القاهرة، مكتبة الانجلومصرية، ١٩٧٤، ص ٩٧-٩٨.

في أوروبا، ولكن عيبه الأساس انه قام على تناقضات صارخة فقد جمع بين أعداء الـداء الذين لم يتنازل أي منهم عن مطامعه، فإمبراطورية النمسا- المجر هي العدو التقليدي لروسيا القيصرية في البلقان، ومنافسة إيطاليا في منطقة بحر الادرياتيک بقدر ما كانت بريطانيا عدواً لروسيا التقليدي في الشرق الوسط وفي أواسط آسيا، ولم يكن بمقدور بسمارك وحده بفضل عبقريته الدبلوماسية الجمع بين هؤلاء الأعداء في إطار نظام اتفاقي متكامل، ولذلك كان من المتوقع أن ينهار النظام بأكمله، باختفاء بسمارك من مسرح السياسة الأوروبية^١.

فبعد سقوط بسمارك قطع خلفاؤه الخيط الرفيع الذي كان يربط الشبكة من الأحلاف المتناقضة، ألا وهو الاحتفاظ بعلاقات ودية مع روسيا إلى جانب التحالف مع إمبراطورية النمسا- المجر، فتحت تأثير رئيس أركان الجيش الألماني، ومستشاروه، ووزارة الخارجية، رفضت الحكومة الألمانية الجديدة تجديد اتفاق إعادة التامين مع روسيا القيصرية بعد حلول اجله سنة ١٨٩٠، لقد رفضت ألمانيا تجديد هذا الاتفاق للأسباب الآتية:-

١. اعتقاد الحكومة الألمانية الجديدة أن روسيا القيصرية وليس فرنسا تشكل الخطر الأكبر على زعامة ألمانيا في القارة الأوروبية.
٢. اعتقاد الحكومة الألمانية الجديدة انه إذا افتضح أمر اتفاق إعادة التامين مع روسيا وكان اتفاقا سريافان هذا سيؤدي إلى إضعاف، بل إلى هدم التحالف الثلاثي بين ألمانيا، وإمبراطورية النمسا- المجر، وإيطاليا.
٣. خشية الحكومة الألمانية الجديدة من افتضاح أمر اتفاق إعادة التامين المذكور سيؤدي إلى معاداة بريطانيا، لأن هذا الاتفاق كان ينص على تأمين ألمانيا لسياسة إغلاق المضائق التركية وهي السياسة التي كانت روسيا القيصرية تسعى إلى تحقيقها في ذلك الوقت^٢.

والحق، فإن الحكومة الألمانية الجديدة أرادت تغيير سياسة بسمارك تجاه روسيا القيصرية تلك السياسة التي كانت تهدف إلى تأمين سلامة روسيا في منطقة البحر الأسود، وفي البلقان، ومنعها بالتالي من الاتجاه نحو التحالف مع فرنسا، فالاعتبارات الثلاثة أعلاه لتبرير تراجع الدبلوماسية الألمانية عن سياسة بسمارك منبعا في الواقع عدّ

^١ - المصدر نفسه، ص ٩٨.

^٢ - المصدر نفسه، ص ٩٩-١٠٠.

واحد، وهو الخوف من أطماع روسيا القيصرية التوسعية في المستقبل في منطقة أوروبا الشرقية والوسطى. وقد اقتضت هذه السياسة الجديدة تقوية الحلف الثلاثي، وبصفة خاصة تقوية العلاقات الألمانية- النمساوية من جانب، وتدعيم تقرب ألمانيا من بريطانيا من جانب آخر في الأقل إلى أن تستكمل ألمانيا سيطرتها التامة على القارة الأوروبية إلى حيث أتمام خطة تسليحها البحري¹.

لقد انتهجت الحكومة الألمانية الجديدة نقيض سياسة بسمارك، وذلك عن طريق تقوية الروابط الألمانية- النمساوية ذلك الوعد الذي قطعتة الحكومة الألمانية على نفسها بعدم السماح بحصول روسيا على امتيازات في الشرق الأوسط دون موافقة النمسا، وكذلك عدم السماح بتسوية قضية المضائق العثمانية بما يتفق والمصالح الروسية، ولكن تقوية العلاقات الألمانية- النمساوية كانت في الواقع مسألة قانونية، إذ أنه لم يكن من المتوقع على الإطلاق أن تنفصل إمبراطورية النمسا- المجر عن التحالف الثلاثي، الأمر الذي كان محل شك هو موقف إيطاليا، فكان يجب على الحكومة الألمانية الجديدة، حيث أهما اعتمدت أساساً على تقوية التحالف الثلاثي، أن تقوي رابطة تحالفها مع إيطاليا. فقد كانت فرنسا تهدف أساساً إلى فصل إيطاليا عن التحالف الثلاثي، كما سعت إلى أضعاف علاقات الصداقة بين إيطاليا وبريطانيا، ومن ثم أضعاف أواصر التعاون والتضامن بين بريطانيا، وإيطاليا، وإمبراطورية النمسا- المجر بخصوص منطقة البحر المتوسط، وكان هذا التجمع أساساً موجهاً ضد فرنسا، ولتحقيق هذا الهدف لجأت فرنسا إلى وسيلتين: الضغط المالي والاقتصادي من ناحية، والتعاون مع الفاتيكان من ناحية أخرى. فقد أوقفت فرنسا جميع معوناتا الاقتصادية التي كانت تقدمها إلى إيطاليا، بل أهما سحبت رؤوس الأموال الفرنسية المستثمرة فيها، كما شنت ضدها حرب الحواجز الكمركية، وكان لهذه التدابير تأثير سئ في الاقتصاد الإيطالي، كما لجأت فرنسا من ناحية أخرى إلى سياسة التعاون مع الفاتيكان الذي كان في نزاع مع الدولة الإيطالية منذ توحيدها، ومع ذلك، فإن جميع وسائل الضغط هذه فشلت في حمل إيطاليا على الانفصال عن الحلف الثلاثي، أو قطع علاقاتها مع بريطانيا، ويرجع الفشل أساساً إلى أن كريسي رئيس وزراء إيطاليا في ذلك الوقت كان يمينياً متطرفاً، وكانت له أطماع في شمال أفريقيا، وتونس،

¹ - المصدر نفسه، ص ١٠٠.

ومن ثم كان عدواً لفرنسا، ولما سقط كريسي في العام ١٨٩١، حاولت فرنسا مرة أخرى التأثير في إيطاليا لتضعف علاقتها مع ألمانيا، والنمسا، وبريطانيا^١.

الحلف الفرنسي - الروسي:

لم تكن فكرة إنشاء هذا الحلف حديثة، ولكنها تجددت بعد زوال بسمارك. فقد ظهرت بوادر الصداقة بين البلدين بعدة مظاهر، مثل: منح فرنسا القروض إلى روسيا، وإرسال أسلحة فرنسية إليها، وقد أنتاب القلق قيصر روسيا أثر التخلي عن معاهدة إعادة التأمين، وشعر بالمخاطر من جراء المطامع النمساوية في البلقان، وصعب عليه أن يرى التقدم الانكليزي في آسيا، فتغلب على عدائه للنظام الجمهوري القائم في فرنسا، وقرر في العام ١٨٩١، أن يدعم حلفه الدفاعي مع فرنسا، وأشترط أن يبقى طبي الكتمان، وفي العام التالي في ١٨ آب ١٨٩٢، وقع الطرفان، فضلاً عن ما تقدم، اتفاقية عسكرية أضفت على الحلف وظيفته العملية، وسرعان ما شعرت أوروبا بتوافق السياستين الروسية والفرنسية، ففرنسا لم تبق وحدها، وفهمت ألمانيا أنها في حالة نشوب الحرب ستضطر أن تقاتل في جبهتين، وفي العام ١٨٩٩، مدد أجل التعهدات الفرنسية - الروسية إلى أجل غير مسمى، ولم تصبح مجرد إقامة سلم فحسب، بل تأمين توازن قوى أوربي^٢.

وقد مر أبرام الحلف بعدة مراحل دامت قرابة أربع سنوات. فقد بدأت المفاوضات في أيار من العام ١٨٩٠، ولم يتم أبرام الحلف رسمياً، إلا في كانون الثاني في العام ١٨٩٤، ولا شك أن السبب الرئيس في تأخير أبرام الحلف يرجع إلى ممانعة وتردد الدبلوماسية الروسية. فقد كان قيصر روسيا يمتق بشدة النظام الجمهوري في فرنسا، هذا فضلاً عن أنه لم يكن يثق كثيراً في الحكومات الفرنسية غير المستقرة، كما أنه كان يخشى أنه إذا تحالف مع فرنسا، فإن هذه الأخيرة قد تستغل هذا التحالف لشن حرب هجومية ضد ألمانيا لاستعادة إقليمَي اللورين، واللزاس، فضلاً عن ذلك من أن وزير خارجية روسيا جبير، كان يأمل دوماً في إعادة العلاقات الألمانية - الروسية كما كانت عليه في عهد بسمارك، ولذلك لم تقدم روسيا القيصرية نهائياً على التحالف مع فرنسا إلا بعدما تبينت استحالة ضمان حدودها الغربية، والجنوبية الغربية باتفاقها مع

^١ - المصدر نفسه، ص ١٠١.

^٢ - لويس دوللو، التاريخ الدبلوماسي، ترجمة: د. سموحي فوق العادة، ط ٢، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨٢، ص ٥٠.

ألمانيا، وتلك الضمانة التي كانت الموضوع الرئيس لاتفاق إعادة التأمين، ومن ناحية أخرى كانت فرنسا متلهفة إلى التحالف مع روسيا للخروج من العزلة التي فرضها عليها بسمارك، وضمن حدودها الشرقية لمواجهة التحدي البريطاني في الميدان الاستعماري، وبصفة خاصة في مصر، وأعلى النيل، وفي جنوب شرق آسيا، والتحدي الإيطالي في شمال أفريقيا^١.

والحق، أن تحالف روسيا القيصرية مع فرنسا لم يكن بقصد معاداة ألمانيا أو معاداة النمسا عن طريق أتباع سياسة عدوانية توسعية في شبه جزيرة البلقان، فإن هدف روسيا القيصرية الأساس كان اتخاذ موقف دفاعي فقط في مواجهة أي سياسة توسعية من جانب إمبراطورية النمسا- المجر بمساعدة ألمانيا أو بعبارة أخرى: المحافظة على الوضع الراهن في المنطقة، ولكن إذا أقدمت النمسا بمفردها على محاربة روسيا القيصرية، فإن التحالف الفرنسي- الروسي لا يعمل به.

إن الحلف الفرنسي- الروسي يعمل على تحقيق هدف الدبلوماسية الروسية في البلقان في مواجهة إمبراطورية النمسا- المجر، فهو إذن يقوم مقام اتفاق إعادة التأمين، ولكن هناك نواقص في الحلف، إذ لم ينص الحلف على حالة الحرب بين روسيا، والدولة العثمانية أو بين روسيا، وبريطانيا، وحتى بصدد المسائل البلقانية، ثم أن الحلف لا يشمل الحروب التي قد تندلع بسبب التنافس الروسي- البريطاني، أو الروسي- الياباني في الميدان الاستعماري^٢.

أما بالنسبة لفرنسا، فإن التحالف مع روسيا القيصرية قد يحقق لها هدف المحافظة على الوضع الراهن فعلاً على حدودها الشرقية، فلم تهدف فرنسا في تلك المدة إلى استعادة إقليم الألزاس، واللورين من ألمانيا بالقوة. كل ما أرادته فرنسا هو الوقاية من عدوان ألماني محتمل لكي تتفرغ لعمليات توسعها في الخارج، ولكن في واقع الأمر، فإن الصورة التي اتخذها التحالف الفرنسي الروسي، وهي صورة التحالف العسكري ضد دول الوسط أدى إلى نتيجة عكسية تماماً بالنسبة إلى فرنسا، بدلاً من أن يكون هذا التحالف وقاية لفرنسا من خطر ألماني وهمي تسبب في إيجاد خطر ألماني واقعي، وتفسير

١ - د. سمعان بطرس فرح الله، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٩.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٠٩.

ذلك أن الحلف الفرنسي- الروسي، أدى إلى تغيير الخطط الإستراتيجية الألمانية بحيث أصبحت موجهة أساساً ضد فرنسا^١.

وبعد أبرام الحلف الفرنسي- الروسي أصبحت الحرب على الجبهتين حتمية لألمانيا، وليس مجرد احتمال فقط، إذ كانت ألمانيا قد وضعت خطتها الحربية على أساس تدمير القوة العسكرية الفرنسية أولاً قبل محاربة روسيا القيصرية، حيث أن الطبيعة الجغرافية لروسيا لا تساعد على هزيمتها بضربة قاضية عاجلة، ومن ثم، فإنه يكون من الضروري توجيه هذه الضربة إلى فرنسا أولاً ثم تركيز الجهود الحربية ضد روسيا القيصرية بعد ذلك، وهكذا أدى التحالف الفرنسي- الروسي إلى خلق خطر ألماني على فرنسا بعد أن كانت ألمانيا تتبع حتى ذلك الوقت سياسة دفاعية بحثة على حدودها الغربية، ويبدو هذا الخطر بصفة خاصة في أن هجوم ألمانيا على فرنسا أصبح حتمياً حتى في حالة اشتباك روسيا القيصرية وإمبراطورية النمسا- المجر في البلقان^٢.

ومع ذلك فقد ترتب على هذا التحالف نتائج في غاية الخطورة، فقد خرجت فرنسا من العزلة التي فرضها عليها بسمارك. كما تخلصت روسيا من العزلة التي أراد فرضها عليها إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني، ومن ناحية أخرى انتهى عهد الزعامة الألمانية في القارة الأوروبية، ونشأ توازن جديد يتلخص في انقسام القارة إلى كتلتين: الحلف الثنائي الفرنسي- الروسي في مواجهة الحلف الثلاثي ألمانيا، وإمبراطورية النمسا- المجر، وإيطاليا مع قيام بريطانيا بموازنة قوة الكتلتين وفقاً لمصالحها الاستعمارية^٣.

لقد تم تجسيد الحلف الثلاثي في العام ١٨٩٦، وفي المرة الأولى، في العام ١٩٠٢، في المرة الثانية، وكانت ألمانيا تنزعمه تاركة لإمبراطورية النمسا- المجر مركز الدولة الثانية، في حين ظلت إيطاليا تبدي مزيداً من الاستقلال في التصرف، لأنهما لم تكف عن المطالبة ببعض المكاسب في البلقان، والبحر الأبيض المتوسط، وإذا تعذر ذلك، فكان يراود طموحها استعادة بعض المناطق التي تربطها بها، وأواصر الجنس أو اللغة، وفي العام ١٩٠٠، وقعت فرنسا اتفاق ينطوي على تخلي الطرفين عن مطامعها في طرابلس

١ - المصدر نفسه، ص ١١٠.

٢ - المصدر نفسه، ص ١١٠-١١١.

٣ - المصدر نفسه، ص ١١١.

الغرب، والمغرب، ثم أكدت بمناسبة تجديد الحلف الثلاثي على أنها لا تشترك في أي حرب تُعلن ضدها^١.

الحلف الانكليزي-الياباني ومحاولات التقارب الانكليزي-الألماني:

لقد أقتنع الانكليز بأن سياسة العزلة لم تبق ممكنة إزاء الأخطار التي تتمثل في الإمبراطوريتين الروسية والألمانية، وأن موقف الولايات المتحدة الجديد يحمل بذاته انكساراً على التفكير في الموضوع، لأن الأولى لم تكتفِ بطرد أسبانيا من القارة الغربية، وإنما بلغت الجراءة بها إلى أن تطالب بريطانيا بالتخلي عن ضمائها لشق قناة بنما، ومنعها من ثم في العامي ١٩٠٢، و ١٩٠٣، من التدخل في فترويلا التي اقتدت بالمكسيك، ورفضت تأدية ديونها^٢.

وهكذا توصلت بريطانيا إلى الأيمان بأن عزلتها لم تكن أمراً عظيماً، وقررت منذ العام ١٨٩٨، الخلاص منها دون أن تمس جوهر مبادئها، وقد بدا لها أن ألمانيا هي أوفر الشركاء، وفي الوقت نفسه كان الإمبراطور غليوم الثاني مؤيداً للتقارب مع بريطانيا، وافتتحت المفاوضات الانكليزية-الألمانية في العام ١٨٩٨، واستؤنفت عدة مرات حتى العام ١٩٠٢، غير أنها انتهت بالإخفاق، إذ رفضت ألمانيا تحديد تسليحها البحري، ورفضت بريطانيا حلفاً عاماً رغم قبولها في الوقت نفسه، أي العام ١٩٠٢، عقداً مماثلاً له مع اليابان، فهذا الحلف الانكليزي-الياباني يدل في آن واحد على انتهاء عزلة بريطانيا، وانفصام اتحاد الدول العظمى الأوربية في الشرق الأقصى الذي كان يؤلف قوتهم إزاء العالم الأصفر، ومن دواعي التقارب بين البلدين خوفهم المشترك من روسيا التي كانت جيوشها مرابطة في منشوريا، ولقد تحالفت اليابان مع بريطانيا بعد قبولها التخلي عن كوريا بمقابل الاعتراف بمصالحها في الصين، غير أن التحالف مع اليابان لم يمنح بريطانيا مجرد سند في الشرق الأقصى في الوقت الذي تحتاج فيه إلى حليف في سياستها العامة، ولما كان اتفاقها مع ألمانيا متعذراً بدت فرنسا على المسرح، وهي تملك جيشاً ذا قيمة ومصالح استعمارية هامة. وقد شجع ذلك على التقارب بينهما^٣.

ولما تحالفت بريطانيا مع اليابان كانت تملك قوة بحرية كبيرة، وكذلك أصبحت اليابان أقوى قوة بحرية في المحيط الهادئ، وتمكنت بواسطة أسطول نظم على النمط

١ - لويس دوللو، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨.

٢ - المصدر نفسه، ص ٥٩.

٣ - المصدر نفسه، ص ٦٠.

البريطاني، وجيش مدرب طبق النظام الحربي الألماني من دحر الصين في حرب قصيرة الأجل ١٨٩٤-١٨٩٥، بل لقد بلغت اليابان من القوة في البر والبحر، وأصبحت من الجيروت بتضافر الأسلحة الحربية الغربية، وشجاعة أبنائها بحيث لم ينقض ثلاث سنوات على عقدها المعاهدة الانكليزية حتى خرجت منتصرة من حرب مع روسيا ١٩٠٤-١٩٠٥.^١

ولما ظهرت ألمانيا قوة أوربية كبيرة، برز عدد من الساسة الانكليز ممن يدعون إلى الصداقة معها، ومما ساعد على ذلك تطور العلاقات الاقتصادية بين البلدين، بيد أن الألمان كانوا لا يرون في صداقة الانكليز أهمية كبيرة، إذ أن الانكليز بالنسبة لهم وقفوا وفقة الحياذ إزاء الحروب التي خاضتها ألمانيا من أجل وحدتها، فالانكليز عطفوا على الدانماركيين في حربهم مع بروسيا، وأظهروا ميلاً إلى انتصار النمساويين سنة ١٨٦٦، وتعاطفوا مع فرنسا في حربها مع بروسيا سنة ١٨٧٠، وكذلك كانت هناك آراء متعارضة بين الطرفين، ففي حين كانت عصبة جامعة الأمم الألمانية المؤسسة في العام ١٨٩٣، تقترح ضرورة ضم النمسا والأقاليم الخاضعة لسويسرا، وهولندا إلى الرايخ الألماني، قنع إمبراطور ألمانيا بأن يعين لنفسه ثلاث مناطق جديدة للنفوذ الألماني، إذ أرتعب أن يلقي في كل منطقة معارضة انكلترا الدبلوماسية، وكانت المنطقة الأولى الإمبراطورية العثمانية، والثانية المستعمرات، وكانت البحار المنطقة الثالثة، والأهم من ذلك مساعي ألمانيا لإنشاء أسطول بحري.^٢

الاتفاق الودي الإنكليزي-الفرنسي:

وقعت الحكومتين الانكليزية والفرنسية الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤، وهو عبارة عن صفقة استعمارية رابحة لكليهما، والتي بموجبها تعترف فرنسا بالحقوق الخاصة التي كسبتها انكلترا في مصر مقابل أن تعترف انكلترا بمركز فرنسا الخاص بمراكش، وقرنت الاتفاقية باتفاق سري عين حدود منطقة النفوذ الفرنسي في مراكش في حالة حدوث تفاهم مع أسبانيا، وفي الوقت نفسه سويت الخلافات البارزة بين الدولتين حول بعض المناطق الاستعمارية. وقد لاحظ لورد روزبري زعيم حزب الأحرار يومئذ أن ألمانيا،

^١ - أ.ه. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٢.

^٢ - المصدر نفسه، ص ٤٠٤-٤٠٥.

وهي أقوى دولة حربية في أوروبا لم يؤخذ رأيها في مسألة مراکش فانتقد المعاهدة مبيناً بأن الاتفاق الودي مع فرنسا سيقود انكترا في النهاية إلى حرب مع ألمانيا^١.

الاتفاق البريطاني- الروسي ١٩٠٧:

كانت حكومة روسيا القيصرية بعد هزيمتها في حرب ١٩٠٤-١٩٠٥، وبعد إخماد الثورة الكبيرة الداخلية فيها العام ١٩٠٥، ترى عن حق أنها بحاجة إلى أصدقاء بدلاً من إثارة العداوات سواء القديمة، أو التقليدية، أو الجديدة، وكذلك تدرك تماماً أن القوى التي تحول دون توسعها هي بريطانيا، والنمسا، وألمانيا، ولم يبق قبالة روسيا القيصرية جهات تتوسع فيها بعد أن أغلقت اليابان في وجهها سوى الدولة العثمانية، ولما كانت بريطانيا ترفض توسع روسيا القيصرية حيال الدولة العثمانية خوفاً على المضائق قبالة السفن الحربية الروسية، وتعارض بشدة، أي توسع روسي في اتجاه الأناضول، وشمالي العراق، إذ كان الانكليز يهتمون السياسة الروسية بالتخطيط للوصول إلى الخليج العربي مفتاح الطريق إلى الهند، وفيما يتعلق بالبلقان، فإن إمبراطورية النمسا- المجر كانت تعارض كل تحرك روسي هناك، وتوجهه بشكل مضاد، وكانت السياسة نفسها تتبعها روسيا القيصرية إزاء النمسا في البلقان، ولكن كانت الدول البلقانية كثيرة الثقل في سياستها، إذ كانت تميل إلى هذه أو إلى تلك سعياً وراء المكاسب الأرضية بأية طريقة، ونظراً لعدم قدرة أي من النمسا وروسيا القيصرية على التحكم في نتائج تفوق أي منها في البلقان، ولخطورة مثل هذا التفوق على التوازن الدولي فقد اتفقتا في العام ١٨٩٧، على الإبقاء على الوضع الراهن في البلقان، وأستمر الأمر كذلك حتى العام ١٩٠٣، عندما وقعت الثورة في مقدونيا ضد الحكم العثماني، وكذلك أصبحت آمال روسيا القيصرية في المشاركة في تحديد مصير ولايات الدولة العثمانية مهدداً بالتلاشي بسبب الدور المتصاعد الذي أخذت تؤديه ألمانيا في الدولة العثمانية، وخاصة فيما يتعلق بمد خط سكة حديد برلين- بغداد، وحتى الكويت، وأصبحت ألمانيا إلى جانب بريطانيا قوة جديدة تحول دون الانطلاق في الدولة العثمانية، بل أصبح هناك اعتقاد في الدوائر السياسية الأوربية أن المجال الحيوي لألمانيا هو الدولة العثمانية، وبوجه خاص في الأناضول، وفي العراق، ولم تبق سوى إيران لتعمل فيها روسيا، ولتثبت للعالم أنها ما تزال دولة كبيرة، وأنها أخذت تواجه بريطانيا في هذه الساحة، ولذا أصبح قبالة روسيا القيصرية لكي تفتح الطريق قبالة نشاطها التوسعية أن

^١ - المصدر نفسه، ص ٤١٢.

تصل إلى تفاهم مع الحلف الثلاثي أو مع بريطانيا، وحيث أن أي تفاهم مع ألمانيا يقضي بالضرورة على التحالف الروسي - الفرنسي بات التفاهم مع بريطانيا أكثر واقعية^١.

وكانت بريطانيا في ١٩٠٦-١٩٠٧، قد قللت من تعنتها ضد روسيا التي ضعفت بعد حربها مع اليابان، إذ أصبح من المستبعد جداً أن تقامر روسيا القيصرية بحرب جديدة ضد دولة كبرى، ولما كانت قدرات ألمانيا الاقتصادية والعسكرية تزداد بشكل كبير، وتهدد بريطانيا، ومستعمراتها، وبوجه خاص التطور العسكري الألماني البري، والبحري، ومشروع خط برلين - بغداد، ورفع معدلات صادراتها الصناعية بشكل ضخم حتى اكتسبت المصنوعات الألمانية شهرة عالمية أصابت التجارة البريطانية بخسائر متزايدة على مر السنوات، ولذا أصبح هناك مشروع مشترك لكل من روسيا وبريطانيا هو ألمانيا، وأن المشكلات القائمة بين روسيا القيصرية وبريطانيا قابلة للحل بعكس المشكلات بين روسيا، وكل من ألمانيا والنمسا.

وقد أدت فرنسا دوراً كبيراً في فتح الطريق قبالة التقارب الروسي - البريطاني، وفتح باب المفاوضات بين الطرفين لتسوية نقاط الخلاف بينهما، والذي يُعد من أكبر الانتصارات الدبلوماسية الفرنسية، وتم التوقيع على الاتفاقية الروسية - البريطانية في ٣٠ آب من العام ١٩٠٧، والتي وضعت النصف الشمالي من إيران تحت تصرف روسيا، والنصف الجنوبي تحت تصرف بريطانيا. أما الوسط، فترك للشاه القاجاري، وما أن عرف هذا الوفاق الودي الروسي - البريطاني حتى أدركت ألمانيا أن الطوق قد أحكم عليها، وأصبحت أوروبا قبالة كتلتين تتربص أحدهما بالأخرى، ولكن بصفة عامة كانت كفة دول الوفاق أقوى من كفة دول التحالف الثلاثي، والسبب في هذا هو أن بريطانيا كانت صاحبة تفوق بحري كبير يعادل ضعف أية قوة تالية لها، وفوق هذا أصبحت حليفة اليابان في الشرق الأقصى، وحملت اليابان في العام ١٩٠٥، مسئولية الدفاع البحري عن الهند في حالة تعرضها للهجوم كما أصبحت على وفاق مع فرنسا أكبر قوة بحرية ضاربة في المتوسط، ومع روسيا صاحبة أكبر الجيوش عدداً، وكان هذا الارتباط البريطاني بروسيا، وفرنسا من العوامل الجوهرية التي أعطت لروسيا القيصرية، وفرنسا ثقة في النفس أكبر جعلتهما في بعض الأزمات، وليس في كلها تواجهاً التحدي بثقة عالية، وكانت الأزمات هي التي قربت من ترابط دول الوفاق أكثر فأكثر، وأسَّرت بأوروبا إلى الحرب العالمية الأولى^٢.

^١ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نغمي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٨-٣٦١.

^٢ - المصدر نفسه، ص ٣٦١-٣٦٢.

الفصل السادس:

الحرب العالمية الأولى.

- المبحث الأول:

أسباب الحرب

- المبحث الثاني:

تطورات الحرب

- المبحث الثالث:

نتائج الحرب

الفصل السادس

الحرب العالمية الأولى

المبحث الأول

أسباب الحرب

من الأسباب المباشرة للحرب قيام طالب متطرف من أهل البوسنة، بإطلاق الرصاص على (الأرشيدوق فرانز فرديناند) ولي عهد النمسا في ٢٨ حزيران من العام ١٩١٤، في سرايفو عاصمة البوسنة، في حين كان يقوم بزيارة رسمية لتلك الولاية، فقتله هو وزوجته، فاجتاحت على أثرها عاصفة من الاستياء في مملكة النمسا- المجر، ومع أن تحقيقاً أجرته الحكومة النمساوية لم يتوصل للدلالة مباشرة، على تواطؤ الحكومة الصربية، في حين كانت شكوك النمسا- المجر تخوم حول تواطؤ صربيا في القضية، فاتجهت الحكومة النمساوية بدعم من الحكومة الألمانية بتحرك سريع نحو ضرورة إعلان الحرب على صربيا، والتي أعلنتها بالفعل في ٣٠ تموز من العام ١٩١٤، ويمكن أن نعزو الأسباب الرئيسة إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى ما يلي:-

١. سياسة سباق التسلح: تصاعدت سياسة سباق التسلح في دول الوفاق الثلاثي، وفي إمبراطورية النمسا- المجر بشكل يفوق نمو تسليحها عما ما قبل حتى غدا شبح الحرب ماثلاً قبالة الأعين، إذ كانت الحكومات الديمقراطية تسعى إلى كسب موافقة برلمانها على أعمدات التسلح، فتسهم في زيادة خطر وقوع حرب كبرى، وكانت دوائر قياصرة ألمانيا، والنمسا، وروسيا تؤكد على الحاجة الملحة لمواجهة أوضاع استثنائية دولية، فضلاً عن الخطب الحماسية للسياسيين والمقالات الصحفية المثيرة للمشاعر القومية، وفي خلال العام ١٩١٣، أصدرت الدول المتنافسة قرارات بفرض زيادة القوات المسلحة زيادة كبيرة في النمسا، وفرنسا، وروسيا، وظهرت الدعوة إلى التجنيد الإجباري في بريطانيا في العام ١٩١١-١٩١٢.^١

أن أبرز ما ظهر من سباق للتسلح هو سباق التسلح البحري بين بريطانيا وألمانيا. فقد بدأت ألمانيا منذ العام ١٩٠٠، في وضع أول خطة متكاملة لبناء قوتها البحرية التي أفلقت بدورها بريطانيا، والتي أخذت بدورها تعيد بناء مدمراتها من النوع الثقيل، ومن نوع جديد قابلته ألمانيا بإنتاج مدمرات ثقيلة بعدد أكبر، وكان من شأن الخطة الألمانية تهديد التفوق البحري البريطاني بعد أن أصبحت قوة الدول البحرية تقدر بالقياس إلى

١ - أ.ه. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٤.

عدد هذا النوع الجديد من المدمرات الثقيلة، وليس على أساس السفن التقليدية. علماً أن السباق على التسلح البحري لم يكن من مصلحة بريطانيا، لأن ألمانيا كانت تستطيع الاستمرار في عملية السباق، بل حتى التفوق فيها، نظراً لمقدرة العمال الألمان الفائقة في الميدان التكنولوجي، نظراً لانخفاض أجورهم نسبياً بمقارنتها بأجور العمال البريطانيين^١. لقد كانت فكرة إنشاء أسطول بحري ألماني ترجع إلى مؤسس الأسطول البحري الألماني الأدميرال فون تربتزن الذي كان يرى أن تقدم ألمانيا الاقتصادي لا بد أن يؤدي إلى منافسة مع بريطانيا في مجال التجارة والاستعمار، وكان يرى أن خير وسيلة لإجبار البريطانيين على الاعتراف برغبات ومصالح ألمانيا في هذين المجالين هو إنشاء أسطول حربي مؤهل لمجابهة الأسطول الانكليزي، ولا شك أن بريطانيا كانت تعدّ نفسها سيّدة البحار لامتلاكها أقوى أسطول حربي آنذاك نظرت بقلق إلى بناء القوة البحرية البريطانية. أما سباق التسلح البري بين ألمانيا وفرنسا، فقد كان قائماً منذ نهاية الحرب بينهما في ١٨٧٠-١٨٧١، وقد بلغ هذا السباق ذروته في صيف العام ١٩١٣، في كل من ألمانيا وفرنسا^٢.

وفشلت محاولات تحديد التسلح، ولم تصل إلى نتيجة، فقد دعت روسيا القيصرية إلى عقد مؤتمر للسلام في لاهاي لهذا الغرض في العام ١٨٩٩، إذ رفضت ألمانيا تحديد قوتها البرية، كما رفضت بريطانيا أي مساس بتفوقها في البحار، ولم يكن حظ مؤتمر لاهاي الثاني في العام ١٩٠٧، بأفضل من المؤتمر الأول فيما يتعلق بترع السلاح، وعدا هذين المؤتمرين جرت أكثر من محاولة من قبل الحكومة البريطانية بسبب ضغوط الميزانية العسكرية للتوصل إلى اتفاق مع ألمانيا بشأن تحديد قوتها البحرية، وذلك للسنوات ١٩٠٧-١٩٠٨، و١٩١٢، إلا أن جميع هذه المحاولات فشلت. فقد اشترطت ألمانيا على بريطانيا وقفها على الحياد في حالة نشوب حرب بين ألمانيا، ودولة أخرى في أوروبا مقابل الموافقة على الحد من التسلح البحري، إلا أن الحكومة البريطانية رفضت إعطاء مثل هذا التعهد لألمانيا، لأنه قد يشجعها على مهاجمة فرنسا^٣.

٢. التنافس الاستعماري: يشغل التنافس بين الدول الأوروبية في ميدان الاستعمار جزءاً مهماً من تطور العلاقات الدولية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فقد أدت الثورة الصناعية إلى مساعي حثيثة من قبل الدول الأوروبية للحصول على المستعمرات بغية تأمين الأسواق الخارجية لمنتجاتها الصناعية الفائضة من جهة، والحصول على

١ - د. سمعان بطرس فرج الله، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٤.

٢ - د. خليل علي مراد، وجاسم محمد حسن، ود. عبداً لجبار قادر غفور، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٠.

٣ - المصدر نفسه، ص ٢٣١.

المواد الأولية اللازمة للصناعة، والمواد الغذائية من هذه المستعمرات. وقد خلق هذا التكاليف على المستعمرات أزمات وصراعات سياسية وعسكرية بين الدول الأوروبية، وكانت بريطانيا وفرنسا قد سبقت غيرها من الدول الأوروبية في ميدان الاستعمار، وتمكنت من الاستيلاء على مناطق واسعة في آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، ومنذ أواخر القرن التاسع عشر دخلت قوى أوروبية جديدة إلى ميدان التوسع الاستعماري، وبدأت تطالب بحقوقها في امتلاك المستعمرات خارج أوروبا، وهذه القوى هي ألمانيا وإيطاليا، إلا أن دخول هذه القوى إلى الميدان الاستعماري جاء في وقت متأخر لم تعد فيه مناطق كثيرة يمكن التفكير في السيطرة عليها، ولا سيما أن اليابان انفردت تقريباً بالشرق الأقصى، وترتب على ذلك احتدام المنافسة الاستعمارية منذ مطلع القرن العشرين^١.

لقد تخلت ألمانيا عن سياسة بسمارك الذي كان يدعو إلى عدم التورط في ميدان التوسع الاستعماري، لأن ذلك يضعف ألمانيا، ويورطها في صراع مع الدول الأوروبية، ولكن بعد تركه السلطة في العام ١٨٩٠، أصبحت ألمانيا ترغب في أن يكون لها ذات النفوذ الذي تمارسه أوروبا في القارات الأخرى. وقد رأت بريطانيا وفرنسا في هذه السياسة تهديداً لمصالحها الاستعمارية. أما إيطاليا، فلم يكن دخولها ميدان الاستعمار بلا مشكلات فقد كانت تسعى إلى احتلال تونس، إلا أن فرنسا سبقتها في ذلك سنة ١٨٨١، الأمر الذي أدى إلى استياء إيطاليا، وتحالفها مع ألمانيا والنمسا، وأستمر هذا الاستياء حتى سنة ١٩٠٢، عندما وقعت اتفاقية فرنسية-إيطالية اعترفت فيها فرنسا بأطماع إيطاليا في ليبيا مقابل اعتراف الأخيرة بأطماع فرنسا بالمغرب^٢.

٣. مشكلات القوميات: أخذت ألمانيا تشعر بعد احتلالها للألزاس واللورين بعجزها عن امتصاص سكان هاتين المقاطعتين، وتمثيلهم رغم التنازلات الواسعة التي قدمتها لهم، وظل سكان الألزاس واللورين يتطلعون إلى اليوم الذي يعودون فيه مجدداً إلى الوطن الأم فرنسا، وكانت إيطاليا تتطلع إلى استرداد تريستا، وترنتينو التي بقيت خارج الدولة الإيطالية الموحدة، وتحت السيادة النمساوية، وكان البولنديون في شرق ألمانيا، وفي روسيا يتطلعون إلى الاستقلال، وتشكيل دولة بولندية، وكانت الأقلية الدانمركية في دوقية شلزيك تتطلع إلى الانضمام مجدداً إلى الدانمرك، وكان الرومانيون في بسارابيا الخاضعة لروسيا، وفي ترانسلفانيا الخاضعة إلى المجر يتطلعون إلى الانفصال

١ - المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

عنها، وتشكيل إتحاد تعاهدي من سلافي الجنوب يضم ولايات البوسنة والمهرسك ودالماشيا، وكانت مملكة صربيا تسعى إلى قيام دولة يوغسلافية بزعامتها في البلقان، إلا أن الإمبراطوريات الثلاث روسيا، وألمانيا، والنمسا كانت تتحسس الخطر الحقيقي الذي يهددها من جراء الحركات التي تقوم بها هذه القوميات الواقعة بين بحر البلطيق شمالاً، والبحر المتوسط جنوباً، فألمانيا لم تفكر يوماً في إعادة الألزاس واللورين إلى فرنسا، بل كانت ترسم خططها العسكرية على أساس توجيه ضربة عسكرية أخرى إلى فرنسا، إذا ما حاولت استردادها، وكانت روسيا القيصرية ترى في تحرر الفنلنديين، وألمان البلطيق، والبولنديين، والرومانيين من سكان بسارابيا تهديداً بفقدان أسواقها الغربية التي أمنت التصرف بها على هواها منذ عهد بطرس الكبير، كما رأت في ذلك تحولاً للإمبراطورية الروسية من قوة ذات طابع أوربي إلى قوة ذات طابع أسيوي صرف، وإن الإمبراطورية النمساوية رأت في الحركة السلافية خطراً يهددها، ولذا حاولت أضعاف هذه الحركة بتشديد قبضتها على الأقليات القومية داخل الإمبراطورية، وضم البوسنة، والمهرسك إليها، فأثارت بذلك استياء الأقليات القومية. كما أثارت مملكة صربيا في البلقان¹.

٤. العامل الاقتصادي: على الرغم من هذا التوتر الشديد الذي كان يمتد أوروبا كلها وقعت أزمة كبيرة، كانت أوروبا تنمو اقتصادياً مستفيدة من تفوقها في الإنتاج الصناعي، ونمو قدراتها الحديثة المتجددة في النقل، ومن تخلف المستعمرات القديمة أو الجديدة التي كانت تحت غير الدول الأوروبية الاستعمارية، إلا أن الأسواق الاستهلاكية في هذه المستعمرات، وفي العالم القديم المتخلف كانت تستوعب كميات مضاعفة من الإنتاج الأوربي الأمر الذي أهدب المنافسة سوء الاقتصادية أو العسكرية عند دراسة الأوضاع الاقتصادية الرئيسية في أوروبا، وفي الوقت الذي كان فيه حجم التجارة الدولية يزداد شدة. وقد بالغ العديد من المؤرخين في تصوير هذا التنافس الاقتصادي بين دول الوفاق، ودول الحلف الثلاثي حتى لقد جعلوا العامل الاقتصادي العامل الأول الذي أدى إلى قيام الحرب العالمية الأولى².

٥. العامل السياسي: لقد شكلت قضية استرجاع الألزاس، واللورين هدفاً أساسياً لفرنسا، لأنها مثلت للفرنسيين عامل الكرامة القومية، والعمل على استعادة مكانتهم الدولية بعد تلك الأهانة البالغة التي نزلت بهم، ولهذا شكل ذلك همماً رئيساً بالنسبة

¹ - المصدر نفسه، ص ٢٢٤.

² - د. عبد العزيز سليمان نوار ود. عبد المجيد نغمي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩١.

لفرنسا لاستعادتهما، ولو عن طريق شن الحرب واخذ المسئولون الفرنسيون يفكرون في أهداف حربهم لا على أنها بقصد استرداد الإقليمين الفرنسيين المغتصبين، بل على أساس التوسع الفرنسي في ألمانيا بالسيطرة، مثلاً على أجزاء من الضفة اليسرى للراين، كما بلغ بالمسئولين الفرنسيين من ثقة بالنفس أنهم أخذوا يفكرون في تفتيت إمبراطورية النمسا- المجر عن طريق العمل على استقلال القوميات العديدة الموجودة فيها، فبذلك تفقد ألمانيا دعائمها القومية في وسط أوروبا، وكذلك شكلت فكرة الدفاع عن الإمبراطورية الفرنسية بوصفها إمبراطورية استعمارية مصلحة مهمة عند القادة الفرنسيين، والتي تمتد في شمال وغرب أفريقيا. أما روسيا، فكان قيصرها يريد أن يسمح عن نفسه، وهن حكومته عار الهزيمة قبالة اليابان، وكان يدرك أن ذلك لا يمكن أن يتم إلا باستمرار تحالفه مع فرنسا، ووفاقه مع بريطانيا، إذ أن كل أبواب التوسع كانت قد سدت في وجه روسيا القيصرية فيما عد البلقان الذي تقف فيه النمسا- المجر تؤيدها ألمانيا لأي تحرك روسي، وكذلك كان قيصر روسيا، وحكومته شديدي القلق من تنامي المصالح الألمانية في الإمبراطورية العثمانية المتمثلة في مد خط حديد برلين- بغداد، وفي نمو حجم أستيراد الدولة العثمانية حاجتها العسكرية من ألمانيا، وكان تطور العلاقات العثمانية- الألمانية يؤدي إلى إقصاء روسيا عن مجالها الحيوي: الدولة العثمانية حيث أصبحت القسطنطينية، ومضائق البوسفور، والدرديبل في متناول الألمان¹.

أما الدولة العثمانية فقد كانت الأطماع الفرنسية والبريطانية تشكل بوضوح سافر سياسة استعمارية تستهدف تفويض الدولة العثمانية، والسيطرة على العراق، وبلاد الشام، والمضائق نفسها في الوقت الذي تزداد فيه المصالح الألمانية في الدولة العثمانية بشكل كبير كما ذكرنا، وكانت روسيا القيصرية تشكل الخطر الأعظم على مستقبل الدولة العثمانية التي أضعفتها الحروب البلقانية، وكانت روسيا تسعى بوضوح إلى تفويضها، في حين فشلت الدولة العثمانية في سنة ١٩١٤، في الوصول إلى تفاهم حقيقي مع دول الوفاق يحفظ لها كيافها، ويعيد إليها بعض ما فقدته في البلقان، ومصر، وحقيقة كانت هناك أصوات لها قيمتها تدعو إلى عدم التورط في الحرب، ولكن أنور باشا وزير الحربية كان موقناً أن النصر سيكون إلى جانب الألمان لا محالة، وأن الفرصة قد جاءت لتنتقم تركيا من أعدائها الكبار².

١ - المصدر نفسه، ص ٤٠٨-٤١٨.

٢ - المصدر نفسه، ص ٤٤٣-٤٤٤.

المبحث الثاني

تطورات الحرب

انشطرت أوروبا إلى شطرين كبيرين: الحلف الثلاثي (ألمانيا، النمسا- المجر، وإيطاليا) من جهة، والوفاق الثلاثي (فرنسا، وروسيا، وبريطانيا) من جهة أخرى، وانضمت إلى دول الحلف الثلاثي الدولة العثمانية، وبلغاريا، في حين انضمت إلى جبهة الوفاق بلجيكا، وصربيا، ورومانيا، واليونان ثم انضمت إليها إيطاليا فيما بعد.

بدأت التحركات العسكرية بحركة التفاف ألمانية واسعة النطاق عند بلجيكا في اتجاه فرنسا بقصد توجيه ضربة حاسمة لها تخرجها من الحرب، ولكن تعرقل الزحف الألماني نحو أسبوعين بسبب مقاومة الجيش البلجيكي، وحصون لياج، ونامور الشهيرة، وهناك اكتشف القائد الفرنسي بوجود خطأ في تركيز قواته في جبهة اللورين، الأمر الذي أتاح للألمان زحفاً سريعاً إلى قلب فرنسا، واضطرت فرنسا إلى التراجع في مختلف الميادين حتى خط نهر المارن، ولم يخفف من العبء الشديد الملقى على عاتق الجيش الفرنسي في هذه الجبهة سوى اضطرار فون مولتكة رئيس أركان الجيش الألماني إلى نقل بعض فرقته من الجبهة الفرنسية بهزيمة ساحقة في موقعة تاننبرج قبل اشتراك الفرق المنقولة إلى ألمانيا. لقد فشلت خطة كسب الحرب بحرب خاطفة على الجبهة الفرنسية في العام ١٩١٥، بسبب صلابة الجيش الفرنسي، والمساعدة العسكرية الانكليزية له، اتجه القادة الألمان إلى العمل على إخراج روسيا من الحرب عن طريق حرب خاطفة، وكانت المظاهر العامة توحي بأن هذه الخطة ستلاقي نجاحاً كبيراً في روسيا لما كان يعوزها من مؤن، وذخائر، ووسائل نقل حديثة، ولقد أحرزت الحملة الألمانية على روسيا انتصارات كبيرة جعلت بولندا، ولتوانيا، وأجزاء مهمة، وغنية، وواسعة من روسيا تقع تحت يد جيوش دولتي الوسط، فضلاً عن نحو مليونين من الروس ذهبوا بين قتييل، وأسير، وجريح^١.

وزاد من حرج الموقف العسكري العام لدول الوفاق، وخاصة روسيا، أن الحملة الانكليزية إلى الدردنيل في أيلول من العام ١٩١٥، باءت بالفشل سواء في معارك البر أو البحر، واضطرت إلى الانسحاب، وضاع أمل روسيا في فتح المضائق لتوصل المواد العسكرية اللازمة لها، في حين اجتاحت في تشرين الأول من العام

١ - المصدر نفسه، ص ٤٥٣-٤٥٤.

١٩١٥، القوة الألمانية- النمساوية- البلغارية الصرب، ووصلت إلى تيرانا عاصمة ألبانيا دون أن تسهم إيطاليا التي دخلت الحرب منذ وقت قصير بشيء يذكر في حملة الدردنيل أو في القتال في البلقان، وحتى تعرضت إيطاليا نفسها إلى حملة نمساوية- ألمانية أنزلت الهزيمة في موقعة كاربوتيو في ٢٤ تشرين الأول من العام ١٩١٧^١.

وفي الجبهة الشرقية العثمانية أنزلت بريطانيا قواتها في مدينة البصرة في جنوب العراق، وتقدمت إلى الشمال. وقد توقف الزحف البريطاني عند الكوت، وهناك أرغم الأتراك الجيش البريطاني الذي حاصروه على الاستسلام في أوائل العام ١٩١٦، أما في الجبهة المصرية، فكانت مبادرة الهجوم، والتقدم من جمال باشا حتى وصل إلى قناة السويس، إلا أن الجيش الانكليزي، والثورة العربية في العام ١٩١٦، أرغمت الأتراك على التراجع إلى ما وراء يافا، والقدس^٢.

وكما كانت قوى المتحاربين في العام ١٩١٥-١٩١٦، في الجبهات البرية متعادلة تقريباً وكانت نتيجة المعركة الحربية الكبرى في جوتلاندر في ٢ أيار من العام ١٩١٦، بين الأسطولين البريطاني والألماني متعادلة، وأن سارت موازين القوى البحرية بعد ذلك لمصلحة التفوق البريطاني، إذ أن الخسائر في الأسطول الألماني كان من المتعذر تعويضها، وحيث أن التفوق العددي لأسطول بريطانيا وفرنسا منع قطع الأسطول الألماني من الخروج من موانئها، فبقيت فيها^٣.

وحاولت ألمانيا أن تجوع بريطانيا، وتمنع عنها إمداداتها من الدول المحايدة، وخاصة الولايات المتحدة عن طريق إغراق سفن بريطانيا، وسفن الدول المحايدة المتعاملة معها بواسطة أعداد كبيرة من الغواصات بنتها على عجل، ولكن فشلت الخطة في النهاية بسبب استخدام بريطانيا نظام قوافل السفن التي تسير في حراسة الأسطول، ولأن عدداً كبيراً من هذه الغواصات دمرته قطع الأسطول الانكليزي^٤.

أما اليابان فقد دخلت، والولايات المتحدة الحرب بقرار ذاتي فقط، ولكن ضد رغبة بريطانيا. فقد رأت اليابان في الحرب الأوربية فرصة ذهبية لتحقيق أطماعها التوسعية في الشرق الأقصى، ومن ثم أعلنت في آب من العام ١٩١٤، أي فور دخول

١ - المصدر نفسه، ص ٤٥٤-٤٥٥.

٢ - المصدر نفسه، ص ٤٥٥.

٣ - المصدر نفسه، ص ٤٥٥.

٤ - المصدر نفسه، ص ٤٥٥.

بريطانيا الحرب بأنها ستتصرف بناء على معاهدة التحالف البريطانية- اليابانية في العام ١٩٠٢، أي أنها ستتدخل ضد ألمانيا، ولكن بريطانيا طلبت منها أن يقتصر دورها على تدمير السفن الألمانية الموجودة في المياه الصينية، وذلك أن بريطانيا كانت تخشى أن تستغل اليابان انشغال دول الوفاق في الحرب الأوروبية لتوحيد نفوذها في الشرق الأقصى، وفي آب أعلنت اليابان الحرب ضد ألمانيا، وشرعت في تنفيذ مخططاتها في الشرق الأقصى، واضطرت بريطانيا إلى قبول انضمام اليابان إليها، ووافقت على أن تقوم البحرية اليابانية بأعمال دورية في منطقة المحيط الهادئ شمال خط الاستواء، وسرعان ما قامت اليابان باحتلال العديد من الجزر، وتوسعت في الأقاليم الصينية التي تسيطر عليها ألمانيا (إقليم شانت ونج، وإقليم كياشو)، بل تقدمت بمطالب شاملة إلى الصين تعني إخضاع الصين لحماية اليابان، وطرده النفوذ الغربي منها، ورغم تحذير الولايات المتحدة لليابان من فرض مطالبها على الصين، فإن اليابان وتحت التهديد العسكري للسفارة عقدت اتفاقيات مع حكومة يوان شي كية في ٢٤ أيلول من العام ١٩١٥، نصت على موافقة الصين على معظم المطالب اليابانية. كما استغلت اليابان حرص دول الوفاق على دخول الصين الحرب ضد ألمانيا، وانشغال تلك الدول في الجبهة الأوروبية، وأرغمت دول الوفاق الثلاثي على قبول الاتفاقات اليابانية- الصينية، وأدى التدخل الياباني إلى تغيير توازن القوى في الشرق الأقصى، فقد استولت اليابان على الامتيازات الألمانية في الصين، وفي المحيط الهادئ شمال خط الاستواء، وفرضت حمايتها الفعلية على الصين، وقد تقلص الدور الأوربي محصوراً بين اليابان والولايات المتحدة^١.

وكان لدخول الولايات المتحدة الحرب في ٢ نيسان من العام ١٩١٧، أثر كبير في إهانتها لصالح الحلفاء. فقد ساعد ذلك بريطانيا وفرنسا في مقاومة الهجمات الألمانية والحصار المضروب على شواطئهما وبسبب فشل المخططات الألمانية في جر المكسيك واليابان الحرب ضد الولايات المتحدة أخذت كفة التوازن ترجح بصورة تدريجية إلى جانب الحلفاء، وذلك يعود لما كرسه تدخل الولايات المتحدة في الحرب من تفوق اقتصادي وسياسي وعسكري للحلفاء^٢.

١ - د. محمد السيد سليم، تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٥-٢٧٦.

٢ - د. رياض الصمد، العلاقات الدولية في القرن العشرين- الجزء الأول: تطور الأحداث ما بين الحربين ١٩١٤-١٩٤٥، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، بلا تاريخ، ص ٢٦.

وكانت روسيا القيصرية أول الدول خروجاً من الحرب بسبب تدهور جيوشها معنوياً، وعسكرياً، ونقص في الذخيرة، والتموين، والاهم من كل ذلك هو حدوث الثورة الروسية لعام ١٩١٧، ووصول البولشفيك إلى الحكم، إذ قاموا بالتوصل إلى صلح مع ألمانيا في آذار من العام ١٩١٨، وكان خروج روسيا القيصرية من الحرب مساعدة للألمان على نقل قواتهم من الجبهة الروسية إلى الجبهة الفرنسية، والقيام بهجوم كبير يرغم فرنسا على الاستسلام، ولكن الذي حدث هو أن القيادة لم تنقل الإجزاء يسيراً من قواتها تلك إلى فرنسا، إذ خشيت ألمانيا من مغبة قيام حكومة البولشفيك بالتخلي عن الهدنة، ومن ثم لم يحدث تغيير جوهري في ميزان القوى في الجبهة الفرنسية عقب انهيار الجبهة الروسية، وقامت القيادة الألمانية بشن عدة هجمات على الجبهة الفرنسية خلال المدة الواقعة بين آذار وتموز من العام ١٩١٨، إلا أن قوات الحلفاء المتكونة من الجيوش الفرنسية والانكليزية استطاعت الصمود وامتصاصها، في حين استنفذت الجيوش الألمانية طاقتها على معاودة الهجمات، إذ كانت قوات الحلفاء العسكرية تتصاعد، وبدون شك أن الصمود الفرنسي - البريطاني كان قد حدث قبل وصول الجيوش الأمريكية إلى ميادين القتال، ومن ثم قامت هذه الجيوش ليس لإنقاذ جيوش فرنسا وبريطانيا، وإنما لاستكمال هزيمة الجيوش الألمانية، وبعد ذلك قامت قوات الحلفاء بعدة هجمات محددة النتائج، ثم شن القائد الفرنسي الجنرال فوش هجومه العام في أيلول من العام ١٩١٨، في الوقت الذي تحركت فيه الجيوش المتحالفة على طول الجبهات الأخرى في اليونان، وبلغاريا، والشام، والعراق، وتهاوت المقاومة في الجهات البلغارية، والتركية، والنمساوية، والألمانية، واتجهت دول الوسط، والدول المركزية إلى طلب الهدنة الواحدة بعد الأخرى لتنتهي الحرب^١.

^١ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نغمي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٤-٤٦٥.

المبحث الثالث

نتائج الحرب

أولاً: معاهدة فرساي:

عقد مؤتمر الصلح في فرساي في فرنسا في ١٨ كانون الثاني من العام ١٩١٨، ووقعت معاهدة فرساي في ٢٨ حزيران من العام ١٩١٩، مع ألمانيا، وبموجبها استعادت فرنسا منطقتي الألزاس، واللورين، ولكن تساهل الرئيس الأمريكي ولسون، ورئيس وزراء بريطانيا لويد جورج حيال المطلب الفرنسي لم يحل دون تشددهما بالنسبة لمطامع فرنسا الأخرى في الأراضي الألمانية وخاصة لجهة منطقتي السار، وريانيا، إذ أنه نتيجة الضغط الانكلو- سكسوني توصل المؤتمر في نيسان من العام ١٩١٩، إلى تسوية تتعلق بمنطقة السار، وتقضي هذه التسوية بإنشاء نظام خاص خاضع لأشراف عصبة الأمم من جهة، ويتبع جبركياً لفرنسا من جهة أخرى، أما مدة الاتفاق فقد حددت بخمسة عشر عاماً يختار في نهايتها أبناء السار، وبموجب استفتاء عام ما بين حلول ثلاثة:

١- الإبقاء على النظام الخاص.

٢- الالتحاق بفرنسا.

٣- الالتحاق بألمانيا.

أما بالنسبة لريانيا، فلقد أتفق المؤتمر بنتيجة الاقتراح الذي قدمته الولايات المتحدة الأمريكية في ٢٨ آذار من العام ١٩١٩، والقاضي بإيجاد منطقة مزروعة من السلاح بين فرنسا وألمانيا لا مكان فيها للحصون، والجيش، ولا للمناورات العسكرية، على نزع الضفة الغربية منها بأكملها من السلاح، وكذلك الضفة الشرقية منها، ولكن بعمق (٥٠) كم^١.

أما فيما يخص بلجيكا فقد تم تعديل حدودها مع ألمانيا بشكل بسيط لمصلحة بلجيكا التي ألحقت بأراضيها مقاطعتي الآوين، وماليدي الألمانيتين، وكذلك إلحاق الشلفريك الشمالية بالدانمارك، وبعد استفتاء جرى في آذار من العام ١٩٢٠، إلا أن التعديلات المهمة التي خضعت لها الأراضي الألمانية قد تمت خصوصاً في الشرق لمصلحة

١- د. رياض الصمد، العلاقات الدولية في القرن العشرين، الجزء الأول، تطور الأحداث ما بين الحربين ١٩١٤-١٩٤٥، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧.

بولندا التي قرر مؤتمر السلام إعادة تكوينها. فقد تخلت ألمانيا عن بوسنانيا، وعن جزء من بروسيا الغربية مع ثورن، وكانت هذه الأخيرة تشكل مهداً يسمح لبولندا الوصول إلى البحر، ويقطع بالتالي بروسيا الشرقية عن بقية ألمانيا، وكان سكانها يتكلمون اللغة البولونية، بيد أن مرفأ ومدينة دانزنغ الكبرى، والتي كانت تشمل وادي الفستول المنخفض كلها تقريباً ألمانية، ولكن لا بد من تأمين مرفأ لبولندا من جهة، وتطبيق مبدأ القوميات من جهة أخرى، ولذا فقد قرر مؤتمر السلام بأن تكون دانزنغ، والمنطقة المجاورة لها مدينة حرة تحت إشراف عصبة الأمم^١.

الضمانات والتعويضات ضد ألمانيا:

كانت الدول المنتصرة، ولاسيما فرنسا، وبلجيكا تعدّ في العامي ١٩١٨-١٩١٩، بأنه من الضروري تأمين سلام العالم بوجه انبعاث محتمل للقوة الألمانية، كي تصل إلى هذا الهدف، فقد أنشأت سلسلة من الضمانات العسكرية والسياسية، نُجمِلها بالآتي:

أ- الضمانات العسكرية:

تم تحديد سلاح ألمانيا، ولذا قامت المعاهدة بتحديد البحرية الألمانية بعدد معين من قطع خفر السواحل، ومنعت الغواصات، وتم توزيع الباقي على الحلفاء، وحدد الجيش الألماني بمائة ألف من ضابط وجندي، وأن تلغي هيئة الأركان، والمدارس العسكرية، والمدفعية الثقيلة، والدبابات، والطيران، وتم الاتفاق على إنشاء لجنة حليفة للمراقبة^٢.

ب- الضمانات السياسية:

أقترح لويد جورج، وولسون على كليمنصو، معاهدات ضمان فرنسية-انكليزية، وفرنسية-أمريكية، مقابل التخلي عن مطالبه في الضفة اليسرى من الراين، وألحقت هاتان المعاهدتان بمعاهدة فرساي، ونصتا على مساعدة فورية من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية في حالة عدوان غير مبرر من جانب ألمانيا ضد الحدود الفرنسية، وعدّت الحدود البلجيكية ماثلة للحدود الفرنسية^٣.

^١ - ج. ب. دور وزيل، التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، الجزء الأول، ترجمة: د.خضر خضر، دار المنصور، بيروت، ١٩٨٥، ص ١٧.

^٢ - المصدر نفسه، ص ٢٠.

^٣ - المصدر نفسه، ص ٢٣.

ثانياً: اتفاقية سان جرمان:

حلت هذه الاتفاقية إمبراطورية النمسا- المجر، وحدد المؤتمر معالم الدولة النمساوية الجديدة، فحددت مساحتها بـ(٨٤) ألف كم يقطنها نحو ستة ملايين ونصف المليون نسمة من السكان كما حدد جيشها بثلاثين ألف جندي، وتم توقيع معاهدة صلح معها في أيلول من العام ١٩١٩، وأقيمت دولة ثالثة عُرفت بـ هنغاريا أو المجر التي وقعت اتفاقية تريانون في ٤ حزيران من العام ١٩٢٠، ولم تكن شروط صلح هذه الدولة أفضل من شقيقتها الأخرى، إذ أن مساحتها حددت بـ ١٩٢ كم يقيم عليها نحو ثمانية ملايين نسمة، أما جيشها فحدد بخمسة وثلاثين ألف جندي على الأكثر^١.

ثالثاً: مقررات الصلح بالنسبة للدولة العثمانية
معاهدة سيفر ١٩٢٠، وتضمنت:

١. تنازلت الدولة العثمانية لليونان عن كل ما لديها في أوروبا عدا القسطنطينية، ومنطقة صغيرة على طول المضائق، وبحر مرمرة بعمق يحول دون إطلالة يونانية على المضائق، باستثناء منطقة أزميز التي سيقمر مصيرها المجلس الوطني التركي بعد مضي خمسة أعوام على الحكم اليوناني، وكذلك أعطيت لليونان جزر الدودكانيز باستثناء جزيرتي(رودس، وكاستلوريزو) اللتين أعطيتا لاطاليا.
٢. أعطيت ايطاليا، فضلاً عن الجزر المذكورة أعلاه الجزء الشمالي من أضاليا، وهو من أغنى مناطق الأناضول بالمناجم الفحمية.
٣. جعل القسم الشرقي من الأناضول دولة أرمنية مستقلة، وذلك بعد أن رفضت الولايات المتحدة الأمريكية بعناد فكرة الانتداب على هذه المنطقة.
٤. أعطاء الحكم الذاتي لكرديستان، وما تبقى من الأناضول الحق بالسيادة التركية بعد أن حصلت كل من فرنسا وبريطانيا على مناطق نفوذ فيه.
٥. جعلت المضائق العثمانية منطقة مزروعة من السلاح، وتشرف عليها لجنة دولية^٢.

أن الترتيبات التي أتخذها مجلس الحلفاء الأعلى، وخول اليونان فيها احتلال أزميز، والمنطقة المجاورة، إذ أن نزول اليونان في أزميز في ١٥ أيار من العام ١٩١٩، كان له تأثير سلبي في الأتراك الذين لم يكونوا قادرين على استيعاب فكرة استيلاء

١ - د.رياض الصمد، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٦.

٢ - المصدر نفسه، ص ١١٢.

اليونان على جزء من بلادهم، وسرعان ما ظهرت بوادر الاستياء بعد نزول قواتهم مباشرة، أي قبل أن تعقد معاهدة سيفر، ولكن المعاهدة اعترفت رسمياً بمطالب اليونان الإقليمية، وأضافت إلى الطين بله، وزادت في خيبة الأمل، وقوت العزم على الثورة، وفي أثناء ذلك ظهر مصطفى كمال أتاتورك، الذي كان قائداً في الجيش العثماني، ليقود الثورة، إذ حزت في نفسه المرارة من جراء عبث الحلفاء ببلادهم، وضعف سياسة الحكومة العثمانية، فتحدى هذه الحكومة، وفي ٢٣ نيسان من العام ١٩٢٠، أنعقد أول مجلس وطني كبير في تركيا، وأستطاع أن يدحر أعداءه، وتمكن من تحرير أراضيه التي كانت في يدهم، وفي نهاية العام ١٩٢٠، تخلص أتاتورك من الخطرين الفرنسي والارمني في الشرق ثم طرد اليونان من أراضيه سنة ١٩٢٢، وكان قبلها قد عقد أتاتورك معاهدة صداقة وتعاون مع الاتحاد السوفيتي (سابقاً)، فحسمت هذه المعاهدة مشكلة الحدود العويصة، إذ وافقت تركيا على التنازل عن باطوم إلى روسيا مقابل قارص، وارجان التي كانت بيد حكومة أرمينيا، إذ أصبحت هذه الأخيرة محتلة من قبل الجيوش السوفيتية، وأقاموا فيها حكومة شيوعية، وكان أندحار اليونان، وتهديد الكماليين الجديد قد أرعب لويد جورج، وأفرعه فوجه نداءً للحلفاء في ١٥ أيلول من العام ١٩٢٢، ناشدهم فيها الدفاع عن المضائق، وفي ١١ تشرين الأول من العام ١٩٢٢، وقعت تركيا وبريطانيا على اتفاق مدانيا أشرتط فيه أن تعاد تراقيا الشرقية إلى تركيا، وفي ٢٤ تموز من العام ١٩٢٣، وقع الفريقان على معاهدة لوزان، وبموجبها تم الاعتراف بوحدة تركيا كدولة، وتمت المصادقة على انفصال البلاد العربية، واستردت تركيا تراقيا الشرقية حتى نهر مارتيزا، وبلندة قره اغاج الواقعة على ضفته الغربية. كما أعيدت لها جزيرتا امبروز، وتيندوس لكن جزر بحر ايجة الأخرى أعطيت لليونان، ثم تم التصديق على امتلاك إيطاليا جزر الدودكانيز، واحتلال بريطانيا لقبرص، ولم يأت ذكر لأرمينيا، فدل ذلك على الاعتراف الضمني بالمعاهدة التركية- السوفيتية حول الحدود القفقاسية. كما أعيدت أزمير إلى تركيا بوصفها جزء لا يتجزأ من الأناضول كما تضمنت معاهدة لوزان إلغاء الامتيازات الأجنبية، وكان هناك قيد فرض على سيادة تركيا، ينطوي السيطرة على المضائق التي تم تدويلها، وكانت معاهدة لوزان نصراً للوطنيين الأتراك. فقد حصلت حكومة مصطفى كمال أتاتورك على اعتراف دولي بها، وفي ٢٩ تشرين الأول من العام

١٩٢٣، أعلن المجلس الوطني الكبير قيام الجمهورية، وأنتخب مصطفى كمال أول رئيس لها، وفي ٣ آذار من العام ١٩٢٤، ألغى المجلس الوطني الكبير نظام الخلافة^١.
رابعاً: أنشاء عصبة الأمم:

كان من نتائج الحرب العالمية الأولى إنشاء عصبة الأمم، والتي جاءت لتلبية حاجات الشعوب في مسألة أساسية، وهي ضمان السلام العالمي على أسس جديدة وثابتة. وقد أهتم بالدعوة لهذه المنظمة الدولية العديد من المؤسسات الإقليمية، والشخصيات السياسية، إلا أن أبرزها كان الرئيس الأمريكي وودرو ولسون الذي بدأ دعوته انطلاقاً من معارضته للفكرة القائلة بضرورة إدارة الدول الكبرى للعالم، وكذلك انطلاقاً من قناعته بأن نظام توازن القوى كان سبب في اندلاع الحروب، ولاسيما الحرب العالمية الأولى، وعلى الرغم من تردد كليمنصو، ولويد جوردي في البداية من فكرة إنشاءها، إلا أن فكرة ولسون انتصرت في النهاية، وتم إنشاء العصبة، ففي ٢٥ كانون الثاني من العام ١٩١٩، تبنت الجلسة المكتملة لمؤتمر السلام قراراً، بالإجماع يؤكد على أن عهد عصبة الأمم سيكون جزءاً أساسياً من معاهدات السلام، وقررت أعداده من قبل لجنة خاصة تتمثل في الدول الأربع عشر برئاسة ولسون، وألحت فرنسا وإيطاليا فوراً على إمكانية اتخاذ إجراءات قمعية ضد دولة متهمة بالعدوان. وقد أقرت مندوب الفرنسي بأن تمتلك عصبة الأمم جيشاً عالمياً أو في الأقل هيئة أركان عالمية، إلا أن الانكلوسكسونيين اعترضوا على ذلك، ولعلمهم كانوا يخشون وقوع هذه الأركان تحت سيطرة المارشال فوش الذين كانوا ينتقدون موقفه تجاه ألمانيا، وأدخل عهد العصبة في نص معاهدات السلام في ٢٨ حزيران من العام ١٩١٩^٢.

١ - جورج لنشوفسكي، الشرق الأوسط في الشئون العالمية، الجزء الأول، ترجمة: د. جعفر الخياط، دار الكشف، فرع العراق، بلا تاريخ، ص ١٥١-١٥٩، وكذلك ص ١٦٨.
٢ - د. رياض الصمد، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٩، وكذلك انظر: دور وزيل، التاريخ الدبلوماسي، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره، ص ٧١-٧٢.

الفصل السابع:

تطور العلاقات الدولية بين الحربين.

- المبحث الأول:

تطورات العلاقات الدولية لما بعد الحرب.

- المبحث الثاني:

الاتحاد السوفيتي وعلاقاته الدولية.

- المبحث الثالث:

إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية.

الفصل السابع

تطور العلاقات الدولية بين الحربين

المبحث الأول

تطورات العلاقات الدولية لما بعد الحرب

ظلت العلاقات الدولية طيلة القرن التاسع عشر ذات طابع أوروبي بالأساس بيد أن الحرب العالمية الأولى أسفرت عن تحول جوهري في العلاقات الدولية. فقد ألحقت الحرب بدول أوروبا خسائر اقتصادية فادحة أضعفت من قدراتها على التأثير الفعال في السياسة الدولية بالشكل الذي كان سائدا في القرن التاسع عشر، وجاء تدخل الولايات المتحدة واليابان في الحرب ليثبت أن أوروبا لم تعد قادرة بمفردها على تحديد مصير العلاقات الدولية، ونتيجة لسير العمليات الحربية فقدت أوروبا الكثير من أسواقها الخارجية، وسقطت في قبضة الديون الأجنبية، وهبطت أرصدها الذهبية، وانخفضت قيمة عملاتها، وكذلك فقدت أوروبا سيطرتها على الشرق الأقصى نتيجة للدور الياباني، وفي أمريكا اللاتينية خسرت أوروبا دورها الاقتصادي المتفوق لمصلحة الولايات المتحدة. كما أن الاقتصاد الأمريكي أنتعش نتيجة زيادة الصادرات الأمريكية إلى أوروبا في أثناء الحرب. وقد أدى هذا إلى تغيير جوهري في توازن القوى العالمي أساسه تحول هذا التوازن لمصلحة القوى غير الأوروبية، وتم اكتساب السياسة الدولية طابعاً عالمياً¹.

وكذلك يمكن أن نشير إلى زيادة دور العوامل الاقتصادية في مدة ما بعد الحرب العالمية الأولى. وقد أثرت الحرب تأثيراً سلبياً في اقتصاد الدول الأوروبية مما أدى إلى تراجعها، وفيما بين العامي ١٩٢٩، و١٩٣٣، اجتاحت العالم أزمة اقتصادية عرفت بالكساد الاقتصادي العالمي هزت أسس النظام الاقتصادي العالمي مما أدى إلى عدة نتائج في العلاقات الدولية، مثل: تعارض المصالح بين الدول المنتصرة. فقد أدت الأزمة الاقتصادية إلى تركيز الدول الرأسمالية في القضايا الاقتصادية، إذ سعت إلى إيجاد أسواق خارجية للتصدير، والحصول على القروض، والائتمان لإعادة البناء الاقتصادي، وفي هذا الصدد ركزت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية في استعادة ألمانيا لدورها الاقتصادي تمهيداً لفتح السوق الألمانية قبالة التجارة البريطانية والأمريكية. وقد تطلب ذلك تخفيف عبء التعويضات المفروضة على ألمانيا، وكذلك ركزت بريطانيا وألمانيا في إعادة فتح الأسواق الروسية قبالة التجارة البريطانية والألمانية، أما فرنسا فإنها ركزت في إجبار ألمانيا على دفع التعويضات، وذلك للحصول على موارد لإعادة بناء الاقتصاد

¹ - د. محمد السيد سليم، تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٦.

الفرنسي، ومنع ألمانيا من إعادة بناء قوتها العسكرية والاقتصادية. وقد أدى ذلك إلى بروز التعارض بين المصالح البريطانية والأمريكية من ناحية، والمصالح الفرنسية من ناحية أخرى إزاء قضية التعويضات الألمانية، وهو التعارض الذي أحدث توتراً في العلاقات الفرنسية- البريطانية في المدة التالية للحرب العالمية الأولى¹.

وبعد الحرب العالمية الأولى عادت الولايات المتحدة إلى سياسة العزلة، إلا أنها لم تستطع أن تطبقها بالشكل الذي كان سائداً قبل الحرب، والذي كان يدور حول الابتعاد عن الشئون العالمية. لقد أسفرت الحرب العالمية الأولى عن هزيمة الدول المركزية هزيمة تامة، وظهرت فرنسا بوصفها القوة الرئيسة في القارة الأوروبية، واليابان بوصفها القوة الرئيسة في آسيا، ومن ثم فإن توازن القوى الأوربي الذي دخلت بريطانيا الحرب للمحافظة عليه ما لبث أن أختل كثيراً بعد الحرب، وأن كان الاختلال في تلك المرة لمصلحة فرنسا، وكانت بريطانيا تتخوف من احتمال عودة فرنسا إلى ممارسة السياسات التوسعية النابليونية خاصة بعد هزيمة ألمانيا هزيمة تامة بما يهدد سياسة التوازن الأوربي، ومن ثم سعت بريطانيا إلى محاولة إعادة بناء التوازن الأوربي عن طريق الحد من الهيمنة الفرنسية على ألمانيا، والمشاركة في عملية إعادة بناء اقتصادها. وقد حاولت فرنسا أن تعوض فقدانها للتأييد البريطاني التام، وتؤكد هيمنتها على القارة الأوروبية عن طريق إنشاء نظام جديد من التحالفات مع الدول الجديدة في وسط أوربا، والبلقان كبولندا، وجيكوسلوفاكيا، ومملكة الصرب، والكروات، والسلوفينين، في إطار ما عرف باسم الوفاق الصغير، ولكن هذه السياسة سرعان ما أدت إلى زيادة الخلاف بين بريطانيا وفرنسا، وبين إيطاليا وفرنسا، ولم يقتصر الخلاف بين بريطانيا وفرنسا على قضية التوازن الأوربي، ولكنه شمل قضايا أخرى كقضية التعويضات الألمانية. كما أثار الهيمنة الفرنسية في أوربا تخوف بريطانيا، فإن الهيمنة اليابانية في شرق آسيا أثار مخاوف الولايات المتحدة، فكانت اليابان قد استولت على معظم الممتلكات الألمانية في شرقي آسيا، واخيط الهادئ، وأصبحت قوة استعمارية في الصين. وقد أثار ذلك قلق الولايات المتحدة لسببين: الأول هو رغبة الولايات المتحدة في المحافظة على مبدأ الباب المفتوح في شرقي آسيا، أما الآخر فهو القلق على سلامة الجزر الفلبينية إزاء التوسع الياباني، ولذا عملت الولايات المتحدة منذ العام ١٩٢٠، في محاولة ضرب النفوذ الياباني في شرقي آسيا، وذلك لإعادة التوازن الدولي في تلك المنطقة، فدفعت بريطانيا إلى رفض تجديد الحلف الياباني- البريطاني الذي انتهى في العام ١٩٢١، وكذلك عملت على تكتيل الدول الأوروبية ضد اليابان^٢.

١ - المصدر نفسه، ص ٣١٦-٣١٧.

٢ - المصدر نفسه، ص ٣٢٠.

وكانت اللجنة الأولى في نظام الأحلاف الأوربي الجديد هي إقامة حلف الوفاق الصغير بين جيكوسلوفاكيا، ورومانيا، ويوغسلافيا، وهذه الدول الثلاث التي أفادت أكثر من غيرها من تفسخ إمبراطورية النمسا والمجر، وظهر في العام ١٩٢٠-١٩٢١، على أثر معاهدات عقدت بين كل دولتين من الدول الثلاث على حدة. وقد عقدت فرنسا مع دول هذا الحلف اتفاقات سياسية، وهكذا أصبحت هذه الدول حليفات فرنسا الأمينات في جنيف فيما يختص بالسياسة الخارجية والدولية، والمعروف أن فرنسا تعهدت لهذه الدول منذ البدء أن تمنحها مساعدات حربية، وتسليح جيشها بالمعدات، وترسل إليها بعثات عسكرية تشرف على تدريب ضباطها^١.

وكانت علاقات فرنسا بدول التحالف الصغير تقوم على أسس تختلف تماماً عن الأسس التي تقوم عليها علاقاتها مع بولندا، فأساس التحالف الفرنسي- البولندي الرئيس هو المصلحة المشتركة الرامية إلى تطويق ألمانيا، ومنعها من الإتيان بأي عمل عدائي ضد البلدين. أما اتفاق فرنسا مع دول التحالف الصغير، فيشمل على مساومة واضحة المعالم، ففرنسا بتحالفها معها تستطيع أن تكسب أوصافها بشأن تنفيذ نصوص معاهد فرساي التي لم يكن للحلف الصغير فيها مصلحة تذكر. أما الثمن الذي تعهدت فرنسا بدفعه للدول الثلاث، فهو أن تؤيد دول التحالف الصغير جميعاً، وتساندها ضد المجر، ومناوراتها، وتدعم يوغسلافيا بصورة خاصة ضد إيطاليا، وهكذا وسعت فرنسا منطقة السلامة التي تنشدها بهذه الخطى المباركة في شرقي أوروبا، ولم يبق يشغل فكرها، ويبلغ اهتمامها غير تنفيذ نصوص صلح فرساي بحذافيرها، والإبقاء على الوضع الراهن كما قضت به التسوية، وبات من مصلحتها دعم بولندا، ويوغسلافيا، ورومانيا ضد بلغاريا. وقد رضي هؤلاء الأصدقاء تمام الرضى عن حماية فرنسا القوية النفوذ لهم ولصالحهم^٢.

ففي المدة الممتدة من العام ١٩٢٠، حتى العام ١٩٢٤، كانت فرنسا بفضل جيشها المنظم، والمدرّب، والمسلح، في أوج مجدها وقوتها في القارة الأوروبية. فقد كانت من أشد الدول تعلقاً بمبدأ الوضع الراهن، وتأييداً له، ومن أشد المعارضين لسياسة التساهل مع المغلوب، وتغيير ما نصت عليه معاهدات الصلح، فكان موقفها شديد الشبه بموقف مترنيخ بعد تسوية العام ١٨١٥، وقد بنت صرحاً من المحالفات، ودول

١ - أدوارد كار، العلاقات الدولية في عشرين سنة ١٩١٩-١٩٣٩، تعريب: سمير شمخاني، بلا تاريخ، ص ٤٨-٥٢.
٢ -- المصدر نفسه، ص ٥٢-٥٣.

التحالف الصغير يذكر بالإتحاد الأوربي المقدس، الذي أنشئ في زمن مترنيخ، والاسكندر الأول قيصر روسيا عندئذ^١.

أما النمسا فقد سعى الحلفاء إلى بذل قصارى جهودهم لحملها على الاحتفاظ باستقلالها، وقدموا لها المساعدات من أجل ألا تترمي في أحضان ألمانيا. أما المجر، فكانت حانقة ومتدمرة، مثل ألمانيا بسبب ما فرض عليها، فكانت تنتهز الفرص لتعديل المعاهدات مما جعل جيكوسلوفاكيا، ويوغسلافيا، ورومانيا الدول الثلاث التي منححت بموجب معاهدة تريانون أجزاء من المجر أن تعقد بينها تحالفاً عُرفَ بالتحالف الصغير لرد غائلة المجر، والحفاظة على السلامة المشتركة، وكانت دول الوفاق الصغير لا تخشى من عودة آل هابسبورغ إلى المجر. لعلمها أن سكان مقاطعات سلوفاكيا، وترانسلفانيا، وكرواتيا، هذه البقاع التي فصلتها التسوية عن المجر ما يزالون يحتفظون في أعماقهم بالإخلاص والوفاق لآل هابسبورغ بالرغم من كرههم لحكامهم المجرين السابقين^٢.

أما إيطاليا الفاشية فقد رأت أن نظام الأحلاف الفرنسي يمثل تهديداً لمصالحها، فارتباط فرنسا بملكة الصرب من شأنه تهديد المصالح الإيطالية، لأن لإيطاليا مطالب إقليمية مهمة لدى تلك المملكة، وأهمها السيطرة على إقليم فيومي. كما أن للدولتين مصالح متعارضة مع ألبانيا، ولذلك فقد شرعت إيطاليا في دعم المجر ضد الوفاق الصغير، فعقدت معها معاهدة صداقة سنة ١٩٢٧، ودعمت مطلب المجر في إعادة النظر في الحدود التي رسمتها معاهدة تريانون، وكذلك فقد سعت إيطاليا الفاشية إلى إقامة تكتل دولي في البلقان، والدانوب، يؤكد هيمنتها السياسية على هذه المنطقة. وقد لجأت إيطاليا إلى استخدام الضغط العسكري للحصول على تنازلات سياسية من دول البلقان. فقد احتلت جزيرة كورفو اليونانية مؤقتاً لبث الرعب في الدول المعارضة لمطالبها الإقليمية. وقد أجبر ذلك ملكة الصرب على التوصل إلى إتفاقية مع إيطاليا عُرفت باسم إتفاقية نيتونو في كانون الثاني من العام ١٩٢٤، تنازلت بموجبها عن مدينة فيومي لإيطاليا، واحتلتها بالقوة في العام ١٩٢٣، وكذلك فقد سيطرت اقتصادياً وسياسياً على ألبانيا، ووقعت معها ميثاق تيرانا في تشرين الثاني من العام ١٩٢٦، وبموجب هذا الميثاق تعهدت الحكومة الألبانية بعدم انتهاج سياسة خارجية تضر بالمصالح الإيطالية، وفي تشرين الثاني من العام ١٩٢٧، تم توقيع تحالف دفاعي بين إيطاليا وألبانيا، وتم استكماله باتفاق آخر في تموز من العام ١٩٢٨، تعهدت بموجبه الحكومة الألبانية بالألا تتصرف في جميع المسائل البلقانية إلا بالاتفاق مع إيطاليا، وفي أيلول من العام ١٩٢٨، عقدت اليونان وإيطاليا اتفاقاً تعهدت اليونان بموجبه بالحياد في حالة تعرض إيطاليا لعدوان لم

^١ - المصدر نفسه، ص ٥٣.

^٢ - أدوارد كار، المصدر نفسه، ص ٧٢-٧٥.

تسبب فيه، وهكذا أقامت إيطاليا نظاماً آخر للأحلاف في منطقة البلقان يدعم مصالحها في المنطقة^١.

وفي العام ١٩٣٤، عقد حلف البلقان، وجمع الدول الأربع اليونان، ورومانيا، ويوغسلافيا، وتركيا، وتعهدت الدول الأربع بضمان حدودها بعضها البعض، والتشاور فيما بينها في حالة وقوع أي تهديد للسلم في البلقان، واعتمدت مشاريع تعاون ثقافي واقتصادي لتعزيز روح الوحدة، وتعبيد الطريق لإتحاد فدرالي بلقاني، وظلت ألبانيا خارج الحلف، والواقعة تحت نفوذ إيطاليا، وبلغاريا التي لم تكن راضية بحدودها، وانضمت تركيا لحلف آخر، وهو حلف سعد أباد في العام ١٩٣٧، بين تركيا، والعراق، وإيران، وأفغانستان، وتعهد أعضاء الحلف بأن يتفادوا التدخل في شؤون بعضهم بعض، أو أن يستخدموا القوة ضد بعضهم البعض، وبأن يتشاوروا حول الخلافات الدولية التي تمس مصالحهم المشتركة، وطلبت تركيا مساعدة الجار السوفيتي، وتشجيعه عندما كانت في حرب الاستقلال ضد اليونان، وحماتها الغربيين، ولما منحت عصبة الأمم في العام ١٩٢٥، الموصل إلى العراق اغتازت تركيا، وعقدت معاهدة صداقة وحياد مع الإتحاد السوفيتي في العام ١٩٣٤^٢.

أما فيما يخص المضايق فقد ظلت اتفاقية لوزان سارية المفعول مدة ثلاث عشرة سنة، وفي ٢٠ تموز ١٩٣٦، استبدلت باتفاقية مونترنو، وكان من بين المشاركين في المؤتمر الإتحاد السوفيتي، الذي أجتهد كما فعل من قبل في تقليص حرية الدول البعيدة عن البحر الأسود الدخول إليه، وكما حصل في لوزان، كانت الدولة المعارضة الوحيدة لها بريطانيا، ولكن الجو بأكمله تغير تغيراً محسوساً هذه المرة، فكانت بريطانيا وفرنسا بالنظر للخطر الألماني المتزايد على السلم الأوربي راغبتين في الذهاب بعيداً في تأييد تركيا، وعدم معاكسة الإتحاد السوفيتي الذي كانت هاتان الدولتان تسعيان التقارب معه يوم ذاك، وكانت اتفاقية مونترنو تنطوي على مبدأ حرية المرور في زمن السلم من دون وضع حد زمني، وأطلقت الحرية التامة للمرور في زمن الحرب أيضاً حينما تكون تركيا على الحياد أو داخلية في الحرب. وحينما تكون تركيا من الدول المحاربة، فيسمح للبوادر التجارية التابعة لبلاد غير المشتركة في الحرب بالتمتع بحرية المرور بشرط ألا تقوم بمساعدة العدو^٣.

١ - د. محمد السيد سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٤.

٢ - دانكوارت روستو، السياسة الخارجية للجمهورية التركية، في روي مكريديس، مناهج السياسة الخارجية في دول العالم، ترجمة: د. حسن صعب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٦، ص ٥٨١-٥٨٤.

٣ - جورج لنشوفسكي، الجزء الثاني، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤٠-٥٤١.

المبحث الثاني

الإتحاد السوفيتي وعلاقاته الدولية

أستطاع الإتحاد السوفيتي بادئ ذي بدء إنشاء علاقات دبلوماسية رسمية مع جيرانه الصغار. فقد تجلّى أخلاص الحكومة الروسية باجلى معانيه في استعدادها للاعتراف بالدول الحديثة التي انفصلت عن روسيا، ففي عام ١٩٢٠، عقدت معاهدات صلح مع فنلندا، واستونيا، ولاتفيا، وليتوانيا، ومع بولندا.

أما مصير الولايات القفقاسية، وهي جورجيا، وأذربيجان، وأرمينيا، فلم يكن كمصير الدول المذكورة، فإن أذربيجان، وأرمينيا لم تكن لهما أدنى مظاهر الاستقلال كما كان لجورجيا مثلاً. فقد تقرر مصيرها بعد انسحاب القوات الحليفة منها، وكانت تحميها وتحمي كيانها الدولي الذي أصبح لها في السنة الأخيرة للحرب، فضمته روسيا إلى أراضيها، وفي العام ١٩٢١، إذا بروسيا السوفيتية تعقد معاهدات صداقة مع تركيا، وإيران، وأفغانستان، وكانت المعاهدتان مع الدولتين الأخيرتين تستهدفان تشجيع روح المقاومة للنفوذ البريطاني في البلدين، حتى خيل للعالم أن التنافس البريطاني- الروسي الذي عرفه القرن التاسع عشر في آسيا سيتجدد، فيكون له أسوأ العواقب، وأوخمها^١.

أما الدول الكبرى فقد ظلت علاقاتها الرسمية مع الإتحاد السوفيتي منقطعة غير انه لم يكن باستطاعة هذه الدول التفاوضي عن أمكانية إيجاد علاقات تجارية واقتصادية بينها، وبين روسيا مع أن الإتحاد السوفيتي رفض الاعتراف بديون روسيا القيصرية، وأقيمت علاقات تجارية بين بريطانيا، والإتحاد السوفيتي، واقتدت إيطاليا بها ثم قبل الإتحاد السوفيتي في أسرة الأمم، وأصبح بالإمكان دعوته إلى حضور مؤتمر اقتصادي تعقده الدول الأوروبية، بما فيها ألمانيا، في جنوه خلال ربيع العام ١٩٢٢، وكان رئيس وزراء بريطانيا لويد جورج يأمل أن يتوسط في المؤتمر في عقد اتفاق بين الإتحاد السوفيتي، وجميع الدول غير أن هذه الآمال قد تلاشت بسبب موقف لجنتي فرنسا وبلجيكا من هذه الفكرة، إذ أصرت على وجوب اعتراف السوفيت بديون روسيا القيصرية قبل فتح باب المفاوضات.

أما ألمانيا فقد عقدت معه معاهدة صداقة، فكان وقتها عظيماً مع أن بنودها لم تكن على جانب من الأهمية، إذ اكتسب الإتحاد السوفيتي اعترافاً رسمياً له من جانب

١- أدوارد كار، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤.

دولة كبيرة، كما كانت محاولة واضحة تقوم بها ألمانيا لكسر النطاق الذي قيدها به معاهدة فرساي. أما الحلفاء فقد امتعضوا لدى وقوفهم على هذا النبأ غير السار^١.

ولما سقطت وزارة لويد جورج في بريطانيا خلفته وزارة محافظة انتقدت سياسات سلفه، ووصفت بسياسة مغازلة البولشفيك، ورأت من الضروري إتباع سياسة الحزم والعزم، إلا أن رد الفعل الذي أحدثته الحكومة العمالية التي خلفت المحافظين في شباط من العام ١٩٢٤، كان عظيماً، إذا اعترفت هذه الحكومة رسمياً بحكومة الاتحاد السوفيتي، وتم عقد اتفاق بين الدولتين في آب من العام نفسه، وسرعان ما جر اعتراف بريطانيا بالاتحاد السوفيتي إلى اعتراف إيطاليا، وفرنسا، واليابان، وجميع الدول الأوروبية به رسمياً، ولم يبق غير الولايات المتحدة، ومما لا ريب فيه أن سياسة الاتحاد السوفيتي تبدلت كثيراً بعد وفاة لينين في العام ١٩٢٤، فقد وضعت الثورة العالمية التي كان الزعماء الشيوعيون ينادون بها في أول الأمر على الرف مما أسهم في فتح الطريق قبالة العلاقات بين الاتحاد السوفيتي، وجميع دول العالم الرأسمالي^٢.

وسعت الحكومة السوفيتية في بداية الثورة البلشفية إلى انجاز مهمتين: الأولى هي حماية النظام البلشفي من محاولات الغزو الخارجي، والحركات الانفصالية الداخلية، والأخرى هي العمل على إسقاط الحكومات الرأسمالية في الدول الأوروبية، وإقامة نظم في تلك الدول على غرار النظام البلشفي، ولكن السياسة البلشفية فشلت في نشر المبادئ الشيوعية سواء في أوربا أو بين الشعوب الشرقية، وكذلك بدأت الحكومة البلشفية تواجه صعوبات اقتصادية هائلة نتيجة الحرب الأهلية، ولتطبيق المبادئ الشيوعية، ومن ثم قررت الحكومة البلشفية في العام ١٩٢١، تغيير سياستها الخارجية في اتجاه التقارب مع الدول الرأسمالية الأوروبية، وفي الوقت ذاته سعت الدول الغربية المنتصرة في الحرب إلى تكوين تحالف من الدول المحيطة بروسيا الشرقية يمنع انتشار النفوذ الشيوعي إلى باقي أنحاء القارة. فقد دعمت الدول الغربية بولندا، ورومانيا، ضد الاتحاد السوفيتي. وقد حدثت تطورات أدت إلى اعتراف الدول الغربية بالاتحاد السوفيتي منها: خروج الاتحاد السوفيتي من الأزمة الاقتصادية نتيجة إتباع السياسة الاقتصادية الجديدة في الوقت الذي تفاقم فيه الأزمة الاقتصادية البريطانية التي تمثلت في وجود مليون عامل بريطاني عاطل، وكان حل الأزمة يتطلب فتح أسواق خارجية

١ - المصدر نفسه، ص ٨٤-٨٥.

٢ - المصدر نفسه، ص ٨٧.

جديدة قبالة الصادرات البريطانية، ومن ثم فقد ازدادت حاجة بريطانيا إلى السوق السوفيتية، وكذلك وصول حكومتين يساريتين إلى الحكم في بريطانيا وفرنسا مما أدى إلى اعترافهما بالاتحاد السوفيتي كما ذكرنا في ٢٨ تشرين الأول من العام ١٩٢٤^١.

لقد بادرت إيطاليا إلى التقارب مع فرنسا ضد ألمانيا، وكان السبب المباشر لذلك التقارب هو القضية النمساوية. فقد كانت إيطاليا تحشى امتداد النفوذ الألماني إلى النمسا بعد وصول هتلر إلى السلطة، كما أنها وقعت اتفاقاً مع النمسا والمجر في أيار من العام ١٩٣٤، ينص على تعاون الدول الثلاث في المجال الاقتصادي، ولما بدا أن التصادم بين إيطاليا وألمانيا كان وشيكاً وقعت اتفاقية بين فرنسا وإيطاليا نصت على تعاونهما إذا حدث ما يهدد استقلال النمسا، وأدى هذا التطور إلى ظهور تكتل مضاد لألمانيا تمثل في التقارب الفرنسي- الإيطالي، والتحالف الفرنسي- السوفيتي، وكان هذا التكتل محاولة فرنسية لوقف الخطر الألماني، ففي ١٦ نيسان من العام ١٩٣٥، تكونت جبهة ستريزا، التي تضم فرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا. وقد نص اتفاق ستريزا على معارضة الدول الثلاث لأي انتهاك من جانب واحد لاتفاقيات الصلح، وتمسكها باتفاقيات لوكارنو، ثم جاء اتفاق التحالف الفرنسي- السوفيتي الموقع في ٢ مايس من العام ١٩٣٥، ليكمل اتفاق ستريزا، وبموجبه حاولت فرنسا أن تحاصر ألمانيا من الشرق بعد أن حاصرتها من الغرب بموجب اتفاق ستريزا. فقد تعهدت الدولتان أنه في حالة عدوان على أي منهما من جانب دولة أوربية بدون سبب من احد الطرفين المتعاقدين، فإنهما يتبادلان المعونة بسرعة. وقد حاولت ألمانيا ضرب هذا الحصار بإعلان أن الاتفاق الفرنسي- السوفيتي يخالف اتفاقيات لوكارنو، وقامت باحتلال منطقة الراين، وشرعت في محاولة فك الحصار الفرنسي عن طريق الأسلوب الأول وهو ضرب جبهة ستريزا بالتحالف مع إيطاليا، والأخر هو ضرب التحالف الفرنسي- السوفيتي بالتحالف مع اليابان، ولما احتلت إيطاليا الحبشة صوتت كل من فرنسا وبريطانيا ضد إيطاليا في مجلس العصبة فقامت الأخيرة بإلغاء الاتفاقات الفرنسية- الإيطالية، وإعلان الخروج من جبهة ستريزا^٢.

ثم وقعت اتفاقاً مع ألمانيا اعترفت الأخيرة بموجبه بالوجود الإيطالي في الحبشة مقابل عدم معارضة إيطاليا للنفوذ الألماني في النمسا. وقد عُرفَ التحالف الإيطالي- ألماني باسم محور روما- برلين في العام ١٩٣٦، وقد أيد فرانكو في إسبانيا هذا المحور الذي

١ - د. محمد السيد سليم، مصدر سبق ذكره، ص ١٩١-١٩٣.

٢ - المصدر نفسه، ص ٤١٠-٤١١.

أمدته بالسلاح، والمتطوعين لعدة اعتبارات منها، تأثير فرانكو في الفكر الفاشي، وكانت إيطاليا تأمل من دعمه إلى تأكيد نفوذها في أسبانيا. كما حاولت ألمانيا إلغاء الحلف الفرنسي- السوفيتي عن طريق أغراء الاتحاد السوفيتي بالتسهيلات الاقتصادية، ولما فشلت ألمانيا في ذلك وقعت مع اليابان اتفاقية تحالف في ٢٥ تشرين الثاني من العام ١٩٣٦، سُميت بالميثاق المعادي للكومنترن، وكان هدف ألمانيا من إقامة هذا التحالف السعي إلى أشغال الولايات المتحدة الإستراتيجي في المحيط الهادئ، وبذلك تضعف قدرتها على دعم بريطانيا وفرنسا ضدّها في حالة نشوب حرب أوربية. كما كانت تهدف إلى الضغط على الاتحاد السوفيتي من حدوده الشرقية، حتى يضطر إلى خوض الحرب على جبهتين في حالة نشوب حرب ألمانية- سوفيتية. أما بالنسبة إلى اليابان، فإنها كانت تأمل أن تلقي حليفاً أوربياً في حالة اضطرها إلى الدخول في مواجهة مع الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة. وقد دخلت إيطاليا هذا الحلف في تشرين الثاني من العام ١٩٣٧، وهكذا تبلور محور روما- برلين- طوكيو، وكذلك انضمت المجر، واسبانيا، ودولة منشوكو التي أنشأها اليابان في الصين إلى الميثاق المعادي للكومنترن. أما الولايات المتحدة فقد جابهت هذه التطورات بإصدار قانون الحياد في ٣١ آب من العام ١٩٣٥، وقد أدى ذلك إلى تفكك نظام المخالفات الفرنسي في وسط أوربا، وابتداء من آذار العام ١٩٣٩، إذ حدث تحول حاسم أدى إلى بروز التحالف البريطاني- الفرنسي في مواجهة المحور، فلأول مرة قامت ألمانيا باحتلال مناطق غير ألمانية في جيكوسلوفاكيا بوهيميا سلوفاكيا كما قامت إيطاليا باحتلال مناطق غير إيطالية ألبانيا، وأدى ذلك إلى تغيير السياسة البريطانية تغيراً جذرياً، إذ كانت السياسة البريطانية تفضل عدم الدخول في التزامات رسمية مع فرنسا فيما يتعلق بأوربا، وكانت تميل إلى التهدئة مع ألمانيا، وفي أيار من العام ١٩٣٩، ثم توقيع الميثاق الفرنسي- البريطاني- التركي، ونص على التعاون بين الدول الثلاث، إذا تعرضت أحدها لعدوان خارجي مع ترك الحرية لتركيا للالتزام بالميثاق من عدمه في حالة وقوع حرب أوربية، ولقد بادر الاتحاد السوفيتي إلى التعاون مع ألمانيا، ووقع معها في ٢١ آب من العام ١٩٣٩، ميثاق عدم اعتداء على الرغم من محاولات بريطانيا وفرنسا استمالته إلى جانبهما^١.

^١ - د. محمد السيد سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٤١٤-٤١٦.

المبحث الثالث

إيطاليا الفاشية، وألمانيا النازية

أولاً: ظهور إيطاليا الفاشية:

عانت إيطاليا أزمات شديدة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، فمن نقص شديد في الفحم، والحديد، وارتفاع الأسعار بشكل كبير، وقلة الغذاء مما أوقع الضرر بالفئات محدودة الدخل، وخاصة العمال الذين كانوا أكثر من غيرهم تعرضاً لمشكلات الغلاء، وللدعاية التي كان يبثها دعاة الإصلاح من الاشتراكيين الإيطاليين، وبالنظر لعجز الحكومات عن معالجة الأهداف الوطنية، وإيجاد الحلول لهذه الأزمات أخذت القوى الاشتراكية والفاشية تنمو وتتصارع، فالقوى الداخلية المتمردة على الحكومة كانت عدة، وقوية وقامت الإضرابات في الأوساط العمالية المتأثرة في الأفكار الاشتراكية، وبالاتجاهات اليسارية، وكان موسوليني اشتراكياً وقومياً، ولكن أفكاره تغيرت تغييراً يخدم فكره القومي فأخذ يناهز بضرورة دخول إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء حتى تتمكن إيطاليا من تحقيق مكاسب مرضية على حساب النمسا، وفعلاً دخلت إيطاليا الحرب لتخرج منها بمكاسب بسيطة من وجهة النظر الإيطالية، بل بخذلان قومي، وعندما طالبت إيطاليا بالساحل الدلماسي لم تطالب به هو فقط، وإنما مدت مطالباتها حتى ميناء فيومي، حيث عارض الرئيس الأمريكي ولسن على أن ذلك توسيعاً لنطاق الإطماع الإيطالية بشكل غير متفق عليه^١، ولقد اخفق الساسة القدامى في تحقيق أهداف إيطاليا، ومن ثم فهي مسئولة موسوليني، كما يعتقد، لكي يحقق هذه الأهداف الخارجية والداخلية، وشرع في تكوين حزبه الفاشي منذ العام ١٩١٩، وبدأ بتجنيد أولئك الذين يكرهون الفكر السياسي التقليدي القديم، والذين يخشون على إيطاليا من نمو الفكر الاشتراكي المتطرف في البلاد.

ومن هنا كانت الحركة الفاشية ضد الشيوعية بعنف لا يقل عن عداوتها للنظام التقليدي القديم المتداعي، فالشيوعية عالمية الأهداف، أما الفاشية، فهي إيطالية الأهداف قومية وطنية لا تؤمن بالصراع الطبقي، وإنما بالتعاون بين البرجوازية والعمال^٢، وأخذ ينظم إليه الجنود والمسرحيين من الجيش بلا عمل في أعقاب الحرب العالمية الأولى،

١ - د. عبد العزيز سليمان نوار، ود. عبد المجيد نغمي، مصدر سبق ذكره، ص ٥٣٧.

٢ - المصدر نفسه، ص ٥٣٩.

وأجذب الحزب أعضاء كثيرين من البرجوازية لوجود تفاهم وأهداف مشتركة، والبرجوازية تخشى نمو الفكر الشيوعي، وفي الوقت نفسه كان الحزب الفاشي في حاجة إلى هذه البرجوازية، وخاصة الشباب البرجوازي، لأنه كان يبحث عن زعامة وطنية، ولأنه كان يرفض التقاليد البرلمانية القديمة، ولأنه كان يرى في الحزب الفاشي فكراً منظماً على الطريقة الإيطالية، وهذا يفسر انضمام أساتذة الجامعات وطلبتها إلى صفوف موسوليني، وكذلك ركز موسوليني جهوده من أجل كسب العمال إلى جانبه، فهو بكسبه العمال يكون قد وجه ضربة قاضية إلى الجناح الشيوعي في إيطاليا، وسلبه الأداة التي يستخدمها للوصول إلى الحكم¹.

وفي سياسته الخارجية ركز موسوليني منذ البداية في أن تصبح إيطاليا هي الدولة الأولى في البحر المتوسط، ولم تكن فرنسا ترضى بأن يتساوى الإيطاليون معها التي عاشت في دبلوماسية وحروب البحر المتوسط زهاء أربعة قرون بأكملها، وكانت فرنسا تؤدي الدور الأكبر في المنطقة في توجيه مقدرات البحر المتوسط خاصة منذ بداية القرن التاسع عشر. لقد حاول موسوليني جعل البحر المتوسط مجرد بحيرة إيطالية، فكان طبيعياً أن تقف كل من فرنسا وبريطانيا موقف الحذر الشديد من تحركات إيطاليا. فقد ضمن الفيومي، واستولى على ألبانيا في العام ١٩٣٩، وشاركت إيطاليا في إدارة طنجة في العام ١٩٢٦، واحتلت الحبشة في العام ١٩٣٥^٢.

وفي خطاب ألقاه في تورينو في ٢٣ تشرين الأول ١٩٣٢، أعلن موسوليني بأن عصبية الأمم لا تستطيع تأمين السلام في أوروبا، وكان موسوليني يهدف إلى التوصل إلى تعديل خارطة أوروبا. وقد قبلت ألمانيا بحماسة المشروع الإيطالي، لأنها كانت ترغب في مراجعة معاهدة فرساي، والتي كانت إحدى مواد المشروع الإيطالي والتي تسمح لها بالمساواة في الحقوق. أما على صعيد التسليح، فقد قبلت المشروع بحماسة، وأعلن فون بابن نائب المستشار بأن فكرة موسوليني كانت عبقرية. لقد طالب موسوليني باتفاق القوى الأوروبية الأربع الكبرى: فرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا، وألمانيا، وبهذا الشكل ستم

١ - المصدر نفسه، ص ٥٣٩.

٢ - المصدر نفسه، ص ٥٥٠-٥٥٦.

وبأسلوب جديد إعادة بناء تفاهم الدول الكبرى، والذي كان يدير سياسة أوروبا في القرن التاسع عشر^١.

ثانياً: وصول النازية في ألمانيا:

وصل هتلر إلى السلطة في ٣٠ كانون الثاني من العام ١٩٣٣، وبالنسبة لهتلر، فإن مفهوم المساواة بين الشعوب، والذي كان سائداً في جنيف، لم يعد له قيمة أكثر من مبدأ المساواة بين الأفراد، وبالعكس كان يعدّ أن ثمة عرقاً مسيطراً، هو العرق الآري الموجود في ألمانيا بحالة النقاء تقريباً، وله الحق بالهيمنة على الآخرين أو أزالتهم عند الحاجة، وللوصول إلى هذا الهدف، فإن كل الوسائل مفيدة، أي بعبارة أخرى، أن هتلر لن يتراجع لا قبالة ازدرء المعاهدات، ولا قبالة الحرب أو الظلم، وبرأيه، فإن احترام الشخصية الإنسانية لم يكن موجوداً أبداً، أي أن هدف سياسته الخارجية، هو إذن، تأمين هيمنة ألمانيا بالحيلة والعنف. لقد أراد هتلر أن يُعيد لألمانيا قوتها العسكرية، ثم أن يلحق بألمانيا فرساي عدة ارض مأهولة بالألمان، وأخيراً الحصول على مجال حيوي، وبصورة أساسية في شرق أوروبا من أجل إعطاء الألمان الموارد الأولية، والغذائية، وكذلك الأراضي الاستعمارية^٢.

وبعد وصول هتلر بمدة وجيزة ألغى دستور فايمار، وأعلن قيام الرايخ الثالث، وفي ٢٣ آذار منحه الرايخشتاغ كل السلطات التي استفاد منها ليحل الأحزاب السياسية، ويعيد تنظيم الإدارة، وقام هتلر بتوقيع ميثاق عدم اعتداء مع بولندا لمدة عشر سنوات في ٢٦ كانون الثاني من العام ١٩٣٤، ولكن الميثاق بذاته لم يكن موجهاً ضد فرنسا غير أنه كان من الناحية النفسية موقفاً غير ودي من جانب حكومة بولندا تجاه حليفها، وأعلن الميثاق رغبة الحكومتين ببدء مرحلة جديدة في علاقتهما السياسية، وأن هذه العلاقات ستكون سلمية، وقائمة على ميثاق براين- كيلوغ، وأن تتشاور الحكومتان حول علاقتهما المتبادلة، واتفقتا على عدم اللجوء إلى القوة لتسوية خلافاتهما^٣.

١ - ج. ب. نوروزيل، (التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، الجزء الاول، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٩-٢٠٠).

٢ - المصدر نفسه، ص ١٩٦.

٣ - المصدر نفسه، ص ٢١٠-٢١١.

أما النمسا فكان هتلر ينظر إليها بوصفها جزء من الجماعة الألمانية، وكان يدعم فيها الحزب النازي النمساوي، وكان يعدّ منطقة الدانوب جزء من منطقة النفوذ الألماني، وأن على إيطاليا التوجه نحو المتوسط ماعدا الادرياتيك، وباستفتاء جرى في إقليم السار، تم عودة السار إلى فرنسا التي كان هتلر يطالب بإرجاعها إلى ألمانيا^١.

وفي ١٧ نيسان من العام ١٩٣٤، كان قد تم فعلياً العمل بإعادة تسليح ألمانيا، ولم يكن ثمة حكومة أوربية تجهل بأن ألمانيا كانت قد بدأت جهداً واسعاً في هذا الاتجاه، ولم يكن هتلر ينظر سوى ذريعة ما للإعلان عن مجهود إعادة التسليح الألماني، وفي بريطانيا ظهر كتاب ابيض تم تبرير زيادة الإنفاق العسكري البريطاني، بإعادة التسليح الألماني، وفي فرنسا تقدمت فرنسا بمشروع قانون عسكري يجعل مدة الخدمة العسكرية الفعلية سنتين، والذي وافق مجلس النواب عليه، وكان رد هتلر فوراً فقد أصدر قانوناً يعيد فيه الخدمة العسكرية الإجبارية في ألمانيا، ويثبت قوات الجيش الألماني بست وثلثين فرقة، وكانت الحجج التي ذكرها تتلخص بفشل نزع السلاح، وقيام القوى الأخرى بإعادة التسليح: بريطانيا، وفرنسا، وروسيا، ويعدّ هذا خرقاً لمعاهدة فرساي^٢.

وقد قام مجلس العصبة الذي أعلمته فرنسا بخرق ألمانيا معاهدة فرساي بنشر بيان يدين الموقف الألماني^٣.

وكان رد فرنسا هو السعي لإقامة معاهدة تحالف فرنسية- سوفيتية تشارك فيها يوغسلافيا، ويبدو أن الاتحاد السوفيتي هو الذي دفع فرنسا بأن توقع وبسرعة اتفاقاً ثانياً تم التوقيع عليه في ٢ أيار من العام ١٩٣٥، ونصت المعاهدة في حالة تهديد بالعدوان، من قبل دولة أوربية للاتحاد السوفيتي، أو لفرنسا، فإن البلدين يتشاوران من أجل تقوية المادة العاشرة من عهد عصبة الأمم، وعدّت ألمانيا أن الاتفاق الفرنسي- السوفيتي كان يتعارض مع معاهدة (لوكارنو)، وقد قامت قوات ألمانية بإعادة احتلال منطقة رينانيا المتروعة السلاح، ووقف هتلر يتحدى فرنسا^٤.

وفي البداية تبنت فرنسا ظاهرياً موقفاً صلباً، في حين ندم الاتحاد السوفيتي على دعمه للحكومة الفرنسية التي قامت بتعزيز خط ماجينو، واعترضت على ذلك الدول

١ - المصدر نفسه، ص ٢٢٢-٢٢٤.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٨٨.

٣ - المصدر نفسه، ص ٢٣٠.

٤ - المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

الموقعة على معاهدة لوكارنو، وأعلنت فرنسا، وبريطانيا، وبلجيكا، أنها بانتظار توقيع اتفاق جديد تضمن فيه أراضي بعضها البعض في حالة عدوان ألماني، وعبر هتلر عن اقتراحه بأن لا تزيد ألمانيا قواتها في رينانيا، وأن توقع ألمانيا، وفرنسا، وبلجيكا، ميثاق عدم اعتداء لمدة ٢٥ سنة، وميثاق جوي، في حين أجابت فرنسا بمشروع سلام يرتكز على عصبة الأمم، والأمن الجماعي، والتفاهم الإقليمي، وعلى أن يتم تأليف لجنة أوربية تمتلك قوة دولية لكن ألمانيا رفضت هذه المقترحات^١.

وقد شهد النصف الثاني من العام ١٩٣٦، تقوية الموقف الألماني على الصعيد الدبلوماسي، وضعف موقف الديمقراطيات الغربية، في حين استمرت الولايات المتحدة بالحفاظ على حياد دقيق، وأول حدث مهم في هذا الاتجاه كان توقيع الاتفاق النمساوي الألماني بعدم التدخل في شئون بعضهما البعض الداخلية، وكانت هذه المعاهدة انتصاراً دبلوماسياً مهماً بالنسبة لألمانيا، وتم العفو عن عدد كبير من النازيين النمساويين، وأصبح الحزب النازي النمساوي يستطيع الانتشار بحرية من جديد^٢.

وقررت الحكومة البلجيكية إعلان الحياد البلجيكي، ففي ١٦ آذار من العام ١٩٣٦، أي عشية احتلال رينانيا تماماً، وتم التمديد بواسطة تبادل رسائل فرنسية-بلجيكية بأن معاهدة ٧ أيلول من العام ١٩٢٠، قد ألغيت، وأن الصلاحيات بين هيئات أركان البلدين لن تستمر إلا في إطار معاهدة لوكارنو، وقررت الحكومة البلجيكية فك تضامنها مع فرنسا وبريطانيا، والتراجع عن المسؤولية التي كانت قد تعهدت لها في ١٩ آذار بضمّان فرنسا وبريطانيا ضد اعتداء ألماني، وممارسة سياسة مستقلة من ألان فصاعداً، وتطورت الفكرة القائلة بأن على بلجيكا التخلص من كل تحالف، والدفاع عن أراضيها بنفسها، وأدى ذلك إلى إلحاق ضرر جديد بنظام أمن فرنسا، وأعلن هتلر بأنه مستعد من جهة الاعتراف ببلجيكا، والأراضي المنخفضة المحايدة لا يمكن المساس بها، كل هذه الأوضاع جعلت التحالفات الفرنسية في شرق أوروبا غير قادرة على العمل، وبدأ الألمان ببناء خط سيغفريد، وأصبح من الصعب قيام فرنسا بنجدة بولندا، وجيكوسلوفاكيا، ورومانيا^٣.

١ - المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٥١.

٣ - المصدر نفسه، ص ٢٥٢-٢٥٣.

الفصل الثامن:

الحرب العالمية الثانية

• المبحث الأول:

أسباب الحرب.

• المبحث الثاني:

تطورات الحرب.

• المبحث الثالث:

نتائج الحرب.

• المبحث الرابع:

المؤتمرات الدولية خلال الحرب العالمية الثانية.

الفصل الثامن

الحرب العالمية الثانية

المبحث الأول

أسباب الحرب

أولاً: طموحات هتلر التوسعية:

قام هتلر في آذار من العام ١٩٣٨، بضم النمسا إلى ألمانيا، وكانت غايته هو ضم المناطق التي تحتوي على ألمانين، حيث جرى استفتاء في النمسا، وكان من نتيجته أن أعلن ٩٧% من المقتريين موافقتهم على الاتحاد مع ألمانيا، وتميزت مواقف الدول الأوروبية عن ذلك بالضعف، والتخاذل اللذين هيمنا على دبلوماسية هاتين الدولتين طوال مدة ما بعد الأزمة الاقتصادية العالمية، ولاسيما أن ضعف الموقف الفرنسي من هذه الأزمة يعود إلى الأزمة الوزارية التي كانت تعيشها فرنسا، فضلاً عن ذلك أن فرنسا كانت ترغب في أن لا تزج بنفسها لوحدها في حرب ضد ألمانيا، إذ كانت تنتظر مبادرة إيجابية على هذا الصعيد من قبل الحكومة البريطانية التي كانت تعطي الأولوية لشؤونها الداخلية، وكانت من ثم تنظر بعطف إلى المطالب الألمانية، ولذلك لم يصدر عنها بالنسبة إلى الأزمة النمساوية ما يشجع الحكومة الفرنسية على التصدي لألمانيا، وعلى منعها من ضم النمسا إليها، وإنما الذي حصل من قبل الحكومة البريطانية هو أن تشمبرلن رئيس وزراء بريطانيا نصح الحكومة الفرنسية بالحكمة والتريث بعد أن نصح الحكومة النمساوية بعدم مقاومة هتلر، لأن برأي تشمبرلن إذا حصلت مقاومة نمساوية لأطماع هتلر، فإنه ذلك سيؤدي حتماً لاجتياح عسكري من قبل ألمانيا للنمسا، وليس بمقدور بريطانيا حتى، ولا فرنسا مد يد العون لها في حال حصول الاجتياح، وذلك يرجع للاعتقاد السائد بأن ألمانيا قد أصبحت تملك قوة في أوربا^١.

ثم قام هتلر بعد ذلك بضم جيكوسلوفاكيا، ففي البداية سعى هتلر إلى ضم إقليم السوديت الجيكي، إذ أن سكانه من الألمان، ولكن هتلر كان في الحقيقة يسعى إلى ضم جيكوسلوفاكيا، وما شجعه على ذلك ضعف الموقف البريطاني، والفرنسي،

١ - د. رياض الصمد، العلاقات الدولية في القرن العشرين- الجزء الاول، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٥ -

والسوفيتي. فقد كان التدخل البريطاني في المشكلة يهدف من وجهة نظر بريطانيا إلى تسويتها على أساس التوازن الدولي^١.

كان لبريطانيا الدور المهم في تسوية المشكلة الجيكية، ولم تقم به لا الاتحاد السوفيتي، ولا فرنسا، وكان تشمبرلن هو الذي تولى مهمة الوصول إلى اتفاق مع هتلر، وكان يعتقد أن التوصل إلى اتفاق حول المشكلة الجيكية لا يتطلب مفاوضات بين طرفي النزاع ألمانيا وجيكوسلوفاكيا، ويعتقد أن ضم جيكو سلوفاكيا إلى ألمانيا هو واحد من اتفاقات المصالح البريطانية مع ألمانيا، وكان هتلر يدرك أن بريطانيا وفرنسا يجب ألا يناما على مستعمراتهما بفكر هادئ، ويجب أن يدفعوا الكثير في المقابل، وأن الثمن هو سيادة ألمانيا في أوروبا الشرقية، وأن التورط البريطاني في المشكلة الجيكية قد استبعد الاتحاد السوفيتي من التسوية رغم معاهدة التحالف الجيكية- السوفيتية، إذ كانت وجهة نظر هتلر انه قد شق الصفوف في الدول الكبرى التي لم تعد قادرة على أن تجتمع تحت لواء التحالف ضده، وأنه يستطيع التلاعب ببريطانيا وفرنسا، في حين يقف الاتحاد السوفيتي بمعزل عن هذه الأحداث الجسام، وكأنه ليس من المسئولين عن المشكلات الأوروبية^٢.

وفجأة غير هتلر رأيه، وطالب بضم فوري وعاجل لأراضي السويدية، وأجراء استفتاء في بقية الأجزاء موضع الخلاف حول هويتها الجيكية أو الألمانية، ثم استولى هتلر على جيكو سلوفاكيا بضعف فرنسي وبريطاني، أما الاتحاد السوفيتي، فلم يكن بوسعها أن يقدم شيئاً لها، حيث لا توجد حدود مشتركة مع جيكو سلوفاكيا، ولأن دول أوروبا الشرقية ما كانت لتقبل لو تحركت القوات السوفيتية لتمر عبر أراضيها بسبب عدم الثقة المتبادلة بين السوفيت وحكومات أوروبا الشرقية، وخوف هذه الدول من غضبة هتلرية، وكذلك كان هناك تقاعس سوفيتي لما كان عليه الجيش السوفيتي من ضعف حينذاك، ولأضطراب السوفيت لرصد تحركات جيوش كبيرة في أقصى الشرق بسبب أوضاع العدوان الياباني على الصين، وبسبب الهجمات المتقطعة اليابانية على الأراضي السوفيتية نفسها في نواحي منغوليا^٣.

وأخذ هتلر يطالب بدانزج الألمانية وممل فما كان من بريطانيا ألا أن تلجأ إلى سياسة الشدة في الرد على المطلب الألماني الجديد، فأصدر مجلس العموم- لأول مرة في

١ - د. عبد العزيز سليمان نوار ود. عبد المجيد نعني، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢١-٦٢٢.

٢ - المصدر نفسه، ص ٦٢٣.

٣ - المصدر نفسه، ص ٦٢٥.

تاريخ بريطانيا- قرار التجنيد الإجباري وقت السلم، وكان هتلر دكتاتوراً عبيداً، فرد بما هو أقوى، وهو إعلان سقوط ميثاق عدم الاعتداء المعقود بين ألمانيا وبولندا منذ العام ١٩٣٤، وأدى هذا إلى أن يركز هتلر جهوده من أجل تحقيق هدفه القادم وهو بولندا، وما كان هذا ليتم ألا بعد الاتفاق مع الاتحاد السوفيتي أو بحرب معه، وحيث أن هتلر كان يخشى الحرب على جبهتين عمل على الوصول إلى تفاهم مع الاتحاد السوفيتي، فعقد معه -هتلر- ميثاق عدم اعتداء في ١٣ آب من العام ١٩٣٩.^١

وقد عرض ستالين على بريطانيا وفرنسا فكرة تكوين حلف دفاعي ضد ألمانيا بعد أن طالب هتلر بدانرج، ولكن بريطانيا، والدول الأوروبية وضعت أكثر من عقبة في وجه قيام هذا التحالف الذي كان من وجهة نظر ونستون تشرشل مفتاح الأمان لبريطانيا والعالم ضد أمنيات هتلر العدوانية، ولكن هناك عقبات حالت دون قيام هذا الحلف هي: أولاً/ إذ كان الدالدية رئيس وزراء فرنسا شديد الكراهية للشيوخيين الفرنسيين، وللشيوعية الدولية، وكان يسعى للوصول إلى تفاهم ما مع الألمان بعد نكبة جيكوسلوفاكيا، ثانياً/ كانت بريطانيا على يد تشميرلن تنتقل بين المعسكرين السوفيتي والألماني تحت هذا على التفاهم معها ضد الآخر الأمر الذي أفقد ثقة الاتحاد السوفيتي فيه.^٢

لقد طالبت ألمانيا بإعادة مدينة دانرج إليها مع خط حديدي يمر عبر الكوريدور البولندي، وأن تحتفظ بولندا بمرفأ في مدينة دانرج يتصل بها عبر خط حديدي، وأن بولندا التي تخوفت من أثارة ألمانيا لقضية دانرج سارعت إلى توقيع اتفاقية عدم اعتداء مع الاتحاد السوفيتي، مما زاد تخوفها من المطامع الألمانية بعد أن ضم هتلر جيكوسلوفاكيا في آذار من العام ١٩٣٩، ونتيجة للتوتر في العلاقات البولندية- الألمانية تم توقيع اتفاقية بولندية مع بريطانيا تعهدت بموجها بريطانيا بضمان سلامة وأمن الأراضي البولندية، وكذلك الحكومة الفرنسية من جانبها أعلنت في ١٣ نيسان بأن فرنسا وبولندا تعهدتا بالرد السريع والمباشر على كل خطر يهدد مصالحهما. لقد كان جواب الحكومة الألمانية على هذا التضامن الانكليزي- البولندي- الفرنسي بأن أقدم وزير خارجيتها على إعلام الحكومة البولندية بأن الاتفاقية الألمانية- البولندية لعام ١٩٣٤، أصبحت غير صالحة بعد توقيع الاتفاقية الانكليزية- البولندية، ولقد حاولت كل من فرنسا وبريطانيا

١ - المصدر نفسه، ص ٦٢٦.

٢ - المصدر نفسه، ص ٦٢٨.

جر الاتحاد السوفيتي إلى توقيع اتفاقية معها، يكون الهدف منها حماية استقلال بولندا، إلا أن المفاوضات فشلت، وهذا ما أدى إلى تفاهم ألاني-سوفيتي تجلّى باتفاقية عدم الاعتداء، والتي اشرنا إليها سابقاً في ١٣ آب من العام ١٩٣٩، وفي ٣١ آب من العام ١٩٣٩، اجتاحت جيوش هتلر أراضي بولندا التي طلبت حكومتها النجدة من فرنسا وبريطانيا، فوجهت حكومتها إنذاراً إلى ألمانيا التي رفضت الإنذار، فأعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا في ٣ أيلول من العام ١٩٣٩، فاندلعت الحرب العالمية الثانية^١.

ثانياً: فشل عصبة الأمم:

على الرغم من الآمال التي كانت قائمة وراء تأسيس عصبة الأمم في إقامة عالم قائم على السلام، والعمل على منع اندلاع الحروب، إلا أن العصبة فشلت في تحقيق تلك الآمال، فلم تستطع تحقيق نزع السلاح، ولم تتمكن من منع اليابان من الاعتداء على منشوريا في العام ١٩٣١، وفشلت في فرض عقوبة ضدها، واستولت على الصين في العام ١٩٣٧، وكذلك لم تستطع منع إيطاليا من احتلال الحبشة، وكانت العقوبات التي فرضت على إيطاليا فاشلة^٢.

لقد كانت عصبة الأمم عاجزة عن فرض رأي محدد في مواجهة قوة اليابان في احتلال الصين، وتعاكس الدول الكبرى الأخرى عن اتخاذ تدابير حازمة ضدها. وقد وقفت الولايات المتحدة موقفاً سلبياً من فعل اليابان، لأنها رأت في التوسع الياباني على حساب الصين تهديداً مباشراً للإتحاد السوفيتي الذي كان منطلقاً لنشاط الحركة الشيوعية في الصين، ومن ثم كانت اليابان من وجهة نظر المسئولين الأميركيين رادعاً للسوفيت، ويجب إطلاق يدها في هذه الاتجاهات حتى لو تعارضت جزئياً مع تطلعات الولايات المتحدة^٣.

وحيال قضية إيطاليا أتخذ مجلس العصبة قراراً في تشرين الأول من العام ١٩٣٥، يقضي بإدانة إيطاليا بوصفها دولة معتدية، ويفرض عليها عقوبات اقتصادية لكن تلك العقوبات كانت مشكلة أكثر منها عملية، لأنها لم تؤد إلى حرمان إيطاليا من

١ - د.رياض الصمد، العلاقات الدولية في القرن العشرين، الجزء الثاني، لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣، ص ٣٨٧-٣٨٩.

٢ - د.خليل علي مراد وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٧.

٣ - د.عبد العزيز سليمان نوار، ود.عبد المجيد نغني، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٧.

المواد الضرورية التي تمكنها من مواصلة مخطتها العدواني كالحديد، والفحم، والنفط، وكانت إيطاليا تشكو من نقص شديد من النفط، فضلاً عن ذلك أثارت قرارات العصبة - بالرغم من ضعفها - سخط موسوليني، ودفعته إلى إلغاء اتفاقية روما التي كانت قد عقدها مع فرنسا في العام ١٩٣٥، فضلاً عن انسحابه من جبهة ستريزا كما اشرنا سابقاً^١.

ثالثاً: شروط معاهدة فرساي القاسية:

لقد خلقت شروط معاهدة فرساي شعوراً كبيراً بالمرارة لدى الألمان، وولدت لديهم رغبة شديدة في الانتقام، وهكذا جاءت السياسة الألمانية، سواء في عهد جمهورية فايمار أو في العهد النازي من أجل التخلص من تلك القيود، في حين لجأت الجمهورية إلى أساليب سلمية لتحقيق ذلك الهدف، أتبع النازيون أساليب عنيفة لتحقيق الأهداف، فقد ألغيت التعويضات، وصرفت الأنظار عن مواد معاهدة فرساي المتعلقة بترع السلاح، وأعيد تسليح منطقة الراين، وتم توحيد النمسا مع ألمانيا، وأعيد الألمان الذين كانوا يقطنون إقليم السويد في جيكوسلوفاكيا إلى حظيرة ألمانيا، وفوق ذلك أعربت بريطانيا عن استعدادها لتعويض ألمانيا عما فقدته من مستعمرات، وعادت ألمانيا من جديد دولة كبرى^٢.

رابعاً: ضعف موقف الحلفاء:

يرى البعض بأن أسباب نشوب الحرب العالمية الثانية تقع على عاتق الدول الحليفة بريطانيا وفرنسا، إذ أن ألمانيا كان لها هدفاً أساسياً هو تعديل شروط معاهدة فرساي، وتلك التي تضمنت سلخ أقاليم ألمانية عن الوطن الأم. فقد حاولت استعادة مدينة دانتزغ، ولو أن فرنسا وبريطانيا تفاهمتا مع ألمانيا حول هذه القضية لما وصلت الأمور إلى حالة الحرب، ولكن فرنسا وبريطانيا شجعتا بولندا على رفض المطالب الألمانية، وقامت بإعلان الحرب على ألمانيا، وبعد تسوية القضية البولندية بالشروط الألمانية، عرضت ألمانيا على بريطانيا وفرنسا الدخول في مفاوضات لتسوية الأوضاع الأوروبية، ولكنهما رفضتا العرض الألماني، ومن ثم يرى البعض بأن بريطانيا وفرنسا تعدان مسئولتان عن نشوب الحرب، في حين يرى آخرون ان نشوب الحرب يرجع إلى فشل بريطانيا، وبالتحديد رئيس وزرائها تسمبرلن في ردع التطلعات التوسعية الهتلرية،

١ - د. خليل علي مراد، وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٠-٣٤١.

٢ - المصدر نفسه، ص ٣٧٥.

ويعزوها آخرون إلى السلبية الطويلة من جانب الدول الحليفة الكبرى التي لم تتبع سياسة حازمة لاحتواء ألمانيا منذ بدء إعادة التسلح الألماني في العام ١٩٣٥، أن هذه السلبية التي تعود أيضا إلى سياسة الاسترضاء التي أتبعها فرنسا وبريطانيا تجاه ألمانيا وصلت أقصاها في مؤتمر ميونيخ في العام ١٩٣٨، ولو أن هاتين الدولتين وقفتا بصلافة ضد التوسعية الألمانية في النمسا وجيكوسلوفاكيا لكانت ألمانيا قد تراجعت عن مشروعاتها التوسعية الأخرى^١.

خامساً: فشل سياسة نزع السلاح:

لقد انعقدت العديد من المؤتمرات الدولية بهدف الحد من مشكلة سباق التسلح، ولاسيما في ميدان القوة البحرية، كما عقدت مؤتمرات أخرى بهدف نزع السلاح البري، واشتركت ألمانيا وللمرة الأولى في أعمال اللجنة التمهيدية التي كان قد شكلها مجلس عصبة الأمم في كانون الأول من العام ١٩٢٥، بهدف وضع مسودة معاهدة نزع السلاح. وقد انعقد مؤتمر نزع السلاح في جنيف في العام ١٩٣٢، حضرته ستون دولة بضمنها ألمانيا، وانهقد مؤتمر آخر في المكان نفسه في العام الذي بعده، واشتركت فيه ألمانيا أيضا على الرغم من وصول هتلر إلى السلطة، وكاد المؤتمر أن يفشل نتيجة التضارب في الآراء بين فرنسا وبريطانيا لولا مجيئ رامزي ماكدونالد رئيس الحكومة البريطانية، واقتراحه بأجراء تخفيضات للقوات المسلحة، ولمدة خمس سنوات على سبيل التجربة بحيث يكون لكل من ألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا، وبولندا جيش قوامه ٣٠٠ ألف جندي. وقد قبلت ألمانيا هذا الاقتراح ولكن الدول الأخرى عارضته، وتقرر أخيرا تأجيل المؤتمر إلى تشرين الأول من العام ١٩٣٣، لكن قبل أن يعقد المؤتمر بيومين قررت ألمانيا الانسحاب منه في ١٤ تشرين الأول من العام ١٩٣٣، وقد انسحب هتلر من مؤتمر نزع السلاح، وانهسحب بعدها من عصبة الأمم^٢.

١ - د. محمد السيد سليم، تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٢-٤٤٣.

٢ - د. خليل علي مراد، وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٤.

المبحث الثاني

تطورات الحرب

أولاً: احتلال فنلندا من قبل الاتحاد السوفيتي:

على الرغم من اتفاقية عدم الاعتداء التي وقعتها ألمانيا مع الاتحاد السوفيتي، فإن هذا الأخير لم يشعر بالاطمئنان الحقيقي تجاه ألمانيا، ولذلك راح يعمل على تعزيز حدوده الغربية، وتمكن من الحصول على موافقة حكومات دول البلطيق: استونيا، ولاتفيا، بالسماح لقواته باتخاذ بعض القواعد داخل أراضيها، ثم طلب إلى الحكومة الفنلندية في تشرين الأول من العام ١٩٣٩، بأن تنازل له عن بعض الجزر الواقعة على مدخل بحر البلطيق، وعن القسم الجنوبي منها لإقامة بعض القواعد العسكرية عليه، ولكن طلبه هذا قوبل بالرفض من قبل الحكومة الفنلندية، ولهذا أقدمت الحكومة السوفيتية في ٢٨ تشرين الثاني على نقض اتفاقية عدم الاعتداء مع فنلندا، ثم قطعت علاقاتها الدبلوماسية معها في اليوم التالي، وفي ٣٠ تشرين الثاني غزت الجيوش السوفيتية الأراضي الفنلندية. وقد حاولت الحكومتين الفرنسية والبريطانية إرسال نحو خمسون ألفاً من جنودهما لنجدة فنلندا عن طريق السويد، والنرويج اللتان رفضتا السماح لها بعبور أراضيها بحجة الحفاظ على حيادهما في الحرب، وكان الهدف من ذلك ليس الدفاع عن فنلندا فقط، وإنما قطع الطريق أيضاً على ألمانيا، ومنعها من الوصول إلى الحديد السويدي الذي يغذي مصانعها عن طريق المرافئ النرويجية، وخاصة مرفأ تارفيك.

إن عدم وصول المساعدات الفرنسية- البريطانية إلى فنلندا دفع هذه الأخيرة إلى الاستسلام بعد قتال امتد أربعة أشهر. وقد أرغمت الحكومة الفنلندية في ١٢ آذار من العام ١٩٤٠، على توقيع اتفاقية موسكو التي تنازلت بموجبها للاتحاد السوفيتي عن بعض مناطقها وعن جزيرة هانجو القاعدة البحرية الممتازة^١.

ثانياً: احتلال القوات الألمانية للدنمارك والنرويج:

بعد أن فشلت المحاولة الانكليزية - الفرنسية الرامية إلى قطع الطريق إلى الحديد السويدي المصدر إلى ألمانيا عن طريق إرسال ٥٠ ألف جندي إلى البلاد الاسكندنافية، حاول الأسطول البريطاني القيام بهذه المهمة عن طريق زرع الألغام في المياه الإقليمية النرويجية، وما كاد الألمان يعرفون ذلك حتى أمر هتلر قواته احتلال الدنمارك، فدخلها في ٩ نيسان ١٩٤٠، دون قتال وأعلن الحماية عليها، وفي اليوم

١ - د.رياض الصمد، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩٥.

نفسه قامت القوات الألمانية باحتلال جميع الموانئ والمطارات الرئيسية في النرويج، التي احتلتها القوات الحليفة في ١٥ نيسان من العام ١٩٤٠، ولهذا أستمّر القتال بين القوات الألمانية من جهة، والقوات الفرنسية والبريطانية من جهة أخرى على الأراضي النرويجية طوال مدة شهرين، واضطرت القوات الحليفة في نهايتها، إي في ١٥ حزيران إلى الانسحاب عن النرويج، وذلك بعد أن لجأت الحكومة النرويجية إلى لندن، وشكلت عندئذ في النرويج حكومة جديدة موالية للألمان^١.

ثالثاً: الجبهة الغربية:

إما في الغرب فقد سارعت الحكومة الفرنسية إلى تعبئة الجيش على أثر إعلانها الحرب، وكان خط ماجينو يمتد على طول الحدود الفرنسية-الألمانية، والذي مثل أعلى درجة من درجات تطور الدفاع العلمي التي بلغتها أوروبا حتى ذلك الحين، ولكن هذا الخط الدفاعي المنيع لم يمتد على طول الحدود الواقعة بين فرنسا وبلجيكا، فقد اكتفى رجال الهندسة العسكرية الفرنسية بتحصين تلك الحدود بوضع حزام من الأسلاك الشائكة، وإقامة الأعمدة العائقة لسير الدبابات، وحفر الحفر لصيدها. كما شيد الألمان داخل حدودهم في مواجهة خط ماجينو، خط سيغفريد أو السور الغربي، وهي منطقة حصنت على نمط مشابه لخط ماجينو^٢.

وما كاد ينقضي شهر على غزو النرويج حتى ضرب الألمان ضربتهم الكبرى في الغرب. فقد بدأوا هجوماً هائلاً قبيل فجر ١٠ أيار، على هولندا، وبلجيكا، ولوكسمبورغ، في آن واحد دون أي إعلان للحرب، ولم تمض ساعات قلائل حتى كانوا قد اكتسحوا لوكسمبورغ، واخترقوا في الثاني عشر من الشهر خط الدفاع الرئيس للجيش الهولندي، واحتلوا هولندا، وهاجم الألمان بلجيكا طبقاً لخطة موضوعة، فأخترق الألمان خط الدفاع الذي أقامه الحلفاء، واتجهت القوات الألمانية نحو فرنسا، واخترقت خطوط دفاعاتها، وتراجعت القوات الفرنسية، وسقطت العاصمة الفرنسية في أيدي الألمان، فاستصرخت الحكومة الفرنسية الرئيس روزفلت، وبريطانيا بان يقدموا لها يد العون، ولكن صرخاتها ذهبت هباء الريح، وسقطت وزارة رينو، في السادس عشر من حزيران، وخلفه في رئاسة الحكومة المارشال بيتان العجوز بطل فردان، وطلب من الألمان وقف القتال تمهيداً لعقد الهدنة بين الدولتين، واتخذت الحكومة الفرنسية مدينة

^١ - المصدر نفسه، ص ٣٩٥.

^٢ - أ.ه. فشر، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦٩.

فيشي مقرأ لها، وكان الألمان قد احتلوا حتى تلك اللحظة نصف أراضي فرنسا، ووافقوا على طلب بيتان، وفي ٢٢ حزيران وقع المبعوثون الفرنسيون شروط الهدنة مع الألمان والتي بمقتضاها تم تحويل الألمان احتلال جميع الأراضي الفرنسية الواقعة شمال وغرب خط يمتد من جنيف إلى تور، ومن هناك جنوباً إلى حدود اسبانيا، ويدخل في منطقة الاحتلال جميع الموانئ الفرنسية الواقعة على القنال الانكليزي، والمحيط الأطلسي، وفرض على فرنسا أن تترع سلاح قواتها الحاربة، ثم تسريحها فيما عدا القوات التي يحتاج إليها لحفظ الأمن العام، وان تتحمل فرنسا جميع نفقات الاحتلال، وأن يبحر الأسطول الفرنسي إلى موانئ معينة، إذ يجرد من السلاح، وأعلنت ألمانيا انه ليس لها أية نية في استخدامه ضد بريطانيا، أو في الاحتفاظ به بعد أبرام الصلح بين البلدين، وتعهدت فرنسا أن تطلق سراح جميع الأسرى الألمان الذين كانوا قد وقعوا في قبضة الجيش الفرنسي، على أن تستبقي ألمانيا في يدها جميع أسرى الحرب الفرنسيين^١.

رابعاً: معركة بريطانيا:

وقفت بريطانيا بمفردها وهي تكاد تكون مجردة من السلاح في وجه ألمانيا، وقد رفضت بريطانيا أن تعقد هدنة مماثلة مع تلك التي عقدتها فرنسا، وعلى الرغم من محاولات هتلر لاحتلالها، إلا أنه لم يفلح في ذلك، ويعتقد البعض ، ومن بينهم تشرشل نفسه انه كان من المرجح أن ينجح هتلر في احتلالها، ومن ثم السيطرة على العالم لو انه أقدم على غزوها عقب انهيار فرنسا، فقد أمهل بريطانيا فسحة من الوقت استخدمتها خير استخدام في استرداد قواتها، وتدريب جنودها الجدد، وتعويض ما كانت فقدته من عتاد. لقد أخذت القوات الجوية الألمانية تقصف بريطانيا، وتشر الخراب فيها، طوال صيف وخريف العام ١٩٤٠، وبدأت ألمانيا ما أسمته معركة بريطانيا، وشرع الألمان يشنون غارات جوية بالغة العنف على قوافل البواخر التجارية البريطانية، وعلى المدن الساحلية في الجنوب الشرقي من بريطانيا، ثم أعقبوا ذلك بغارات مركزة موجهة أكثر على المطارات، ومصانع الطائرات، ثم بدأت في ٧ أيلول المرحلة الثالثة والأخيرة لهذه الغارات، فقد قاموا بشن غارات نهائية عنيفة على لندن، وخاصة على منطقة مينائها، واستبسل الطيارون البريطانيون في الدفاع عن بلادهم خلال معركة بريطانيا التي استمرت حتى أواخر تشرين الأول، ومع ذلك واصل الألمان غاراتهم الجوية ليلاً على نطاق واسع، واخذ الألمان يقصفون الموانئ والمدن الصناعية ومع ذلك لم تتمكن ألمانيا

١ - المصدر نفسه، ص ٦٧٢-٦٧٣.

من قهر بريطانيا عن طريق الغارات الجوية، وفي المقابل قامت القوة الجوية البريطانية بالرد على الغارات الجوية الألمانية، وذلك بقصف المنشآت الصناعية، والموانئ، وأحواض السفن الألمانية، ولم يقتصر ميدان الحرب على الجو فقط، وإنما شمل ميدان البحار أيضاً، فقد هاجم الألمان منذ بدء الحرب السفن البريطانية المحملة بالأغذية، والمواد الخام، ومنيت السفن البريطانية بخسائر فادحة في بدء استخدام ذلك السلاح الفتاك، ولكن ما مضى سوى زمن قصير حتى تمكن العلماء البريطانيون من اختراع وسائل مضادة، وذلك من أجل أضعاف تأثير الألغام الممغنطة التي استخدمها الألمان ضد البحرية والموانئ البريطانية^١.

خامساً: القتال في أفريقيا:

كانت أفريقيا ساحة للقتال بين جيوش الحلفاء، والجيوش الألمانية والاطيالية. فقد استطاع البريطانيون أن يلحقوا خسائر فادحة بالجيش الايطالي في مصر التي كان موسوليني يسعى إلى احتلالها. كما احتل البريطانيون في شهر تموز من العام ١٩٤١، سوريا ولبنان اللتان كانتا خاضعتين لحكومة فيشي الفرنسية، وفي الوقت نفسه، تم القضاء على حركة مائيس في العراق قبل ذلك، وبذلك قوي مركز بريطانيا في الشرق الأوسط، وكان الايطاليون على أثر إعلانهم الحرب على بريطانيا قد تغلغوا في تموز من العام ١٩٤٠، في أراضي كينيا، ودخلوا السودان، واكتسحوا الصومال البريطاني، وهددوا قديداً خطراً مركز البريطانيين في الشرق الأوسط، وتمكنت القوات البريطانية من القيام بهجمات مضادة قوية أسفرت عن نتائج باهرة، فقد تمكنت من القضاء على الإمبراطورية الايطالية في شرق أفريقيا، فأقصوا الايطاليين عن اريتريا، وسقطت أديس أبابا في ايدي القوات البريطانية في ٦ نيسان، ودخل الإمبراطور هيلاسيلاسي عاصمة ملكه، وفي تشرين الثاني من العام ١٩٤١، استسلمت القوات الايطالية للجيش البريطاني، واتجه الألمان لنجدة حليفهم ايطاليا في شمال أفريقيا، وكان البريطانيون يعملون على تحويل عدد كبير من مقاتليهم، ومقادير كبيرة من عتادهم إلى اليونان، فضعف مركزهم ضعفاً كبيراً، وفي شمال أفريقيا أرسلت ألمانيا قائداً مجرباً هو الجنرال رومل الذي شن هجوماً كبيراً على رأس فرتيني، فنجح وتمكن من اختراق القوات البريطانية، وبلغ مرسى مطروح في مصر، ولاح كأن مصر ستقع في قبضته، إلا أن البريطانيين قاموا بشن هجوم بقيادة الجنرال مونتجمري في تشرين الأول من العام

^١ - المصدر نفسه، ص ٦٧٤-٦٧٦.

١٩٤٢، فأخترق خطوط الدفاع الرئيسية للقوات الألمانية بقيادة رومل بعد معركة حامية في العلمين، وأخذ الجيش الثامن البريطاني يجرف قبالة الألمان وبدون توقف، وتتابعت هزائم الألمان في العام ١٩٤٣، حتى استسلمت قوات الحور للحلفاء الذين قاموا بإنزال في شمال أفريقيا في تشرين الثاني من العام ١٩٤٢^١.

سادساً: الحرب على الاتحاد السوفيتي:

كان هتلر يضمّر في نفسه الحقد والكراهية للاتحاد السوفيتي، وكان تحالفه معه في آب من العام ١٩٣٩، هو تحالف مصلحة، فهو لم يكن يجراً على ضرب بريطانيا دون أن يؤمن موقف الاتحاد السوفيتي إلى جانبه، ولما أنشغل الألمان في الحرب على جبهة أوروبا الغربية انتزع السوفيت ولاية بسارابيا، وشمال مقاطعة بوكوفينا، في رومانيا، وكان هذا الأمر قد تم بموافقة ألمانيا، وتلا ذلك دمج دول البلطيق الثلاث (استونيا، ولاتفيا، ولتوانيا)، بالاتحاد السوفيتي، وفي فجر يوم الأحد ٢٢ حزيران من العام ١٩٤١، أرسل هتلر فرقه المصفحة وجنوده عبر حدود الاتحاد السوفيتي، وأنضم إلى جانب ألمانيا إيطاليا، وهنغاريا، ورومانيا، وفنلندا، وفي الكفة الأخرى وقفت بريطانيا إلى جانب الاتحاد السوفيتي، وكان هتلر يتوقع بان قواته ستظفر بنصر أكيد، بل كان يتوقع أن تظفر بنصر سهل، وكان يتطلع إلى الاستحواذ في حرب خاطفة على قمح أوكرانيا، وبتروال القوقاز والمواد الصناعية الضخمة في وادي فري الدونت، والفولجا، وحدث الهجوم الألماني على خطوط قتال كبيرة ثلاثة، الهجوم الأول عن طريق جنوب بولندا في أوكرانيا، والثاني عن طريق روسيا البيضاء إلى سمولنسك، وموسكو، والثالث عن طريق دول البلطيق إلى لينينغراد، وأصاب الألمان نجاحاً في بادئ الأمر، وتغلغلوا بسرعة خاطفة حتى بدا في وقت من الأوقات كأن هتلر يوشك أن يحقق هدفه الأكبر، وهو إقامة خط دفاعي يمتد على وجه التقريب من الفولجا إلى اشانجل في أقصى الشمال. فقد اكتسح الألمان في الميدان الشمالي دول البلطيق في وقت وجيز، وواصلت قواتهم الزاحفة إلى مشارف لينينغراد في تشرين الأول، وضربوا حصارهم عليها مدة ستة عشر شهراً تقريباً. كما وصلوا إلى مشارف موسكو، وفي الجنوب تم اكتساح أوكرانيا إلى ساحل البحر الأسود، وإلى اوديسا، وسيطروا على شبه جزيرة القرم، وفي البداية كانت انتصارات الألمان كبيرة، ولكن حينما حل الشتاء الروسي القارص البرد كان الألمان على مشارف موسكو ولينينغراد، واستعصى عليهم احتلالها، ولكن استبسال المقاتلين

^١ - المصدر نفسه، ص ٦٧٧-٦٧٩، وكذلك انظر الصفحات ٦٩٦-٦٩٨.

الروس الذين قاوموا الغزاة بضراوة لهجمات الألمان، ولاسيما عن مدينة ستالينغراد، في شهر آب من العام ١٩٤٢، وفي ١٩ تشرين الثاني من السنة نفسها قام الجنرال زوكوف بهجمة مباغتة مكنته من التأثير في القوات الألمانية التي لم تتمكن من تقديم الدعم والعون، وما أن اشرف العام ١٩٤٢، على الانتهاء حتى اخذ الزحف الألماني في الأراضي الروسية بالانحسار، وتحول الروس إلى موقع الهجوم حتى تمكنوا في منتصف العام ١٩٤٣، من رفع الحصار عن لينينغراد، واخذوا باسترداد المدن الروسية الواحدة تلو الأخرى، وساعدهم في ذلك الشتاء الروسي القارص، وتم طرد الألمان من أوكرانيا، وتجاوزوا أراضيهم إلى أراضي الدول المجاورة^١.

سابعاً: دخول الولايات المتحدة الحرب:

أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية الحياد في الحرب العالمية الثانية، إلا أنها كانت منحازة بعواطفها تجاه الحلفاء، وكان السبب المباشر في دخول الولايات المتحدة الحرب هو قيام اليابان بهجوم جوي على الأسطول الأمريكي في المحيط الهادئ الذي كان راسياً وقتئذ بقاعدته البحرية الكبيرة في ميناء بيرل هاربر بجزر هاواي، وبذلك قضت اليابان بضربة واحدة على التفوق البحري الأمريكي في المحيط الهادئ، وفي ظهر ذلك اليوم عينه هاجمت الطائرات اليابانية المنطلقة من جزيرة فرموزا مطارات الجيش الأمريكي بالقرب من مانيليا في الفيليبين، فأنزلت بها خسائر فادحة، وكان السبب المباشر لدخول الولايات المتحدة الحرب هو تطور الأحداث في الشرق الأقصى، وازدياد التوتر في علاقاتها مع اليابان، فقد احتدمت المعارك في الصين بين الجيوش اليابانية، وجيوش شان كاي شك، وكانت بريطانيا والولايات المتحدة تمدان الصين ببعض المعونة الحربية ع طريق بورما، وماليزيا، فقامت اليابان باحتلال هاتين المستعمرتين البريطانيتين حتى تقطع تلك الطرق، وتستغل مواردها الطبيعية الكبيرة، وانتهزت اليابان فرصة انشغال الدول الاستعمارية العظمى في الحرب، فتحقق آمال في إقامة إمبراطورية الشرق الكبرى التي حلم اليابانيون بتشييدها، وكانت اليابان قد طلبت من حكومة فيشي الضعيفة السماح لها ببناء مطارات في الهند الصينية، فرضخت تلك الحكومة لذلك الطلب، فردت الولايات المتحدة بتقديمها قرصاً للصين، وفرضها حصاراً جزئياً على اليابان، وبدأ التوتر يشتد بين الدولتين في تموز من العام ١٩٤١، إذ أعلنت اليابان في الخامس والعشرين منه أنها أخذت على عاتقها حماية مستعمرة الهند الصينية والفرنسية،

^١ - مصدر سبق ذكره، ص ٦٨٠-٧٠١.

فردت الولايات المتحدة باتخاذ أجراءين: ضم القوات المسلحة لجيش الفيليبين إلى جيش الولايات المتحدة وعين الجنرال دوكلاس ماك آرثر قائداً أعلى للقوات الأمريكية في الشرق الأقصى، وقررت تجميد الممتلكات اليابانية في الولايات المتحدة، واقتفت بريطانيا وهولندا على الفور أثره فقطع بذلك عن اليابان جميع مواردها من المطاط، والحديد، والنفط^١.

وكانت الولايات المتحدة قد دخلت الحرب في الوقت الذي كان موقف الحلفاء الحربي يبعث على اليأس. فقد كانت جيوش هتلر مسيطرة على أوروبا الغربية، ودول البلقان، ومتوغلة في قلب الاتحاد السوفيتي الذي بدت لمعظم المراقبين كأنه يشرف على ألقاء سلاحه قبالة قوة عدوه، وفي الوقت الذي كانت الطائرات اليابانية تضرب الأسطول الأمريكي الراسي في ميناء برل هاربر، والتي أقعدته عن العمل، استطاعت اليابان أن تحتل تايلاند، واندونيسيا، وسنغافورة، وبورما، وتم شل السلاح البحري البريطاني في الشرق الأقصى، ووصلوا إلى خليج البنغال، واستسلمت القوات الأمريكية في الفيليبين، وابتداء من نيسان من العام ١٩٤٢، قامت الولايات المتحدة بغارات جوية على مراكز اليابان المتعددة، ومنها: مدينة طوكيو، واصيبت اليابان بهزيمة بحرية كبيرة في معركة بحر المرجان، في حين كانوا يحاولون الاستيلاء على ميناء موريس، وهي قاعدة ذات موقع استراتيجي مهم في غينيا الجديدة، وإغراق الأمريكيون أربع حاملات طائرات كبيرة يابانية خلال هجوم اليابانيين على جزيرة مدواي، وأوقفت هذه المعركة هجوم اليابانيين في المحيط الهادئ^٢.

ثامناً: الحلفاء يبدأون الهجوم في مختلف الميادين الحربية:

ما أن انتصر الحلفاء على قوات المحور في شمال أفريقيا قاموا بتطهير البحر المتوسط من قوات العدو البحرية حتى يمكن لهم استخدامه لنقل قواتهم ومهامهم، وكان موسوليني قد استقال من منصبه في ٢٥ تموز من العام ١٩٤٣، إذ تم إلقاء القبض عليه، وسجن في معتقل خاص، وتشكلت ورائه حكومة عقدت هدنة مع الحلفاء، وكان من أهم شروطها: استسلام الإيطاليين بدون قيد أو شرط، وتوقف قواتهم البرية عن القتال، وتسليمهم أسطولهم البحري والجوي إلى الحلفاء، وضمائم استخدام الحلفاء لجميع الموانئ والمطارات الإيطالية، وما أن عرف الألمان بخبر هذه الهدنة حتى احتلوا روما في

١ - المصدر نفسه، ص ٦٨٧.

٢ - المصدر نفسه، ص ٦٩٢.

١٠ أيلول ، وسيطروا على جميع مرافق البلاد، ولاسيما في الشمال، ففر المارشال بادوليو، ورجال الحكومة إلى مراكز الحلفاء، وأعلنوا الحرب على ألمانيا، واستطاعت قوات الحلفاء المتمثلة بالقوات الأمريكية والبريطانية من طرد الألمان من إيطاليا نهائياً بعد توقيع هدنة في ٢٩ نيسان من العام ١٩٤٥، إذ سلم بمقتضاها الألمان أنفسهم والقوا بأسلحتهم دون قيد أو شرط، وتوقفوا عن القتال في الثاني من أيار^١.

تاسعاً: نهاية الحرب:

لقد قامت القوات الأمريكية والبريطانية بفتح الجبهة الغربية لتحرير الدول التي احتلتها ألمانيا في حروبهم الخاطفة في ربيع العام ١٩٤٠، ولنقل ميدان القتال إلى عقر دارهم ذاتها، فعين الجنرال أيزنهاور في كانون الأول من العام ١٩٤٣، قائداً أعلى لقوات الحلفاء، وعين الجنرال مونتجمري قائداً للجيش البريطاني التي تحت إمرة أيزنهاور، وبدأ هجوم الحلفاء في صباح ٦ حزيران من العام ١٩٤٤، حينما أخذوا يتولون قواهم على الساحل الشمالي الفرنسي (ساحل النورماندي) بين شيربورج، والهافر، وكان الحلفاء يسيطرون على البحر والجو. وقد مكنتهم تفوقهم الجوي من تدمير مواصلات العدو وموارده، ومكنتهم تفوقهم البحري من إرسال العتاد، والمتونة، والإمداد، إلى قواهم المهاجمة دون عناء كبير، واستطاعت القوات الأمريكية تحرير المدن الفرنسية ابتداءً من الساحل الشمالي، ونزولاً إلى المدن الأخرى حتى تم تحرير باريس، وطاردوا الألمان، وتم تحرير هولندا، وبلجيكا، وجنوب فرنسا، وفي منتصف شهر أيلول تم تحرير معظم أراضي فرنسا، وانتقلت قوات الحلفاء السوفيتية والغربية إلى داخل ألمانيا حتى تم تحريرها في ٨ أيار من العام ١٩٤٥، وكانت القوات السوفيتية قد حررت ودخلت أراضي دول شرق أوروبا بعد أن تم طرد الألمان منها حتى دخلت برلين التي دخلها الحلفاء الغربيين، والسوفيت، وفي السابع من أيار، وقع الجنرال يودل رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية وثيقة استسلام دون قيد أو شرط^٢، وعلى الرغم من انتهاء الحرب على الجبهة الأوروبية في أيار من العام ١٩٤٥، إلا أنها لم تنته مع اليابان إلا في آب من العام ١٩٤٥، وذلك حين أُلقت الولايات المتحدة قنبلتين ذريتين عليها، الأولى على هيروشيما في ٦ آب، والأخرى على نكازاكي في ٩ آب، فانتهت الحرب بعد استسلام اليابان في ١٤ آب من العام ١٩٤٥ .

١ - المصدر نفسه، ص ٧٠٠.

٢ - المصدر نفسه، ص ٧٠٤-٧١٠.

المبحث الثالث

نتائج الحرب

تم في نهاية تموز من العام ١٩٤٥، تقسيم ألمانيا إلى قسمين، قسم يحتله السوفيت، وتقع فيه العاصمة برلين التي قسمت بدورها إلى قسمين، قسم شرقي يحتله السوفيت، وقسم غربي تحتله الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وعلى الرغم من أن مؤتمر بوتسدام، لم يقرر شيئاً تجاه اقتطاع بعض أجزاء ألمانيا بشكل نهائي، إلا أنه مع هذا المؤتمر بدأت الدول المتاحمة لألمانيا تطالب بتعديل حدودها مع هذه الدولة المغلوبة على أمرها، ففضلاً عن مطالب الاتحاد السوفيتي، وبولندية، في الأراضي الألمانية، أخذت الدول المجاورة بالمطالبة بتعديل حدودها أيضاً معها:

● الدانمارك طالبت بضمانة حقوق الأقليات في شلنفيك.
● هولندا طالبت بجزيرة بوركوم، وبعض الأحواض البترولية، ومناجم الحديد القريبة من اكس لاشايل، أي بمساحة قدرها ١٧٥٠ كم مربع يسكنها نحو ١٢٠ ألف نسمة.

● وطالبت بلجيكا بتصحيح حدودها مع ألمانيا وكذلك لوكسمبورغ.
● وطالبت جيكوسلوفاكيا بإقليم السوديت، وحققت مطلبها بعد أن طردت السكان الألمان منها.

أما فرنسا فضلاً عن مشاركتها في الاحتلال المؤقت لألمانيا فقد طالبت بعدة أمور منها:

١. فصل رينانيا اليسرى فصلاً نهائياً عن ألمانيا، ووضعها تحت إشراف دولي تشارك فيه فرنسا، وبريطانيا، وبلجيكا، وهولندا، واللوكسمبورغ.
٢. تقسيم ما تبقى من رينانيا، إلى عدة مناطق تتمتع بالحكم الذاتي بشكل تدريجي.
٣. فصل منطقة الرور نهائياً عن ألمانيا، ووضعها تحت نظام دولي.
٤. فصل السار عن ألمانيا، وتوحيدها اقتصادياً مع فرنسا.

وقد لقي المطلب الأخير تأييداً مباشراً وسريعاً من قبل الانكلوسكسون، وقد ظهر ذلك بوضوح عن طريق الخطاب الذي ألقاه بيفن أمام مجلس العموم البريطاني في ٤ حزيران من العام ١٩٤٦، عبر فيه عن تأييده لسياسة فرنسا تجاه السار. وقد أيدته وزير خارجية الولايات المتحدة، ولذلك بعد أن أطمأنت فرنسا إلى تأييد الانكلوسكسون

لمطلبها في السار عملت في ٢٢ كانون الأول من العام ١٩٤٦، إلى عزها عن باقي المنطقة التي وضعت تحت احتلالها العسكري المؤقت، وإلى فرض نظام جمركي خاص بها، إذ أن تقسيم ألمانيا إلى أربع مناطق احتلال لم يكن إلا حلاً مؤقتاً. أما الحل النهائي فلقد عدّ من أهم القضايا التي خلفتها الحرب تعقيداً، إذ كان من الصعب الاتفاق عليه بين الحلفاء، وهم حلفاء بالفعل في مرحلة الحرب، وأخذت الصعوبة تزداد مع بداية الخلاف بين الحلفاء، وتطوره إلى عدااء تجلّى بانقسام العالم إلى معسكرين^١.

وفي خلال هذه المرحلة حاولت الدول الأربع الكبرى إيجاد الحل النهائي للقضية الألمانية، وتوقيع معاهدة صلح معها، إلا أن جميع الجهود التي بذلت، والاجتماعات التي عقدت باءت بالفشل، فالقضية الأولى التي باعدت في وجهات النظر بين الدول الأربع كانت قضية الإدارة المركزية، إذ أن الولايات المتحدة كانت تصر على إيجاد إدارة مركزية، لكل ألمانيا، وشاركت الولايات المتحدة في بادئ الأمر في وجهة نظرها كل من بريطانيا، والاتحاد السوفيتي. أما فرنسا فقد عارضت بشدة هذا الاقتراح، وأعلنت عن ذلك بشكل رسمي في كانون الأول من العام ١٩٤٥، وتطبيقاً لمقررات مؤتمر بوتسدام دعي وزراء خارجية الدول الأربع في اجتماع عقد في تموز من العام ١٩٤٦، تناول البحث في القضية الألمانية بتفاصيلها، فعرض مولوتوف، خلال هذا المؤتمر وجهة النظر السوفيتية حول توحيد ألمانيا، وأعلن أن بلاده تؤيد وجهة النظر الأمريكية في إيجاد الإدارة المركزية، وفي اليوم الذي ختم فيه المؤتمر جلساته في ١٢ تموز، أعلن مولوتوف بان بلاده تعارض المطالب الفرنسية في منطقة السار، وما يجدر توضيحه في الموقف السوفيتي، هو أن الوزير السوفيتي، وأن كان قد أيد الإدارة المركزية الألمانية سياسياً، إلا أنه عارض الوجه الاقتصادي لهذه الإدارة، ولذلك فإن موقفه التقى في جانب منه مع الموقف الانكلوسكسوني، وفي الجانب الآخر مع الموقف الفرنسي الراض لأية إدارة مركزية سياسية كانت أم اقتصادية، ونتيجة لهذا التباين في وجهات النظر حول الإدارة المركزية لألمانيا عمد الانكلوسكسون إلى توحيد المنطقتين الانكليزية والأميركية ابتداءً من أول تشرين الأول من العام ١٩٤٦.

إن فشل المؤتمرين في الاتفاق حول الإدارة المركزية لألمانيا، لم يمنعهم من عقد مؤتمرات أخرى، عقدت بين نيويورك في تشرين الثاني من العام ١٩٤٦، وبين موسكو

^١ - د. رياض الصمد، العلاقات الدولية في القرن العشرين، الجزء الثاني، مصدر سبق ذكره، ص ٧٧.

في ١٠ آذار من العام ١٩٤٧، وأن هذه المؤتمرات لم تكن أفضل حظاً من سابقتها بالنسبة لهذا الموضوع^١.

أما بالنسبة لقضية التعويضات فقد تقرر بان تقتطع من الجاهز الصناعي، وبواسطة فك المعامل، وبان يكون للاتحاد السوفيتي ٥٠% من القيمة الإجمالية على أن يحصل على ٤٥% من المنطقة الخاضعة لاحتلاله، وعلى ٥% من المناطق الأخرى^٢.

أما بالنسبة لفرنسا فقد حاولت الحصول على حصتها من التعويضات، وذلك بشكل دقيق، وكاد أن يتم ذلك بدون أية مشكلات لولا توقف بريطانيا عن تصدير الفحم الحجري إلى فرنسا مما دفع بفرنسا إلى المطالبة برفع قيمة حصتها من فحم الرور، فرفضت الولايات المتحدة الإذعان للطلب الفرنسي، وبقيت تلك القضية معلقة حتى كان حلها في مؤتمر موسكو المنعقد في ١٠ آذار من العام ١٩٤٧، إذا كان الأمريكيون والانكليز قد قررا توحيد منطقتيهما اقتصادياً، ابتداء من أول كانون الثاني من العام ١٩٤٧، في حين احتفظت فرنسا بمنطقتها بعد أن سلخت عنها منطقة السار، ووضعت برلين تحت نظام مبني على الاحتلال الرباعي، فإن الاتحاد السوفيتي من جهته كان قد وضع يده على بروسيا الشرقية، وأسرع في تطبيق النظام الاشتراكي فيها، وكذلك سارعت بولندا بالاتفاق مع الاتحاد السوفيتي إلى ضم القسم المتبقي من بروسيا الشرقية، ونتيجة لهذه الممارسات تحول المشروع المؤقت إلى حل دائم، وأخذت تبرز معالم دولتين المانيتين، الأولى خاضعة للنفوذ الأمريكي، وتسمى ألمانيا الغربية والثانية خاضعة للنفوذ السوفيتي وتسمى ألمانيا الشرقية^٣.

معاهدة الصلح مع إيطاليا:

تضمنت معاهدة الصلح مع إيطاليا أحكاماً مختلفة، تعلق البعض منها بقضايا التسليح، والبعض الآخر بالتعويضات، والتنازلات الإقليمية، فبالنسبة للبنود التي تعلقت بالتنازلات الأرضية، أجرت إيطاليا بموجبها على إجراء العديد من التعديلات على جيرانها:

• تنازلت إيطاليا لفرنسا عن منطقة تقدر مساحتها بـ ٥٥٠ كم مربع، وعدد سكانها ٥٥٠٠ نسمة وتمت عملية الضم استناداً إلى حق تقرير المصير، حيث اجري

١ - المصدر نفسه، ص ٧٩-٨٠.

٢ - المصدر نفسه، ص ٨٠.

٣ - المصدر نفسه، ص ٨١.

الاستفتاء بين سكان هذه المنطقة في تشرين الأول من العام ١٩٤٧، وكانت حصيلة الاستفتاء ٩١% لمصلحة فرنسا.

• تنازلت إيطاليا إلى اليونان عن جزيرة رودس، وجزر الدودكانيز، أما بالنسبة للمستعمرات الإيطالية، فلم يتفق عليها، وإنما تقرر أن تعرض قضيتها على الأمم المتحدة بعد سنة من تاريخ تنفيذ معاهدة الصلح، وذلك باستثناء ألبانيا، والحبشة اللتان حصلتا على استقلالهما فوراً، فضلاً عن سلخ بعض الأراضي عن إيطاليا، وحرمانها من مستعمراتها فقد تضمنت معاهدة الصلح مع إيطاليا بنود تتعلق بتجريد إيطاليا من السلاح، وتحديد جيوشها البرية، والبحرية، والجوية. كما أنها تضمنت من جهة أخرى بنوداً تتعلق بالتعويضات المفروضة على إيطاليا لمصلحة الحلفاء، ونشر في هذا المجال إلى أن إيطاليا لم تستمر في دفع التعويضات لمدة طويلة بل توقفت بسرعة، وذلك بسبب الحرب الباردة، وانضمام إيطاليا إلى المعسكر الغربي^١.

معاهدة الصلح مع رومانيا:

■ حرمت معاهدة الصلح رومانيا من بسارابيا، وشمال بوكوفينا، إلا أنها أعادت إليها كل ترانسلفانيا على حساب هنغاريا.

■ تنازلت رومانيا عن الدوبردجا الجنوبية لبلغاريا، وبذلك لم يبق لها سوى منفذ صغير على البحر.

■ أما من حيث البنود العسكرية، فلقد تضمنت المعاهدة تحديد الجيش الروماني ١٢٠ ألف جندي، وأسطولها بخمسة آلاف جندي بما في ذلك سلاح المدفعية المضاد للطائرات، أما بالنسبة للتعويضات فقد نصت المعاهدة على دفع مبلغ ٣٠٠ مليون دولار إلى الاتحاد السوفيتي، كما نصت المعاهدة أيضاً على امتلاك الاتحاد السوفيتي لجميع رؤوس الأموال الألمانية في رومانيا، وإلى جانب ذلك فقد تضمنت المعاهدة بنوداً يفرض على رومانيا تأمين الحريات السياسية، وصيانة حقوق الإنسان، وجميع الأشخاص. كما تضمنت المعاهدة بنوداً آخر ينص على وجوب انسحاب القوات الحليفة من رومانيا خلال ٩٠ يوماً باستثناء الاتحاد السوفيتي الذي احتفظ لنفسه بحق بقاء بعض قواته العسكرية للحفاظ على خطوط مواصلاته مع قواته الموجودة في منطقة الاحتلال السوفيتية في النمسا^٢.

^١ - المصدر نفسه، ص ٨٢-٨٣.

^٢ - المصدر نفسه، ص ٨٤.

معاهدة الصلح مع بلغاريا:

عندما بدأت بلغاريا الحرب كانت إلى جانب ألمانيا، إلا أنها بعد أن وقعت الهدنة مع الاتحاد السوفيتي، وبريطانيا، والولايات المتحدة انقلبت على ألمانيا، وشاركت في الحرب إلى جانب الحلفاء، ومعاهدة الصلح مع بلغاريا إذا كانت قد حولتها الاحتفاظ بجنوب الدوبردجا على حساب رومانيا، إلا أنها حرمتها من تحقيق أطماعها في شواطئ بحر إيجه، وتراقيا الغربية. كما حددت بنود المعاهدة عدد الجيش البلغاري، ومنعت بلغاريا من القيام بأية تحصينات دائمة على حدودها الواقعة شمال اليونان، وقررت المعاهدة بأن تدفع بلغاريا تعويضات إلى اليونان، ويوغسلافيا^١.

معاهدة الصلح مع هنغاريا:

رغم أن حكومة موالية للسوفيت كانت قد شكلت في ٢٢ كانون الأول من العام ١٩٤٤، في الأراضي التي احتلتها الجيوش السوفيتية، إلا أن اتفاقية الهدنة لم توقع بين الحلفاء وهنغاريا، إلا في ٢٠ كانون الثاني من العام ١٩٤٥، وكانت هذه المعاهدة مجحفة بحق هنغاريا أكثر من معاهدة الصلح التي وقعتها اثر الحرب العالمية الأولى، وتضمنت: -

١. التنازل عن روستينا الواقعة جنوب جبال الكاربات.

٢. التنازل عن القسم الجنوبي من سلوفاكيا إلى جيكوسلوفاكيا، وكذلك عن بعض القوى القريبة من الحدود النمساوية.

٣. التنازل عن ترانسلفانيا لرومانيا.

وتم نزع سلاحها وتحديد عدد جيشها. أما فيما يتعلق بالتعويضات فحددتها المعاهدة بـ ٣٠٠ مليون دولار تدفع إلى الاتحاد السوفيتي، وجيكوسلوفاكيا، ويوغسلافيا^٢.

معاهدة الصلح مع فنلندا:

مع أن الاتحاد السوفيتي كان قد فرض على فنلندا اتفاقية موسكو لعام ١٩٤٠، إلا أنه وبسبب تغير الأوضاع الدولية من جهة، ودخول الاتحاد السوفيتي الحرب إلى جانب الحلفاء، ومشايعة فنلندا لألمانيا من جهة ثانية، عادت الدول الحليفة، وفرضت على فنلندا معاهدة صلح جديدة كانت شروطها أقسى بكثير من تلك التي

١ - المصدر نفسه، ص ٨٥.

٢ - المصدر نفسه، ص ٨٦.

أنت عليها معاهدة موسكو المذكورة آنفاً، ففيما يتعلق بالتنازلات الأرضية أعطت المعاهدة الجديدة للاتحاد السوفيتي المناطق التالية:-

١. جزء كبير من شمال البلاد بحيث قطع اتصالها بالمحيط المنجمد الشمالي، وجعل للاتحاد السوفيتي حدوداً مع النرويج.
 ٢. القسم الجنوبي الشرقي للأراضي الواقعة إلى شمال بحيرة لادوغا بما في ذلك فيبورغ.
 ٣. جزيرة يوركالا، وشريطاً على خليج فنلندا حتى ١٣ كم من العاصمة هلسنكي مقابل إيجار حدده الاتحاد السوفيتي بـ ٥ ملايين مارك فنلندي، فضلاً عن تحديد عدد جيشها، ونصت المعاهدة على تجريد جزر الآند من السلاح. كما أنها من جهة ثانية فرضت على فنلندا دفع تعويضات للاتحاد السوفيتي^١.
- معاهدة الصلح مع اليابان:

تم استسلام اليابان في ٢ أيلول من العام ١٩٤٥، بدون قيد أو شرط، وتم إنشاء لجنة الشرق الأقصى التي تضم ممثلي الحلفاء، وإنشاء مجلس اليابان، وتضم ممثلين عن السوفيت، والصين، وممثل مشترك عن بريطانيا، وأستراليا، ونيوزيلندا، والهند، برئاسة المندوب الأمريكي ماك آرثر. وقد تم تنفيذ مقررات المؤتمرات السابقة، هي:-

مؤتمر القاهرة:

١. استرجاع الصين لمنطقة منشوريا، وجزر فرموزا.
 ٢. إعطاء كوريا استقلالها.
- أما مؤتمر يالطا فقد أقر:
١. استرجاع الاتحاد السوفيتي للقسم الجنوبي من سخالين.
 ٢. استعادة القاعدة البحرية بور آرثر.
 ٣. تدويل الميناء التجاري ديران.
 ٤. المحافظة على الوضع الراهن في منغوليا.
 ٥. ضم الاتحاد السوفيتي لجزر الكوريل.
 ٦. وضع الخطوط الحديدية لمنشوريا الجنوبية، والصين الشرقية بإدارة شركة سوفيتية-صينية، وذلك لتأمين منفذ للموانئ السوفيتية.

^١ - المصدر نفسه، ص ٥٧.

٧. أقر مؤتمر يالطا سلخ جميع المناطق التي احتلتها الجيوش اليابانية في الحرب العالمية الأولى، والتي انتدبت من قبل عصبة الأمم، وأهم هذه المناطق جزر ماريان، ومارشال وكارولين^١.

القضايا الأوربية غير المتعلقة بالدول المهزومة:
بولندا:

بموجب المعاهدة الموقعة بين الاتحاد السوفيتي، وبولندا في ١٧ آب من العام ١٩٤٥، فقد تم تحديد الحدود الشرقية لبولندا بخط كورزون، أي بمعنى تنازلت بولندا عن جميع أراضيها في أوكرانيا، وروسيا البيضاء، وقسمت بروسيا الشرقية بين الدولتين، حيث نال الاتحاد السوفيتي القسم الشمالي منها مع كونيغسبرغ التي أصبحت كالينغراد، في حين نالت بولندا القسم الجنوبي منها. أما بالنسبة للحدود الغربية لبولندا فقد حددت بخط الادودرنيس، أي أما ضمت جميع الأراضي الألمانية إلى شرقي هذا الخط، وبذلك حصلت بولندا نحو ٤٠٠ كم مربع من جهة البلطيق مع الأشراف على أفواه الاودروالفيستول، ولكن على الرغم من ضم بولندا لهذه الأراضي الألمانية التي عدّها الانكلوسكسون ضمّاً مؤقتاً فإن مساحة بولندا لم تبلغ المساحة التي كانت لها مع بدء الحرب العالمية الثانية، إذ أن مساحتها تقلصت من ٣٨٨ ألف كم مربع إلى ٣٠١ ألف كم مربع^٢.
جيكوسلوفاكيا:

عقدت جيكوسلوفاكيا بعد تحريرها من الألمان معاهدة مع الاتحاد السوفيتي تنازلت بموجبها عن المنطقة السوفيتية الواقعة جنوب جبال الكربات، وذلك في ٢٩ حزيران من العام ١٩٤٥^٣.

١ - المصدر نفسه، ص ١١٦-١١٩.

٢ - المصدر نفسه، ص ٨٩.

٣ - المصدر نفسه، ص ٩٢.

المبحث الرابع

المؤتمرات الدولية خلال

الحرب العالمية الثانية

أولاً: - ميثاق الأطلسي ١٩٤١:

بعد الهجوم الألماني على الاتحاد السوفيتي شعرت الولايات المتحدة بأنه لا بد من إعادة النظر في موقفها، وموقف بريطانيا من الاتحاد السوفيتي، فتم عقد اجتماع بين الرئيس الأمريكي روزفلت، ورئيس الوزراء البريطاني تشرشل في ١٤ آب من العام ١٩٤١، على ظهر المدرعة الانكليزية أمير ويلز، ونتج عن هذا الاجتماع التوقيع على ميثاق الأطلسي الذي تضمن ثمان نقاط، أهمها تعهد الدولتين إحداهما لا تسعيان إلى التوسع الإقليمي، وأحداهما لا يرغبان في حدوث تغييرات إقليمية لا تتفق مع الرغبات الحرة للشعوب، وأحداهما تحترمان حق الشعوب في اختيار حكوماتها، ويرغبان في إنشاء نظام عالمي للتعاون الاقتصادي، ونظام عالمي للسلم يحقق الأمن لجميع الأمم داخل حدودها، وتضمن الميثاق تقديم العون المادي للإتحاد السوفيتي لكي يتمكن من الصمود في وجه الزحف النازي، وكان من نتيجة ذلك أن أنضم الاتحاد السوفيتي إلى هذا الميثاق مع بقية الدول الحليفة في ٢٤ أيلول من العام ١٩٤١.^١

ثانياً: - مؤتمر واشنطن، وتصريح الأمم المتحدة:

بعد أن أقدمت اليابان على تدمير الأسطول الأميركي في بيرل هاربر في ٧ كانون الأول من العام ١٩٤١، نشطت الدبلوماسية الأمريكية بهدف توحيد الخطوط مع الدول الحليفة، فكان اللقاء في واشنطن بين تشرشل، وروزفلت في ٢٢ كانون الأول من العام ١٩٤١، والذي أسترحت حتى ١٤ كانون الثاني من العام ١٩٤٢، وحضر بعض الاجتماعات السفير السوفيتي في واشنطن، وتركز البحث في هذا الاجتماع في إيجاد أسس للتعاون بين الحلفاء، وتحديد الجبهة التي يتركز عليها القتال، وصدر عن الاجتماع بعض المقررات العسكرية، وأبرزها تقسيم العالم إلى منطقتي عمليات تخضع كل منها إلى قيادة حليفة، وتكون السلطة العليا (أركان مشتركة)، ويكون مركزها في واشنطن، وتقرر على أنه لا يمكن للحلفاء أن يفتحوا جبهة حربية في أوروبا الغربية أولاً بعد أن يجهدوا لذلك بعملية إنزال في إفريقيا الشمالية الفرنسية، وأهم ما صدر عن اجتماعات واشنطن توقيع تصريح الأمم المتحدة في اليوم الأول من العام ١٩٤٢، من قبل ٢٦ أمة، وتضمن هذا التصريح فضلاً عن المبادئ التي نص عليها

١ - د. رياض الصمد، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٧.

ثالثة في البلقان، واتى هذا الرفض بعد أن عارضه روزفلت وندد به ستالين بشدة الذي أعلن بأن الهجوم يجب أن يذهب مباشرة، وعلى خط مستقيم إلى برلين، وأن السبب الحقيقي الذي دعا ستالين إلى رفض المشروع البريطاني هو رغبته بان تحصل الجيوش السوفيتية لوحدها بلاد البلقان، وكذلك ناقش المؤتمر قضايا الحرب في الشرق الأقصى، وموافقة ستالين على أمداد الانكلوسكسون بالمعلومات العسكرية فيما يخص الحرب الدائرة في الشرق الأقصى دون أن يعلن الحرب على اليابان، وكذلك مناقشة الأوضاع التي ستؤول إليها ألمانيا بعد الحرب، ودرس الاقتراحات المتعددة حول إمكانية تجزئتها، وكذلك مناقشة إمكانية إنشاء منظمة دولية جديدة، وتركيز روزفلت في ذلك^١.

إن هذا المؤتمر كان مهماً، وأن كانت النتائج الملموسة التي أحرزها في الميدان العسكري اقل أهمية من الجو الجديد الذي كونه على ما يبدو^٢.
خامساً: مؤتمر يالطا ٤-١١ شباط عام ١٩٤٥:

شارك في هذا المؤتمر الرؤساء روزفلت، وتشرشل، وستالين وكانت الحرب تتجه نحو النصر لمصلحة الحلفاء، وناقش الزعماء القضايا الآتية:

١. قضية الأمم المتحدة، وكيفية التصويت في مجلس الأمن
٢. قضية تقسيم ألمانيا بين الحلفاء، ونصيب فرنسا منه.
٣. قضية الحدود البولندية مع الاتحاد السوفيتي، فبالنسبة لحدود بولندا مع الاتحاد السوفيتي أيد روزفلت الزعيم السوفيتي ستالين في جعل خط كورزن الحد الفاصل بين الاتحاد السوفيتي، وبولندا على أن يعرض على بولندا بعض الأراضي التي كانت تابعة لألمانيا، وأقر ذلك رغم معارضة تشرشل، ومحاولته جعل الحدود البولندية تمتد إلى أبعد من خط كورزن بكثير.

٤. قضية إعلان الاتحاد السوفيتي الحرب على اليابان. وقد فرض الاتحاد السوفيتي شرطان في ذلك هما: الأشراف على الخطوط الحديدية في منشوريا، واسترجاع قاعد بور آرثر، واسترجاع القسم الجنوبي من سخالين، وأرخييل كوريل^٣.

وبعد البعض أن مؤتمر يالطا مقدمة لتقسيم العالم بين مصالح الدول الكبرى قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية، وكان مقدمة لوضع تصور خارطة للعالم لما بعد الحرب، وكان من أهم أهداف المؤتمر تدمير القوة العسكرية الألمانية بشكل يجعل الدول الكبرى

١ - د.رياض الصمد، الجزء الثاني، مصدر سبق ذكره، ص٤٧، وكذلك د.محمد السيد سليم، مصدر سبق ذكره، ص٤٦٩.

٢ - ج.ب.دوروزيل،(التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، الجزء الاول، مصدر سبق ذكره، ص٤٦٨.

٣ - د.رياض الصمد، الجزء الثاني، مصدر سبق ذكره، ص٥٤.

الميثاق الأطلسي، إذ تعهدت الأمم المتحدة باستعمال كل طاقتها المادية والمعنوية، بعدم توقيع هدنة أو صلح منفرد مع دول المحور^١.

ثالثاً: مؤتمر وزراء الخارجية في موسكو العام ١٩٤٣:

في ١٩ تشرين الثاني من العام ١٩٤٣، انعقد هذا المؤتمر بعد الانتصار السوفيتي على الألمان في معركة ستالينغراد، وانتصار الحلفاء على قوات المحور في العلمين في مصر، وأدى ذلك إلى شعور الحلفاء بالثقة في تحقيق النصر، وشرعوا في رسم مستقبل السياسة الدولية بعد الحرب. فقد اجتمع وزراء خارجية الولايات المتحدة، وبريطانيا، والاتحاد السوفيتي في موسكو، وقرروا تأليف لجنة استشارية أوربية تجتمع في لندن عند اقتراب انهيار النظام النازي بين الحلفاء، وجرى في جو ودي، ومع هذا فإنه لم يوضح نقطة أساسية، وهي معرفة الحل الذي يجب إيجاده بعد الحرب للمشكلات الأوربية. ولقد عدّ مؤتمر موسكو من أهم المؤتمرات التي عقدت خلال الحرب العالمية الثانية لكونه ضم لأول مرة ممثلين عن حكومات الدول الحليفة الكبرى، وأسفر الاجتماع عن إصدار إعلان مشترك يتضمن المبادئ التي يجب أن تحكم السياسة الدولية بعد انتهاء الحرب، وأهمها إنشاء منظمة عالمية للمحافظة على السلم والأمن الدوليين، وتعهد الدول الموافقة بعدم استعمال قواتها الموجودة في أقاليم الدول الأخرى بعد نهاية الحرب إلا بعد استشارة الدول الأخرى الموافقة على التصريح، وكان في ذلك إشارة ضمنية إلى توسع القوات السوفيتية في أوربا الشرقية بعد أن بدأت القوات الألمانية تتراجع، وتبعها القوات السوفيتية، وكان أهم مقررات المؤتمر ما يلي:

دعوة الرؤساء الثلاثة روزفلت، وتشرشل، وستالين إلى اجتماع قريب يعقد في طهران^٢.
رابعاً: مؤتمر طهران العام ١٩٤٣:

حضر المؤتمر الرؤساء روزفلت، وتشرشل، وستالين وانعقد في ٢٨ تشرين الثاني من العام ١٩٤٣، وامتدت المباحثات حتى بداية كانون الأول، وحضور وزراء خارجية الدول الثلاث، تداول فيه أعضاء المؤتمر أوضاع الحرب بالتفصيل، وبعده أحرر مؤتمر اتضح فيه تعاون الحلفاء ضد المحور. فقد اجل الحلفاء في هذا المؤتمر النظر في كل القضايا الخلافية إلى ما بعد انتهاء الحرب نظراً لحاجتهم إلى استمرار التعاون العسكري، وكانت أهم نتيجة لانعقاد المؤتمر هي فتح جبهة غربية ضد ألمانيا انطلاقاً من سواحل فرنسا عن طريق الإنزال في النورماندي، وكذلك رفض الاقتراح الانكليزي بفتح جبهة

١ - د.رياض الصمد، الجزء الثاني، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢، وكذلك د. محمد السيد سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٨.

٢ - د.رياض الصمد، الجزء الثاني، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦، كذلك د.محمد السيد سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦٨.

متأكدة من أن ألمانيا لن تعود لخلق الاضطراب، وتهديد العالم، وتم الاتفاق على عقد مؤتمر هيئة الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة لوضع ميثاق المنظمة على الأسس التي اعتمدت في مؤتمر ديمبارتن اكس^١.
سادساً: مؤتمر بوتسدام تموز العام ١٩٤٥:

عقد في ١٧ تموز من العام ١٩٤٥، ويعدّ من أهم المؤتمرات التي عقدت خلال الحرب العالمية الثانية، وذلك يعود لعدة أسباب:
١. لأنه أنعقد بين تاريخي استسلام ألمانيا واليابان.
٢. لأنه كان آخر مؤتمر جمع زعماء الدول الحليفة الثلاث، وذلك رغم التبدل في رئاسة الولايات المتحدة، وبريطانيا فترومان مثل الولايات المتحدة بعد وفاة روزفلت، واتلي مثل بريطانيا بعد خروج تشرشل.
٣. للنتائج المهمة التي نتجت عنه، وخاصة فيما يتعلق بأوروبا^٢.

إن غاية هذا المؤتمر هو تحقيق مقررات مؤتمر يالطا حول ألمانيا، والتي نصت على تجريدتها عسكرياً، والقضاء على النازية نهائياً، وتقرر أن يتعاون الحلفاء من اليوم، وفي المستقبل لا تتخذ إجراءات فعالة لا تسمح لها أن تهدد ألمانيا جاراتها أو تهدد السلام العالمي في المستقبل، واستناداً للاتفاق حول آلية الإشراف على ألمانيا، فإن السلطة العليا في هذه الدولة يمارسها، بالتنسيق مع دولهم قادة القوات المسلحة للاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، على أن يشرف كل واحد على المنطقة التي يمثلها، ثم التعاون فيما بينهم جميعاً لحل المشكلات العامة بكل ألمانيا على أنهم أعضاء في لجنة الأشراف.

أهداف الحلفاء:

هنالك أهداف سعى الحلفاء لتحقيقها، وهي:

١. تجريد ألمانيا تجريداً تاماً من كل سلاح، وتسريح كل جيوشها، والأشراف على المصانع لمنعها من وضع أي إنتاج حربي، ولتحقيق هذه الأهداف يجب،
أ- تسريح كل قوات الجيش الألماني البرية، والجوية، والبحرية.
ب- حل الفوستابو مع كل فروعه، ومنظّماته، وخلاياه.
ت- القضاء على النازية وقوانينها واعتقال مجرمي الحرب الذين شاركوا في تحقيق انتشار النازية أو في جرائم الحرب، ثم تقديمهم إلى المحاكمة.

^١ - روبرت بينتزل، مقررات مؤتمرات طهران- يالطا- بوتسدام، ترجمة: عبد الرحمن دهيني، مراجعة محمد الحجري، منشورات الفخرية بالرياض، بالاشتراك مع دار الكاتب العربي، بيروت، بلا تاريخ، ص ٦٣-٧٧، و ص ١١٢، وكذلك ص ١١٤-١١٥.

^٢ - د. رياض الصمد، الجزء الثاني، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥-٥٦.

ث- يجب تشكيل حكومة محلية ذاتية لكل ألمانيا على المبادئ الديمقراطية، وعلى أساس انتخاب لجان بالسرعة التي تناسب، والأمن العسكري، وعلى ضوء أهداف الاحتلال.

ج- يجب تشجيع كل الأحزاب الديمقراطية السياسية، وإعطائها حق الاجتماع، وحق النقاش، والسماح لها بالعمل في كل ألمانيا.

٢- قرر المؤتمر أن تتحمل ألمانيا مسئولية دفع التعويضات عن كل الخسائر، والإضرار التي لحقت بدول العالم الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة^١.

وفي المؤتمر، اقترح الوفد الأمريكي إنشاء مجلس لوزراء خارجية يعقد جلسته الأولى في لندن في أيلول من العام ١٩٤٥، ويكون مؤلفاً من وزراء خارجية الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، والاتحاد السوفيتي، والصين، وتتلخص مهمته الأساسية بتحضير معاهدات السلام مع الدول التابعة لألمانيا وإيطاليا، ورومانيا، وبلغاريا، وهنغاريا، وفنلندا، واقتراح التسوية الأساسية للقضايا المعلقة. أما معاهدة السلام مع ألمانيا، فسيتم تحضيرها لاحقاً وتقرر حل اللجنة الاستشارية الأوروبية^٢.
سابعاً: موقف فرنسا من المؤتمرات الدولية:

في الوقت الذي كانت تعقد فيه المؤتمرات دون فرنسا، ولاسيما بين الدول الثلاث الولايات المتحدة، وبريطانيا، والاتحاد السوفيتي، وكانت المساعي الانكلوسكسونية تبذل من اجل توحيد القوات الفرنسية المعارضة لحكومة فيشي الموالية للألمان، أي بين قوات الجنرال ديغول التي اتخذت مركزاً لها في لندن، وقوات الجنرال جيرو التي اتخذت من الجزائر مركزاً لها، وبضغوط من تشرشل، وروزفلت وافق ديغول على التفاوض مع جيرو، والتي أدت بالنتيجة إلى التوصل إلى اتفاق بين القائدين الفرنسيين على إنشاء لجنة التحرير الوطني الفرنسية، حيث يكون مقرها في الجزائر، وكانت اللجنة بقيادة الجنرالين، ولكن بسبب استمرار الخلافات بينهما قدم الجنرال جيرو استقالته، وأصبح الجنرال ديغول على قيادة لجنة التحرير الوطني الفرنسية التي تحولت إلى حكومة مؤقتة للجمهورية الفرنسية في ٣ حزيران من العام ١٩٤٢، وعلى اثر تحرير باريس أصبح ديغول رئيس الحكومة الفرنسية بعد التحرير، واعترفت بها الولايات المتحدة، وبريطانيا، والاتحاد السوفيتي، ولما عقد مؤتمر يالطا لم تدع إليه فرنسا، ولكن وجهت دعوة لديغول من روزفلت للاجتماع به في الجزائر مما دعا ديغول إلى رفض هذه الدعوة، وكان ذلك من بين الأسباب التي أدت إلى تدهور العلاقات الفرنسية- الأميركية بعد قيام الجمهورية الخامسة بزعامة الجنرال ديغول^٣

^١ - روبرت بينتزل، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٧-٢٦١.

^٢ - ج.ب.دوروزيل، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٨-٥٠٩.

^٣ - د.رياض الصمد، الجزء الثاني، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩-٥٠، وكذلك انظر الصفحات، ٥٤-٥٥.

الفصل التاسع:

تطورات الحرب الباردة

- المبحث الأول:

مفهم وبداية الحرب الباردة وتطورها حتى العام ١٩٥٠.

- المبحث الثاني:

تطورات الحرب الباردة ١٩٥٠-١٩٦٢.

- المبحث الثالث:

تطور الحرب الباردة من العام ١٩٦٢ حتى الـوفاق.

الفصل التاسع

تطورات الحرب الباردة

المبحث الأول

مفهوم الحرب الباردة وتطورها حتى العام ١٩٥٠

أولاً: المفهوم:

(الحرب الباردة) هي نزاع تتحاشى فيه الأطراف ذات العلاقة اللجوء إلى استعمال السلاح الواحد ضد الآخر، وغالباً ما يستعمل هذا المصطلح للدلالة على المواجهة بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي^١.

إن ما يمكن أن نلاحظه على الحرب الباردة هي إعادة توزيع القوة العالمية التي فرضتها الحرب العالمية الثانية. فقد نمت قوة كل من الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي بشكل ليس له مثيل، وترجمة قوة كل من الدولتين من قوة هائلة كامنة في العام ١٩٣٩، إلى قوة فعلية هائلة بعد الحرب، فعالم ما بعد الحرب لم يشهد مشاركتها الفعالة في الشؤون العالمية فقط، إنما شهد احتكارهن المشترك لتقرير مصير العالم. لقد حل دور هاتين الدولتين العظميين في الشؤون العالمية محل دول وإمبراطوريات كبرى زالت أو ضعفت عما كان لحقبة ما قبل الحرب، فقد انهارت ألمانيا، واليابان كقوى كبرى، وضعفت واستنزفت قدرات فرنسا، وبريطانيا، وأصبحتا دول من الدرجة الثانية.

إن أهم ما يمكن أن نلاحظه على النظام الدولي الجديد لحقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية الآتي:

١. التلاشي السريع للنظام الاستعماري، في الشرق الأوسط، وأفريقيا، وآسيا، ليحل محله عشرات من الدول الصغرى الجديدة، والتي امتازت بعدم الاستقرار، وأن هذه الدول الجديدة ثارت على النظام القديم الاستعماري، ورأت نفسها مجردة من أية قوة تحميها من تأثير القوى العظمى الجديدة.

٢. ظهور الثورة التكنولوجية والعلمية التي اخذ يرمز لها بظهور السلاح النووي الذي أصبح السلاح الأول الذي تمتلكه الدول العظمى.

١ - د. أدونيس العكرة، من الدبلوماسية إلى الإستراتيجية: أمثولات من الحرب الباردة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١، ص ٤٥.

٣. ظهور الأمم المتحدة، وهي التنظيم الدولي الجديد الذي حل محل عصبة الأمم التي فشلت في تحقيق الأمن والسلام في العالم.
٤. قيام نظام توازن القوى ثنائي القطبية القائم على امتلاك الدولتين العظميين للسلاح النووي، في حين لا تمتلك القوى الصغرى الأخرى أي تأثير في ميزان القوى.
٥. ظهور سباق التسلح بين الدولتين العظميين، فالولايات المتحدة التي بدأت بالتفوق النووي على الاتحاد السوفيتي حتى العام ١٩٤٩، ومن ثم فإن امتلاك الاتحاد السوفيتي للسلاح النووي أدى إلى قيام التوازن بينهما.
٦. برزت في حقبة الحرب الباردة ثلاثة من المفاهيم سادت السياسة الدولية، فالاتحاد السوفيتي طرح صورة مثالية لمجتمع شيوعي يخلو من الطبقات، ومن ثم فإن الناس يعيشون في الدولة عيشة متآخية، ويتحقق ذلك عن طريق الامتناع عن استخدام وسائل العنف، أما الولايات المتحدة، فإنها تطرح فكرة الديمقراطية بهدف إقامة مجتمع دولي يقوم على الانسجام والسلام، يكون فيه الفرد والجماعة ملزمين بقبالة المجتمع الإنساني بوضع حدود لحرية الدول. أما النظرية الثالثة فدعت إلى قيام عالم مناهض للاستعمار، عالم تمحي فيه الفوارق عن طريق إقامة تعاون كوني، وذلك من أجل القضاء على العوز المادي للجنس البشري، وهكذا يمكن وصف الحرب الباردة بأنها تصادم بين فلسفات مختلفة^١.
٧. كان للدعاية دوراً مهماً يمكن الاستفادة منه في الحرب الباردة، إذ لجأت كل دولة من الدول المتواجحة عن طريق وسائل الأعلام، إلى إثارة الرأي العام العالمي ضد الخصم من أجل تشويه صورته. وقد تستخدم إلى جانب ذلك بعض وسائل العنف والتخريب وإثارة المشكلات الداخلية، والقتال، والحروب الأهلية بهدف إلهاء الخصم، وإرغامه على التراجع في أمكنة أخرى أو تخفيف حدة بعض المواقف. كما أن الحرب الباردة لا تستثني أمكانية اندلاع حروب محدودة محلية تتواجه عن طريقها الدول الكبرى، وذلك بأن تتحد كل واحدة مع حليف من الدول المتحاربة بالسلاح والدعم العسكري^٢.

١ - تشارلس أو ليرتس، الحرب الباردة وما بعدها، تعريب: د. فاضل زكي محمد، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٦، ص ١٦-٢٤.

٢ - ادونيس العكرة، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦.

٨. اقتضت الحرب الباردة تطبيق سياسة الاستقطاب، فكل طرف اخذ يكسب حلفاء وأتباع، ويضمها إلى معسكره، فالولايات المتحدة أقامت مجموعة من الأتحاف العسكرية لتطويق الاتحاد السوفيتي، وبالمقابل أقام الأخير حلفه الخاص بمعسكره، والذي أطلق عليه المعسكر الشرقي لمواجهة تحدي المعسكر الغربي.

ثانياً: بداية الحرب الباردة وتطورها حتى العام ١٩٥٠:

ليس هناك تاريخ محدد لقيام الحرب الباردة، إذ اختلف المعينون في العلاقات الدولية في تحديد بداية الحرب الباردة، فالبعض من المختصين يرى بان الحرب الباردة قد بدأت فعلاً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وبالضبط اثر خطاب ونستون تشرشل في مدينة فيولتون في ولاية ميسوري في الولايات المتحدة في ٥ آذار من العام ١٩٤٦، قال فيه بأن السوفيت لا يحترمون إلا القوة، ويجب على الشعوب الناطقة باللغة الانكليزية أن تتحد لمنع أية مغامرة توسعية يقدم عليها ستالين، وبعض المؤرخين ينسبون مسؤولية تردي العلاقات إلى الرئيس ترومان الذي انتهج سياسة خلافاً لسلفه روزفلت، تقوم على معاداة الشيوعية بدافع الخوف، وعلى الثقة بقوة الولايات المتحدة المتفوقة على جميع القوى بسبب امتلاكها للسلاح الذري. كما يضع البعض مسؤولية تردي العلاقات على كاهل ستالين الذي لم يتقيد باتفاقية يالطا، وخاصة فيما يخص مبدأ الشعوب الحرة من النازية في تقرير مصيرها، وبسبب تهديده المستمر للدول المجاورة بهدف إدخالها تحت سيطرته الفعلية^١.

ومنهم من يقول أن الحرب الباردة بدأت بعد نجاح الثورة البلشفية في العام ١٩١٧، وذلك عندما رأت كل من فرنسا، وبريطانيا، والولايات المتحدة أن مصالحها السياسية، والاقتصادية، والعسكرية أصبحت مهددة، وأن كل الأوضاع الاجتماعية في كل من هذه الدول الثلاث قد أصبحت مهددة أيضاً بخطر المد الشيوعي، فعمدت إلى التدخل لضرب الثورة الروسية، والقضاء على النظام الشيوعي الجديد، ولكن بالرغم من هذه، فالواقع يشير انه إذا كانت جذور الحرب الباردة تعود إلى ذلك التاريخ، فإنها قد بدأت فعلاً، وبشكل سافر بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك عندما تفكك التحالف بين الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، والاتحاد السوفيتي بعد انهيار النظام النازي وزوال الخطر المشترك الذي كان سبباً في قيام هذا التحالف^٢.

١ - المصدر نفسه، ص ٥٠-٥١.

٢ - المصدر نفسه، ص ٥٠.

وبعد أن أشرفت الحرب على فواتها، وبعد أن بدأ الخطر النازي يخف على دول أوروبا، أخذت بوادر الشقاق تظهر في علاقات الدول الحليفة، وكان ذلك يعود إلى التباين الأيديولوجي من جهة، وإلى التباين في وجهات النظر حول استغلال نتائج الحرب العالمية الثانية، وتحقيق مكاسب من جهة أخرى، ففي شهر تشرين الأول من العام ١٩٤٤، وفي حين كان الاتحاد السوفيتي يركز موقعه في أوروبا الشرقية كان الرئيس روزفلت منهمكاً بالانتخابات الرئاسية التي أدت إلى فوزه للمرة الرابعة على التوالي، وعندما ذهب تشرشل إلى موسكو لمقابلة ستالين، دون أن يحظى بموافقة روزفلت للتفاوض باسمه وقع اتفاقاً سرياً بينه وبين الاتحاد السوفيتي يتضمن تقسيماً لمناطق النفوذ للطرفين في البلقان فكانت اليونان من نصيب بريطانيا، ورومانيا من نصيب الاتحاد السوفيتي، أما هنغاريا، ويوغسلافيا فقد اتفق الطرفان على أن يكون إشرافهما عليها متساوياً ولكن الولايات المتحدة كانت ضد سياسة مناطق النفوذ فما كان منها إلا أن بادرت إلى مساعدة حركات المعارضة ضد الانكليز في كل من اليونان، وبلجيكا، وإيطاليا، وفضلاً عن ذلك، فإن الخلاف بين الأمريكيين والسوفيت حول المسألة البولندية لم يكن من السهل تجاوزه، فساد جو من التوتر والتباين بين القوى الثلاث في الوقت الذي كانت فيه الحرب مع اليابان تهدد بتحول كبير في مجرى العام للحرب^١.

ولما عقد مؤتمر بوتسدام لم يخرج أعضائه بمقررات ايجابية إلا فيما يخص المسألة الألمانية، وبعد استسلام اليابان في ١٤ آب من العام ١٩٤٥، بدأت المفاوضات والاتفاقيات بين الحلفاء حول اقتسام مناطق النفوذ في الشرق الأقصى في جو من عدم الثقة، والتنازع المبطن أحياناً، والعلني أحياناً أخرى، وخاصة فيما يتعلق بمنشوريا، واثار الحرب الأهلية في الصين بين شان كاي شك، وماو تسي تونغ، كل ذلك كان من شأنه أن يزيد شدة الخلاف بين الحلفاء، ويزيد من ثم من رغبة الرئيس ترومان في الخروج من العزلة الأمريكية التقليدية التي كان قد رسمها الرئيس جيمس مونرو في القرن التاسع عشر، والتي تقضي بعدم تدخل الولايات المتحدة في الشؤون الأوروبية، هذا التحول في السياسة الأمريكية كان له شأن كبير في مسيرة الحرب الباردة^٢.

إن أحد أسباب الحرب الباردة هي رفض ستالين إجراء انتخابات في دول أوروبا الشرقية، لأنه اعترف أن مثل هذه الانتخابات قد تنتهي إلى انتصارات معادية

١ - تشارلس أو ليرتس، مصدر سبق ذكره، ص ٥٢.

٢ - د. أدونيس العكرة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤.

للاتحاد السوفيتي، وصمم على أن المصالح القومية للاتحاد السوفيتي تتطلب إقامة أنظمة تقوم على الصداقة في الأقل في كل من بولندا، وبلغاريا، ورومانيا، وهنغاريا. وقد أدى هذا الانتهاك لاتفاقيات يالطا إلى خلق روح من التباعد بين المعسكرين، واتسعت الهوة في أيلول من العام ١٩٤٥، حينما اجتمع وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى في لندن، واستمر الاتحاد السوفيتي الذي كان يمثله مولوتوف في عدم التعاون مع الغرب بشأن وضع أوروبا الشرقية، وذلك لأنه كان يرغب بوضوح في خلق حلقة من الدول تدور في فلكه، وفي مقابل ذلك كانت الدول الكبرى الأربع الأخرى تزداد تماسكاً واقترباً لتقف موقف المعارضة من الاتحاد السوفيتي، وحين شاهد الاتحاد السوفيتي تطور هذا الانحياز طلب استبعاد كل من فرنسا والصين في المباحثات السياسية الكبرى، نظراً لأهمهما لا تصلان إلى مستوى قوة الدول الثلاث الأخرى، ولما أدرك الاتحاد السوفيتي أن بريطانيا، والولايات المتحدة لن توافقا على هذا الاتجاه أوقف المؤتمر فجأة، وبعد هذه اللحظة ازداد موقف الولايات المتحدة صلابه من الاتحاد السوفيتي، وكان ستالين يتحرك دون أن يهتز تجاه تحقيق أهدافه في الدول التابعة له في أوروبا الشرقية، ودون إغارة أية أهمية لنداءات الأمريكيين المتكررة لأتباع قواعد الأخلاق الدولية، ومن البلطيق إلى الأدرياتيك وضع الستار الحديدي فوق القارة، وأصبحت جميع دول أوروبا الشرقية خاضعة للنفوذ الشيوعي، وتحت الأشراف المباشر من جانب موسكو^١.

لقد تميزت سنة ١٩٤٦، بزيادة حدة التوتر بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي بسبب قضية اليونان، ومحاولة الاتحاد السوفيتي استمالتها بالقوة عن طريق دعمه للمعارضة اليسارية ضد الحكومة القائمة، والمدعومة من قبل بريطانيا، وكذلك قضية أذربيجان، حيث حاول الاتحاد السوفيتي التغلغل في الأراضي الإيرانية، وضم قسم منها إلى جمهورية أذربيجان السوفيتية بحجة الانتماء القومي، وبداية الحرب الهند-الصينية، حيث حاول الاتحاد السوفيتي أن يدعم القوى الشيوعية ضد السيطرة العسكرية الفرنسية، وخاصة قضية الانسحابات العسكرية، إذ كان مقرراً أن تنسحب جيوش الحلفاء من المناطق والبلدان التي كانت تحتلها أبان الحرب، وتفيد الأمريكيون والبريطانيون بهذا القرار، وفي حين لم يتبعه تقييد مماثل من قبل الجانب السوفيتي. لقد توصل الحلفاء إلى توقيع معاهدات سلام مع الدول الحليفة لألمانيا، ولكنهم لم يتوصلوا

١ - حمدي حافظ، "المشكلات العالمية المعاصرة" الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٦٩١-٦٩٣.

إلى اتفاق نهائي حول المسألة الألمانية، التي بقيت مسألة معلقة، ولم تتحسن الأحوال في العام ١٩٤٧، بل ازدادت تعقيدا مع تطور الأحداث في أوروبا وفي الشرق مما أدى إلى اتخاذ مواقف عدائية علنية، كل تجاه الآخر، وعدّ كل طرف الطرف الآخر خصماً له^١.
مبدأ ترومان:

في ٢١ شباط من العام ١٩٤٧، أعلنت الحكومة البريطانية الولايات المتحدة انه لم يعد لديها خيار في إنهاء معونتها ودعمها لليونان وتركيا، وقد كان هذا نقطة تحول في التاريخ المعاصر لأنه أدى إلى دخول الولايات المتحدة في تحمل التزامات تجاه الدول الأجنبية في حالة السلم، وفي ١٢ آذار من العام ١٩٤٧، أعلن الرئيس الأمريكي ترومان المبدأ المعروف باسم مبدأ ترومان الذي كرس فيه الدعم الأمريكي للعالم الحر، وطلب من الكونغرس منح مساعدة لليونان، وتركيا تبلغ ٢٥٠ مليون دولار لليونان، و١٥٠ مليون دولار لتركيا، ولبي الكونغرس الطلب، وعلى الأرجح، فإن هذا الإجراء الأمريكي أنقذ اليونان وتركيا رغم أن التمرد الشيوعي في اليونان لم ينته بصورة رسمية حتى سنة ١٩٤٩، وكان مبدأ ترومان رداً ليس على نشاط الشيوعية في شرق البحر المتوسط فقط، وإنما كذلك على النشاطات السوفيتية في كل مكان بما في ذلك أوروبا الوسطى والشرقية^٢.

مشروع مارشال:

في ٥ حزيران من العام ١٩٤٧، أعلن وزير خارجية الولايات المتحدة جورج مارشال عن مشروع تقدم بموجبه الولايات المتحدة مساعدات إلى كل دول أوروبا بغية دعمها اقتصادياً بسبب عجزها الاقتصادي نتيجة الحرب، وأخذت الولايات المتحدة تعطي أهمية كبيرة لأوروبا معتبرة إياها مركز الثقل في التوازن الدولي، عند ذلك قامت فرنسا، وبريطانيا، بالاتصال بالاتحاد السوفيتي من اجل دعوته للتعاون في هذا المشروع، إلا أنه رفض ذلك بحجة أن هذه المساعدات يجب أن تقتصر على الدول التي كانت ضحية للاعتداءات الألمانية، ومن ثم يجب ألا تشمل ألمانيا التي عليها أن تسدد التعويضات المتوجبة عليها وفق معاهدة بوتسدام، والحجة الثانية التي قدمها السوفيت هي أن سياساتهم الاقتصادية، وسياسة البلدان التي يهيمنون عليها إنما قد رسمت مسبقاً

^١ - د. ادونيس العكرة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٥.

^٢ - كولن باون، وبيترموني، من الحرب الباردة حتى الوفاق ١٩٤٥-١٩٨٠، تعريب: صادق إبراهيم عودة، عمان، الأردن، دار الشروق للنشر والتوزيع، ١٩٨٤، ص ٣٣.

وليس هناك مجال لإعادة النظر فيها، خاصة أن هذا يعدّ تدخلاً في شئونهم الداخلية، عند ذلك قررت فرنسا وبريطانيا دعوة كل البلدان الأوروبية إلى مؤتمر يعقد في باريس للتباحث في شأن مشروع مارشال، فلبت كل الدول الدعوة ما عدا تلك الدول الشيوعية. وقد هاجم الاتحاد السوفيتي المشروع متهماً الولايات المتحدة بالإمبراطورية التي تهدف إلى السيطرة على دول أوروبا اقتصادياً، وسياسياً، وضرب حصار حول الاتحاد السوفيتي من أجل التغلب عليه في وقت لاحق^١.

إن من أسباب مشروع مارشال هو استيعاب الصادرات الأمريكية التي بلغت ١٦ مليار دولار في العام، في حين لم تتعد وارداتها ٨ ملايين دولار، وكانت معظم الصادرات تتجه إلى أوروبا، ولكي تتمكن أوروبا من سداد قيمة تلك الصادرات، كان لا بد من حصولها على الدولارات التي لم تكن تتوفر إلا عن طريق إنتاج سلع يمكن تصديرها إلى الولايات المتحدة، وبدون هذه الطاقة الإنتاجية كانت سوق الصادرات الأمريكية ستتنضب. أما الأسباب العسكرية، وهي أن تتمتع أوروبا باقتصاد قوي، وكانت الوسيلة الوحيدة لتمكينها من إعالة القوات اللازمة لصد الجيش السوفيتي. لقد أصبحت خطة مارشال عماد سياسة الاحتواء، ولذلك حاول ترومان في ٢ كانون الثاني من العام ١٩٤٨، أن يحصل على موافقة الكونغرس على المشروع، فلجأ إلى تخصيص ١٧ مليار دولار^٢.

لقد كان هذا المشروع، والذي تحول فيما بعد إلى قانون عرف باسم قانون المساعدات الخارجية لعام ١٩٤٨، ليس مجرد معونة طارئة، وإنما هدف إلى إنعاش أوروبا على الرغم من تقديم الولايات المتحدة مساعدات أخرى. وقد استمر وجه الإنعاش الاقتصادي في السياسة الأمريكية إزاء أوروبا لمدة أربعة سنين، وقدر له أن يحقق في الأغلب نجاحاً لا يوصف. وقد أعطى دخول الولايات المتحدة في هذا المشروع مركزاً اقتصادياً وسياسياً أساسياً في غرب أوروبا^٣.

تقسيم أوروبا وحصار برلين:

١ - د. ادونيس العكرة، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦-٥٧.

٢ - ستيفن امبروز، الارتقاء إلى العالمية، السياسة الخارجية الأمريكية منذ العام ١٩٣٨، ترجمة: نادية محمد الحسيني، مراجعة: أ.د. ودودة بدران، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٢٦.

٣ - تشارلس أو ليرتس، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٩.

كان جميع الحلفاء مصممين على أن لا تصح ألمانيا مرة أخرى مصدر تهديد لهم، ولكن لم يكن ثمة اتفاق حقيقي يذكر على أية أهداف أخرى سواء حول مستقبل ألمانيا أو بالنسبة لتسوية سلمية في أوروبا، وتم تقسيم ألمانيا كما ذكرنا إلى أربع مناطق احتلال الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي، وبريطانيا، وفرنسا، وتقسيم مشابه لبرلين، وكانت اتفاقية بوتسدام قد سمحت بان تقوم أحزاب سياسية حرة، وديمقراطية، ومعادية للفاشية في ألمانيا، ولكن الاتحاد السوفيتي كان قد بدأ حتى قبل بوتسدام بعملية حاول فيها أن يحوّز على سيطرة شيوعية روسية على أية أحزاب ألمانية عن طريق المفاوضات فقد حاول الحصول على ذلك بطرق أخرى في العام ١٩٤٨، وذلك بمحاولة أخراج الحلفاء الغربيين بالقوة من قطاعهم في برلين وكان حصار برلين في نظر الروس بديلاً عن الحرب، إذ كان هجوماً مدبراً على جميع الأوضاع الغربية في ألمانيا، وعلى الالتزام الأمريكي تجاه أوروبا الذي سببته السياسة السوفيتية خلال السنوات الثلاثة السابقة. وقد فرض الحصار في الظاهر على الخطط الغربية لإدخال إصلاحات نقدية إلى المناطق الغربية، وكان الحلفاء الغربيون قد قرروا أن يدخلوا الدتشمارك الجديد محل الرايخمارك القديم عديم القيمة على أمل أن يحفز هذا الأجراء على استعادة النشاط الاقتصادي في مناطقهم، ثم انسحب الروس من مجلس رقابة الحلفاء ثم انسحبوا من قيادة برلين، وبعد ذلك ادخل الإصلاح النقدي إلى المناطق الغربية، وهكذا لم تعد مظاهر الحكومة الرباعية في ألمانيا، وفي برلين موجودة، وسارع الروس إلى إدخال إصلاحهم النقدي إلى منطقتهم في ألمانيا، وقطاعهم في برلين، وفي ٢٣ حزيران من العام ١٩٤٨، ادخل كل من الشرق والغرب عملاقتهم الجديدة إلى برلين، وفي اليوم التالي قطع الاتحاد السوفيتي جميع الاتصالات ببرلين التي تتم عن طريق السكك الحديدية، وطرق السيارات، والقنوات المائية، وكان حصاراً تاماً، وكانت برلين الغربية المتغلغلة مسافة ١٠٠ ميل داخل المنطقة التي يحتلها السوفيت تعتمد على المناطق الغربية في حصولها على الطعام، والكساء، والفحم، وضرورات الحياة، وواجهت الحلفاء الغربيين ثلاثة خيارات: إذ كان بوسعهم إرسال قوافل عسكرية على الطرق الرئيسية إلى برلين الغربية، واختراق الحصار، أو أن يستسلموا، ويخرجوا قواقتهم من المدينة، ويسلموا برلين كلها للإدارة السوفيتية، أو أن يتسلقوا من فوق الحصار بالمعنى الحربي، وفكر الأمريكيون بصورة حقيقية في الخيار الأول لكنهم تخلوا عنه لأنه ربما أدى إلى درجة عالية جداً من المخاطرة بخوض حرب،

ولم يكن هناك سوى ٦ آلاف جندي غربي في برلين مقابل ١٨ ألف جندي سوفيتي داخل المدينة، وعدة فرق في مناطق مجاورة لها، ومع أن الولايات المتحدة كانت تتمتع باحتكار السلاح النووي في ذلك الوقت، إلا أن قواتها التقليدية كانت ضعيفة كما كانت قوات حلفائها في أوروبا ولذلك لم يستطع الغرب المغامرة بإثارة حرب تقليدية كانوا سيخسرونها حتماً في المراحل الأولى في الأقل. أما الخيار الثاني، فلم يفكر فيه احد بصورة حقيقية لأنه إذا انسحب الغرب من برلين فإن مصداقيتهم سوف تضعف بشكل مروع، ولن يتوقع بعدها من الأنظمة الشيوعية في العالم أن تصدق تأكيدات الأمريكيين بالمساعدة ضد العدوان الشيوعي، ولذلك تم اللجوء إلى الخيار الثالث، فقرر أن يقوم الحلفاء الغربيون بتزويد برلين الغربية بالمتونة من الجو^١.

وفي صيف العام ١٩٤٨، فرض الأمريكيون والبريطانيون حصاراً معاكساً للسلع الداهية من المناطق الغربية إلى المناطق الشرقية في برلين، وكان هذا الحصار أكثر إيذاء للشرق مما هو للغرب، ذلك لأن السوفيت كانوا بحاجة إلى فحم الكوك، والفولاذ من المصدر الجاهز الوحيد في الغرب. فقد كانت ألمانيا الغربية قادرة على الوصول إلى اقتصاد غرب أوروبا المتنامي، وكان يساعدها مشروع مارشال في وقت لم تتمتع فيه ألمانيا الشرقية بمزايا من هذا القبيل، وبدا وكأن الاقتصاد الألماني الشرقي قد توقف تقريباً، في بداية العام ١٩٤٩، في حين كانت الأعجوبة الاقتصادية الألمانية الغربية قد بدأت، وعند رفع الحصار ظهر انه كان بوسع الغرب إدامة الجسر الجوي لأمد غير محدد، وأن استمرار الحصار كان يزيد من تضامن أهالي برلين الغربية، وألمانيا الغربية مع الحلفاء الغربيين. لقد أزال حصار برلين أية أوام من عقول الحكومات الغربية حول الاتفاق مع الروس في ألمانيا، ولكنه كان بارزاً من نواحي أخرى أيضاً. فقد أظهرت أزمة برلين للمرة الأولى أن الأسلحة النووية قد جرت دراستها بصورة حقيقية لأول مرة كإجراء أخير لإيقاف تقدم السوفيت. كما أدت بالولايات المتحدة إلى السير في اتجاه مضاد لخفض الميزانية الدفاعية بعد الحرب، ومن ناحية أخرى فقد أسرعت في العملية، التي ظهرت عن طريقها، دولتان ألمانيتان منفصلتان، ففي ١٢ أيار من العام ١٩٤٩، أقر مجلس رقابة الحلفاء، وخلال غياب المارشال سكولوفسكي القانون الأساسي لجمهورية ألمانيا الاتحادية الغربية، وفي ٢٣ أيار خرجت الجمهورية الاتحادية إلى حيز الوجود. لقد

^١ - كولن باون وببتر موني، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠، وانظر كذلك: حمدي الحافظ، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٦.

فكر الغرب في إقامة دولة ألمانية غربية مستقلة في العام ١٩٤٨، وتوصل إلى استنتاج بان الاتحاد السوفيتي جعل دولة ألمانيا مقسمة إلى قسمين أمراً لا محيد عنه، وفي ٧ تشرين الأول من العام ١٩٤٩، ولدت جمهورية ألمانيا الديمقراطية في المنطقة السوفيتية، وكان يسيطر على جمهورية ألمانيا الديمقراطية حزب الوحدة الاشتراكي الذي كان يسيطر عليه الشيوعيون، ورفض الاتحاد السوفيتي الاعتراف بوجود جمهورية ألمانيا الاتحادية كما رفض الغرب الاعتراف بجمهورية ألمانيا الشرقية، وبظهور دولتين ألمانيتين في سنة ١٩٤٩، اكتمل تقسيم ألمانيا^١. لقد قام الاتحاد السوفيتي في ١٢ أيار برفع الحصار عن برلين، حيث قرر أن الحصار المضاد يسبب لها أضراراً تفوق الأضرار التي تلحق بالغرب. كما أن الاتحاد السوفيتي أدرك انه لم يعد هناك أي أمل في وقف الاتجاه الذي أنشأ حكومة ألمانيا الغربية التي ظهرت إلى الوجود في أيار من العام ١٩٤٩، كما ذكرنا^٢.

سياسة الاحتواء:

يعدّ جورج كينان من أبرز رواد سياسة الاحتواء فقد اسند إليه مارشال وزير الخارجية الأمريكي منصب رئيس هيأت تخطيط السياسة الخارجية، وهو الذي حذر الولايات المتحدة من نيات الاتحاد السوفيتي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، واستقبل تحذيره استقبالاً حسناً من لدن صناعات السياسة الخارجية الأمريكية، فقد قدم تحليل كينان تبريراً فكرياً وعقلانياً لسياسة الاحتواء الأمريكية، فاشتهر في واشنطن بأنه والد سياسة الاحتواء^٣.

لقد ذهب كينان إلى أن الدوافع وراء تصرفات السوفيت كانت عقيدتين هما العداء المتأصل بين الرأسمالية والاشتراكية، واعتقاد الروس بأن الكرملين معصوم من الخطأ، وكان الاستيلاء على العالم هو غرضهم، ولكنهم لم يكونوا في عجلة من أمرهم، ولم يحددوا جدولاً زمنياً بسبب النظرية السوفيتية التي تفترض أن سقوط الرأسمالية في نهاية الأمر واقع لا مفر منه^٤.

وفي أيار من العام ١٩٤٦، أجرت تشيكوسلوفاكيا أول انتخابات بعد انتهاء الحرب الباردة، إذ فاز الشيوعيون بنسبة ٥٣٨% من الأصوات، وأصبح غوتفالد رئيساً

١ - كولن باون وبيتر موني، مصدر سبق ذكره، ص ٥١-٥٣.

٢ - ستيفن امبروز، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩.

٣ - المصدر نفسه، ص ١١٦.

٤ - المصدر نفسه، ص ١٣١.

للوزراء. أما رئيس الجمهورية ووزير الخارجية، فلم يكونا من الشيوعيين، وكان كلاهما مثار أعجاب شديد من الغرب، فقد حاولا المحافظة على التوازن بين الشرق والغرب، إلا أن عملية استقطاب أوروبا - خاصة بعد مؤتمر باريس - جعلت نجاح سياستيهما أمراً مشكوكاً فيه، وجاءت النهاية في شباط من العام ١٩٤٨، عندما رفض غوتفالد التعاون مع رئيس الجمهورية في تنفيذ خطة إعادة تنظيم قوات البوليس مما أدى إلى سقوط الوزارة، وفي ٢٥ شباط حدث انقلاب في تشيكوسلوفاكيا استولى فيه الشيوعيون على السلطة، لقد ترتب على هذا الانقلاب أمران ضروريان لتبني سياسة الاحتواء. فقد كان هذا الانقلاب، ومجيء الشيوعيون إلى السلطة في تشيكوسلوفاكيا صدمة للعالم، وبالنسبة لترومان، والأمر الآخر فأن الانقلاب أوضح بطريقة درامية القيود التي تحد من السياسة الأمريكية السائدة، حيث عجزت الولايات المتحدة عن القيام بأي دور للمساعدة في إنقاذ تشيكوسلوفاكيا بل الأكبر من ذلك أن الولايات المتحدة لم تحاول أن تفعل أي شيء لمنع وقوع أحداث مماثلة في باقي أنحاء أوروبا، وهذا مما دفع كل من فرنسا وبريطانيا ودول البينلوكس هولندا، وبلجيكا، ولوكسمبورغ إلى عقد معاهدة بروكسل في ١٦ آذار من العام ١٩٤٨، لضمان ترتيبات الدفاع المتبادل، وفي ١٧ آذار من العام ١٩٤٨، أعلن ترومان في الكونغرس أن الاتحاد السوفيتي هو الدولة الوحيدة التي تقف في طريق كل الجهود التي تبذل لإقرار السلام، ثم قال يتعين على الولايات المتحدة أن تواجه ذلك الخطر المتزايد الذي يهدد بقاء الحرية نفسها، ورحب بمعاهدة بروكسل، ووعد بتقديم المساعدة إلى الدول الموقعة على المعاهدة لمساعدتها على حماية نفسها^١.

لقد ولدت اتفاقية بروكسل مية ليس بسبب ضعف القدرات العسكرية للدول الموقعة عليها إزاء القوة السوفيتية فحسب، بل لأنها ضمت دولاً يقع معظمها في شمال أوروبا مما يعطي السوفيت فرصة كبيرة للمناورة ومفاجأتهما بشن هجوم واسع عليها من وسط أوروبا عبر ألمانيا التي لم تنتظم في ذلك الوقت إلى الاتفاقية، والوصول إلى القنال الانكليزي، ولذلك أصبحت تلك الدول مقتنعة بأن مواجهة القوة السوفيتية تتطلب قوات حليفة كبيرة، وذات عقيدة قتال موحدة، فالتجهت أنظارها إلى التحالف مع الولايات المتحدة التي كانت هي الأخرى تسعى إلى تثبيت وجودها السياسي والاقتصادي في أوروبا، بما يضمن مصالحها، ويسد الفراغ الأمني الناجم عن انكشاف

^١ - المصدر نفسه، ص ١٢٧-١٢٨.

دول أوروبا الغربية قبالة القوة السوفيتية، وهذا ما شجع واشنطن، ودول اتفاقية بروكسل لتحويلها إلى حلف شمال الأطلسي الذي وقع في ٤ نيسان من العام ١٩٤٩، من قبل كل من الولايات المتحدة، وكندا، وبريطانيا، وفرنسا، وبلجيكا، وهولندا، ولوكسمبورغ، وإيطاليا، والدانمارك، والنرويج، والبرتغال، أيسلندا، وفي العام ١٩٥٢، تم ضم تركيا، واليونان إلى الحلف^١.

الحرب الأهلية في الصين:

دخلت الصين القرن العشرين في حالة مزمنة من الاضمحلال فقد أذلتها الدول الأجنبية، وأخفقت في توسيع رقعة الأرض الصالحة للزراعة لإعالة سكانها المتزايدين، كما فشلت في أن تدفع باقتصادها إلى ثورة تجارية وصناعية، وانهارت إمبراطورية مانشو اثر ثورة كان الدفاع المحرك لها (صن يان صن) الوطني الجمهوري الاشتراكي في سنة ١٩١١، وفي العام ١٩٢٧، حاول وريثه الجنرال شان كاي شك استعادة السلطة وإعادة توحيد الصين المجزأة، وفي سنة ١٩٢١، أسست مجموعة من الصينيين بما فيهم ماو تسي تونغ الحزب الشيوعي الصيني، وكان نتيجة الهام النجاح الروسي في الثورة، وكذلك العقيدة الروسية، وبناء على نصيحة ستالين تعاون الحزب الشيوعي الصيني مع حزب الكومنتانغ إلى أن هاجم شان كاي شك سنة ١٩٢٧، الحزب الشيوعي الصيني، وتلا ذلك حرب أهلية صينية استمرت من سنة ١٩٢٧، ولم يقطع استمرارها سوى وحدة مؤقتة في إثناء الهجوم الياباني على الصين منذ سنة ١٩٤٧، وحتى سنة ١٩٤٥^٢. لقد استمر الصراع بين الحزبين الشيوعي الصيني، وشان كاي شك الذي كان يتمتع بدعم الولايات المتحدة، وحاولت كل من بريطانيا، والولايات المتحدة إبداء درجة معينة من الحيادية التي لا بد، وان تكون قد ندمتا عليها من بعد، بل وصلتا إلى حد حظر المساعدة العسكرية على شان كاي شك من تموز من العام ١٩٤٦، وأيار من العام ١٩٤٧، في محاولة لإرغامه على قبول حل سياسي وسط، وفي كانون الأول سنة ١٩٤٨، أوقفت الولايات المتحدة معونتها للصين، وكانت الحكومة الأمريكية لا ترغب في التورط في حرب أهلية في الصين تكون نتائجها خطيرة على العلاقات الدولية، واستطاعت القوات الشيوعية بزعامة ما تسي تونغ أن تحقق انتصارات كبيرة في الوقت

١ - د.نزار إسماعيل الحياي، دور حلف شمال الأطلسي بعد انتهاء الحرب الباردة، أبو ظبي، مركز الدراسات والبحوث الإستراتيجية، ٢٠٠٣، ص ٣١-٣٣.

٢ - كولن باون وبيتر موني، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦.

الذي هرب فيه شك، وقواته إلى جزيرة فرموزا، وفي ١ تشرين الأول من العام ١٩٤٩، أعلن ماوتسي تونغ مولد جمهورية الصين الشعبية، والتي وقعت معاهدة مع الاتحاد السوفيتي مدتها ثلاثون عاماً^١.

إن وصول الحزب الشيوعي إلى الصين، ومولد جمهورية الصين الشعبية كان يعني امتداداً جديداً للنفوذ السوفيتي في آسيا، وتوسعاً للنفوذ الشيوعي في هذه القارة، وأصبح على الولايات المتحدة ألا تجابه الاتحاد السوفيتي فقط، وإنما الصين أيضاً، وقد اعترفت الحكومة الأمريكية بحكومة الصين الوطنية التي يقودها شك في فرموزا، ولم تعترف بحكومة الصين الشعبية التي يقودها ماوتس تونغ، لأن الولايات المتحدة كانت تعادي الشيوعية، وإذا ما تخلت عن حليفها شك، فإن الشيوعيين سيقبضون عليه، وسيعملون على ضم فرموزا إلى الصين الشعبية. أما الاتحاد السوفيتي فقد اقترح إبعاد مندوب الصين الوطنية، واعتماد مندوب الصين الشعبية كممثل شرعي للصين في الأمم المتحدة، وأعلن مندوب الاتحاد السوفيتي في مجلس الأمن بأنه سيقاطع جلسات المنظمة الدولية مادام أن ممثل الصين الوطنية هو الذي يمثل الصين^٢.

^١ - المصدر نفسه، ص ٥٦-٥٩.

^٢ - د. رياض الصمد، الجزء الثاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٤.

المبحث الثاني

تطورات الحرب الباردة ١٩٥٠ - ١٩٦٢

الحرب الكورية:

منذ العام ١٩٢٠، كانت كوريا خاضعة لاحتلال اليابان، ومنذ العام ١٩٤٣، اخذ الحلفاء يفكرون بالمصير الذي ستؤول إليه، وكان أول مؤتمر دولي درس مصير كوريا هو مؤتمر يالطا، إذ اتفق المؤتمر على تقسيمها إلى منطقتي احتلال القسم الشمالي يحتل من قبل القوات السوفيتية، والقسم الجنوبي يحتل من قبل القوات الأمريكية، ثم جاء مؤتمر بوتسدام الذي عين الحد الفاصل بين المنطقتين الشمالية والجنوبية بخط العرض ٣٨، ولم يقصد المؤتمر بهذا الخط المصطنع سوى الفصل بين القوات السوفيتية التي دخلت شمالي كوريا في ١٢ آب من العام ١٩٤٥، والقوات الأمريكية التي احتلت القسم الشمالي في أيلول من العام نفسه.

إن هذا الحل كان حلاً مؤقتاً بنظر أعضاء المؤتمر، وكانت رغبة الولايات المتحدة على وضع كوريا بأكملها تحت نظام الوصاية الأمر الذي اقره مؤتمر موسكو لوزراء خارجية الدول الأربع في أواخر العام ١٩٤٥، إلا أن واقع الحال الذي فرض نفسه على كوريا هو الذي استقر، حيث انقسمت كوريا إلى قسمين الشمالي دولة شيوعية موالية للاتحاد السوفيتي، والجنوبي دولة موالية للولايات المتحدة، وبجلاء القوات السوفيتية والأمريكية عن الكوريتين لم تنته المشكلة، إذ قامت على طرفي خط العرض ٣٨ حكومتان متعاديتان، الأولى تعتمد على الدعم السوفيتي، في حين الأخرى تؤيدها الولايات المتحدة، فحصلت الاشتباكات بين قوات الدولتين حتى خط العرض ٣٨ أصبح مسرحاً لمعارك عسكرية دائمة، إذ أخذ كل فريق يتهم الآخر بإذكائها^١.

وفي ٢٥ حزيران من العام ١٩٥٠، هاجمت كوريا الشمالية، كوريا الجنوبية، واجتازت خط ٣٨، وتقدمت حتى احتلت سيؤل عاصمة كوريا الجنوبية في ٢٨ حزيران من العام ١٩٥٠، واتخذ مجلس الأمن قراراً بتقديم الدعم لكوريا الجنوبية، وصدر القرار بغياب المندوب السوفيتي الذي قاطع جلسات مجلس الأمن منذ كانون الثاني في العام ١٩٥٠، بسبب حرمان الصين الشعبية من مقعدها الدائم في مجلس الأمن، وإحلال الصين الوطنية بدلاً منها، واستطاعت القوات الأمريكية، وقوات الأمم المتحدة

^١ - المصدر نفسه، ص ١٩٤-١٩٨.

أن ترغمها على التراجع، وتم استعادة سيؤل، وتقدمت هذه القوات داخل كوريا الشمالية، وهنا تدخلت الصين الشعبية وحدث صدام رئيس مع القوات الأمريكية في ٢٥ تشرين الثاني من العام ١٩٥٠، وكان القائد الأمريكي الجنرال مكار ثر يعتقد بضرورة توسيع نطاق الحرب، وكان يحدوه الأمل في توحيد الكوريتين، وانتقد فكرة الحرب المحدودة، وطالب علناً بعمليات عسكرية ضد الصين الشعبية وسواحلها، ولكن الإدارة الأمريكية ارتأت عدم الأخذ بآرائه، وتم إعفائه من منصبه، وكان أي توسع للحرب ضد الصين الشعبية سيؤدي إلى فقدان الولايات المتحدة بعضاً من حلفائها، أو التعرض لمخاطر إثارة حرب عالمية، ولاسيما أن الاتحاد السوفيتي قد فجر أول قنبلة ذرية في العام ١٩٤٩، وفي ٢٧ تموز من العام ١٩٥٣، تم عقد الهدنة بين الطرفين^١.

وفي ٢٨ آب من العام ١٩٥٣، أصبح الاتحاد السوفيتي يمتلك القنبلة الهيدروجينية. لقد كان الاتحاد السوفيتي يبغى تحقيق هدفاً من وراء مساندته للصين، وهو أشغال الولايات المتحدة في أوروبا الغربية، فأصبحت الصين تعوض عنه في آسيا في القضية الكورية، وان امتلاك السوفيت للقنبلة الذرية كان عاملاً في ردع الولايات المتحدة عن اللجوء إلى الخيار النووي^٢.

وفاة ستالين وسياسة التعايش السلمي:

في ٥ آذار من العام ١٩٥٣، توفي ستالين، وكان يتحمل قسطاً كبيراً من مسؤولية إثارة الحرب الباردة، وترك وراءه قيادة جماعية في الاتحاد السوفيتي، وكان ستالين قد لجأ منذ انتهاء الحرب إلى أسلوب التطهير لتخليص الاتحاد السوفيتي من أي نفوذ غربي، ومن أي أعداء محتملين لنظام حكمه. وقد أوقف التطهير بعد وفاته، وكان لوفاة ستالين اثر كبير في خارج الاتحاد السوفيتي أيضاً، ففي نهاية أيار أنهى الاتحاد السوفيتي لجنة الرقابة في ألمانيا، واستمر يمارس السلطة في ألمانيا الشرقية عن طريق مندوب سامي، وجاءت هذه الخطوة في إحلال السيطرة السياسية محل السيطرة العسكرية بمثابة تغيير واضح في طراز السياسة السوفيتية تجاه أوروبا الشرقية، ولكنها لم تكن تبديلاً في جوهر تلك السياسة بالضرورة، وتم القضاء بسرعة، وبدون رحمة على

١ - كولن باون، مصدر سبق ذكره، ص ٦١-٦٧، وللتفاصيل حول الحرب الكورية انظر: كميل داغر "الأمم المتحدة وموازين القوى المنحولة في الجمعية العامة" دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨، ص ٤٧-٤٩.

٢ - د. كاظم هاشم نعمة، العلاقات الدولية، جامعة بغداد، كلية العلوم السياسية، ١٩٨٧، ص ٣٣٤.

الانتفاضة الألمانية الشرقية في حزيران، وكانت احتجاجاً على السيطرة السوفيتية، وخفض الأجور، وذلك على يد القوات السوفيتية، إلا أن تعامل الاتحاد السوفيتي مع الدول التابعة له أصبح أكثر ليناً بعد الأحداث فقد توقف عن اخذ التعويضات من ألمانيا الشرقية بعد سنة ١٩٥٣، وأعطيت للدول الأخرى التابعة حرية أكبر في تحديد أولوياتها الاقتصادية^١.

وعلى اثر وفاة ستالين حلت قيادة جماعية محل القيادة الفردية المتمثلة بشخص ستالين، فتركزت السلطة بيد الثالث (مالينكوف، وبيريا، ومولوتوف)، وعلى الرغم من أن مالينكوف كان قد تسلم بين يديه وظائف أمانة الحزب، ورئاسة الحكومة حتى ١٦ آب، إلا أنه ما لبث أن حل محله في أمانة الحزب خروشوف، فظهرت بوادر انفراج في الداخل حين صدر في ٢٧ آذار العفو العام، وجرت محاولات جادة لإزالة فكر عبادة الأشخاص من الأذهان^٢.

وكان من نتائج وفاة ستالين التحسن الذي طرأ على العلاقات السوفيتية- اليوغسلافية، حيث عاشت هذه العلاقات مرحلة من التوتر في العهد السابق، فقام بولغانين، وخروشوف بزيارة إلى يوغسلافيا في العام ١٩٥٥، لفتح صفحة جديدة في العلاقات بين البلدين^٣.

ولكن التطور الأهم الذي حدث هو تبني السوفيت لسياسة التعايش السلمي، فقد كان ستالين متصلباً بشأن نظريته الأيديولوجية إلى الواقع السياسي العالمي، وكان متمسكاً بشدة في توقعاته بان الغرب والعالم الرأسمالي كان يعيش في محنة خانقة اقتصادية تنتهي به إلى التبثر. لقد كانت نظرة ستالين غير منصفة لما كان يجري في العالم الثالث، فالتطورات السياسية في الهند، وفي الوطن العربي، وحتى في جنوب آسيا، كانت في كنفها تعبيراً عن روح قومية نهضت من اجل التحرر السياسي، ورفض الأحلاف والتكتلات العسكرية، ولما جاء مؤتمر باندونغ الافروآسيوي في ١٨ نيسان من العام ١٩٥٥، تلمس النهج الاستقلالي للدول النامية حيزاً له في العلاقات الدولية، تمثل في رفض الانحياز لواشنطن أو لموسكو، وأصبح السوفيت يعتقدون بأنه يجب الاعتراف بان طريقاً ثالثاً يمكن أن يحقق الأهداف السياسية والاقتصادية يأتي من منطلقات مختلفة،

^١ - كولن باون، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦.

^٢ - د.رياض الصمد، الجزء الثاني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٤.

^٣ - المصدر نفسه، ص ٢٢٥.

واخذ الاتحاد السوفيتي يقتنع بضرورة تقديم الدعم إلى هذه البلدان الجديدة مادام أنها تكافح ضد الاستعمار من اجل التحرر، وأعلن السوفيت في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي في شباط من العام ١٩٥٦، سياسة التعايش السلمي الذي انطوت على القبول بالتعايش مع المعسكر الغربي (الخصم) حتى وأن كان هناك اختلاف في المنطلقات الأيديولوجية..

صحيح إن الصراع لا يمكن الاستغناء عنه في الفكر الشيوعي، إلا أن المواجهة مع الخصم أصبحت نووية، ولا بد من العدول عن الحرب، والعيش سلمياً مع الخصم حتى ينهار في المستقبل بفعل التناقضات، وقيام الثورات في النظام الرأسمالي، وكانت هناك عدة أسباب وراء تبني السوفيت للتعايش السلمي منها التطورات التقنية التي دفعت الدولتين العظميين إلى امتلاك القدرة النووية، وان الحرب ستؤدي إلى دمار الطرفين، ولذا اقتنع السوفيت بأنه لا بد من التعايش سلمياً مع الولايات المتحدة، ودول المعسكر الغربي، فضلاً عن ذلك أراد السوفيت التخلص من سياسة التطويق، والاحتواء التي تبنتها الولايات المتحدة، وإيجاد لهم منفذ نحو العالم، حيث أن الولايات المتحدة أبدلت سياسة الاحتواء في العام ١٩٥٣، بسياسة الانتقام الشامل، وأخيراً، فإن السوفيت أرادوا التقرب من شعوب العالم الثالث، وهذا لا يتم إلا عبر الاعتراف بتعدد طرق البناء، ولاسيما إن غالبية هذه البلدان قد تبنت أنموذجاً غير شيوعياً في تحقيق البناء والتقدم الاقتصادي والاجتماعي^١.

الحرب في الهند - الصينية:

كانت الحرب في فيتنام قد أخذت مجرى لها في غير مصلحة فرنسا، ففي أوائل العام ١٩٥٤، وكان الشيوعيون الفيتناميون (فيت منة) مسيطرين على نصف البلاد. أما فرنسا الدولة الاستعمارية، فكانت قد وضعت أفضل قواتها في حامية منعزلة شمال هانوي يطلق عليها ديان بيان فو وتحدث ألفتيت منة أن يقتربوا منها. لقد افترض الفرنسيون إن الآسيويين منهارون إذا واجهوا معركة مكشوفة، ولكن النتيجة جاءت عكس ذلك، فبحلول نيسان كانت الحامية الفرنسية في ديان بيان فو في مأزق، وفي ذلك الوقت أصبح الفرنسيون في حالة إرهاب تام، وشعرت الولايات المتحدة بقلق بالغ إزاء انتصار الشيوعية في فيتنام، ففي مؤتمر صحفي في نيسان من العام ١٩٥٤، قدم

١ - د.كاظم هاشم نعمة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٠-٣٠٤.

أيزنهاور استخداماً سياسياً جديداً لكلمة قديمة عندما شرح أن كل جنوب شرق آسيا، مثل صف من قطع الدومينو، إذا سقطت أول قطعة فإن ما سيحدث للقطعة الأخيرة هو بكل تأكيد إنها ستسقط بسرعة، وكبي يتأكد أيزنهاور من صمود قطع الدومينو لجأ للحلفاء، وكان يريد من حلفاءه وسائل ناجعة لوقف الزحف الشيوعي، وفي ٧ آب من العام ١٩٥٤، سقطت ديان بيان فو، وتم بعدها عقد الهدنة، إذ اتفقت الأطراف على عقد مؤتمر جنيف، وتم تقسيم فيتنام إلى قسمين بصورة مؤقتة عند خط العرض ١٧ مع انسحاب فرنسا من المنطقة الواقعة جنوب ذلك الخط، فضلاً عن ذلك تعهد الفرنسيون، وهوشي منه زعيم الحزب الشيوعي في فيتنام الشمالية بالألا ينضموا إلى أي تحالف عسكري، وبالألا يسمحا بإقامة قواعد عسكرية أجنبية في المناطق التابعة لهما، وإجراء انتخابات تحت إشراف لجنة مشتركة من الهند، وكندا، وبولندا خلال عامين لتوحيد البلاد على أن تظل فرنسا في الجنوب لتنفيذ الانتخابات، ولم توقع الولايات المتحدة، وحكومة فيتنام الجنوبية على هذه المعاهدة، ولكن الولايات المتحدة، وعدت بأنها ستؤيد إجراء انتخابات حرة تحت إشراف الأمم المتحدة، وبأنها لن تستخدم القوة لخرق هذه المعاهدة، أما هوشي منه الذي أصبح زعيم فيتنام الشمالية، والذي كان على وشك أن يستحوذ على كل فيتنام فقد رضي بالنصف الشمالي فقط، لأنه كان بحاجة إلى بعض الوقت لإصلاح دمار الحرب. كما انه كان واثقاً بالفوز بنصر ساحق في الانتخابات حينما تعقد، ومقابل ذلك عقدت الولايات المتحدة في أيلول من العام ١٩٥٤، حلف جنوب شرقي آسيا السيتو مع بريطانيا، وفرنسا، واستراليا، ونيوزلندا، وتايلاند، وباكستان، والفلبين، الدول التي اتفق أطرافها على التشاور إذا شعرت أي دولة من الدول الموقعة على المعاهدة بان خطر ما يتهدها. كما اتفقوا على التحرك الجماعي لمواجهة أي معتد، يجمعون على تحديده، وإذا وافقت الدولة المهتدة على شن العمليات على أراضيها^١.

إنشاء حلف وارشو:

في ٩ أيار من العام ١٩٥٥، أصبحت ألمانيا الغربية عضواً رسمياً في حلف شمال الأطلسي، وفي ١٤ أيار، أي بعد أسبوع قام الاتحاد السوفيتي مع دول شرق أوروبا بتوقيع اتفاق حلف وارشو، وهو الرد العسكري الشيوعي لمواجهة حلف الأطلسي، وفي

^١ - ستيفن امبروز، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٤-١٨٨.

اليوم التالي قامت الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي بحل إحدى مشكلات الحرب العالمية الثانية التي ظلت قائمة منذ وقت طويل، وذلك بالتوقيع على معاهدة مع النمسا، التي حصلت بموجبها على استقلالها مع حظر اتحادها مع ألمانيا على أن تصبح دولة محايدة بصفة دائمة. وقد كان كل من الجانبين مسئول عن هذا التأخير. لقد وقع الاتحاد السوفيتي على المعاهدة، لأنه أراد تخفيف حدة التوتر والتعجيل بعقد اجتماع القمة بينهما، وتقبلت الولايات المتحدة المعاهدة كحل معقول لحل مشكلة النمسا، وواقع الأمر إن المعاهدة النمساوية كانت خطوة أضفت على تقسيم ألمانيا صفة الاستمرار بها، ولم تكن على الإطلاق خطوة نحو وحدة ألمانيا وحيادها، إذ اتفق العملاقين على أن كلتا شطري ألمانيا لن يحصلوا على النمسا^١.

وفي ١٨ حزيران من العام ١٩٥٥، بدأت قمة جنيف بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي. لقد عبرت هذه القمة بأن دول الغرب اعترفت بأنها لن تستطيع أن تفوز بالحرب الباردة، وأنه ساد جمود في موقف الأسلحة النووية، وأنه يجب تقبل الوضع الراهن في أوروبا والصين. لقد انتقلت المعركة بين العملاقين إلى مجالات النفوذ الاقتصادي والسياسي في العالم الثالث، وهي ميدان يتمتع به الاتحاد السوفيتي بمميزات كثيرة^٢.

وفي العام ١٩٥٦، طفق كليل الشعب الهنغاري مما أدى إلى اندلاع ثورة شعبية ضد الوجود السوفيتي، فاستخدم السوفيت القوة لسحق الثورة مما أدى إلى إثارة حفيظة الولايات المتحدة، فأعلنت على لسان وزير خارجيتها دالاس بان أي بلد أوربي شرقي يثور بوجه الاتحاد السوفيتي سيرتكن إلى المعاضدة الأمريكية، ولن يشترط هذا التعاون على تبني هذه الدول نظام اجتماعي خاص، وبعبارة أخرى لا تلزم هذه الدول لتحظى بمساعدة الولايات المتحدة انتهاز الديمقراطية، فيكفي لها أن تقتدي بالطراز التيتوي، وتجر ميثاق وارشو، ولكن أيزنهاور أكد بأنه بالرغم من تمني الولايات المتحدة الأمريكية نهاية للهيمنة السوفيتية على شرق أوروبا، فإنها لا تسعى إلى تنفيذ هذه السياسة

١ - المصدر نفسه، ص ١٩٥.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٩٧.

بالقوة، فضلاً عن أن الولايات المتحدة لم تقدم الدعم فقد عجزت عن اتخاذ أي إجراء لمساعدة ثوار الجزائر.

العدوان الثلاثي على مصر ونتائجه:

لقد رفض الرئيس عبد الناصر التراجع عن صفقة الأسلحة الجيكية، ورأى دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة أن الاتحاد السوفيتي لا يستطيع أن يحمل محل الولايات المتحدة في مساندة مصر لبناء السد العالي، وهو افتراض اعتمد على اعتقاد غريب من أن الاتحاد السوفيتي لم يكن لديه المهارة التكنولوجية لبناء السد، وعندما سحب عبد الناصر اعترافه بالصين الوطنية، واعترف بالصين الشعبية في أيار من العام ١٩٥٦، قرر دالاس أن ينسحب من مشروع السد العالي، ولكنه لم يعلن قراره، وفي ١٩ تموز من العام ١٩٥٦، سحبت الولايات المتحدة مساندتها لمشروع السد العالي وكان رد عبد الناصر تأميم قناة السويس، وبذلك استعادت مصر هبتها وكرامتها المجروحة بضربة واحدة، وحصل أيضاً على الـ ١٥ مليون دولار قيمة الأرباح السنوية لتشغيل قناة السويس، مما دفع ذلك إلى قيام بريطانيا، وفرنسا، وإسرائيل بالعدوان على مصر في ٣١ تشرين الأول من العام ١٩٥٦، وقد انزعج أيزنهاور من دعاوي فرنسا، وبريطانيا بان العدوان كان مبعثه حرص طرف ثالث ليس له مصلحة سوى الفصل بين الإسرائيليين والمصريين، فتقدمت الولايات المتحدة بمشروع قرار إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة بحث على التوصل إلى هدنة، وفي الوقت نفسه هدد خروشوف زعيم الاتحاد السوفيتي بضرهم بصواريخه، واندهرم في ٥ تشرين الثاني بالانسحاب قبل أن يدمرهم، ورغم أنهم كانوا على بعد عدة ساعات فقط من الاستيلاء على قناة السويس وقد وافقت الحكومتان البريطانية، والفرنسية على وقف إطلاق النار، والانسحاب.^٢

لقد كان من نتائج العدوان الثلاثي على مصر توجه عبد الناصر للحصول على الدعم السوفيتي الذي قرر مساعدة مصر في بناء السد العالي، واستمر عبد الناصر في نشر دعايته عن الوحدة العربية والاشتراكية، مع حصوله على مزيد من المساعدات من الاتحاد السوفيتي، وبدخول أعداد متزايدة من السوفيت إلى مصر مما أثار قلق أيزنهاور ودالاس خشية أن يتحرك السوفيت لشغل الفراغ الموجود في الشرق الأوسط، وأدت

^١ - هنري كيسنجر، الدبلوماسية من الحرب الباردة حتى يومنا هذا، ترجمة: مالك فاضل البديري، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان ١٩٩٥، ص ١٥٦-١٥٧.

^٢ - ستيفن امبروز، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٠.

الحركة المطالبة بالوحدة العربية إلى زيادة القلق الأمريكي، ولاسيما زيادة أنصار عبد الناصر في الشارع العربي، ولذلك طلب الرئيس أيزنهاور في ٥ كانون الثاني من العام ١٩٥٧، من الكونغرس التصريح له باستخدام القوات المسلحة الأمريكية في الشرق الأوسط، إذا ما قرر الرئيس أن هناك ضرورة لذلك لمساعدة أية امة تطلب المساعدة ضد عدوان مسلح من أي دولة تسيطر عليها الشيوعية. وأطلق عليه مبدأ أيزنهاور وفي العام التالي استخدم أيزنهاور هذا المبدأ عندما أرسل في ١٥ تموز من العام ١٩٥٨، مشاة الأسطول الأمريكي إلى لبنان لمساعدة الرئيس اللبناني كميل شمعون اثر ثورة ١٤ تموز من العام ١٩٥٨، في العراق^١.

أزمة برلين العام ١٩٥٨:

قرر خروشوف أن يتخذ إجراء ضد ألمانيا الغربية في نهاية العام ١٩٥٨، خلال مدة اتسمت بالهدوء النسبي في الحرب الباردة، وربما كان منطقه انه بما أن أيزنهاور رفض بناء قوات مسلحة تقليدية، وحيث أن الرئيس كان على استعداد لعمل أي شئ ممكن لتجنب شن حرب نووية، إذ كان الوقت مناسباً لاتخاذ حل دبلوماسي، ولكن كان هناك سبب مباشر أكثر من ذلك وهو أن خروشوف كان يخشى إعادة تسليح ألمانيا الغربية تسليح اخذ ينمو ويقوى، وكانت الولايات المتحدة قد أرسلت إلى ألمانيا سلاح مدفعية قادرة على إطلاق قذائف نووية، فضلا عن طائرات يمكن أن تحمل قذائف نووية، وعكف كونراداديناور مستشار ألمانيا الغربية على زيادة خطى التسليح، وأخيرا أصبحت حكومة ألمانيا الغربية على وشك إن تنظم إلى ايطاليا، وفرنسا، وهولندا، وبلجيكا، ولوكسمبورغ إلى السوق الأوروبية المشتركة، وهي الخطوة التي كان سيعترب عليها ربط ألمانيا الغربية بالكتلة الغربية برباط متين، ومن ثم كان خروشوف في مواجهة ضغوط رهيبية لاتخاذ إجراء نحو الوضع في ألمانيا^٢.

وفي ١٠ تشرين الثاني من العام ١٩٥٨، أعلن خروشوف أن الاتحاد السوفيتي على استعداد للتنازل عن سيطرته على برلين إلى ألمانيا الشرقية، ومن ثم سيتعين على الغرب أن يتفاوض مع حكومة ألمانيا الشرقية حول حقوق العبور إلى ألمانيا الغربية، وهو

^١ - المصدر نفسه، ص ٢١١، وانظر كذلك، Georg Lenczowski, Soviet advances in the Middle East, American Enterprise Institute for Public Policy Research Washington, 1972, P93-94.

^٢ - المصدر نفسه، ص ٢١٧.

ما لم تعترف به أية حكومة غربية. لقد كان وجود الغرب في برلين يعتمد فقط على اتفاقيات احتلال سابقة للاستسلام، وإذا وقع خروشوف على معاهدة سلام مع ألمانيا الشرقية، فسوف يتعين إنهاء الاحتلال. كما أن خروشوف حذر من أن أي هجوم على ألمانيا الشرقية سوف يعدّ هجوماً على الاتحاد السوفيتي، وحدد مدة أمدها ستة أشهر للتوصل إلى اتفاق، وفي حالة عدم الاتفاق سيكون على الغرب أن يتعامل مع ألمانيا الشرقية. لقد أعلن خروشوف في خطب لاحقة إن الحل الوحيد المرضي للوضع في برلين هو تحويل برلين الغربية إلى مدينة حرة مع انسحاب القوات الأميركية، والبريطانية، والفرنسية، كما أراد أن يدمج اقتصاد برلين مع اقتصاد ألمانيا الشرقية، والاتحاد السوفيتي^١.

ورفض أيزنهاور اقتراح المدينة الحرة، ولكنه رفض أيضا زيادة القوات المسلحة بنسبة كبيرة كمقدمة لاتخاذ إجراء حاسم إزاء برلين، وفي آذار من العام ١٩٥٩، اقترب التاريخ الذي حدده خروشوف، فبدأ الديمقراطيون في حث أيزنهاور على تعبئة الجيش، ولكنه ابلغ الكونغرس انه لم يكن بحاجة إلى مبالغ إضافية للقذائف، أو لقوات الحرب التقليدية لمواجهة الأزمة. لكن خروشوف بدأ يتراجع لأنه كان يريد تخفيض حجم قواته المسلحة، كما أنه مثل أيزنهاور لم يكن متلهفاً على الدخول في حرب نووية مع الولايات المتحدة، ولذلك أنكر انه سبق أن وضع مدة محددة للاتفاق، ووافق على زيارة الولايات المتحدة في أيلول من العام ١٩٥٩، واتفق مع أيزنهاور على الاجتماع في باريس على أن يعقد في أيار من العام ١٩٦٠^٢، وفي الواقع كان أيزنهاور لا يرغب في المخاطرة بحرب نووية، ولا سيما أن السوفيت قد حققوا تقدماً كبيراً في الأسلحة النووية، وكان ذلك بمثابة اختبار لمصادقية إستراتيجية الانتقام الشامل، ولم تكن الولايات المتحدة راغبة في المخاطرة بحرب حول برلين، وهكذا انتهت الأزمة^٣، أما الاجتماع الذي كان من المزمع انعقاده في باريس فلم يتم بسبب إسقاط السوفيت لطائرة تجسس أمريكية من نوع U2 فوق أراضي الاتحاد السوفيتي مما أدى إلى تدهور العلاقات بين الدولتين.

إدارة كندي وسباق التسلح:

١ - المصدر نفسه، ص ٢١٧.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢١٨.

٣ - هنري كيسنجر، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٨-١٨٠.

إن وصول كندي إلى السلطة في كانون الثاني من العام ١٩٦١، رافقه سباق كبير في التسلح فقد ساد الاعتقاد بأن السوفيت يطورون أسلحتهم، ولذا سعت إدارة كندي إلى رفع ميزانية الدفاع، وزيادة تطوير في الأسلحة الإستراتيجية، فقد توصل كندي، ووزير دفاعه مكنمارا إلى زيادة مستوى القوة الأمريكية إلى خمسة أضعافها عما كانت عليه خلال مدة رئاسة أيزنهاور. لقد انطلق فريق كندي- مكنمارا في أضخم سباق تسلح في تاريخ البشرية على الإطلاق امتدت أبعاده إلى ما بعد الأسلحة النووية بمراحل وتطوير إستراتيجية جديدة يطلق عليها (الرد المرن)^١.

وكان رد فعل الاتحاد السوفيتي على حشد القوة الأمريكية على هذا النحو الهائل أنه قام بزيادة القذائف العابرة للقارات وفقاً لما ذكره مكنمارا في العام ١٩٦٧، إن السوفيت لم يكونوا قد اعترضوا البدء في سباق التسلح، وربما كانوا قد اقتصروا بقبول الوضع الراهن في العام ١٩٦٠، والذي تمتعت في ظله الولايات المتحدة بالتفوق، ولكن ليس بالقدر الذي يمكنها من توجيه الضربة الأولى، فلم يعد هناك مفرأ قبالة السوفيت إلا زيادة القاذفات مما دفع الولايات المتحدة إلى البدء في دورة جديدة للتسلح، ولكن الولايات المتحدة لم تكن مستعدة للمجازفة بالسماح للسوفيت بتحقيق التكافؤ في نظم إطلاق الأسلحة النووية. لقد كانت النتيجة إن الولايات المتحدة بنت قدرة عسكرية ضخمة حتى أكبر من الهدف المخطط له، وأكثر مما يتطلبه الأمر الواقع^٢.

وكانت الولايات المتحدة تسعى إلى تحقيق توازن عالمي لمصلحتها قبل التوصل إلى تسوية عالية كانت ستضمنها اتفاقية للحفاظ على مستوى القوات العسكرية على ما كان عليه آنذاك. لقد أصر كندي على أن دخول دول إضافية إلى المعسكر الاشتراكي أو فقدان فرموزا أو برلين سيغير التوازن مما سيغير الولايات المتحدة على رد الفعل. كما أن حشد القوات الأمريكية أشار إلى أن الولايات المتحدة ستقاوم بالقوة، إذا استدعت الضرورة الحركات الثورية في العالم الثالث كما أشارت إلى أن الولايات المتحدة كانت على استعداد لاستخدام القوة للمحافظة على الوضع الراهن في أوروبا، ولكن خروشوف كان عاجزاً عن مصادرة حق الاتحاد السوفيتي في مساعدته الثورات، وكان عاجزاً أيضاً عن قبول الوضع الراهن في برلين على أنه وضع دائم^٣.

١ - ستيفن امبروز، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٦-٢٣٧.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٣٨.

٣ - المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

عندما أثار خروشوف أزمة أخرى في برلين طلب كيندي مشورة دين اتشسون من باب التأكيد على وجهة نظره، فأوصى اتشسون كعادته دائماً بالتأكد من اتخاذ موقف حاسم. لقد كان أساس موقفه هو عدم التفاوض، ووافق كندي على ذلك طول صيف العام ١٩٦١، وأصر خروشوف على ضرورة التوصل إلى تسوية بخصوص برلين قبل انتهاء العام، وكان رد كندي فاتراً وحاسماً، لا يمكن تغيير أي شيء. لقد أصر كندي على انه إذا لم نتكفل بالتزاماتنا في برلين سيؤدي ذلك إلى انهيار الناتو، وإلى وضع خطر على العالم اجمع، وأن مصير أوروبا كلها رهن بما يحدث في برلين الغربية^١.

وكان كندي جريئاً في رده على تحدي خروشوف، إذ طالب الكونغرس بزيادة إضافية في ميزانية الدفاع قدرها ٣,٢ مليار دولار، وضاعف استدعاء الخدمة العسكرية ثلاث مرات، ومدد مدة التطوع للخدمة العسكرية، وقام بتعبئة ١٥٨ ألف من قوات الاحتياط، ورجال الحرس الوطني، وترتب على ذلك زيادة حجم القوات المسلحة قدرها ٣٠٠ ألف جندي^٢.

وهكذا أصبح الجانبان في طريق التصادم، إذ رفض خروشوف أن يسمح بأن تظل برلين الغربية باباً للهروب، في حين رفض كندي أن يقبل أي تغيير في وضعها، ثم أعلن والتر اولبرشت الرئيس في ألمانيا الشرقية انه وبعد توقيعها على معاهدة سلمية، فان الاتحاد السوفيتي سيغلق مدخل برلين الغربية إلى العالم الغربي، فلجأ الرئيس الأمريكي إلى هبة الشعب الأمريكي لتوقع أسوأ الاحتمالات. وقد أستمروا سكان ألمانيا الشرقية في الهروب عبر برلين، ووصلت الحال إلى المواجهة العسكرية، وفي ١٣ آب من العام ١٩٦١، تولى خروشوف حل المشكلة فجأة. لقد قرر بناء حائط برلين، وبذا وضع الولايات المتحدة، ودول الغرب قبالة الأمر الواقع، وقسم برلين بصفة دائمة. إن بناء السوفيت للحائط، وتقبل دول الغرب له - في نهاية الأمر - وضع نهاية مؤكدة لكل المحاولات الحقيقية لإعادة توحيد ألمانيا، وكان خروشوف على استعداد أن يتقبل برلين الغربية مادام ظلت منعزلة، وكفت عن استنزاف ألمانيا الشرقية^٣.

١ - المصدر نفسه، ص ٢٤١.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٤١.

٣ - المصدر نفسه، ص ٢٤١-٢٤٢.

المبحث الثالث

تطور الحرب الباردة من العام ١٩٦٢

حتى الوفاق

أولاً: أزمة كوبا:

في العام ١٩٥٩، وصل الرئيس كاسترو إلى السلطة في كوبا، وأصبح النظام اشتراكياً ومعاداً للولايات المتحدة التي أصيبت بإحباط كبير بسبب خسارتها لكوبا، فالولايات المتحدة كانت تمتلك استثمارات كبيرة فيها، وكان الأمريكيون يمتلكون ٨٠% من مرافق كوبا، و ٤٠% من السكر، و ٩٠% من الثروة المعدنية، وعلى الرغم من استقلال كوبا، إلا أن الولايات المتحدة كانت وما زالت تمتلك قاعدة عسكرية في غوانتانامو في كوبا، ولما وصل كندي إلى السلطة لم يكن مستعداً لتقبل وجود نظام شيوعي على مقربة من بلاده، وكانت وكالة المخابرات المركزية - بموافقة أيزنهاور - قد بدأت بتدريب الكوبيين المعادين لكاسترو في المنفى على حرب العصابات، واقتضيت الخطة الموضوعية إنزال أعضاء الثورة المضادة في منطقة نائية في كوبا لكي يتمكنوا بمساعدة مستترة من الولايات المتحدة إقامة قاعدة للإطاحة بكاسترو، وفي منتصف نيسان من العام ١٩٦١، بدأ الغزو على يد الكوبيين المنفيين الذين حملتهم سفن أمريكية مؤمنة بطائرات أمريكية حتى أنزلتهم على مقربة من خليج الخنازير، فخاضوا في الماء حتى وصلوا إلى الشاطئ، إلا أن كاسترو سحقهم تماماً، وأثبت أنه أقوى مما تخيلته الأمريكيون، ولم يظهر الشعب الكوبي أي ميل للثورة عليه^١.

وفي آب من العام ١٩٦٢، بدأ الاتحاد السوفيتي في إقامة قواعد صواريخ متوسطة المدى في كوبا، وقد أثارت هذه القضية ذعراً في الولايات المتحدة، إذ أصبح للاتحاد السوفيتي فرصة تسديد ضربة أولى للولايات المتحدة، إذ لا تبعد كوبا سوى ٩٠ ميلاً عن الولايات المتحدة، وهذا ما يؤدي إلى تغيير في الميزان الإستراتيجي بين الطرفين، وفي ١٤ تشرين الأول من العام ١٩٦٢، قامت طائرات (U2) الأمريكية بتصوير منصة إطلاق الصواريخ تحت الإنشاء، وكانت ردود الفعل شديدة من قبل الكونغرس الأمريكي، والأوساط السياسية التي طالبت بالرد على السوفيت، واقترح البعض شن هجوم نووي ضد قواعد الصواريخ أو شن هجوم تقليدي يتلوه غزو، إذ

١ - المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

بدء حصار بحري يهدف لمنع السوفيت من إرسال أي إمدادات أخرى إلى كوبا، ولكن الخوف من انتقام سوفيتي سرعان ما أدى إلى إلغاء فكرة الهجوم النووي، في حين زاد التأييد الذي نالته فكرة القيام بهجوم تقليدي، وغزو للتخلص من نظام كاسترو، وفي ٢٢ من العام ١٩٦٢، أعلن الرئيس الأمريكي كندي فرض حصار صارم على كل القدرات العسكرية الهجومية التي تشحن إلى كوبا، وأمر أن تتخذ القوات المسلحة الأمريكية حالة الاستعداد القصوى، ثم اندر خروشوف بان الولايات المتحدة ستعدّ إطلاق أي قذيفة نووية من كوبا على أي دولة تقع في النصف الغربي من الكرة الأرضية كاعتداء على الولايات المتحدة من الاتحاد السوفيتي بما يتطلب الرد عليه بالانتقام من الاتحاد السوفيتي شر انتقام، ثم ناشد خروشوف أن ينقل الأسلحة العدائية تحت أشرف الأمم المتحدة^١.

وفي يوم ٢٦ تشرين الأول من العام ١٩٦٢، أرسل خروشوف رسالة إلى كندي يتعهد فيه بعدم إرسال مزيد من الأسلحة إلى كوبا، وانه سوف يسحب أو يدمر الأسلحة الموجودة هناك بالفعل، إذا قام كندي بإفناء الحصار، وتعهد ألا يغزو كوبا، وفي اليوم التالي أرسل خروشوف رسالة ثانية قال فيها انه سوف يسحب الصواريخ من كوبا عندما ينقل كندي الصواريخ الأمريكية من تركيا، ولم توافق الولايات المتحدة على هذا الشرط، ولكن في اليوم التالي وافق الاتحاد السوفيتي على سحب الصواريخ من كوبا مقابل رفع الحصار عن كوبا^٢.

نتائج الأزمة:

لقد ابلغ الصينيون أن أزمة كوبا أثبتت بأنه لا يمكن الوثوق بالروس. أما أوربا، وعلى رأسها ديفول فقد تعلمت انه في حالات الطوارئ سوف تتصرف الولايات المتحدة بمفردها، ودون استشارة دول الناتو في قضية ذات تأثير ليس على الأمن القومي الأمريكي فقط، بل على بقاء العالم، في حين تعلم السوفيت أنهم لم يتمكنوا من التوصل إلى التكافؤ العسكري مع الولايات المتحدة، أو حتى التكافؤ من حيث المظهر. أما كندي الذي وصل إلى حافة الهاوية، والذي اقترب من إبادة العالم فقد تعلم أن يكون أكثر ليونة في بياناته الرسمية، وقل حدة في تأكيداته، في حين عمدت أدارته إلى استخدام لهجة أكثر اعتدالاً في الأقل فيما يتعلق بالاتحاد السوفيتي، وهكذا بدأ الحديث عن الحاجة الماسية

١ - المصدر نفسه، ص ٢٤٧.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٥١.

للسلام، وتخفيض التسلح ليحل محل التفاخر والتباهي بالقوة العسكرية. أما الصينيون فقد ثار غضبهم ونعتو خروشوف بالحماقة، لأنه وضع الصواريخ في كوبا، وبالجن لأنه نقلها من هناك. كما زادت معارضة خروشوف داخل الكرملين، وبالرغم من كل مواقفه الدرامية، فقد فشل في إحراز انتصارات ذات مغزى في الحرب الباردة، في حين أدت سياسة الوقوف على حافة الهاوية إلى ألقاء الرعب في قلوب كل الناس تقريباً، وفي خلال عام واحد تقريباً خرج خروشوف من السلطة. أما في فرنسا بدأ ديغول بعد الأزمة في التفكير بصورة حقيقية، في مراجعة علاقاته بالولايات المتحدة، وكان ديغول يسعى إلى إعادة أوروبا إلى الوضع التميز الذي كانت عليه، ولكنه أدرك أن تحقيق ذلك الهدف كان يتطلب الانفصال عن حلف شمال الأطلسي. بعد كوبا كان ديغول يعلم أن الولايات المتحدة لن تستشير شركائها في الأطلسي قبل اتخاذ أي إجراء، وكان مقتنعاً بأن الولايات المتحدة لن تحاطر بوجودها لحماية أوروبا، كما كان يشك أن الجيش الأحمر سيتقدم عبر جبال الألب في أي وقت من الأوقات، وكان مؤمناً بأن الوقت قد حان لكي تخرج أوروبا من الحرب الباردة، وتبدأ في أن تفرض على الآخرين الاعتراف بمركزها وحقوقها، ولذلك أعدت معاهدة صداقة فرنسية-ألمانية، واتجه إلى تحسين علاقاته مع دول حلف وأرشو، وأسرع بخطى كبيرة لتطوير الأسلحة النووية الفرنسية، وقرر استبعاد بريطانيا من السوق الأوروبية المشتركة¹، ثم اتجه بعد ذلك إلى الانسحاب من الجناح العسكري لحلف الأطلسي في آذار من العام ١٩٦٦، ولم تلق دعوته الجريئة لاستقلال أوروبا نجاحاً فورياً، إذ قررت ألمانيا الغربية أن تحافظ على علاقاتها الوثيقة بالولايات المتحدة، وكان أهم الدروس المستفادة من أزمة كوبا هي أدراك نتائج سياسة الوقوف على حافة الهاوية، ومنذ ذلك التاريخ فصاعداً سعى الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة لوضع حد لتزاعهما، وتجنب التصرفات التي قد تؤدي إلى تصعيد الموقف، وتحديد حجم ارتباطهما لكي يكون رد فعل الطرف الآخر محدوداً، وإن يكون الصراع على مستوى منخفض في العالم الثالث^٢.

ثانياً: حرب فيتنام:

١- المصدر نفسه، ص ٢٥٢-٢٥٣.

٢- المصدر نفسه، ص ٢٥٣، وانظر كذلك، Jean -Marie Le Breton, Les Relations Internationales depuis, 1968, Nathan Uniersite, Paris, 1983, P9-10.

بعد أن انقسمت فيتنام إلى قسمين فيتنام الشمالية، وفيتنام الجنوبية، وأصبحت فيتنام الشمالية دولة شيوعية، وفيتنام الجنوبية دولة موالية للغرب، ففي فيتنام الجنوبية وصل ديم الرئيس الموالي للولايات المتحدة، وظهرت حرب عصابات مدعومة من قبل الشيوعيين ضد نظام حكمه، فأرسلت الولايات المتحدة بعثة عسكرية لتعزيز ودعم جيش فيتنام الجنوبية، ولكبح التوسع الشيوعي، وتطورت الحرب في فيتنام إلى حرب بين جبهة التحرير الوطني الفيتنامي التي يطلق عليها بالفيتكونغ، وبين القوات الموالية لديم، وما ساعد على تطور الحرب هو طبيعة الأرض الفيتنامية التي كانت عبارة عن غابات كثيفة وأحراش¹.

ولما كان ديم معزولاً، وظهرت معارضة قوية لنظام حكمه قام الجيش في تشرين الثاني من العام ١٩٦٣، بالإطاحة بحكمه، وقتله، ثم تولت السلطة حكومة عسكرية. بعد الإطاحة بديم اتصلت جبهة التحرير الوطني بقيادة الجيش في سابغون، وعرضت إجراء مفاوضات للتوصل إلى وقف إطلاق النار، وحل المشكلات المهمة التي تعانيها الأمة، بقصد الاتفاق على إجراء انتخابات عامة وحررة، وتكوين حكومة وطنية ائتلافية، تتكون من ممثلين لكل القوات، والأحزاب، والاتجاهات، والطبقات الموجودة في فيتنام الجنوبية، ولكن الأمريكيين في سابغون رفضوا الفكرة من أساسها. كما رفض الرئيس جونسون الذي تولى الرئاسة بعد اغتيال كيني في العام ١٩٦٣، فكرة حياد فيتنام الجنوبية، لأن ذلك بالنسبة له مجرد أسم آخر لسيطرة الشيوعيون، وقرر دعم حكومة فيتنام الجنوبية، وفي تموز من العام ١٩٦٣، انضمت موسكو، وهانوي، وباريس في إصدار نداء إلى عقد مؤتمر دولي في جنيف للتباحث حول اندلاع القتال في لاوس، والحرب في فيتنام، ثم قامت الصين الشعبية، وجبهة التحرير الوطني الفيتنامي، وكمبوديا بمساندة الدعوة إلى عقد المؤتمر².

ولكن الحرب تطورت إلى حالة خطيرة في فيتنام حينما هاجمت زوارق طوربيد تابعة لفيتنام الشمالية مدمرات أمريكية في خليج تونكين، وأغرقت اثنين منها، وعلى اثر ذلك اتخذ الكونغرس قرار تونكين في أب من العام ١٩٦٤، والذي حول الرئيس الأمريكي جونسون استخدام كل الوسائل الضرورية لصد أي هجوم مسلح على

¹ - هنري كيسنجر، "الدبلوماسية من الحرب الباردة حتى يومنا هذا" مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٦-٢٨٧.

² - ستيفن امبروز، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٥-٢٦٦.

القوات الأمريكية، واتخاذ الإجراءات لحماية أية دولة من دول حلف السيتو قد تطلب مساعدتها في الدفاع عن حريتها، وعلى اثر ذلك قامت الولايات المتحدة بإرسال عشرات الآلاف من قواتها إلى فيتنام الجنوبية، وقررت بدأ حملة قصف بالقنابل على فيتنام الشمالية، وأمرت إدارة جونسون الاستخدام الساحق للقوة الأمريكية كي تجبر جبهة التحرير الوطني، وفيتنام الشمالية على الخضوع، وفي العام ١٩٦٨، نجحت قوات جبهة التحرير الوطني في طرد القوات الأمريكية، وجيش فيتنام الجنوبية من الريف إلى المدن، واستطاعوا دخول العاصمة سايجون، وفي ٣١ آذار من العام ١٩٦٨، أعلن جونسون قراره بإيقاف قصف فيتنام الشمالية، وأعلن انسحابه من انتخابات الرئاسة، ولما وصل نيكسون إلى الرئاسة كان الاختلاف الأساسي بين إدارته وإدارة جونسون هو أن جونسون كان مؤمناً بالانتصار العسكري، في حين كان نيكسون يعلم أن الولايات المتحدة ليس باستطاعتها الانتصار في الحرب على الأقل ليس بالثمن الذي كانت الأمة مستعدة لدفعه. لقد أدرك نيكسون أن مراعاة العوامل الاقتصادية والرغبة في تحقيق السلام والسكينة على الصعيد الداخلي تقتضي تخفيض الالتزامات الأمريكية في فيتنام، وسعى إلى تحقيق فتنمة الحرب، وكان هدفه هو الانسحاب التدريجي للولايات المتحدة على أن يكمله تطوير ضخم للكفاءات القتالية لجيش فيتنام الجنوبية بحيث يمكن لفيتنام الجنوبية أن تحافظ على استقلالها، ربما مثل كوريا الجنوبية، أما على أسوأ الفروض كان سترتب على ذلك وجود مرحلة ملائمة بين الانسحاب الأمريكي، وانتصار الشيوعيين، وكان كيسنجر وزير خارجية نيكسون قد شجع الأخير على ضرورة التقارب مع الاتحاد السوفيتي، والصين لفتحهما على إيقاف مساعدتهما لفيتنام الشمالية، وذلك لحد الأخيرة على ضرورة الدخول في مفاوضات مع الإدارة الأمريكية بغية إيجاد حل لقضية فيتنام، وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها الولايات المتحدة في التقارب مع البلدين، إلا أن ذلك لم يوقف مساعدتهما إلى فيتنام الشمالية، وبدأ نيكسون بتطبيق سياسة الفتنمة، فأخذ يسحب القوات الأمريكية منذ العام ١٩٦٩، وبدأ كذلك بمفاوضات مع فيتنام الشمالية بهدف عقد هدنة تؤدي إلى إعادة أسرى الحرب الأمريكيين، وبقاء الرئيس ثيو في السلطة في سايجون، ووقف إطلاق النار، وفي المقابل عرضت الولايات المتحدة التعهد

بانسحاب كل قواتها من فيتنام، والاعتراف بسيطرة الشيوعيين على مناطق كبيرة من الريف في فيتنام الجنوبية^١.

في حين كان كيسنجر يعدّ لتقسيم فيتنام الجنوبية بين الأطراف المتنافسة كانت الحرب مستمرة، فكان نيكسون مضطراً إلى تبريرها للكونغرس، والشعب الأمريكي اللذين تزايد ضجرهما، فاستخدم عدداً من المبررات المختلفة، فقال انه قد ورث الحرب، وانه كان مستمراً في القتال لكي تنسحب القوات الأمريكية بسلام، إذ كان يدفع بان هزيمة الولايات المتحدة في فيتنام ستؤثر في نحو خطر على المصالح الأمريكية في مكان آخر أو في أوقات أخرى، وفي العام ١٩٧٢، عندما اقتربت الانتخابات، ومن اجل أن يفوز نيكسون كان يتحتم عليه أن يتوصل إلى شكل ما للسلام في فيتنام وان يحافظ كذلك على بقاء ثيو في السلطة في سابعون قرر نيكسون أن يدعوا فيتنام الشمالية على قبول حل وسط سلمي بان يترك للشيوعيين السيطرة على معظم الريف في فيتنام الجنوبية لكن ليس على المدن خاصة سايفون، وذلك بتصعيد الحرب أكثر من ذي قبل، وتم خفض القوات الأمريكية في فيتنام الجنوبية إلى ٧٠ ألف جندي، وعلى الرغم من تواصل الأطراف الأربعة في فيتنام الجنوبية، وفيتنام الشمالية، وجبهة التحرير الوطني، والولايات المتحدة إلى قرار لوقف إطلاق النار ذلك الاتفاق الذي انتهك، وكل ما اتفق عليه بالفعل هو سحب الولايات المتحدة جنودها من فيتنام، وإعادة هانوي لأسرى الحرب الأميركيين، ولكن انسحاب القوات الأمريكية من فيتنام، وتخفيض المساعدات العسكرية الأمريكية لحكومة فيتنام الجنوبية اضعف كثيراً من حكومة فيتنام الجنوبية التي انهارت في ٣٠ نيسان من العام ١٩٧٥، وأعلنت في ذلك اليوم استسلامها غير المشروط لجبهة التحرير الوطني، وأصبحت فيتنام دولة واحدة وانتهت الحرب^٢.

لقد كانت نتائج الحرب قاسية على الولايات المتحدة، إذ فقدت صورتها على أنها دولة لا تقهر عسكرياً، واستترفت الحرب أموالها الأمر الذي دفع الأوساط السياسية فيها إلى إعادة تقييم للسياسة الخارجية الأمريكية نتيجة لاهتزاز ثقة دول كثيرة بقوة أمريكا، وإخلائها لخلقائها^٣.

١ - المصدر نفسه، ص ٣١٥-٣١٨.

٢ - المصدر نفسه، ص ٣١٨-٣٣١.

٣ - كولن باون وبيتر موني، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠.

الفصل العاشر:

تطور العلاقات الدولية من الوفاق الدولي حتى انهيار الاتحاد السوفيتي

• المبحث الأول:

الوفاق الدولي.

• المبحث الثاني:

انتكاسة الوفاق أو الحرب الباردة الجديدة.

• المبحث الثالث:

العلاقات الأمريكية - السوفيتية في عهد غورباتشوف.

• المبحث الرابع:

خطوات أوروبا نحو الوحدة.

• المبحث الخامس:

انهيار الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي.

الفصل العاشر

تطور العلاقات الدولية من الوفاق الدولي

حتى انهيار الاتحاد السوفيتي

المبحث الأول

الوفاق الدولي

جاء الوفاق الدولي بوصفه سياسة اتبعتها الدولتين العظميين تحت ظل التعاون، ويقصد بالوفاق حدوث استرخاء محدود في التوتر بين الدولتين العظميين، ويقترن أيضا بالتطبيع بين المعسكرين، وينطوي أيضا على إزالة العداء في العلاقات بين الطرفين^١، كما يقصد به "هدنة العلاقات بين الدولتين العظميين، والارتقاء بتلك العلاقات إلى مستوى أعلى من التفاهم"^٢، وحدث الوفاق في السبعينات حينما دخل السوفيت في حالة من التعاون مع الولايات المتحدة، وأوروبا الغربية^٣.

وقبل الدخول في مظاهر الوفاق الدولي لابد من تحديد أهداف الدولتين

العظميين من الوفاق:

أولاً: أهداف الاتحاد السوفيتي:

الرغبة في زيادة عوامل قوته في مواجهة التهديد الواضح لسياسة الصين الشعبية. وقد فكر السوفيت في تجنيد تعاون الولايات المتحدة معهم لمصلحة صراعهم مع الصين. الاحتياج الملح للاقتصاد السوفيتي للدعم الغربي، وخصوصاً ما يخص التكنولوجيا الغربية.

وضع ضوابط على التكلفة المتزايدة لسباق التسلح مع الولايات المتحدة.

ثانياً: أهداف الولايات المتحدة:

أ- تشجيع السوفيت على دعم أو في الأقل القبول السلمي لجهود الولايات المتحدة لتخليص القوات الأمريكية في فيتنام، فالاتجاه الذي ساد السياسة الخارجية الأمريكية، وشغل تفكير كل من نيكسون، وكيسنجر في العام ١٩٦٩، هو العثور على مخرج

١ - د.كاظم هاشم نعمة، العلاقات الدولية، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٣-٣١٥.

٢ - د.محمد السيد سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٥٧٨.

٣ - روبرت مكنمارا، ما بعد الحرب الباردة، ترجمة: محمد حسين يونس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩١، ص ٦٤.

مشرف من فيتنام، وان كان أيجاد هذا المخرج كان يتطلب حسب رؤية كيسنجر تعاوناً سوفيتياً لإنهاء الحرب.

ب- سعى الرئيس نيكسون، وكيسنجر، إلى إقامة شبكة علاقات يمكن أن تكسح عن طريقها تصرفات السوفيت، والتي أشار إليها على أساس أنها تمثل بيئة السلام.¹ مظاهر وأسباب الوفاق:

أولاً: تكاليف سباق التسلح:

في الشهور المبكرة للرئاسة الأولى نشر الرئيس نيكسون المبدأ المعروف باسمه (مبدأ نيكسون)، والذي يتضمن سعي الولايات المتحدة لتخفيض قواها في الخارج، ضمن نيكسون على وفق ذلك استمرار الردع لأي عدوان نووي يتعرض له حلفاء الولايات المتحدة في الدول الأخرى المهمة، ولكن في حالة حدوث أي نوع آخر من العدوان، فستطلب الولايات المتحدة من الدول الموجه إليها التهديد مباشرة بان تتحمل المسؤولية الأولى في توفير القوى البشرية التي ستدافع عنها²، وبتقليص الالتزامات الأمريكية الخارجية بهذا الشكل سلم نيكسون بضرورة محاولة تأمين ضمانات بخصوص التصرفات السوفيتية في العالم الثالث³.

وعلى الجانب الآخر كانت رؤية القيادة السوفيتية أن الوفاق لن يصبح ممكناً إلا نتيجة لتقدم القدرة العسكرية السوفيتية في السنوات الأخيرة، وبالتحديد ما تم إحرازه شيئاً فشيئاً منذ بداية الستينات للقدرة النووية، ولكن الأمر الأكثر أهمية في رأيهم أن التوازن العسكري هو الذي اجبر الولايات المتحدة على أن تتعامل مع الاتحاد السوفيتي كند لها، ومن المهم هنا أن نذكر أن المخللين السوفيت لم يروا أن التوازن يتطلب تساوي تاماً لترسانتي الأسلحة، بل كانوا يتصورون انه مرهون فقط بقدرة كل من القوتين على تدمير كل منهما الأخرى بضربات ثأرية⁴.

وفي ٢٥ تموز من العام ١٩٦٩، وبمناسبة إعلان مبدأ نيكسون أعلن الرئيس نيكسون عن سياسة ذكر أن حالة العالم قد تغيرت إلى تغييرات كبيرة في ميزان القوى الاستراتيجي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، إذ أن احتفاظ الولايات المتحدة

1 - المصدر نفسه، ص ٦٥-٦٦.

2 - المصدر نفسه، ص ٦٧.

3 - المصدر نفسه، ص ٦٧.

4 - المصدر نفسه، ص ٦٧.

بالتفوق، والاحتكار للأسلحة النووية الإستراتيجية لم يعد قائماً منذ نهاية الخمسينات بالنظر لامتلاك الاتحاد السوفيتي الإمكانيات، والطاقت لتطوير واستعمال الصواريخ العابرة للقارات التي يمكن أن تدمر جزءاً كبيراً من الطاقات الإستراتيجية الأمريكية على الأرض، وبعد العام ١٩٦٥، زاد السوفيت من استعمالهم للصواريخ النووية عابرة القارات، وبدءوا يبنون قوقم من الغواصات المماثلة لغواصات بولاريس مما أدى إلى تعرض التفوق الاستراتيجي الأمريكي إلى التحدي، ورأى التقرير أن النظرية الإستراتيجية الأمريكية التي كانت تقوم على مبدأ الدمار المؤكد يجب أن يعاد النظر فيها في ضوء التحول المتزايد للقدرات الإستراتيجية السوفيتية، وعليه يرى التقرير بأنه في العصر النووي قد جرى التركيز في التفاوض أكثر من المواجهة^١.

وكذلك بدت الولايات المتحدة في أواخر الستينات، وأوائل السبعينات، وهي تدخل عصر الوفاق، إن لم تكن في موقف ضعف، ففي الأقل، وهي تنوء تحت ضغوط دولية وداخلية، وقد تمثلت هذه الضغوط في انتقال الاتحاد السوفيتي - على المستوى الاستراتيجي - إلى وضع القوة الأعظم، وذلك عن طريق توصلهما إلى حالة التعادل في الأسلحة النووية، والإستراتيجية بتطوير الصواريخ العابرة للقارات ثم بناء أسطول بحري قادر على الوجود عالمياً، وينهي الوضع الآمن الذي يعطيه المحيط الأطلسي للاتحاد السوفيتي. كما بدت الولايات المتحدة تعاني ضغوط وتوترات أول هزيمة عسكرية في تاريخها في فيتنام، وما أحدثه هذا من تفاعلات داخل المجتمع الأمريكي، كما تضاعفت هذه الضغوط الداخلية بظهور قضية ووترجيت، وتأثيرها في النسيج المعنوي للشعب الأمريكي، وثقته بذاته، وفي قياداته^٢.

لقد أنفقت الولايات المتحدة أيضاً على الدفاع أكثر بكثير مما كان ضرورياً، ورفضت أن تزيد من الضرائب لتعوض الأنفاق المتزايد، وهكذا تم تحويل العجز بالاستدانة من الخارج مما زاد من الاعتمادات المطلوبة لتغطية العجز، وفوائد القروض، مما يمثل عبئاً كبيراً على الأجيال القادمة، ولتقليل الاستدانة الخارجية تم تقليص

١ - د. السيد أمين شلبي، الوفاق الأمريكي - السوفيتي ١٩٦٣-١٩٧٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٥٧-١٥٨.

٢ - د. السيد أمين شلبي، من الحرب الباردة إلى البحث عن نظام دولي جديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥، ص ٩٨.

المصاريف غير الدفاعية للحد الأدنى، ونتيجة لهذا اجتاحت المجتمع الأمريكي المشكلات الاجتماعية والاقتصادية الحادة^١.

إن الاتحاد السوفيتي مهماً كانت دوافعه اخذ يوظف موارد ضخمة ومتزايدة من اجل قواته المسلحة، وان كان الاتحاد السوفيتي لا يرغب في خوض الحرب مع الغرب ذات أبعاد واسعة، وان كان من المحتمل أن يحول جس نقاط الضعف، ويستغلها حيث استطاع أن يلقاها^٢.

ثانياً: التفكك في أطار المعسكرين:

في المعسكر الغربي كان العامل الحاسم في سياسة الوفاق الدولي وصول الحزب الديمقراطي الاشتراكي إلى السلطة في ألمانيا الغربية في كانون الأول من العام ١٩٦٦، بزعامة ويلي برانت الذي اتبع سياسة عرفت بالسياسة الشرقية، والغاية من وراء ذلك هو العمل على تحسين العلاقات بين الشرق والغرب. فقد وقعت ألمانيا الغربية والاتحاد السوفيتي معاهدة عدم اعتداء في موسكو في ٧ كانون الأول من العام ١٩٧٠، كما قام برانت بزيارة بولندا، ووقع معاهدة عدم اعتداء اعترفت فيها ألمانيا الغربية بحدود الاودرنيس. وقد كسبت بولندا من وراء ذلك، لان اعتماد بولندا على الاتحاد السوفيتي تقلص بسبب الاعتراف بحدودها، وفي ٣ أيلول من العام ١٩٧١، تم التوصل إلى اتفاق الدول الأربع الكبرى حول برلين، والذي اعترف فيه بالحقوق والمسئوليات الفردية، والمشاركة لكل من الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي، وبريطانيا، وفرنسا، دون أن يجري أي تغيير في هذه الحقوق والمسئوليات، وتقرر بقاء الروابط بين برلين الغربية، وألمانيا الغربية، وفي ٢١ كانون الأول من العام ١٩٧٢، وقعت الألمانييتين معاهدة سمحت بعلاقات حسن الجوار بين شطري ألمانيا، وزادت من التجارة، والاتصالات الشخصية، والثقافية، والاحترام المتبادل للحدود، والتزامات التحالفات لدى كل من الطرفين^٣.

أما فرنسا فقد كان الجنرال ديغول قد طالب الولايات المتحدة استبدال القيادة الأمريكية لحلف شمال الأطلسي بقيادة ثلاثية تضم الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، غير أن الولايات المتحدة بوصفها صاحبة القوة النووية الإستراتيجية شبه الكاملة في

١ - روبرت ماكنمارا، مصدر سبق ذكره، ص ٨٥.

٢ - المصدر نفسه، ص ٨٦.

٣ - كولن باون وبيتر موني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٣-٢١٠.

الحلف كانت تعارض هذا الاقتراح، وهذا ما ابلغه الرئيس الأمريكي إلى الجنرال ديغول، ولم تكن بريطانيا تستطيع الوقوف غير الموقف الأمريكي خوفاً من فقدان دورها كحليف مميز للولايات المتحدة تربطه بها (علاقات خاصة)، ولهذا أمر الجنرال ديغول بالاستمرار في البرنامج الذري الفرنسي، وفي ١٣ شباط من العام ١٩٦٠، فجرت فرنسا قبلتها النووية الأولى، وأعلن ديغول بان فرنسا تريد أن يكون لها دفاعها المستقل، ومنذ ذلك الحين اخذ الجنرال ديغول يرسم لفرنسا سياسة خارجية مستقلة، وطامحة إلى محورة بعض الدول الأوروبية حولها كألمانيا، وإيطاليا، وكان يرمي من وراء ذلك تخفيف وطأة الهيمنة الأمريكية على أوروبا، فأعترف بالعين الشعبية في أوائل العام ١٩٦٤، وقطع علاقاته الرسمية مع فرموزا، وزار المكسيك، حيث لقي استقبالاً رائعاً مما أثار حفيظة الأمريكيين، إذ عدوا تلك الزيارة بمثابة غزو فرنسي لمناطق النفوذ الأمريكية، كما بدأ في تلك المدة أيضاً تنفيذ سياسة خارجية تهدف إلى التقارب مع أوروبا الشرقية، وأعلن عن إمكانية قيام أوروبا من الأطلسي إلى الاورال، وذلك بالرغم من معارضته للنظام الشيوعي القائم فيها^١.

وكان ديغول يعتقد أن ميزان القوى القائم غير طبيعي، لأنه يتضمن استقطاب العالم، وخلق كيانات سياسية تابعة الأمر الذي يتناقض مع مصالح الأمم، كما انه يخلق وضعاً خطيراً ومزعزعاً، حيث تقف جميع الأمم الصغيرة والكبيرة باستمرار على حافة الحرب، وهو أيضاً وضع غير سليم، إذ يعطي كلاً من الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة كل الحرية في التصرف والاستقلال في اتخاذ القرارات، وتقرير مصيرها، ومصير العالم، ولهذا فإن التصرفات الأمريكية والسوفيتية هي تعبير عن القوة القومية بشكل أو بآخر، وإذا توصلنا إلى اتفاق مؤقت فإنه سيكون من اجل السيطرة المشتركة على العالم، وكلا الاحتمالين سيكون في غير مصلحة الدول الأخرى بما فيها طبعاً فرنسا، وغرب أوروبا ككل^٢، ويرى ديغول أن فرنسا يجب أن تكون قادرة على أن تملك السيطرة على مصيرها الخاص في حالة ما إذا تورطت الولايات المتحدة في حرب غير أوروبية يمكن أن تؤدي إلى حرب نووية، وكانت كوبا أمثودجا على ذلك، وهكذا عدّ ديغول انه مادام إن القوات الأمريكية ظلت على ارض فرنسية، فإن فرنسا يمكن أن تصبح رهينة التورط الأمريكي مع الاتحاد السوفيتي خارج أوروبا، وبناءً على ذلك قرر الجنرال ديغول

١ - د.ادونيس العكرة، مصدر سبق ذكره، ص ٨٠-٨٤.

٢ - د.السيد أمين الشلبي، الوفاق الأمريكي- السوفيتي، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧.

انسحاب فرنسا من الجناح العسكري لحلف شمال الأطلسي في آذار من العام ١٩٦٦، وفسرت وجهة النظر الفرنسية ذلك الانسحاب بالتغيير في طبيعة التهديدات التي تواجه العالم الغربي، والتي أدت إلى عقد معاهدة (حلف شمال الأطلسي) فلم تعد هذه التهديدات وشيكة أو خطيرة، كما كانت، وزيادة على ذلك، فإن الدول الأوروبية قد استعادت قوتها الاقتصادية، وبذلك استعادت وسائل العمل بوجه خاص، فإن فرنسا تزود نفسها بأسلحة ذرية، وكذلك تغير ميزان القوى النووي بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي، والذي أفضى احتكار الولايات المتحدة في هذا المجال قد غير من الأوضاع العامة للدفاع الغربي، وأخيراً، فثمة حقيقة هي أن أوروبا لم تعد مركز الأزمة العالمية، إذ أن هذا المركز قد انتقل إلى مكان آخر خاصة في آسيا. وقد بدأ ديغول بإقامة جسور من الاتصالات مع الاتحاد السوفيتي ودول شرق أوروبا وبدأ يركز في الروابط الثقافية، والاقتصادية، وتبادل الزيارات بين عدد من قادة شرق أوروبا، وفرنسا، وقام ديغول بزيارة إلى موسكو في صيف العام ١٩٦٤، وبالمقابل قام رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي كوسيجين بزيارة إلى باريس بعد ذلك بستة شهور^١.

أما التفكك في دول المعسكر الاشتراكي، فظهرت بعض التزعزعات الاستقلالية داخل المعسكر الاشتراكي. فقد توصل خروشوف منذ العام ١٩٦١، لفكرة التخصيص في المهام بين مختلف الدول الاشتراكية، علماً أن هدف هذا التخصيص كان معاكساً لفكرة الاستقلال الوطني نفسها، فضلاً عن ذلك، فإن هذا التخصيص كان يقوي من صلاحيات أكبر الشركاء، أي الاتحاد السوفيتي، ولا يتلاقى أبداً بالضرورة مع مصالح باقي الدول الاشتراكية، ولما كانت رومانيا هي إحدى الدول الأقل تطوراً، وكانت دولة زراعية، فإن ذلك كان يعني وفقاً لمبدأ التخصيص أن تبقى رومانيا بلداً زراعياً إلى الأبد، ولذلك أعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروماني تأييدها للاستقلال الاقتصادي، ومن ثم للسيادة الوطنية، وعندما ازداد الصراع الصيني- السوفيتي أعلنت رومانيا حيادها بين الطرفين، وكثفت علاقاتها التجارية مع الصين، وفي نيسان من العام ١٩٦٤، أعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروماني عن حق السيادة لكل دولة اشتراكية بإقامة، واختيار، وتغيير أشكال وطرق البناء الاشتراكي، وأبتعد القادة الرومان عن الاتحاد السوفيتي، وعاد الرومان الكلام عن بسارابيا التي كان الاتحاد السوفيتي قد

١ - المصدر نفسه، ص ٩٨-١٠٠.

ضمها إليه، في العام ١٩٤٠، كما توقف تصويت رومانيا في الأمم المتحدة عن أن يكون التصويت وثيقاً بتصويت الاتحاد السوفيتي، وأدان الرومان غزو جيكوسلوفاكيا، واستقبلت رومانيا الجنرال ديغول في أيار من العام ١٩٦٨، والرئيس الأمريكي نيكسون في آب من العام ١٩٦٩.^١

وكذلك في إطار تفكك المعسكر الاشتراكي ظهر الصراع الصيني- السوفيتي الذي أضعف كثيراً المعسكر الاشتراكي، لقد كان وصول الحزب الشيوعي الصيني في الصين الشعبية في العام ١٩٤٩، دعماً عسكرياً وسياسياً لنفوذ الاتحاد السوفيتي، وبدون شك أن انتصارات ماوتسي تونغ كانت صينية، ولم تكن بمساعدة من الجيش الأحمر السوفيتي، وكان الاتحاد السوفيتي في البداية يقدم الدعم والمساعدة للصين من اجل البناء والمشاريع، ولما نادى الاتحاد السوفيتي ببدأ التعايش السلمي مع الغرب انتقده الصينيون مبينين أن ذلك تجاوزاً على الماركسية- اللينينية، كما خالف الصينيون الرأي القائل بإمكانية تحقيق الاشتراكية عن طريق الطرق البرلمانية، وساورهم الشكوك في أن هذا المنطق أملته رغبة خروشوف في تجنب صراعات عنيفة حول العالم قد تحول الوفاق الأمريكي- السوفيتي الذي كان في مرحلة مبكرة، واعتقد الصينيون بان الاتحاد السوفيتي قد تراجع عن الماركسية- اللينينية، وأهموا السوفيت بالتحريفية، وكذلك رفض الصينيون مطالب الحزب الشيوعي السوفيتي بالوصاية على الصين الشعبية واحتفاظ السوفيت بالإشراف على الرؤوس الحربية النووية، ورفضوا تزويد الصين الشعبية بالقبلة الذرية، وفي أزمة كوبا أهموا السوفيت بالاستسلام للولايات المتحدة، فضلاً عن ذلك وجود المشكلات الحدودية التي تفاقمت بين الاثنین، وتوترت العلاقات في أواسط السبعينات، وأهمت الصين السوفيت بمحاولة الحصول على قواعد عسكرية في الدول التي تقدم لها معونات، وبنهب مواردها الطبيعية، والتدخل في شئونها الداخلية، وفي مشكلات الحدود الهندية- الصينية وقف السوفيت إلى جانب الهند.^٢

وفي جيكوسلوفاكيا ظهرت حركة تحررية تدعوا إلى إطلاق الحريات الفكرية، والسياسية، والاقتصادية، وبعد أن بدأت تنشر تأثيرها في بعض البلدان الاشتراكية، وعلى رأسها بولندا، حيث حصلت تظاهرات طلابية تدعوا إلى إطلاق الحرية الفردية،

^١ - ج.ب.دوروزيل، التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، الجزء الثاني، ١٩٤٥-١٩٧٨، ترجمة: د.خضر خضر، دار المنصور، بيروت، ١٩٨٥، ص ٣٦٩-٣٧١.

^٢ - كولن باون وبيتر موني، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٧-١٨٧.

وقمعتها السلطة بالقوة، فقد اصدر الحزب الشيوعي الجيكوسلوفافي برنامجاً جديداً أطلق عليه الطريق الجيكوسلوفافي إلى الاشتراكية، وندد بالأخطاء التي كانت تسود الزعامة الجيكوسلوفافية السابقة، وهاجم الإدارة المركزية للاقتصاد، لأنها أدت إلى ركود. كما أن الحزب نفسه كان موضع انتقاد بسبب تركيز السلطة واحتكارها في أيدي أجهزة الحزب، وأعلن البرنامج أن الحزب ليس وصياً على المجتمع، وضمن السفر إلى الخارج، وحرية الكلام، وحرية الصحافة، ووعد بإصلاحات قضائية، والعمل على تحديد سلطة الشرطة السرية، وبالنظر لوصول قيادة جديدة في جيكوسلوفاكيا مؤيدة للإصلاحات، والأفكار التحررية فقد زاد ذلك من انتقادات السوفيت، وتوجه القادة السوفيت إلى انتقادات معادية مما دفع ذلك إلى التدخل العسكري لدول حلف وارشو في ٢١ آب من العام ١٩٦٨، إذ تم القضاء على الحركة التحررية، وبعد الغزو اصدر بريجنيف زعيم الحزب الشيوعي السوفيتي، إعلان يعرف بمبدأ بريجنيف بين فيه أن أية تطور في أي بلد اشتراكي باتجاه النظام الرأسمالي، فإن ذلك يهدد البلدان الاشتراكية برمتها، وبعد الغزو أعلنت ألبانيا انسحابها رسمياً من حلف وارشو علماً بأنها قد تخلت عن القيام بأي دور فعال في ذلك الحلف قبل انسحابها بسبع سنوات، واتجهت نحو الصين تبحث عن دولة عظمى تحميها، وتقاربت ألبانيا مع رومانيا، ويوغسلافيا اللتين اتخذتا مواقف مستقلة تجاه الاتحاد السوفيتي، ولو حاول الاتحاد السوفيتي أن يعيد سيطرته على ألبانيا لتصدع الوفاق السوفيتي- اليوغسلافي، كما أن ذلك سيزيد من تعقيد علاقات السوفيت مع بقية دول العالم، ولاسيما الصين، ومادام أرادت يوغسلافيا أبقاء علاقاتها مع الاتحاد السوفيتي على قدر من التحديد، فإن ألبانيا ستظل في مأمن، ذلك أن استقلال يوغسلافيا يتوقف على علاقاتها الودية مع الغرب التي ستصاب باضطراب إذا ما حاولت يوغسلافيا ابتلاع ألبانيا^١.

ثالثاً: تطور العلاقات الصينية- الأمريكية:

منذ سنة ١٩٦٩، قام الرئيس نيكسون بتخفيض القيود على التجارة، وجوازات السفر بالنسبة للصين، وفي نيسان من العام ١٩٧١، دُعي فريق كرة الطاولة الأمريكي إلى الصين، وفي حزيران من العام ١٩٧١، أنهى الحظر التجاري على الصين بعد أن أستمِر إحدى عشر سنة. لقد كانت هناك تفسيرات كثيرة حول التقارب في

١ - المصدر نفسه، ص ١٩٦-١٩٩.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٩١-١٩٢.

العلاقات، وان الولايات المتحدة أدركت عمق محاولتها احتواء الصين، وأن نيكسون كان يحاول عقد صفقة حول الحرب في فيتنام، ولعل الرئيس كان يحاول كسب شعبية انتخابية في الولايات المتحدة لترع فتيل من علاقة مشحونة بالخطر، وربما كان يقصد من أعماله إقلاق السوفيت لكي يزيدوا من سرعة الوفاق مع الولايات المتحدة، ولم يعد بإمكان أمريكا إلا تتوصل مع الصين إلى مزيد من التفاهم، وإلى إيجاد اتصال على مستوى الخط الساخن مع صين نووية، وذات إمكانيات لصنع صواريخ عابرة للقارات، وكذلك فإنه بعد إعلان مبدأ نيكسون في العام ١٩٦٩، والذي أكد على الفتنة أصبح الأمريكيون متورطين بعملية فك الارتباط مع البر الآسيوي، وفي التحليل الأخير، فإنه بوسع أمريكا بعكس الاتحاد السوفيتي الذي هو دولة برية آسيوية، أن تقلص من دورها في البر الآسيوي. أن لم يكن في المحيط الهادئ. لقد كان بيان شنغهاي المشترك في ٢٨ شباط من العام ١٩٧٢، أثر زيارة نيكسون إلى الصين الشعبية يحوي بنوداً مثل، (يجب ألا تحاول الولايات المتحدة ولا الصين الشعبية أن تسعى إلى الهيمنة على منطقة آسيا المحيط الهادئ، كما أن كلا منهما تعارض محاولات أية دولة أخرى أو مجموعة دول لإقامة هيمنة من هذا القبيل)، وكذلك أكد نيكسون بأن السياسة الأمريكية لا يمكن أن تكون مجدية إذا بقيت الولايات المتحدة منقطعة عن ربع سكان العالم، ولا يمكن تخفيف حدة التوتر في آسيا دون التحدث مع بكين، وأكد أن الزمن الذي تستطيع فيه دولة الزعم بأنها تنطق باسم كتلة من الدول قد انتهى وعلى الولايات المتحدة أن تتعامل مع البلدان حسب أعمالها، وليس بناءً على صيغ عقائدية مجردة^١.

إن من أسباب تقارب الصين الشعبية مع الولايات المتحدة كان تقرير الصين بأن الخطر الموجه إليها من السوفيت اشد من الخطر الموجه إليها من أمريكا. وقد يزيد الوفاق من سرعة فك ارتباط الولايات المتحدة مع آسيا، وتقليل خطر اتفاق أمريكي-سوفيتي في الشرق الأقصى، وأتاحت المجال للصين كي تراقب آسيا من الشمال، وفي الأقل بوجود الصين الشمسية على علاقة ودية جديدة مع الغرب سيكون هناك مزيد من الاحتمال، لان ينظر إليها على أنها الضحية في صدام صيني-سوفيتي في المستقبل، بل كان من الممكن أن الوفاق مع الولايات المتحدة قد يزيد من قلق الأمريكيين بسبب

١ - المصدر نفسه، ص ١٥٨-١٦١.

إمكانية هذا الصدام، وربما كان من المهم بقدر مساو وجود إمكانية لان يؤدي الوفاق في النهاية إلى تحرير تايوان بطريقة سلمية^١.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك اعتقاد واشنطن بأن حكام الصين الشعبية كانوا مستعدين ومهتمين لكي يبادلوا تصميم واشنطن على إنهاء الحرب الفيتنامية لكي يبادلوا هذه السياسة، حيث كانت الصين تسعى للتخلص من التوترات الداخلية التي خلفتها الثورة الثقافية، وكذلك توافقت السياسة الأمريكية الجديدة نحو الصين باهتمام بكين بإقامة حملات أكثر مع العالم الخارجي بغية أن يساعد هذا في الإسراع بتنمية اقتصادهم، وبدخول الأمم المتحدة لكي يقدموا عن أنفسهم صورة جديدة إلى العالم، والحصول على فرصة جديدة لدعم مكانتهم ونفوذهم، وكذلك أن تطوير العلاقات مع الصين الشعبية سيسهم في مساعدة الصين في الحصول على التكنولوجيا، والتجارة مع الولايات المتحدة وهذا ما تسعى إليه الصين الشعبية^٢.

رابعاً: المساهمة في تطوير الأزمات:

سعى العملاقين إلى منع تحول الأزمات التي تنشبت بينهما إلى حالة مواجهة فقد كانت حرب تشرين الأول من العام ١٩٧٣، بين العرب وإسرائيل بمثابة امتحان عسير لسياسة الوفاق، ففي المرحلة الأولى من الحرب كان هناك نوع من التنسيق والاتصال بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي بهدف عدم توسيع نطاق العمليات العسكرية، وجعلها محدودة لا تجر لها أطراف دولية أخرى، وتأكيداً على هذا التنسيق فقد أعلن وزير الخارجية الأمريكي كيسنجر في ١٢ تشرين الأول من العام ١٩٧٣، عن ثقته بان الاتحاد السوفيتي لن يهدد الانفراج في العلاقات الدولية، ولما استطاعت إسرائيل إحداث ثغرة في الجبهة المصرية عندما صدر قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، والشروع في المفاوضات، ولما كانت إسرائيل في موقع قوة عملت على تحسين مواقعها، واستمرت في عملياتها العسكرية حتى بعد موافقتها على قرار وقف إطلاق النار، وذلك بهدف فرض شروطها، وامتصاص الانتصار الذي حققته مصر في البداية في عبور قناة السويس ولا سيما بعد أن تمت محاصرة الجيش الثالث المصري. أما بتدميره أو استسلامه، هذه التطورات الخطرة أثارَت المواجهة بين الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة. فقد رفعت موسكو من حدة انتقادها للتصرفات الإسرائيلية بتجاهل قرار مجلس الأمن، ونشرت

١ - المصدر نفسه، ص ١٦٢-١٦٣.

٢ - د. السيد أمين شلبي، الوفاق الأمريكي- السوفيتي، مصدر سبق ذكره ص ١٧٨-١٨٤.

بياناً رسمياً دعت فيه إسرائيل إلى تطبيق القرار مع التهديد باتخاذ إجراءات رادعة ضدها كما هاجم البيان الولايات المتحدة على عدم مصداقيتها في الضغط على إسرائيل لاحترام القرار، وقدر رافق هذا البيان رفع السوفيت درجة الاستعداد في القوات المسلحة السوفيتية، وجاء الرد الأمريكي عنيماً وحاسماً، إذ أعلنت الولايات المتحدة في ٢٥ / ١٠ حالة الطوارئ في قواتها المسلحة في جميع أنحاء العالم بما فيها القوة النووية، وبدا أن العملاقين قبالة مواجهة عسكرية شاملة^١، ولكن وجود قناة اتصالات رسمية يومية تقريباً مع الكرملين تحاشياً لاتخاذ قرارات تحت وطأة سخونة اللحظة أو بناءً على معلومات غير دقيقة استطاع العملاقين من ضبط النفس، وتطوير الأزمة التي انتهت بفعل تراجع السوفيت للعمل ضمن إطار مجلس الأمن الذي تقرر فيه إرسال قوات دولية إلى المنطقة^٢، وفي قضية فيتنام شدد العملاقين على عدم المجابهة، واكتفى الاتحاد السوفيتي بتقديم الدعم والمساندة إلى فيتنام الشمالية مع البحث والعمل إلى التوصل إلى حلول سلمية.

خامساً: الأمن الأوربي:

بعد توقيع الألمانيتين في ٢١ كانون الأول من العام ١٩٧٢، على معاهدة سمحت بعلاقات حسن الجوار بين شطري ألمانيا، وزادت من التجارة، والاتصالات الشخصية، والثقافية، والاحترام المتبادل للحدود، والتزامات التحالف لدى كل من الطرفين تم افتتاح مؤتمر الأمن والتعاون الأوربي في هلسنكي في العام ١٩٧٣، والذي حضرته جميع دول أوروبا الغربية والشرقية، فضلاً عن الولايات المتحدة، وكندا، ورافق ذلك موافقة الدولتين العظميين في صيف العام ١٩٧٢، على المبدأ القائل أن مفاوضات التخفيضات المتبادلة، والتوازن للقتات ومؤتمر الأمن الأوربي وجهان لعملة واحدة، إذ عقد مؤتمر الأمن الأوربي في هلسنكي في ٣٠ تشرين الثاني، ومؤتمر لخفض القوات التقليدية في فينا في ٣٠ تشرين الأول من العام ١٩٧٣، وكانت محادثات الموضوع الثاني حول التخفيضات معقدة جداً، ولم تكن تشمل القوات فقط، بل كانت تشمل أيضاً أعداد الأسلحة وأنواعها، وكذلك فإن أي نسبة مئوية من التخفيض كان يريدتها

١ - د.موسى محمد آل طويرش، تاريخ العلاقات الدولية من كندي حتى غورباتشوف ١٩٦١-١٩٩١، بغداد، شركة الحوراء للتجارة والطباعة والنشر، بغداد، ٢٠٠٥، ص ١٤٢-١٤٥.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٤٥، للتفاصيل انظر هنري كيسنجر، الدبلوماسية من الحرب الباردة حتى يومنا هذا، مصدر سبق ذكره، ص ٤٢٣.

الإتحاد السوفيتي ستؤدي إلى إعطاء حلف وارشو تفوقاً عسكرياً كبيراً على الحلف الأطلسي اكبر مما أعطت في السابق. لقد رغب الطرفان في تخفيض قواتهما، ولكنهما أرادا أيضاً تحسين وضعهما العسكري والأمني مقابل بعضهما البعض¹.

أما محادثات مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي فقد امتدت إلى عامين اتفق جميع المشتركين فيها أن تهدف المحادثات إلى مزيد من حرية الحركة للناس، والأفكار، والمعلومات في أوروبا، إلا أن هذه التعهدات بالنسبة للإتحاد السوفيتي لم يأت يرد ذكرها في الصحافة السوفيتية، وأراد الإتحاد السوفيتي في مؤتمر الأمن والتعاون تخفيف حدة التوتر في غرب أوروبا لإتاحة توفر رأس المال، والتكنولوجيا الغربيين للإتحاد السوفيتي، والاعتراف بتفوق المصالح السوفيتية في شرق أوروبا، وفي آب من العام ١٩٧٥، وقع ثلاثة وثلاثون بلداً باستثناء ألبانيا، كما وقعت الولايات المتحدة، وكندا، على اتفاقية هلسنكي التي اعترفت فيها بحدود أوروبا الشرقية كما اعترفت ضمناً بالسيطرة السوفيتية عليها، وتخلت ألمانيا الغربية عن ادعائها بأنها الدولة الألمانية الشرعية الوحيدة، واتفق الشرق والغرب على حضور مراقبين من كلا الجانبين التمارين العسكرية الكبرى التي يجريها الجانب الآخر، وواعد الجميع بزيادة الاتصال بين الشرق والغرب، وضمان حقوق الإنسان².

سادساً: معاهدات نزع السلاح:

بدأت المحادثات الأولية بين الإتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة بخصوص الحد من الأسلحة الإستراتيجية في ١٧ تشرين الثاني من العام ١٩٦٩، وهي المحادثات التي كانت إدارة جونسون قد اقترحتها في العام ١٩٦٧، ووقعت معاهدة الحد من الأسلحة الإستراتيجية (سالت) الأولى (ABM) في ٢٦ أيار من العام ١٩٧٢، في أثناء زيارة الرئيس الأمريكي نيكسون إلى موسكو، على اعتبار أن تحديد نظم الدفاع بالصواريخ المضادة سيكون عاملاً أساسياً في كبح السباق بالأسلحة الإستراتيجية الهجومية، كما سيؤدي إلى تقليل أخطار اشتعال حرب تستخدم فيها الأسلحة النووية، وان تطوير الصواريخ المضادة للصواريخ سيؤدي إلى زعزعة الردع خصوصاً، إذا ما أصبحت الصواريخ بدقة اكبر من ذي قبل، وان أمكانية قدرة إحدى الدولتين العظميين أو

¹ - كولن باون وبيتر موني، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٣.

² - المصدر نفسه، ص ٢١٤-٢١٥، وكذلك انظر،

كلاهما على تجريد الأخرى من سلاحها بضرية أولى ناجحة تصحح بالضرورة احد العناصر التي تؤدي إلى اهتزاز ميزان الرعب وتقوم هذه المعاهدة على الاعتراف بالأمن المتكافئ في الجانبين ولا تعطي ميزة عسكرية لأي منهما^١.

وكذلك وقعت معاهدة سالت ٢ الثانية في ١٨ حزيران من العام ١٩٧٩، في فينا، والتي وضعت حداً أقصى يمكن للجانبين الحد من تعزيزه بدلاً من تجميد الأسلحة النووية، ونظم إطلاقها، كما أهملت كلية مجرد ذكر صواريخ بيرشنج، أو قاذفات القنابل باكفاير، ومشكلة الرؤوس النووية المتعددة للصواريخ البرية العابرة للقارات، وكانت معاهدة سالت ٢ متخلفة عن التكنولوجيا الجارية، وبما أن كلا الجانبين كان له مطلق الحرية في بناء رؤوس نووية بالعدد الذي كان يبغيه، وكذلك في تزويد كل مطلقات الصواريخ بالرؤوس النووية المتعددة فإن معاهدة سالت ٢ لم تضع أية قيود على الإطلاق من وجهة النظر الفعلية على سباق التسليح. وقد قوبلت هذه المعاهدة بانتقادات حادة في مجلس الشيوخ الأمريكي الذي هاجمها بأنها عبارة عن تنازلات كثيرة وسمحت باستمرار تفوق الاتحاد السوفيتي الاستراتيجي، ولما تدخلت السوفيت في أواخر العام ١٩٧٩، في أفغانستان رفض مجلس الشيوخ الأمريكي المصادقة عليها^٢.

وفي العام ١٩٧٣، تم التوقيع على معاهدة منع الحرب النووية، وفي العام ١٩٧٤، تم التوقيع على معاهدة لاستكمال معاهدة سالت ١، إذ قلصت الشبكتين الدفاعيتين التي سمحت معاهدة (ABM)، أقامتها إلى شبكة واحدة^٣.

١ - كولن باون وبيتر موني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٢.

٢ - ستيفن امبروز، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٤.

٣ - المصدر نفسه، ص ٣٧٤.

المبحث الثاني

انتكاسة الوفاق أو الحرب الباردة الجديدة

أستطاع السوفيت تحقيق بعض المكاسب في أواسط وأواخر السبعينات في بعض بلدان العالم الثالث، ومجئ الرئيس ريغان إلى رئاسة الولايات المتحدة منذ مطلع العام ١٩٨٠، وتبنيه لسياسة التشدد إزاء الاتحاد السوفيتي، وبروز أزمة نزع السلاح، كل ذلك ساهم في انتكاسة الوفاق مدة اخذ يطلق عليها بالحرب الباردة الجديدة.

لقد كانت موجة النشاط السوفيتي المتزايدة في العالم الثالث بعد العام ١٩٧٥، احد أكثر ملامح مرحلة الوفاق الصعب من وجهة نظر الولايات المتحدة، فبعد ان دعم السوفيت أنظمة سياسية في العالم الثالث، وطنية وليس شيوعية شعروا بخيبة أمل كبيرة بعد فقدان للعديد من مواقعهم في هذه الدول، وكان رد فعل السوفيت على فشل الخمسينات والستينات كان التخلي عن دعم الديمقراطية الوطنية، والبدء في مساعدة الأحزاب الماركسية- اللينينية في العالم الثالث، فهؤلاء هم الذين يدافعون عن المصالح السوفيتية الخارجية، فبين الأعوام ١٩٧٥-١٩٧٩، قبضت سبعة أحزاب شيوعية موالية للسوفيت على السلطة أو استولت على أقاليم في آسيا وأفريقيا:-

في ربيع العام ١٩٧٥، استولت فيتنام الشمالية على الحكم في فيتنام الجنوبية، وفي الوقت ذاته استولى الباثيت لاو عملاء فيتنام على السلطة في لاوس.

في حرب انغولا ما بين العام ١٩٧٥-١٩٧٦، هزمت حركة اوغسطينو نيتو الشعبية لتحرير انغولا كل القوى المتصارعة على السلطة.

في شباط من العام ١٩٧٧، سيطر الشيوعي منجستو هيلامريام على السلطة في أثيوبيا. في نيسان من العام ١٩٧٨، قبض حزب محمد نور تراقي على السلطة في أفغانستان على اثر انقلاب مسلح.

في حزيران من العام ١٩٧٨، قام الشيوعيين في التجمع الحاكم في اليمن الجنوبية بانقلاب مسلح ناجح على غير الشيوعيين.

في كانون الثاني غزت فيتنام كمبوديا، وأحلت نظاماً موالياً للسوفيت فكانت حكومة بول بوت^١.

^١ - روبرت مكنمارا، مصدر سبق ذكره، ص ٧٣-٧٥.

ويمكن تفسير نشاط السوفيت في نهاية السبعينات في أفريقيا واسيا ببساطة أنهم اعتقدوا أنهم قد توصلوا أخيراً إلى توازن سياسي وعسكري مع الولايات المتحدة، ولهذا شعروا بان من حقهم أن يقوموا بمثل هذه التحركات، فضلاً عن أنهم كانوا قادرين مادياً على التصرف كنتيجة للشلل الذي حدث في الولايات المتحدة الأمريكية في الأعوام التي أعقبت فضيحة ووترغيت، ورد الفعل السلمي نسبياً الذي واجهت به إدارة كارتر التحركات السوفيتية المبكرة¹.

والبعض يلقي اللوم على إدارة كارتر، وضعفها في مواجهة هذه التحديات، وعدم قدرتها على الاحتفاظ بالمبادرة، وان فريق عمل أدارته لم يضع سياسة واضحة تجاه الاتحاد السوفيتي، ولم يستطع الرد على التحديات السوفيتية، وأن هذا الغياب لأفاق إستراتيجية واضحة المعالم قد أضرت بالسياسة الخارجية الأمريكية في مناطق من العالم مثل أفريقيا، والشرق الأقصى، وإلى حد ما في الشرق الأوسط، وأمريكا اللاتينية، وأن القلق الأمريكي تمثل في الانسحاب قبالة مجموعة من التأثيرات السوفيتية.

إن إدارة كارتر تعتقد أن الاتحاد السوفيتي قد قام بهجوم جيوبوليتيكي، لان حقيقة قوته العسكرية تمثل المجال الوحيد الذي يمكن أن يؤكد نفسه كقوة عظمى، ويرى هؤلاء أن حكومة كارتر قد تبنت أسلوباً خاطئاً، وعدم كفاءة في مواجهة السوفيت في العالم الثالث، واتبعت سياسة متأرجحة في معالجة قضية الرهائن في إيران عندما اتفق كارتر مع الحلفاء على إيقاع عقوبات اقتصادية مع إيران، وبالامتناع عن استخدام أسلوب القوة، وكذلك ضعفه في معالجة انقلاب أفغانستان في العام ١٩٧٨، وكذلك عدم ممارسة ضغوط على رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن بشأن سياسة الاستيطان، وعدم اتخاذه إجراء خلال اكتشاف لواء سوفيتي في كوبا أو احتلال أفغانستان من قبل السوفيت^٢.

إن التطور السلمي الحاسم تمثل في التدخل العسكري السوفيتي في أفغانستان في ٢٧ كانون الأول من العام ١٩٧٩، أي بعد خمسة شهور فقط من توقيع معاهدة سالت ٢، وقد جاء هذا التدخل لكي يحدث تحولاً حاداً في فكر الرئيس الأمريكي كارتر، وفي اتجاه أدارته، وجعل من العام الأخير لهذه الإدارة بداية سلسلة التراجع في العلاقات

¹ - المصدر نفسه، ص ٧٥.

² - Stanley Hoffman 'La Nouvelle Guerre Froide ' Strategie- berger- Levrault, Paris, 1983, p 39-41. وكذلك p 133 . -134.

الأمريكية- السوفيتية، فرأى كارتر أن الأجراء السوفيتي قد وضع القوات العسكرية السوفيتية على حدود (٣٠٠) ميل من المحيط الهندي، وعلى مقربة من مضيق هرمز، وهو البحر الذي يمر عن طريقه معظم نفط العالم، وفرض تهديداً لحركة الملاحة الحرة لدول الشرق الأوسط^١.

إما الإجراءات التي أقدم عليها كارتر في الرد على هذا التدخل، فقد أجلت إدارة كارتر عرض معاهدة سالت الثانية على مجلس الشيوخ لإقرارها، وجمدت ٢ مليار دولار كانت ستستخدم لتمويل مبيعات القمح للاتحاد السوفيتي، ومنعت رياضها من المشاركة في اولمبياد موسكو في العام ١٩٨٠، وأوقفت بيع التكنولوجيا المتقدمة للسوفيت، وزادت من مساعدتها لباكستان بعد أن سبق رفضها، وعجلت من اتصالاتها مع الصين الشعبية، وكذلك بينت الولايات المتحدة عن خرق الاتحاد السوفيتي لإعلان المبادئ، فضلاً عن التدخل السوفيتي في انغولا، والقرن الإفريقي، واليمن الجنوبي، والتذكير بالتطور الذي أضف النفوذ السوفيتي في منطقة جنوب شرقي آسيا عندما عانت الولايات المتحدة الهزيمة في فيتنام، وبالغزو الفيتنامي لكمبوديا، والأكثر من ذلك سقوط الشاه، ومجى الثورة الإيرانية التي أضعفت من تأثير الولايات المتحدة في المنطقة^٢.

إن ضعف إدارة كارتر في مواجهة الأزمات التي ظهرت في أواخر السبعينات أدى إلى فوز الرئيس ريغان في الانتخابات، وأصبح رئيساً في مطلع العام ١٩٨١، والذي جاء إلى الحكم بتصميم على تبني مواقف أكثر قوة وجرأة لكي يوقف ما رآه ضعفاً أمريكياً والذي رده إلى السياسات التي اتبعت خلال السبعينات، وهي الحقبة التي رآها حقبة تدهور لا تبعث على الراحة والاطمئنان داخلياً، ودولياً، ومعنوياً، واقتصادياً، ورأى أن مصدر المشكلة هي القيادة الضعيفة خاصة في إدارة كارتر، وليس نتيجة ضعف كامن في الولايات المتحدة التي كانت وما تزال تحتفظ عنده بالقدرة على أن تظل الأمة المسيطرة على العالم، وانه إذا أريد وقف تراجع وضع أمريكا الدولي ومواجهة القوة العسكرية السوفيتية، واتجاهها التوسع، فإن القوة العسكرية، والبناء العسكري يجب أن يكون له الأولوية المطلقة، ولهذا فإن امن ومكانة الولايات المتحدة لا تتحقق إلا عن طريق التفوق العسكري، وان اتفاقيات الحد من التسليح لم يستفد منها سوى الاتحاد

١ - د. السيد أمين شلبي، من الحرب الباردة إلى البحث عن نظام دولي جديد، مصدر سبق ذكره، ص ١٤-١٦.

٢ المصدر نفسه، ص ٢٠.

السوفيتي، وانه حتى لو قبلت الولايات المتحدة التفاوض، فيجب ألا تقدم عليه إلا بعد بناء قوتها العسكرية، وان هذا البناء سوف يتيح عدد من الحلول للتحديات الخارجية التي تواجهها الولايات المتحدة وهكذا ركز ريغان في الطابع الصراعي، والمواجهة مع الاتحاد السوفيتي، ويعد ذلك تحولاً أساسياً عن السياسات الخارجية للحقبة الماضية، فحيث أدار الرؤساء الأمريكيين نيكسون، وفورد، وكارتر حتى نهاية السنة الثالثة من أدارته السياسة الخارجية، والعلاقة مع الاتحاد السوفيتي بشكل حاولوا فيه التكيف مع ضرورات عالم متغير، وقد اتبع ثلاثتهم دبلوماسية نشطة للتعويض في تعدد القوى الدولية التي أصبحت واضحة بشكل كبير في نهاية الستينات، أما ريغان فقد جاء لكي يقلب هذا المنطق فعنده لم تكن الولايات المتحدة هي المطالبة أو المسؤولة عن التكيف مع العالم، وان أمريكا القوية الواثقة من نفسها يمكن أن تجعل العالم يتكيف معها، وفي مجال بناء القوة العسكرية، إذ شرعت إدارة ريغان في تقوية نظمها الدفاعية وأصرت على مستوى من الإنفاق العام يواجه متطلبات مستويات عالية من التقدم، على أساس ان هذا يخدم الموقف الأمريكي والغرب في أي مفاوضات مع الاتحاد السوفيتي بمستوياته المختلفة، بل انه بدأت تتردد في أرجاء الإدارة أفكاراً حول الحرب النووية المحدودة، اعتقاداً بأنها أصبحت أكثر احتمالاً من صراع إقليمي محدود يتضمن استخدام القوى النووية والتقليدية¹.

غير أن إدارة ريغان ما لبثت ان تبينت ان هذه الممارسات المتشددة لم تحقق تقدماً يذكر في مسائل السياسة الخارجية، بل على العكس هددت عدد من الانجازات التي حققتها إدارة سابقة، مثل التقارب مع الصين، كما خلقت توترات في العلاقة مع الحلفاء الأطلسيين، وفي الشرق الأوسط الذي تصاعد فيه الصراع، والتوتر، واحتمالات التورط الأمريكي فيه نتيجة للغزو الإسرائيلي للبنان في العام ١٩٨٢، ولذلك ظهرت الحاجة لا إلى التخلي عن المرتكزات الرئيسة لفكر وسياسة الإدارة، وإنما لإيجاد عنصر توازن في توجهاتها، وممارساتها، وكان في مقدمة ذلك تعيين جورج شولتز وزيراً للخارجية في العام ١٩٨٢، بدلاً من الكسندر هيج، وبدأت في الظهور اتجاهات تغيير ملحوظ في الأسلوب، وإلى حد ما في المضمون. وقد بدأ المراقبون يرصدون محاولات إدخال عناصر جديدة في المرونة في سياسات الإدارة، والتي بدأت تظهر عن طريق إعطاء قدر من

١ - المصدر نفسه، ص ٣٥-٤١.

الاهتمام في محادثات الحد من التسلح، ورفع الحظر عن الشركات الأوروبية والأمريكية التي تبيع التكنولوجيا لمشروع غاز سيبريا، كما بدأت الإدارة الأمريكية تخفض من الربط الصارم الذي كانت تقيمه بين ما تطالب به السوفيت من تغيير في سلوكهم في المناطق الإقليمية، وبين التقدم على جهات أخرى، وعد شولتز ان هذه الساسة لم تكن في مصلحة الولايات المتحدة، وضرب مثلاً على ذلك بقرار بيع القمح الاتحاد السوفيتي خلال ادارة كارتر غير ان عناصر التوازن التي كانت قد بدأت تدخل السياسة الأمريكية خلال ادارة ريغان ما لبثت ان تراجعت بحيث لم يظهر أي تأثير ايجابي في مسار العلاقات الأمريكية- السوفيتية، وكان ذلك بفعل عدة تطورات رئيسة:

أولاً: الإعلان عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي في ٢٣ آذار من العام ١٩٨٣، إذ دعا ريغان العلماء الأمريكيين ان يتوصلوا إلى وسائل لجعل الأسلحة النووية عقيمة وباليلة، وكان الهدف من هذه المبادرة هو تطوير طرق ووسائل تدمير الصواريخ المعادية بسلسلة من الهجمات عبر كل طرق طيرانها منذ لحظة إطلاقها حتى دخولها مجال الولايات المتحدة، والغاية من ذلك بناء درع في الفضاء ضد الصواريخ المهاجمة، وبحيث يصبح الحد الأدنى لما يقدم هو المساعدة على حماية الصواريخ الأمريكية، وسد الثغرة التي تتعرض فيها للخطر المدن الأمريكية. وقد انتقد السوفيت مبادرة الدفاع الاستراتيجي بان هدفها الرئيس هو قلب وتغيير المعادلة الإستراتيجية مما يؤدي بالنتيجة إلى اختفاء الردع النووي الذي هو حجر الزاوية للعلاقات الإستراتيجية بين الدولتين العظميين الأمر الذي يغير أساسا من الأسس التي قامت عليها معاهدة سالت الأولى ، ومبدأ التعاون الاستراتيجي بين الطرفين، إذ سيكون بمقدور الولايات المتحدة أن تشن هجوماً فجائياً بدون خوف من الانتقام.

ثانياً: إسقاط طائرة الخطوط الجوية الكورية، في ٢٨ أيلول من العام ١٩٨٣، اسقط الاتحاد السوفيتي طائرة تابعة للخطوط الجوية الكورية الجنوبية فوق الأراضي السوفيتية، واهتموها بالقيام بإعمال تجسسية حادّة عدّه السوفيت مسألة تخص أمنه القومي، وراح ضحيته ٢٧٩ شخص من بينهم أمريكيين.

ثالثاً: فشل التوصل إلى اتفاق حول الصواريخ المتوسطة المدى في أوروبا. لقد كان القرار الذي اتخذته حلف الأطلسي في كانون الأول من العام ١٩٧٩، بنشر صواريخ من نوع بيرشغ ٢، وكروز الأمريكية في الأراضي الأوروبية. قد قام على أساس أن نشر صواريخ

أمريكية إنما جاء رداً على نشر السوفيت صواريخ متوسطة المدى من نوع SS20 وقد حدد موعداً للمفاوضات في كانون الأول من العام ١٩٨٣، ومع عدم التوصل إلى اتفاق في هذا التاريخ نفذت دول حلف الأطلسي قرارها، وبدء بالفعل وصول الصواريخ الأمريكية إلى ألمانيا الغربية، وبريطانيا، الأمر الذي رد عليه السوفيت بالانسحاب من المفاوضات المتعلقة بالصواريخ المتوسطة المدى، وكذلك الانسحاب من محادثات خفض الأسلحة الإستراتيجية ستارت، ومفاوضات الأسلحة التقليدية^١.

رابعاً: قيام الرئيس ريغان بدعم المعارضة في نيكاراغوا ضد حكومة دانييل اورتيجا خشية من انتشار الشيوعية إلى باقي دول أمريكا اللاتينية. لقد عمل الرئيس ريغان أيضا على زيادة المساعدة لحكومة السلفادور بمبلغ ٢٥ مليون دولار، وأرسل إليها خبراء عسكريين أمريكيين، وذلك من اجل دعمها ضد قوات الكونترا الذي أطلق عليهم بالمخربين من اجل الحرية، وأقام ريغان قاعدة عسكرية في هندوراس، أما الرئيس بوش الأب فقد قام بالتدخل في بنما عسكريا، والإطاحة بالجنرال مانويل نورييغا المناوئ للولايات المتحدة وإلقاء القبض عليه^٢. وفي نيكاراغوا شدد الرئيس بوش الحصار عليها مما اثر في اقتصادها، واضطر الرئيس دانييل اورتيجا إلى اتخاذ إجراءات تقشف استلزمت تخفيض الميزانية بنسبة ٤٤% وتسريح ٣٥ ألف موظف مما أضرت تلك الإجراءات بشعبته، ولما تم إجراء الانتخابات التي طالبت بها الولايات المتحدة خسرها اورتيجا، وقرر احترام نتائج الانتخابات، وتم تسليم السلطة إلى زعيم المعارضة^٣.

خامساً: في نيسان من العام ١٩٨٩، بدأت تظاهرات طلابية جماعية في الصين الشعبية في العاصمة بكين في ميدان تيان ان مين، حيث استخدمت فيها السلطات الصينية القوة المسلحة، وسقط عدد كبير من القتلى في أيار قامت على أثرها الحكومة الصينية بفرض الأحكام العرفية، وفي ٥ حزيران أمر الرئيس الأمريكي بوش الأب بإيقاف المبيعات العسكرية إلى الصين الشعبية، وتدهورت على أثرها العلاقات الأمريكية- الصينية^٤.

١ - المصدر نفسه، ص ٤٤-٥٢.

٢ - ستيفن امبروز، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٩-٤١٣، وكذلك ص ٤٦٠.

٣ - المصدر نفسه، ص ٤٥٩.

٤ - المصدر نفسه، ص ٤٥٦.

المبحث الثالث

العلاقات الأمريكية - السوفيتية في عهد غورباتشوف

إن وصول غورباتشوف إلى زعامة الاتحاد السوفيتي في آذار من العام ١٩٨٥، قد عبر عن تطور جديد في السياسة السوفيتية، ونرى وجود جيل جديد في القيادة السوفيتية نشأ وتطور في أوضاع تاريخية مختلفة عن الجيل الذي نشأ وشارك في أوضاع وأحداث الثورة البلشفية، وهي الأوضاع التي شكلت الإطار الفكري والعملية لأفعال وردود أفعال جيل القادة الذي نشأ من قبل هذه الأوضاع، وبحكم السن فقد ظهر انفصال لغورباتشوف عن هذه الأوضاع، وتفتحه على أوضاع موضوعية مختلفة اقترنت فيها عناصر الثورة السوفيتية بعناصر الضعف، وتراكم مشكلات النظام، ومعضلاته الإيديولوجية، والاقتصادية، والتكنولوجية، وطبق غورباتشوف الريسترويك (أعادة البناء)، والغلاسنوست (العلنية) في الداخل لمعالجة مشكلات الاتحاد السوفيتي الداخلية. وقد انعكس ذلك على السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي، فامتازت بالمرونة، والاتجاه نحو التعاون مع الولايات المتحدة، وكان ذلك بفضل سياسة تقديم المتطلبات الاقتصادية على المتطلبات الخارجية، والتخلي عن دعم الأنظمة السياسية الحليفة، والتي كانت مرتبطة أيديولوجيا بالاتحاد السوفيتي لمصلحة القضايا الداخلية^١، وأكد على مسألة إعادة تقدير متطلبات الأمن الذي يجب ان يتحقق بالوسائل الدبلوماسية لا بالوسائل العسكرية، وكذلك عن طريق التعاون بين المعسكرين، وسعى غورباتشوف إلى بذل جهود كبيرة لحل المشكلات الإقليمية^٢.

إن أهم ما تمخض عن وصول غورباتشوف إلى قمة الهرم السوفيتي هو العودة إلى أحياء دبلوماسية القمة مع الولايات المتحدة، ففي ١٩ تشرين الثاني من العام ١٩٨٥، عقد في جنيف أول قمة بين الزعيمين ريغان، وغورباتشوف وتم مناقشة المفاوضات حول الأسلحة النووية، وأسلحة الفضاء، واستعدادهما للتفاوض لخفض أسلحتهما الهجومية بنسبة ٥٠%، وكذلك تأييد مبدأ التعادل، والأمن المتبادل، وهي المبادئ التي يحرص عليها الجانب السوفيتي، وفي قمة ريكيافيك في ١٠ كانون الأول من العام ١٩٨٦، قدم السوفيت فيه نزول عن مواقفه السابقة، مثل قبوله لمبدأ التفهيش الموقعي، وقبل ان يشمل التخفيض في الأسلحة الإستراتيجية صواريخه من طراز SS

١ - د. السيد امين شلبي، "من الحرب الباردة إلى البحث عن نظام دولي جديد" مصدر سبق ذكره، ص ٥٩.

٢ - روبرت مكنمارا، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٠-١٠٦.

18، البعيدة المدى، والتي تتميز بالدقة، وتحمل عشرة رؤوس نووية، وتمثل جوهر القوة النووية السوفيتية، وتخلي عن موقفه الذي ظل متمسكاً به في مفاوضات الصواريخ المتوسطة المدى في أوروبا بضرورة احتساب الصواريخ النووية البريطانية والفرنسية في ميزان الصواريخ المتوسطة المدى في أوروبا، إلا ان قبول التفتيش الموقعي يعد أهم تنازل قدمه الاتحاد السوفيتي، وهو المبدأ الذي كان يرفض مناقشته خلال كل مراحل مفاوضات الحد من التسليح منذ ان بدأت في الخمسينات، وكان يعدّه محاولة لاختراق الاتحاد السوفيتي من الداخل، والتجسس على المنشآت العسكرية السوفيتية. وتوصل الزعيمان إلى أساس لخفض ٥٠% من القوى النووية الإستراتيجية للقوتين العظميين على مدى خمس سنوات، الأمر الذي عدّه آخرون طموحاً وبشكل مستحيل، وكان الطرفين على وشك الاتفاق على خفض الصواريخ المتوسطة المدى لولا إصرار السوفيت على ربط التوصل النهائي إلى اتفاق حول العناصر السابقة، وبين تخلي الولايات المتحدة عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي، إذ تمسكت الولايات المتحدة بهذا البرنامج، وعدته انه كان السبب الذي جاء بالاتحاد السوفيتي إلى مائدة التفاوض¹.

وفي قمة واشنطن في كانون الأول من العام ١٩٨٧، والقمة الثالثة، كان الاجتماع مختلفاً عن اجتماعات جنيف، وريكيافيك، ففي جنيف لم يتحقق شئ، وفي ريكيافيك، كان الفشل رغم التفاهم العريض الذي تحقق خلالها حول قضايا خفض التسليح. وقد صدر عن قمة واشنطن اتفاقية إزالة الصواريخ المتوسطة، والقصيرة المدى في أوروبا، وهي الاتفاقية التي تطلبت من الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي تصفية الصواريخ المتوسطة المدى خلال ثلاث سنوات، والقصيرة المدى خلال سنة ونصف وقد انطوت هذه الاتفاقية على قبول خيار الصفر (Zero-Option)، والذي اتفق على جوهره في القمة السابقة، والمقصود بذلك إزالة الصواريخ بشكل تام من كلا الجانبين، وبموجب هذه الاتفاقية لن يكون من حق أي طرف تحدي هذه الصواريخ بعد أزالتها وإنتاجها. وقد نظمت هذه الاتفاقية مذكرة تفاهم حول تقديم المعلومات عن مواقع، وأعداد، وخصائص الصواريخ لكل جانب المتوسطة والقصيرة المدى، كما تضمنت بروتوكولات لتحديد إجراءات إزالة هذه الصواريخ، وقواعد الإطلاق، والمعدات، إذ أنها تمثل ١/٥ هذه الترسانة، وإنما في الحقيقة أنها أول اتفاقية لخفض التسليح توقعها القوتان منذ ١٥ عاماً، وإنما أول اتفاقية تصفي جيلاً كاملاً من مستويات الأسلحة

¹ - د. السيد امين شلبي، "من الحرب الباردة إلى البحث عن نظام دولي جديد" مصدر سبق ذكره، ص ٧٢-٧٣.

الإستراتيجية للقوتين، بما في ذلك عدة أشكال من الأخطار المبكر، والتفتيش ألسوقي كما اعتبرها بعض المحللين ان قيمتها السياسية تفوق قيمتها العسكرية^١. كما حدث تطور مهم آخر حين زار وزير الخارجية السوفيتي ادوارد شفرد نادزة، واشنطن في ١٥-١٧ أيلول من العام ١٩٨٧، إذ وقع اتفاقية لإنشاء مركز لتقليل الأخطار النووية. وقد اعتبرت هذه الاتفاقية خطوة عملية أخرى للتقليل من أخطار الصراع الذي يمكن ان ينشا من الحوادث، أو سوء التقدير أو سوء الفهم. وقد جاءت هذه الاتفاقية لكي تؤسس القناة الأولى للاتصالات بين موسكو وواشنطن منذ إنشاء الخط الساخن في العام ١٩٦٣^٢.

ثم جاءت قمة موسكو في ٢٥-٢٩ أيار من العام ١٩٨٨، لتكون استمراراً للقمة السابقة، إذ كان إنجازها الرئيس هو التصديق على اتفاقية الصواريخ المتوسطة المدى بعد تصديق الكونغرس الأمريكي، والسوفيت الأعلى عليها، وتمكنت العلاقات ان تتطور بين العملاقين باستبعاد عناصر التوتر والصراع بين القوتين، وهي العناصر التي صاغت النظام الدولي على وفق أنموذجها على مدى الحقب الماضية ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية^٣.

ثم التقى ريغان وغورباتشوف في كانون الأول من العام ١٩٨٨، حينما توجه غورباتشوف إلى نيويورك لحضور اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، ويرتبط هذا اللقاء، فيما يتعلق بمضمون العلاقات السوفيتية- الأمريكية الجديدة، ويرتبط بالخطاب الذي ألقاه غورباتشوف في الجمعية العامة في ٨ كانون الأول من العام ١٩٨٨، الذي أعلن فيه عن خفض القوات المسلحة السوفيتية بشكل منفرد بمقدار ٥٠٠ ألف جندي بما فيها القوات السوفيتية في حلف وارشو، وبإشارة واضحة إلى دول شرق أوروبا والأسس التي يجب ان تحكم علاقة الاتحاد السوفيتي، وتحدث غورباتشوف عن مبدأ حرية الاختيار الذي يجب ان يستند إلى احترام وجهات نظر الآخرين ومواقفهم، والاستعداد لرؤية ظاهرة مختلفة على انها بالضرورة سيئة أو معادية، والقدرة على التعلم للعيش جنباً إلى جنب في الوقت الذي يكون فيه النظامين مختلفين^٤.

١ - المصدر نفسه، ص ٧٤.

٢ - المصدر نفسه، ص ٧٦.

٣ - المصدر نفسه، ص ٧٧.

٤ - المصدر نفسه، ص ٧٩.

المبحث الرابع

خطوات أوربانحو الوحدة

لقد كان لكثرة الحروب بين الأوربيين، وامتداد الصراعات لمدة طويلة من الزمن أثرا في ظهور فكرة الوحدة الأوربية، وذلك للتخلص من هذه الحروب والولايات التي عانتها القارة، فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتصاعد الحرب الباردة في القارة الأوربية برزت وجهتها نظر حول الوحدة الأوربية، وجهة النظر الأولى التي عبرت عن رأي الاتحاديين، ومن ابرز إعلامهم تشرشل، الذين دعوا إلى بناء نوع من الولايات المتحدة الأوربية، وجعل تشرشل حجر الزاوية في هذا البناء الاتحادي المقترح مشاركة كل من فرنسا، وألمانيا فيه، في حين ركزت وجهة النظر الأخرى، موقف الفيدراليين الذين دعوا إلى إنشاء فوري لدولة فيدرالية أوربية تقبل فيها كل الشعوب التي تقبل الانتساب إلى الدولة الجديدة، وفي حالة قبولها يتم تحويل جزء من سيادتها في الاقتصاد، والدفاع والسياسة إلى هذه الدولة التي تكون بعيدة عن الكتلتين، وقد اجتمع هؤلاء في سويسرا في العام ١٩٤٨، لبحث إمكانية البدء في عمل ملموس تجاه التوحيد الأوربي، وكان هناك خلاف بين جهتي النظر، فالفيدراليون حاولوا أبقاء مشروعهم خارج الصراع الدائر بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي، أما تشرشل ومؤيدوه من المحافظين، فكانوا يرون الاتحاد الأوربي ضرورياً لتقوية الجهة الغربية تجاه الاتحاد السوفيتي، وكذلك أراد الفيدراليون عملاً سريعاً يتضمن نقلاً للسيادة، أما منهج تشرشل، وأنصاره، فكان تدريجياً يهدف إلى التعاون الوثيق بين الدول المشتركة، بمعنى أن الهدف هو إقامة اتحاد بين الدول ذات السيادة أكثر منه وحدة فيدرالية^١.

وبعد أن تم إقامة مشروع مارشال في العام ١٩٤٧، تأسست المنظمة الأوربية للتعاون الاقتصادي التي كان عليها أن تطبق مشروع مارشال، وفي الوقت نفسه أصبحت ساحة الخلاف بين بريطانيا، وفرنسا، فبريطانيا كانت تريد البقاء خارج الساحة الأوربية، والاكتفاء بالعلاقة الخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم فلم تكن على استعداد لقبول منظمة تتجاوز السيادة القومية للدول الأعضاء. أما فرنسا، فكانت على النقيض تريد منظمة قوية تكفل وحدة أوربا، وتعطي فرنسا وزناً عن طريق هذه

١ - د. عبد المنعم سعيد، الجماعة الأوربية: تجربة التكامل والوحدة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٦، ص ٢٩-٣٠.

الوحدة في السياسة العالمية من جديد، لقد كانت منظمة التعاون الاقتصادي اقتصادية محضاً تعنى بتطبيق مشروع مارشال، وليس بأي أمر آخر، ومن ثم كان مطلوباً خلق كيان آخر يكفل بالتعاون السياسي، والاهم من ذلك التعاون العسكري. فقد كانت مشكلة الأمن الأوروبي الغربي آخذة في الحدة بالنسبة لفرنسا، وبريطانيا ليس نتيجة لتوسع الشيوعية إلى دول شرق أوروبا فقط، ولكن أيضا بسبب إمكانية عودة ألمانيا مرة أخرى لتهديد فرنسا، حيث كانت الولايات المتحدة آخذة تدريجياً في الاقتناع بان مواجهة الاتحاد السوفيتي، والمعسكر الاشتراكي يتطلب أحياء القوة العسكرية الألمانية، ولكن فرنسا رفضت بقبول مسألة تسليح ألمانيا بسبب عدم وجود ضمانات مطلقة تمنع أي تهديد ألماني لفرنسا، حتى ولو تضمن ذلك التخلي عن مشروع مارشال كلياً^١.

وفي موازاة البحث عن طريق لمواجهة المشكلة الألمانية لغرب أوروبا كانت الحاجة ملحة لشكل من أشكال التعاون السياسي والاقتصادي بين هذه الدول نظراً لارتباط الأبعاد الاقتصادية والسياسية بقضية الأمن نفسها. لقد أفضت تجربة إنشاء مجلس في أوروبا في العام ١٩٤٩، إلى نتائج متواضعة للغاية، فالمجلس كان يتخذ قراراته بالإجماع، وحتى قراراته كانت تمثل مجرد توصيات لحكومات الدول الأعضاء تأخذ بها أو ترفضها. كما أن احتواء المجلس على الدول المحايدة، مثل السويد، جعل من قدرة هذا المجلس على اتخاذ القرارات ذات شأن تتعلق بالسياسة الخارجية مسألة مستحيلة، فضلاً عن استبعاد الأمور الدفاعية كلياً من جدول أعمال المجلس^٢.

ومع بداية الخمسينات بات واضحاً أن ألمانيا الغربية آخذة في الانتعاش الاقتصادي نتيجة جهد الشعب الألماني، والمساعدة الأمريكية المكثفة ولم يعد مقبولاً أن تستمر الإدارة الدولية على إقليم الرور المهم إلى الأبد، وكان ذلك باعثاً على قلق الدبلوماسية الفرنسية التي كان عليها أن تبحث عن طريق لمواجهة المعجزة الاقتصادية الألمانية، ومنعها من التحول إلى تهديد لفرنسا، والسلام في أوروبا^٣.

إذ سعى بعض الأوروبيين إلى بقاء ألمانيا ضعيفة بحيث لا تهدد من جديد أيّاً من الدول الأوروبية، وكان أكثر هذه الإجابات تطرفاً، اقتراح ديغول بفصل إقليم الرور

١ - المصدر نفسه، ص ٣٤.

٢ - المصدر نفسه، ص ٣٩.

٣ - المصدر نفسه، ص ٤٠.

مركز الفحم، والصلب، ومحور الصناعة الألمانية من ألمانيا، إلا أن بريطانيا، والولايات المتحدة رفضتا الاقتراح محتجين بان هذا الإقليم لازم للانعاش الاقتصادي الألماني، إلا أن الإجابة التي كان عليها أن تؤثر في مستقبل التكامل الأوربي، وضعها جان مونييه رئيس مكتب التخطيط الفرنسي، وتبناها روبرت شومان، وزير الخارجية الفرنسي أيضا وعرفت باسم مشروع روبرت شومان، وكان هذا المشروع ذا طبيعة سياسية فقد تضمن انه يمكن إنهاء التنافس التاريخي بين ألمانيا وفرنسا، وجعل الحرب بينهما ليست غير معقولة فقط، ولكن مستحيلة مادياً أيضا، وعن طريق يؤدي إلى اتحاد أوربي لا غنى للسلام عنه^١.

وفي ٩ أيار من العام ١٩٥٠، دعا روبرت شومان وزير الخارجية الفرنسي إلى إنشاء الجماعة الأوربية للفحم، والصلب، والواقع أن فكرة هذا المشروع كان ورائها جان مونييه، الذي يعد بحق الأب الروحي لعملية الاندماج الأوربي. وقد أدرك مونييه بعد عمله خمس سنوات في مجال التخطيط للاقتصاد الفرنسي أن فرنسا لن تستطيع تحقيق نمو اقتصادي، ورفع مستوى المعيشة إلا من خلال تجاوز إطار الدولة القومية وتحقيق تعاون اقتصادي على مستوى أكبر، ورأى مونييه إيجاد أطار أوسع يقوم على إنشاء سوق مشتركة على مستوى القارة الأوربية كخطوة نحو قيام جماعة اقتصادية تتبنى سياسات اقتصادية مشتركة، ولكن مونييه كان من أنصار التدرج، وعدم تبني أحلام عريضة لا يمكن تحقيقها في الواقع، ثم كانت الفكرة هي إنشاء الجماعة الأوربية للفحم، والصلب في العام ١٩٥١، على أساس إنهما مادتان أساسيتان في صناعة أدوات الحرب، ومن ثم فإن وضعهما تحت إشراف مشترك سيحول دون استخدامهما من إحدى الدول لمحاربة دولة أخرى، وكانت الفكرة الأساسية هي عضوية كل من ألمانيا وفرنسا في هذه الجماعة لتطوير آلية التعاون السلمي بينهما، ومنع قيام حرب أخرى بينهما، ولكن ترك باب العضوية مفتوحاً للدول الأخرى، ورحبت ألمانيا بزعامة اديناور بالفكرة، لأنها كانت تعني عودة ألمانيا للاندماج في القارة الأوربية^٢.

١ - المصدر نفسه، ص ٤١.

٢ - د. محمد مصطفى كمال، ود. فؤاد نهران، صنع القرار في الاتحاد الأوربي والعلاقات العربية-الأوربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠١، ص ٢٢-٢٣.

وتزامن ذلك مع ظهور فكرة أخرى، وهي إنشاء جماعة الدفاع الأوربي وهي فكرة اقترحها بليفن رئيس الوزراء الفرنسي، وتنطوي على ضم كل من الجيش الألماني مع بعض القوات من الدول الأوربية الأخرى في إطار أوربي قومي، ولكن الجمعية الوطنية الفرنسية رفضت التصديق عليها في آب من العام ١٩٥٤^١.

وبعد إخفاق جهود الاندماج في المجالين السياسي والعسكري كان لابد من إعطاء دفعة جديدة للاندماج في المجال الاقتصادي. وقد تم تكليف هنري سباك وزير خارجية بلجيكا، وذلك بتقديم دراسة واقتراحات عن هذا الموضوع. وقد كتب تقريراً أشار فيه إلى أنه من اجل أن تستعيد أوروبا مكانتها الدولية، وقدرتها على التأثير في الأحداث، فلا بد من تحسين إمكانياتها الاقتصادية، ولن يتحقق ذلك إلا عن طريق إنشاء سوق مشتركة كخطوة نحو إقامة سياسة اقتصادية مشتركة، وشكل تقرير سباك الأساس الذي قامت عليه المفاوضات التي أدت إلى توقيع معاهدة روما في العام ١٩٥٧، والتي تأسست بموجبها السوق الأوربية المشتركة في ١ كانون الثاني من العام ١٩٥٨، والتي جمعت جماعة الطاقة الذرية الأوربية، والجماعة الاقتصادية الأوربية، وجماعة الفحم والصلب الأوربية بعد انضمام إيطاليا، أي أنها تكونت من ست دول هي: فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وهولندا، وبلجيكا، ولوكسمبورغ، وكان الربط بين موضوعي الطاقة الذرية، والسوق الأوربية المشتركة مهما لقبولهما معاً، ونجاحه من قبل ألمانيا، وفرنسا، فبالنسبة لألمانيا، فإن الهدف الأساسي لإنشاء السوق المشتركة هو من اجل تصريف صادراتها بعد تعاظم قوتها الاقتصادية، ولم تكن مهتمة بالدرجة نفسها بموضوع الطاقة الذرية، ونظرت إليه على انه محاولة فرنسية للحصول على دعم لتنمية برنامجها للطاقة الذرية. أما فرنسا، فكانت مدركة لتفوق الصناعات الألمانية، ومن ثم أرادت حصولها على نصيب الأسد من فوائد السوق المشتركة، وأرادت توفير إطار أكبر للمشاركة في تكاليف هذا البرنامج، وسوق أوسع للمنتجات والأبحاث في هذا المجال^٢.

أهداف السوق الأوربية المشتركة:

١. إزالة الرسوم الجمركية بين الدول الأعضاء، والحواجز الكمية كافة لتصدير واستيراد السلع وكل الإجراءات الأخرى التي لها التأثير نفسه.

١ - المصدر نفسه، ص ٢٤.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٥.

٢. إنشاء تعريفية جمركية مشتركة وسياسة تجارية مشتركة تجاه الأطراف الأخرى.
٣. إزالة العقبات في مواجهة حركة الأفراد، والخدمات ورأس المال بين الدول الأعضاء.
٤. إقامة سياسة زراعية مشتركة.

فضلاً عن التوسع، فإن العضوية في الجماعة قامت أيضاً بتدعيم مجالات الاندماج، إذ شهدت حقبة السبعينات إقامة آلية للتعاون في مجال السياسة الخارجية في العام ١٩٧٠، كما تمت إقامة النظام النقدي الأوروبي في العام ١٩٧٩، لتحقيق الاستقرار المالي بين الدول الأعضاء، وشهدت الثمانينات الموافقة على استكمال السوق الموحدة في العام ١٩٨٧، وذلك نهاية العام ١٩٩٢، وعلى الرغم من أن الجماعة الاقتصادية الأوروبية قد نشأت أساساً بهدف إقامة سوق أوروبية مشتركة، بل أن الاسم المتداول لها كان السوق الأوروبية المشتركة، إلا أن الجماعة الاقتصادية رأت في منتصف الثمانينات، وبعد نحو ثلاثين عاماً من إنشائها أن هذا الهدف لم يتحقق بأكمله، فالجماعة لم تلق مشكلة في إزالة الرسوم الجمركية بين الدول الأعضاء، وتم تحقيق ذلك في العام ١٩٦٨، وقبل ثمانية عشر شهراً من الموعد المحدد لها، ثم تم وضع تعريفية جمركية موحدة في مواجهة الدول غير الأعضاء، في الأول من تموز من العام ١٩٦٨ وبذلك استكملت عناصر الاتحاد الجمركي التي يتيح حرية حركة السلع بين الدول الأعضاء، ولكن باقى عناصر السوق المشتركة من حرية حركة العمالة، والخدمات، ورأس المال ظلت تواجه عقبات كثيرة حتى بداية الثمانينات، وحتى بدأت الدول الأعضاء تشعر بأهمية استكمال مشروع السوق المشتركة، وبخاصة مع انخفاض قدرة الدول الأوروبية على منافسة المنتجات الأمريكية واليابانية^١.

ونتيجة لذلك قامت المفوضية الأوروبية برئاسة جاك ديولور في آذار من العام ١٩٨٥، بتقديم مشروع لاستكمال السوق المشتركة بحلول نهاية العام ١٩٩٢، وأطلق عليه مشروع أوربا في العام ١٩٩٢، أو السوق الموحدة، وتضمن المشروع ٣٠٠ اقتراح لإزالة العقبات قبالة تحقيق السوق المشتركة، ووضع أطار زمني لتحقيق ذلك، وبنهاية العام ١٩٩٢، استطاعت دول الجماعة تطبيق غالبية الاقتراحات التي نص عليها

^١ - المصدر نفسه، ص ٢٩-٣٢.

مشروع إقامة السوق الموحدة، وفي مطلع العام ١٩٩٣، اخذ يطلق عليه بالاتحاد الأوروبي.

وقد توسعت السوق الأوروبية المشتركة من ست دول إلى تسع دول في العام ١٩٧٣، بانضمام بريطانيا، وايرلندا، والدانمارك ثم إلى عشر دول بانضمام اليونان في العام ١٩٨١، ثم اثنتا عشر دولة في العام ١٩٨٦، بانضمام اسبانيا، والبرتغال ثم إلى خمس عشر دولة في العام ١٩٩٥، بانضمام السويد، والنمسا، وفنلندا. لقد أدت ديناميكية ومتطلبات السوق الاقتصادية الموحدة إلى ظهور حاجة ماسة إلى توحيد السياسات الأوروبية في المجالات الاقتصادية والمالية. وقد أدت هذه بدورها إلى زيادة الاقتناع بأهمية التوصل إلى سياسات خارجية، وأمنية مشتركة في مرحلة أخرى من مراحل العملية التكاملية، ومن ثم إلى درجتها في درجات الوحدة السياسية التي لا بد أن تصل إلى عملية التكامل في نهاية المطاف، ويتألف الاتحاد الأوروبي من عدة هيئات: المجلس الأوروبي، مجلس الوزراء، والمفوضية الأوروبية، والبرلمان الأوروبي، ومحكمة العدل الأوروبية، والجهاز الأوروبي للمحاسبات، والبنك المركزي الأوروبي^١.

^١ - د.حسن نافعة، الاتحاد الأوروبي والدروس المستفادة عربياً، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٣٤، و ص ٥٢، ص ٢٣٤.

المبحث الخامس

انهيار الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي

مع حلول العام ١٩٧٠، كان الاقتصاد السوفيتي قد صعد إلى قمة جعلته يتجاوز نصف حجم اقتصاد الولايات المتحدة، وكان لا يزال ينمو بوتائراً على بعض الشيء، وكان الاقتصاد السوفيتي يشكل ١٥٣% من الدخل القومي العالمي، في حين كان الاقتصاد الأمريكي يساوي ٢٧٧%، ولكن معدلات النمو السوفيتية فقدت زخمها خلال السبعينات، وضمير الاقتصاد وفي العام ١٩٨٥، كانت النسبة السوفيتية من الدخل العالمي ١٤٧%، في حين زادت النسبة الأمريكية إلى ٢٨٥%، والأسوأ من ذلك هو أن الاتحاد السوفيتي لم يعد مع حلول عقد الثمانينات، يحتل المرتبة الثانية المضمونة في الهرم الاقتصادي العالمي، وكذلك كانت الهوة التكنولوجية المتزايدة في اتساعها بصورة دراماتيكية أمراً مؤكداً بالفعل، فأدركت النخبة السوفيتية أن المزيد من التقدم الاقتصادي يتطلب تجديداً علمياً تكنولوجياً، وان الاتحاد السوفيتي بات متخلفاً تخلفاً شديداً، وخصوصاً في ميدان التطبيق الاجتماعي - الاقتصادي للتكنولوجيا الحديثة، ولم يكن الاقتصاد السوفيتي يتخلف في السباق التكنولوجي فقط، بل كان قد أصبح اقتصاداً مبدداً يكثر من الهدر بشكل لا يصدق، فبدون الحافز الداخلي على المنافسة، والعقلنة، والترشيد بات ليس القطاع الصناعي السوفيتي متخلفاً لانعدام الكفاءة فقط، وللإسراف ذي النتائج العكسية في هدر الموارد، وكان للهدر الاقتصادي المترتب على ذلك، فضلاً عن التخلف الصناعي والتكنولوجي المرتبط به أيضاً تأثير سلبي وعكسي على القدرة السوفيتية على المشاركة في التجارة العالمية، ويوماً يعد آخر أصبح الاتحاد السوفيتي مصدراً للسلع الخام بالدرجة الأولى مثله مثل العديد من البلدان النامية، ولكنه بقي عاجزاً عن التنافس مع مصدري العالم الطليعيين للبضائع المصنفة، فحسب التقرير السنوي للجان تراجع الاتحاد السوفيتي عن المرتبة الحادية عشر في العام ١٩٧٣، إلى المرتبة الخامسة في العام ١٩٨٥، من حيث تصدير البضائع المصنعة بعد أن تجاوزته خلال تلك السنوات كل من تايوان، وكوريا الجنوبية، وهونغ كونغ، وسويسرا، وكان المجتمع السوفيتي بعد نحو أربعين سنة من انتهاء الحرب العالمية الثانية ما يزال يخضع لتقنين جزئي للمواد الغذائية ويعاني نقص دائم ومستمر في السلع الاستهلاكية، وكذلك كانت الرعاية الطبية للمواطن السوفيتي المتوسط تتدهور بصورة عامة، ومن غير المستغرب

تقلص متوسط عمر الذكور خلال عهد بريجنيف من ٦٦ سنة إلى ٦٢ سنة بالمقارنة مع ٧١ر٥، في الولايات المتحدة، وان يكون معدل وفيات الأطفال قد ارتفع إلى مستوى ضعفين ونصف مما هو في الولايات المتحدة، وكان الاستياء عند الشعوب السوفيتية موجه ضد نظام الامتيازات الخاصة لكبار الموظفين الأمر الذي زاد من الاستياء عند الجماهير السوفيتية التي كانت حياتها تزداد تدهوراً، وكان النظام السوفيتي قائم على البيروقراطية المركزية، إذ يقدم أتمودجا للديناميكية الاقتصادية والاجتماعية، وأن إنتاج سلعة واحدة ذات نوعية جيدة تتطلب استصدار قرار سياسي على مستوى المكتب السياسي، وخلال السنوات السبعين من الحكم السوفيتي لم يتم إنتاج سلعة واحدة كهذه قادرة على التنافس في السوق العالمية، وتلك كانت تركة ستالين التي ورثها بريجنيف، ورسخها إلى الأبد، وفي ذلك النظام الاقتصادي كانت البيروقراطية الحكومية هي التي تضع المعايير، وتحدد الأسعار بالنسبة للملايين السلع فيما كان المديرون يشرفون على الإنتاج بدون أية حوافز تدعوهم لان يكونوا مجددين. كما أن العمال كانوا ينتجون بدون أي دافع يدعوهم لزيادة الإنتاجية أو لتحسين النوعية. لقد أصيب الاتحاد السوفيتي بالركود من الناحيتين الكمية والنوعية، فبدلاً من تجاوز الولايات المتحدة ظل الاتحاد السوفيتي في أحسن الحالات يراوح في مكانه بوصفه البلد الأكثر نمواً بين البلدان النامية، وحتى في تلك المجموعات بات وشيكاً على مواجهة خطر أمكانية تجاوزه في بعض القطاعات الحاسمة من قبل بعض الدول النامية^١.

إن حملة العلنية الغلاسنوست لم تتضمن على أية حال انقراضاً شاملاً على التركة المورثة عن تلك المدة القائمة، لان مثل هذا الانقراض كان من الممكن أن ينطوي على عواقب مثيرة للاضطراب بالنسبة لبيئة النظام السياسي. لقد أدرك غورباتشوف أن أي إصلاح ناجع وفعال في الاتحاد السوفيتي لا بد أيضاً من أن يتطلب تغييرات بعيدة المدى في النظرة العامة في الثقافة السياسية للمجتمع، بل في طابع النظام السياسي بالذات. وقد أصبح واضحاً أن الإصلاحات الاقتصادية لن تتكفل بالنجاح إلا بعد إدخال الإصلاحات السياسية، وأن الخوف الغريزي من الديمقراطية بين صفوف بيروقراطي الحزب كان قد اكتسب مزيداً من الحدة بسبب الشكوك واسعة الانتشار بأن غورباتشوف كان في حملته الرامية إلى حشد تأييد الرأي العام لعملية إعادة البناء

^١ - زيبغوبو بريجنيسكي، الإخفاق الكبير: ميلاد الشيوعية وموتها، ترجمة: فاضل جنكر، دمشق، دار كنعان للدراسات والنشر، ١٩٩٠، ص ٣٩-٤٣.

البيروسترويكيا ويثير - بقصد أو بدون قصد- عواطف معادية للبيروقراطية بين صفوف الجماهير^١.

وفي أواسط العام ١٩٨٨، اعترفت القيادة الحزبية في الاتحاد السوفيتي بأولوية الإصلاح السياسي على الإصلاح الاقتصادي، وأن الإصلاح الاقتصادي اخذ يتطلب تقليص دور الحزب الشيوعي، وهذه مسألة خطيرة في الاتحاد السوفيتي^٢.

لقد استغل الغرب غورباتشوف خير استغلال، فقد دعم إصلاحاته من اجل أن يبقى الاتحاد السوفيتي منفتحاً على الغرب الذي مارس شتى الضغوط على غورباتشوف من اجل استغلال الانتخابات في البلدان ذات التزعة المزمنة كأداة لإزاحة السوفيت، وجني ثمار نجاح سياسة ريغان الداعية إلى اقتلاع الأنظمة الشيوعية في العالم الثالث. لقد أيد الغرب البيروسترويكيا من اجل دعم الاستقرار الدولي، والتخفيف من خناق السوفيت على أوروبا الشرقية، إذ أن ذلك يخدم بالتأكيد المصالح الغربية، وفي حين كان السوفيت يعتقدون بأن البيروسترويكيا يمكن أن تحول الاتحاد السوفيتي إلى شريك موثوق فيه للغرب، وكان الغرب، ولاسيما القادة الأمريكيين يرون بان كل شيء كان يمضي في مصلحة الولايات المتحدة نظراً لضعف السوفيت البالغ، وكان الغرب يتحين الفرصة لانتزاع التنازلات تلو التنازلات من غورباتشوف، ولكن القادة الأمريكيين حرصوا على عدم إذلال السوفيت، وهم يللمون أطراف إمبراطوريتهم الكونية، وذلك من اجل عدم منح المتشددين السوفيت أي فرصة لعرقلة الإصلاحات^٣. ويرى كيسنجر أن الفضل في إسقاط الاتحاد السوفيتي يقع على عاتق الرئيس ريغان لما لعبه من ادوار فيما يتعلق بالتسلح، وإثارة ملف حقوق الإنسان، وتبنيه إستراتيجية توقف التوغل السوفيتي، وعزز دعم المقاومة الأفغانية ضد السوفيت، ووضع برنامجاً ناجحاً لمكافحة القوى الشيوعية في أمريكا الوسطى، ومد يد العون إلى كمبوديا بحيث لم تكند تنقضي أكثر من خمس سنوات على الفشل في الهند- الصينية حتى استطاع أن يقف بوجه التوسع السوفيتي في العالم، وكذلك يرى كيسنجر أن أكثر المكتسبات السوفيتية قد أعيدت لأصحابها في عهد ريغان وعهد بوش الأب، فنهاية الاحتلال الفيتنامي لكمبوديا حلت في

١ - المصدر نفسه، ص ٤٧-٦٢.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٩٢.

٣ - جيمس بيكر، "سياسة البلموماسية ١٩٨٨-١٩٩٢" مكتبة مديبولي، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٦٩ و٩٧، وكذلك ص ١٠٢-١٠٥.

العام ١٩٩٠، وأجريت الانتخابات في العام ١٩٩٣، وانسحبت القوات الكوبية من انغولا في العام ١٩٩١، وسقطت الحكومة المدعومة من قبل الشيوعيين، كما أخطر السانديستيون في نيكاراغوا لقبول الانتخابات الحرة في العام ١٩٩٠، وأهم من كل هذه الأحداث انسحاب الجيوش السوفيتية من أفغانستان في العام ١٩٨٩، فطبت كل هذه التطورات تأثيرها السلمي في الحماسة الأيديولوجية الشيوعية. لقد أحرزت إدارة ريغان هذه النجاحات بفضل تطبيق ما عرف بمبدأ ريغان القاضي بمساعدة التمرد ضد الشيوعية لإخراج البلدان الشيوعية من طوق النفوذ السوفيتي، فأقتضى ذلك تسليح المجاهدين الأفغان في صراعهم مع الروس، وإسناد المتمردين في نيكاراغوا ودعم القوى المعادية للشيوعية في أثيوبيا، وانغولا. لقد دعم ريغان أعداء السوفيت والشيوعية، إذ أنهما تقاسما عدواً مشتركاً، فعجل بالهيار الشيوعية^١.

وكذلك كانت الضغوط الأمريكية على الاتحاد السوفيتي امراً لم يكن السوفيت مستعدين لمجاراته، واتجهوا إلى سياسة نزع السلاح، واقترح غورباتشوف بإدرات كبرى في ميدان نزع السلاح وصلت إلى خفض ٥٠% من القوات الإستراتيجية، وقبوله خيار الصفر بالنسبة للصواريخ المتوسطة والقصيرة المدى، لقد استترف سياق التسليح موارد الاتحاد السوفيتي، وأجرى غورباتشوف تخفيضات وحيدة الجانب تبلغ ٥٠٠ ألف جندي، و ١٠ آلاف دبابة، وأعلن تهدئة للصين، وانسحاب القسم الأعظم للقوات السوفيتية في منغوليا، وكان يأمل من هذه الخطوات أن يقوم الغرب باتخاذ خطوات مماثلة، وبدون شك في الميدان الصيني لم يعقد غورباتشوف أية مفاوضات في مجال الحد من التسليح. وقد ربط الصينيون تخفيف التوترات بنوع من التسوية شملت إنهاء الاحتلال الفيتنامي لكمبوديا، وانسحاب السوفيت من أفغانستان، وسحب القوات السوفيتية من الحدود الصينية-السوفيتية^٢.

لقد اقتنع غورباتشوف بان الإصلاحات الاقتصادية، والبرويسترويكيا ستكون صعبة بدون إقامة مجتمع مفتوح، لان الضغوط الاجتماعية والسياسية يمكن أن تؤدي إلى التغييرات الأساسية التي يتطلع إلى تحقيقها، وهذا ما نقله لإعلان الغلاسنوست (العينية)، ولأول مرة في تاريخ الاتحاد السوفيتي، فإن القضايا الوطنية أخذت تناقش بصراحة في

١ - هنري كيسنجر، الدبلوماسية من الحرب الباردة حتى يومنا هذا، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧٥-٤٧٨.

٢ - المصدر نفسه، ص ٥٠٦-٥٠٧.

الصحافة ، والإذاعة، والتلفزيون، ونقاشات عامة أخذت تجري في مراكز الحزب الشيوعي، ومراكز الحكومة، وفي المعامل والأرياف، وبسماحه إجراء انتخابات حرة في العام ١٩٨٨، لمجلس الدوما السوفيتي، فإن غورباتشوف قد أعلن انفصاله عن المفهوم اللينيني للديمقراطية المركزية، ولذلك تأججت الطموحات الوطنية والانفصالية في جمهوريات الاتحاد السوفيتي، وفي جمهوريات آسيا الوسطى، وجمهوريات البلطيق، ومولدا فيا، وأوكرانيا، ولكن غورباتشوف صمم على الثبات، ولكن نهاية العام ١٩٨٩، اخذ غورباتشوف يواجه خطر تفكك الاتحاد السوفيتي، حيث صوتت برلمانات لتوانيا، ولاتفيا، في كانون الأول من العام ١٩٨٩، برفع من دساتيرهم احتكار الحزب الشيوعي للسلطة السياسية، وبإزاحة علوية الحزب الشيوعي، فإن جمهوريات البلطيق قد اتبعت دول شرق أوروبا التي سهلها غورباتشوف إن لم يكن قد شجعها على عملية التغيير، وأعلن الحزب الشيوعي اللتواني انفصاله عن الحزب الشيوعي السوفيتي. وقد كان هذا بداية استقلال دول البلطيق، ولم يكن بمقدور غورباتشوف استخدام القوة العسكرية لإجبارها على البقاء ضمن الاتحاد السوفيتي لئلا يؤدي إلى تفاقم الأوضاع في باقي جمهوريات الاتحاد السوفيتي، وفي ٧ شباط من العام ١٩٩٠، صوتت اللجنة المركزية بإلغاء المادة ٦ من الدستور السوفيتي بأن الحزب الشيوعي هو القائد في المجتمع السوفيتي، وهكذا حكم على الماركسية- اللينينية بالموت^١.

أما في أوروبا الشرقية، ففي البداية على الرغم من أن الشيوعيين كانوا يتمتعون ببعض التأييد، فأهم لم يكونوا يملكون الأكثرية في أي مكان. وقد استخدم القادة في هذه الدول أسلوب القمع والإرهاب لمنع تكرار انتفاضات جماهيرية ضد الأنظمة الشيوعية، حيث بدأت الإصلاحات في أوروبا، وفي المجر منذ العام ١٩٨٩، وساعد مجيئ غورباتشوف، وأفكاره على طرح تلك الإصلاحات التي أيدها السوفيت، والتي لم يكن احد يجراً على طرحها من قبل. فقد استوعبت بلدان أوروبا الشرقية دروس سحق السوفيت لانفضاضة أجليك في العام ١٩٦٨، كذلك شرعت بولندا في إجراء الإصلاحات، وكان المجرين والبولنديون يعولون على الولايات المتحدة لتقديم المساعدة من اجل تعزيز ومواصلة إصلاحاتهم^٢، وعندما تعاضمت المطالب بالديمقراطية في دول

^١ - TAD szui Then and now; How the world has changed since WWII; -
William Morrow and company In New York, 1990, p423-424.

^٢ - جيمس بيكر، مصدر سبق ذكره، ص ٩٥-٩٦.

أوروبا الشرقية لم يكن غورباتشوف على استعداد لقمعها، لأنه سيعمل على هدم السياسة الخارجية السوفيتية بأسرها، لأن قمع أوروبا الشرقية من شأنه أن يشد أواصر حلف الأطلسي، ويقوي علاقة الصين الشعبية بالولايات المتحدة كما يثير سباق التسلح، فأصبح عليه أن يواجه خياراً بين الانتماء السياسي، والتآكل البطئ للسلطة، وكان من نتائج تبني غورباتشوف لإصلاحاته تراجع تدريجي عن مبدأ بريجنيف، فاستولى الشيوعيون الليبراليون على السلطة في هنغاريا، وسمح لياروزلسكي بالتعامل مع التضامن في بولندا، وفي تموز من العام ١٩٨٩، المح غورباتشوف في كلمة له قبالة مؤتمر أوروبا بالتخلي ليس عن مبدأ بريجنيف وحده الذي يفرض حق السوفيت في التدخل في أوروبا الشرقية، بل عن الفلك التابع للإتحاد السوفيتي نفسه بتنازله عن مناطق النفوذ^١.

وفي تشرين الأول من العام ١٩٨٩، زار غورباتشوف برلين، وحث هونيكو زعيم ألمانيا الشرقية على أتباع سياسة أكثر إصلاحاً، مع هذا ما كادت تنقضي أربعة أسابيع حتى أثار جدار برلين، وفي غضون عشرة أشهر وافق غورباتشوف على توحيد ألمانيا، وضمها إلى الحلف الأطلسي، وحينها تهاوت كل الحكومات الشيوعية في الفلك السابق، وتلاشى حلف وارشو الذي حل في العام ١٩٩١، وهكذا اخذ الاتحاد السوفيتي يتهاوى. لقد خاطر غورباتشوف بكل شئ معولاً على افتراضين: أن الليبرالية ستحدث الاتحاد السوفيتي، وحينئذ سيتمكن من الاحتفاظ بمكانته الدولية قوة عظمى، ولما لم يتحقق كلا الافتراضين أهدرت قاعدة غورباتشوف الداخلية بمثل فداحة الفلك التابع^٢. لقد آلت مقامرة غورباتشوف بالليبرالية إلى الفشل مما أفقد الحزب الشيوعي وحدة صفه، وثبت عدم ملائمة الليبرالية للحكم الشيوعي لعجز الشيوعيين عن التحول إلى ديمقراطيين دون الانسلاخ عن شيوعيتهم، وهي معادلة لم يستوعبها غورباتشوف رغم دعم يلتسين لها^٣.

وفي ١٨ - ٢١ آب من العام ١٩٩١، حصل انقلاب مضاد للسلطة ضد غورباتشوف، و يلتسين، ولكن الانقلاب فشل فقد دعا يلتسين الجيش للتحالف مع الشعب لإفشال الانقلاب، ودعا إلى الإضراب العام، والعصيان المدني، ولكن الانقلاب فشل. فقد تضامن الغرب مع غورباتشوف، و يلتسين، ضد الانقلاب، وفي ٢٠ و ٢١

١ - هنري كيسنجر، الدبلوماسية من الحرب الباردة حتى يومنا هذا، مصدر سبق ذكره، ص ٥٠٩.

٢ - المصدر نفسه، ص ٥٠٩-٥١١.

٣ - المصدر نفسه، ٥١٠.

آب أعلنت استونيا، ولتوانيا الاستقلال، وعدة جمهوريات أخرى اقتدت بها ، مثل أوكرانيا، وروسيا البيضاء، ومولدا فيا، وأذربيجان، وفي ٢٣ آب من العام ١٩٩١، يعلن يلتسين إنهاء نشاطات الحزب الشيوعي في روسيا، وفي ٢٤ آب استقال غورباتشوف من منصبه كسكرتير عام الحزب الشيوعي، ومنع الحزب الشيوعي في الجيش، وأجهزة الدولة، فلم يعد غورباتشوف يمارس وظيفة، وفي ١٧ أيلول من العام ١٩٩١، فإن ثلاث من دول البلطيق أصبحت ذات سيادة، وانضمت إلى الأمم المتحدة، وفي ٨ كانون الأول اجتمع في منسك رؤساء روسيا، وأوكرانيا، وروسيا البيضاء، وأعلنوا بأنه لم يعد للاتحاد السوفيتي قائماً ويفقد غورباتشوف آخر منصب له، وفي ٢١ كانون الأول من العام ١٩٩١، يعقد في (الما اتا) اجتماعاً على مستوى القمة بحضور ١١ رئيس جمهورية سوفيتية عدا جورجيا، ويعلنون إنشاء رابطة الدول المستقلة، وفي ٢٥ كانون الأول يستقيل غورباتشوف من رئاسة الاتحاد السوفيتي^١.

الوحدة الألمانية:

إن زوال النظام الاشتراكي في ألمانيا الشرقية في ٩ تشرين الثاني وهو تاريخ هدم حائط برلين، وفتح باب براندبورك في ٢٣ تشرين الثاني فتح الأبواب قبالة عملية الوحدة الألمانية، ففي ٢٨ تشرين الثاني من العام ١٩٨٩، بادر المستشار الألماني كول إلى إعلان خطة من عشر نقاط لإتمام الوحدة في خطاب ألقاه قبالة البونستادغ، وانطوت الخطة على إطار عام لإعادة توحيد الألمانيين، وتضمنت إقامة اتحاد فيدرالي بعد مدة كونفدرالية، ثم بادرت ألمانيا الشرقية على طرح خطة إصلاح، وأكدت على أن وجود دولتين ألمانيتين يمثل عنصر استقرار لأوروبا، وكانت صيغة أتمام الوحدة تجري على مراحل، وفي مفاوضات بصيغة (٢+٤)، أي الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة، وفرنسا، وبريطانيا+ ألمانيا الغربية، وألمانيا الشرقية، وكان السوفيت يريدون إتمام الوحدة على مراحل لضمان الاستقرار، وكانوا يفضلون أن تتم بواسطة مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي الذي يضم ٣٣ دولة أوروبية، فضلاً عن الولايات المتحدة، وكندا، في حين لم ترى الولايات المتحدة أي جدوى لإتمام الوحدة عن طريق مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي بسبب كثرة عدد الدول التي تحضره مما يعقد من النقاشات، ومع تطور الوضع بالنسبة

^١ - Danial collard 'Les Relations Internationales de 1945, dnos jours -
'Armand colin, paris, 1997, p237-238.

للقضية الألمانية كان هناك تطور مماثل في الاتحاد السوفيتي، وتجذير، وتعميق للبرويسترويك، فقد تخلى الاتحاد السوفيتي عن احتكار الحزب الشيوعي للسلطة، وإصلاح حقوق الملكية. لقد كان بقاء ألمانيا عضواً في حلف الأطلسي بعد الوحدة يثير قلق السوفيت، ولكن غورباتشوف أدرك وفهم بقاء القوات الأمريكية في ألمانيا من أجل عدم تكرار الماضي بإعادة تسليح ألمانيا، ولكن مستقبل ألمانيا تحدد بنتيجة الانتخابات التي جرت في ألمانيا الشرقية والتي صوت شعبها لمصلحة الوحدة بنسبة ٧٥٪ .

لقد خشي السوفيت في البداية من وحدة ألمانيا، وانضمامها إلى الأطلسي، ولاسيما إذا ما انسحب السوفيت من ألمانيا الشرقية، وفي تطورات القضية الألمانية نفسها كانت دول البلطيق السوفيتية تعلن استقلالها، مما زاد من شدة الضغوط على الاتحاد السوفيتي، ولذلك قدمت الولايات المتحدة ضمانات إلى الاتحاد السوفيتي، تمثلت في :-

١. خفض القوات الألمانية.

٢. ضمان عدم امتلاك الألمان أو تطوير أسلحة نووية أو بيولوجية أو كيميائية.

٣. تحديد مدة انتقالية لانسحاب القوات السوفيتية من ألمانيا الشرقية.

٤. التوصل إلى اتفاق حول الحدود الألمانية- البولندية^١.

وقد طرحت مقترحات و ضمانات وافق السوفيت عليها، ولكن اخذوا يشعرون بالقلق من بقاء ألمانيا بعد وحدتها في حلف الأطلسي، ولكن الأمريكيين أصروا على حرية الاختيار، وان بوسع الدولة الألمانية أن تختار التحالف التي تروم الانضمام إليه. لقد استند الأمريكيون إلى مبادئ مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي في مسألة حق الدول في اختيار الحلف التي تريد الانضمام إليه، وفي ٣٠ أيار من العام ١٩٩٠، وافق السوفيت على ذلك ولكن هذه الموافقة تطلبت موافقة الأمريكان على الاتفاق التجاري مع الاتحاد السوفيتي، أما الألمان فقد وعدوا بتقديم مساعدة كبيرة من النقد لمساعدة موسكو في سد العجز المالي بخمسة مليارات دولار ثم عشرين مليار دولار لاحقاً وهكذا تمت وحدة ألمانيا في ٤ تشرين الأول من العام ١٩٩٠^٢.

١ - جيمس بيكر، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٥-٣٦٢.

٢ - المصدر نفسه، ص ٣٦٢-٣٦٩.

الفصل الحادي عشر:

تطور العلاقات الدولية في العالم الثالث.

- المبحث الأول:

تطور العلاقات الدولية في أفريقيا.

- المبحث الثاني:

تطور العلاقات الدولية في آسيا.

- المبحث الثالث:

تطور العلاقات الدولية في الوطن العربي.

- المبحث الرابع:

تطور حركة عدم الانحياز.

الفصل الحادي عشر

تطور العلاقات الدولية في العالم الثالث

المبحث الأول

تطور العلاقات الدولية في أفريقيا

ما أن انتهت الحرب العالمية الثانية، وعاد العسكريون الأفارقة إلى بلادهم بعد انتهاء القتال، وعاد كذلك كثير من الأفارقة الذين كانوا يدرسون في أوروبا حتى بدأت على الأثر تيارات تحررية جارفة اجتاحت القارة من أقصاها إلى أقصاها، وظهر بعض قادة النقابات الذين عاشوا في الغرب، ولما كانت دول الغرب قد خرجت من الحرب منهكة رغم انتصارها، ولما كانت الولايات المتحدة قد ألزمت بعهود تحررية منذ أيام الرئيس روزفلت سعى السياسة الغربيون إلى أن يطوروا علاقتهم بالمستعمرات من الحكم الذاتي إلى الاستقلال^١.

وكان لبعض الثورات تأثير في حركة التحرر الأفريقية كثورة ٢٣ يوليو العام ١٩٥٢، في مصر، إذ سعى نظام الرئيس جمال عبد الناصر، إلى دعم ومساندة حركة التحرر الوطني الأفريقية، وفتحت مصر أبوابها لزعماء الحركة، كما سمحت للأحزاب التقدمية التي كانت تعمل في أفريقيا أن تفتح لها مقرات في القاهرة، وقام الأعلام المصري بدور مهم في توعية الشعوب الأفريقية بواسطة الصحافة، والإذاعة، وكذلك أسهم تغيير السياسة السوفيتية بعد وفاة ستالين، وظهور التعايش السلمي على عهد خروشوف في تطور الحركة الوطنية، إذ مهد ذلك لتقارب الشعوب الأفريقية مع الاتحاد السوفيتي. كما أسهم عقد مؤتمر باندونغ الافراسيوي في العام ١٩٥٥، وما انبثق منه من تقارب وتعاون بين شعوب آسيا وأفريقيا ضد الاستعمار في زيادة الوعي الأفريقي^٢.

ومنذ العام ١٩٥٨، وهو تاريخ الاستفتاء على الاستقلال في المستعمرات الفرنسية تحررت الغالبية من الشعوب الأفريقية من الاستعمار، وحصلت على استقلالها السياسي، ولكن القارة تعرضت إلى تدخلات من قبل الدول الكبرى دفعت القارة إلى الدخول في صراعات إقليمية، وإثارة فتن انفصالية^٣.

١ - محمد عبد العزيز إسحاق، نهضة أفريقيا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١، ص ٩٧.

٢ - عبد الرزاق مطلق الفهد، حركة التحرر الوطنية الأفريقية من بداية دخول السيطرة الغربية حتى الاستقلال، جامعة الموصل، العراق، ١٩٨٥، ص ٦٣-٦٧.

٣ - محمد عبد المولى، حركات التحرر الأفريقية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٣، ص ٩.

إن ظهور دول افريقية مستقلة، وحكومات جديدة ليس لديها التجربة وعلى الأغلب كانت غير مستقلة، دفعها إلى دخول مناخ الحرب الباردة، ففي جنوب الصحراء الأفريقية سعى الاتحاد السوفيتي على نشر صداقاته، ومن ثم تأثيره في عدد قليل من دولها، والتي زادها مشاعر مفعمة بعدم الارتياح، ومن القومية العدائية، والحركات المعادية للاستعمار، وهي غانا، وغينيا، ومالي، وفي العام ١٩٦٠، جرت محاولات للاستفادة من توجيه الأزمة الحادة في الكونغو لمصلحتها، إلا أنه بدأ واضحاً بعد عدد قليل من السنين عدم تمكنها من تحقيق إي نجاح، وبناءً على ذلك فقد تخلت الدول الأفريقية الثائرة عن فكرة محاولتها في خلق أزمة جديدة مع جيرانها، وأمكن صد التحدي الشيوعي في الكونغو على أعقابها. على أن التوسع السوفيتي في أفريقيا كان قد ظل يشكل تحدياً كافياً بإجراءات مضادة، ولكن دونما أن يتمكن من تحقيق نتائج صلبة. لقد جابهت الولايات المتحدة التحدي السوفيتي في أفريقيا بكثير من الحذر فقد كان منهاج واشنطن خالياً تماماً من أي محتوى عسكري- سياسي، ففي الكونغو عملت عن طريق مساعي الأمم المتحدة الجماعية، في حين ظل أسلوبها الكلي في أفريقيا متسماً بالتصميم على أن يظل غير مباشر، وقدمت كميات معتدلة من المساعدات الفنية والاقتصادية بشي من التحفظ، وقدمت كذلك دعماً لفرق السلام، ولم تمارس الضغط السياسي الأيديولوجي إلا بدرجة قليلة جداً على الرغم من أن السياسة الأمريكية وفي ظل مسلمات الحرب الباردة صممت أفريقيا على أن تظل حيادية، وبذلك توصل الأمريكيون في النهاية إلى أن أفريقيا الحيادية هي أيضاً غير خاضعة للنفوذ السوفيتي^١.

لقد انتقل الصراع الدولي إلى أفريقيا بفعل متغيرات إقليمية ودولية جديدة، ففي الشرق الأوسط أعلنت بريطانيا عن انسحابها العسكري من شرق السويس في نهاية العام ١٩٧١، وأدت هذه الخطوة البريطانية إلى اشتعال السباق الدولي من أجل ملئ الفراغ، إذ سعى طرفي الصراع نحو إقامة قواعد ونقاط تمركز لهما في المحيط الهندي، وبحر العرب، والخليج العربي لحماية أو تهديد مناطق إنتاج البترول الضخمة، وطرق نقله إلى الغرب الصناعي، ونقاط التحكم الاستراتيجي المسيطرة على هذه الطرق سواء كانت في القرن الأفريقي أو باب المندب، أو البحر الأحمر كله شمالاً أو كانت في المحيط الهندي، عبر مضيق موزمبيق جنوباً^٢.

١ - تشارلس إو ليرتس، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩-١٤١.

٢ - صلاح الدين حافظ، صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي، عالم المعرفة، الكويت، كتون الثاني ١٩٨٢، ص ١٣٧.

وفي مصر أدت الأزمة مع السوفيت إلى إنهاء الحكومة المصرية الوجود السوفيتي هناك، وإنهاء نحو ١٧ ألف جندي وخبير عسكري في العام ١٩٧٢، مما أدى إلى حرمان السوفيت من هذا التمرکز العسكري الهائل في أهم دولة في أفريقيا وفي منطقة الشرق الأوسط كله، وإلى فقدهم التسهيلات العسكرية التي كانوا قد حصلوا عليها خاصة في مرسى مطروح والإسكندرية، وبورسعيد على ساحل البحر المتوسط، وفي الأدبية، والموانئ الأخرى على البحر الأحمر، وكان هذا الوجود السوفيتي في مصر يعد الثقل المقابل للتفوق الإسرائيلي المدعوم من قبل واشنطن، إلا أن قرار إنهاء هذا الوجود قد أحدث انقلاباً مضافاً على خارطة الصراع الدولي، وبدأت مرحلة تبادل المواقع، وتغيير التحالفات بين الدولتين العظميين. فخسارة السوفيت في مصر، وطرحهم منها، وحرمانهم من موانئها، ومواقعها الإستراتيجية المهمة، أدى إلى تحقيق مكاسب للولايات المتحدة التي كسبت مرتين، الأولى بإخراج السوفيت عسكرياً وسياسياً من هذه المنطقة المهمة، وحرمانهم من التمتع بمميزاتها الجيوبوليتيكية، والأخرى بتدعيم علاقات واشنطن بالقاهرة نتيجة التوجه المصري الجديد تجاه الغرب الأوربي والأمريكي، وفك الارتباط بالمعسكر الاشتراكي^١.

وضمن لعبة تبادل المواقع أعاد السوفيت تقويم سياستهم في الشرق الأوسط، والعالم الثالث كله في ضوء التجربة القاسية التي تعرضوا لها في مصر، وبدأوا في تطبيق سياسة جديدة في لعبة الصراع مع الولايات المتحدة، والعالم الثالث تقوم على سرعة الحركة، والجرأة في التدخل والمساندة في الأقدام على استخدام الوجود العسكري بشكل أكثر قدرة، وحركة من ذي قبل، وتطبيقاً لهذه السياسة دعم السوفيت مواقعهم في الصومال لتعويض خسارتهم في مصر، واستعاضوا عنها بقاعدة بحرية مهمة في ميناء بربره الصومالي، وفي العاصمة الساحلية مقديشو نفسها بدلاً من خسارتهم لموانئ البحر الأحمر المصرية شمالاً، وفي الوقت نفسه زادوا من نشاطهم العسكري في الدول الأفريقية التي ترتبط معهم بصداقات، وكنفوا لأول مرة وجود أساطيلهم البحرية في المحيط الهندي، وبحر العرب، وخليج عدن التي رأوا فيها دعماً وتسهيلات كثيرة من نظام الحكم في اليمن الجنوبي. وفي أثيوبيا وصل إلى السلطة العسكريون الشيوعيون، وشكل ذلك دعماً للمواقع السوفيتية في أفريقيا، ولذلك سارع السوفيت إلى نجدة ومساندة النظام الجديد في أثيوبيا، وإلى تثبيت أقدامه على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر بعد أن فقد

^١ - المصدر نفسه، ص ١٣٨-١٣٩.

المدخل الشمالي بكل ما يعنيه المدخل الجنوبي من أهمية الاقتراب المباشر في حقول أنتاج النفط في الخليج العربي^١.

وقد تعرضت الإستراتيجية السوفيتية إلى هزات في القرن الأفريقي بعد النجاحات التي حققتها، فيما استقر للسوفيت وجود نظامين أفريقيين موالين لهم في إثيوبيا، والصومال ولكن سرعان ما أثرت قضية الصراع في الاوغادين، وكان الحل الأمثل بالنسبة للإستراتيجية السوفيتية هو إقامة تحالف تقدمي يربط بين أهم ثلاث دول تطل من الغرب والشرق على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وتحتق باب المنصب من جانبه، وهي، إثيوبيا، والصومال، واليمن الجنوبي، ولو تحقق هذا الحل لشكل ضربة إستراتيجية قاتلة للسياسة الأمريكية في المنطقة، إلا أن مبدأ الصراع القومي، وتضارب المصالح الأثيوبية مع الصومالية، فضلاً عن التحرك الأمريكي المضاد، أدى في إفشال المخطط السوفيتي، ومن ثم في أحداث الأزمة الصومالية- السوفيتية التي انتهت بمثل ما انتهت إليه العلاقات المصرية- السوفيتية من قبل، ففي ظل الدعم السوفيتي العسكري السياسي والاقتصادي الهائل لنظام مانجستو هيلامريام في أديس أبابا شعر النظام الصومالي إن السوفيت يخونونه، ويلقون بثقلهم خلف العدو التقليدي ومن ثم يشجعون النزعة العسكرية الأثيوبية للأعتداء على الصومال في ظل حملة التسلح العسكري الهائلة التي كان يقوم بها السوفيت لدعم النظام الأثيوبي، وهكذا سارع الصومال في طرد الخبراء السوفيت، والقوات السوفيتية خاصة من القاعدة البحرية في ميناء بربره ابتداء من تشرين الثاني من العام ١٩٧٧، وتأزمت العلاقات بينهما إلى درجة خطرة وصلت إلى حد القطيعة التامة بعد تبادل الاتهامات، فضلاً عن ذلك كانت إثيوبيا تعاني شدة ضغط الثوار الاريتريين الذين كانوا يريدون الحصول على استقلالهم من إثيوبيا. لقد فقد الطرفان الصومالي والاريتري المساعدات والمعونات التي كانا يتلقياها من الاتحاد السوفيتي مقابل إضافة المزيد من هذه المعونات إلى جانب إثيوبيا، حيث تولت دول المعسكر الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفيتي وبمبادرات سريعة من كوبا، وألمانيا الديمقراطية مهمة إعادة بناء الجيش الأثيوبي، وتحديثه، ومدته بالأسلحة الحديثة ابتداء من الصواريخ، إلى الطائرات الميغ ٢١، ٢٣ إلى الدبابات الثقيلة، وكان هدف إثيوبيا أن تتمكن من التخلص من متاعها في الاوغادين، واريتريا، حيث تعرض الجيش الأثيوبي خلال السنوات السابقة لمهانة وإذلال بالغين، وبالنظر لعدم تلقي الصومال تعويضاً عمماً فقدته من الدعم السوفيتي، وبالشكل الذي يمكنها من مواجهة التحدي الأثيوبي، ففي

١ - المصدر نفسه، ص ١٣٩-١٤٠.

تشرين الثاني من العام ١٩٧٧، سارع الرئيس الصومالي محمد سياد بري بتوجيه نداء للولايات المتحدة لمد بلاده بالأسلحة. في البداية لم توافق الولايات المتحدة على تقديم الدعم العسكري للصومال بعد أن امتلأت بالترسانة السوفيتية، والكوبية، ولكن الموقف قد تغير خلال العامي ١٩٨٠ و ١٩٨١، بعد إعطاء الصومال تسهيلات عسكرية لواشنطن في بعض مطاراتها وموانئها مثل، مقديشو، وبربره، التي كانت قواعد سوفيتية من قبل، إذ بدأت المراحل الأولى للحرب الثانية بين أثيوبيا، والصومال، في أيار من العام ١٩٧٧، عندما أعلن النظام الأثيوبي الحاكم إن حكومة الصومال تقف خلف كل المتاعب التي تثار في وجه النظام الأثيوبي الجديد، وأهمت الصومال بقيام جيشها بدعم رجال العصابات ودفعتهم إلى أوغادين، وكذلك تقديم مساعدات عسكرية كبيرة لجبهات التحرير في أرتيريا العاملة ضد الجيش الأثيوبي، وكذلك أهمت أثيوبيا الصومال بتقديمها المساعدة، والدعم السياسي والعسكري للحزب الشعبي الثوري في أثيوبيا، وهو التنظيم السياسي القومي الذي أعلن مناهضته للنظام الشيوعي في أديس أبابا، وكذلك كانت هناك مشكلات بين أثيوبيا، والسودان، حيث أهمت أثيوبيا جعفر نميري الرئيس السوداني الأسبق بدعم وتسليح ثوار اريتريا، في حين حذر نميري أثيوبيا من القيام بالعدوان على حدود السودان وأهت الاتحاد السوفيتي، وكوبا بمساعدة أديس أبابا بشن هذا العدوان، ولم تنج مصر من حملة الاتهامات الأثيوبية بأنها تساعد (الصومال، وأرتيريا) ^١.

ووسط هذا التوتر الذي ساد القرن الأفريقي كانت أثيوبيا قد اتفقت مع الاتحاد السوفيتي، وكوبا على خطة ابعدهم، فقد تدفقت على أثيوبيا موجة كثيفة من الجنود الكوبيين، والخبراء العسكريين السوفيت، وخبراء الأمن الألمان الشرقيين، وأثارت التقديرات المحايدة أن عدد الكوبيين وصل إلى ٢٥ ألف جندي، وبلغ عدد السوفيت (١٥٠٠-٢٠٠٠) خبير، وكذلك جاء العدد نفسه تقريباً من ألمانيا الديمقراطية، وبهذه الخطوة دخل القرن الأفريقي منحى جديد، إذ تورطت قوة عظمى هي الاتحاد السوفيتي سواء بشكل مباشر أو بالوكالة المخولة لكوبا وألمانيا الشرقية بالدخول طرفاً مباشراً في الصراع الدائر عن طريق الوجود العسكري الكثيف الذي لم يكتف بمجسور الأسلحة الحديثة، وإنما تعدى ذلك إلى وجود الجنود المقاتلين أنفسهم ^٢.

وقبل ذلك أي في العام ١٩٧٥، حقق السوفيت والكوبيين انتصاراً في انغولا، وذلك خلال معركة الاستقلال، ففي انغولا دعمت الولايات المتحدة الجبهة الوطنية، أما الحركة الشعبية الشيوعية، فكانت مدعومة من قبل الاتحاد السوفيتي، وحقيقة الأمر، لم

^١ المصدر نفسه، ص ١٤٥-١٥٠.

^٢ - المصدر نفسه، ص ١٥٠.

يخرج الموضوع عن تنافس القوى العظمى، لأن القوى الخارجية دخلت انغولا قبل أن يتمكن البرتغاليون من إفساح الطريق، ولم يتوقف الأمر عند القوى العظمى فقط، إذ لم تقتصر المساعدات التي تلقتها الجبهة الوطنية، والاتحاد الوطني للاستقلال التام على المساعدات الأمريكية، والصينية فقط، بل حصلت على مساعدات من دول أخرى من بينها فرنسا، وإسرائيل، وألمانيا الغربية، والسنغال، وأوغندا، وزائير، وزامبيا، وتزانيا، وحكومة جنوب أفريقيا أيضاً. أما الجبهة الشعبية، فحصلت على مساعدات من الاتحاد السوفيتي، وكوبا، وألمانيا الشرقية، والجزائر، وغينيا، وبولندا، وقدمت الولايات المتحدة مساعدات إلى انغولا سراً عن طريق موبوتو في زائير، ورد السوفيت على ذلك بجسر جوي للبضائع إلى الجبهة الشعبية التي بلغت في النهاية نحو ما يقارب عشرة أضعاف برنامج المساعدات الأمريكية، فضلاً عن إرسال المستشارين إلى انغولا، حيث أقامت وكالة المخابرات المركزية تحالفاً واقعياً مع حكومة جنوب أفريقيا، والتي اشتركت في القتال بقوات عسكرية نظامية في أيلول من العام ١٩٧٥، وهكذا قاتلت جنوب أفريقيا، والولايات المتحدة والصين الشعبية جنباً إلى جنب، وأخيراً توقف هجوم جنوب أفريقيا، إذ قام الاتحاد السوفيتي بإمداد الجبهة الشعبية بأسلحة شاملة، كما أرسلت كوبا ١٥ ألف جندي، إذ نجح الكوبيون في ترجيح كفة الجبهة الشعبية التي سرعان ما انتصرت في الحرب^١.

وفي الواقع كان للولايات المتحدة في أواخر الستينات، والنصف الأول من السبعينات بعثاتها العسكرية في أفريقيا مثل زائير، والمغرب، وليبيريا، وأثيوبيا، وفرنسا، وخلال مدة طويلة حافظ حلفاء الولايات المتحدة في حلف الأطلسي على قواعدهم العسكرية في أفريقيا، والتي كانت ممتدة على طول الشاطئ الشرقي والغربي من القارة، وكانت الولايات المتحدة تسعى إلى تحويل المغرب إلى قاعدة عسكرية إستراتيجية رئيسة للولايات المتحدة في أفريقيا معتمدة في ذلك على أشرف المغرب على جبل طارق، وبنقاط الاتصال الموجودة فيها، والتابعة للقوى العسكرية الجوية الأمريكية على ساحل الأطلسي، والبحر المتوسط قد اكتسبت مغزى مهم بالنسبة للإستراتيجية الأمريكية، وكذلك كان للولايات المتحدة معاهدة مع ليبيريا خلال الحرب العالمية الثانية حول القواعد فيها، وبصفة خاصة حول استخدام ميناء منروفيا، وأقام الأمريكيون في هذه الدولة مطار روبرتس فيلد العسكري الضخم^٢.

^١ - ستيفن امبروز، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦١.

^٢ -- اندريه آزوفسكي، الولايات المتحدة وأفريقيا، ترجمة: عماد حاتم، مركز البحوث والدراسات لأفريقيا، ليبيا، ١٩٨١، ص ١١٦-١٢٣.

المبحث الثاني

تطور العلاقات الدولية في آسيا

لقد اجتاحت منطقة آسيا، ولاسيما منطقة الشرق الأقصى، موجة تحررية كبيرة، وذلك اثر الحرب العالمية الثانية، فكان من نتيجتها أن استقلت عشر دول جديدة في خلال تسع سنوات، وأدت عوامل كثيرة في دفع شعوب هذه المنطقة للمطالبة بالاستقلال منها:-

١. انبعث الروح القومية لدى الشعوب الآسيوية.
٢. انتشار الشعور المناوئ للأوروبيين لدى هذه الشعوب.
٣. تشجيع القادة اليابانيين لشعوب هذه البلدان على المطالبة بالاستقلال وذلك بعد أن شعروا بهزيمتهم في الحرب العالمية الثانية.
٤. وعود الدول الحليفة لهذه الشعوب بالاستقلال، وذلك إذا ما حققت النصر على اليابان.

إن بلوغ هذه الدول لأهدافها في التحرر والاستقلال لم يتم دون صعوبات وتضحيات، فبورما حصلت على استقلالها بعد حرب أهلية، وكذلك ماليزيا، والهند- الصينية، والفلبين. أما اندونيسيا فلقد اضطرت إلى خوض معاركها ضد الاستعمار الهولندي لتحصل على الاستقلال، وعندما أقدمت القوات اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية على احتلال الفيلبين، كانت العلاقات بين هذه الأخيرة، والولايات المتحدة ينظمها قانون سنة ١٩٣٥، والذي تضمن تعهد الولايات المتحدة بإعطاء الفيلبين استقلالها في العام ١٩٤٦، وبعد أن دخلت القوات اليابانية الفلبين جلت القوات الأمريكية عنها التي عادت في مطلع العام ١٩٤٥، بعد أن تمكنت القوات الحليفة من طرد القوات اليابانية في الفيلبين، وفي ٤ تموز من العام ١٩٤٦، أصبحت الفيلبين دولة مستقلة أستنادا إلى قانون العام ١٩٣٥، إلا أن هذا الاستقلال ظل أسمياً بسبب القيود العسكرية والاقتصادية التي ارتبطت بها الفيلبين بالولايات المتحدة. وقد احتفظت الولايات المتحدة بالقواعد البحرية والجوية الموجودة في الفيلبين عن طريق التأجير لمدة تسع وعشرين عاماً^١.

١ - د.رياض الصمد، العلاقات الدولية في القرن العشرين، الجزء الثاني، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٥-١٧٧.

إن قضية استقلال الهند، والباكستان لم تتخذ طابع النضال ضد المستعمر فحسب، وإنما اتخذت طابع الحرب الأهلية، ويعود ذلك إلى الانقسامات العرقية والدينية بين الشعوب الهندية التي تتألف من أعراق واديان ولغات، ولكن الذي سيطر على هذه النزاعات الداخلية هو الصراع الديني بين الجماعة الهندوسية، والجماعة المسلمة^١، فضلاً عن تعقيدات الأوضاع الاجتماعية للهند، وكان هناك الوضع السياسي الذي زاد من تعقيد مشكلاتها، ويعود ذلك إلى أمرين إن الهند كانت مستعمرة البريطانية، والآخر هو الأمارات التي شكلت نوعاً من الحميات البريطانية. وقد ظهر نضال الهند ومطالبتها بالاستقلال خلال حقبة الحرب العالمية الثانية، إلا أن بريطانيا رفضت إعطائها الاستقلال خلال حقبة الحرب، معلنة في العام ١٩٤٢، بأنها على استعداد للتفاوض مع زعماء الهند عندما تنتهي الحرب، ويتم للحلفاء النصر على اليابان وتم الاتفاق على تقسيم الهند إلى الهند، والباكستان في العام ١٩٤٧، حيث تم إعلان استقلال الدولتين، ولكن إعلان الاستقلال لم يؤد إلى حل المشكلات بين الدولتين فقد ظهرت مشكلتي حيدرآباد، وكشمير، حيدرآباد مدينة كانت تقع ضمن الهند، وغالبية سكانها من الهندوس، وتحكم من قبل أمير مسلم، فاحتلت من قبل الهند، دون أن تتمكن الباكستان من تقديم المساعدة إلى الأمير المسلم، والأقلية المسلمة، وبالنسبة لكشمير، فإن الوضع مختلف عن حيدرآباد، إذ أن هذه الأمانة تقع بين الهند والباكستان، ولها حدود مشتركة مع الدولتين، فهي تقع إلى شمال الباكستان، وشمال غربي الهند، وطرقها الرئيسية تتجه شطر الباكستان، وكذلك مجاري أنهارها الكبرى، وهذا يعني أن الباكستان لا يمكن أن تتخلى عن كشمير، وان تركها فريسة لاعتداء هندي كما حصل لحيدر آباد، واتخذت قضية كشمير طابع الصراع بين الهند والباكستان، وقررت الهند رفع قضية كشمير إلى الأمم المتحدة في أواخر العام ١٩٤٧، واتخذ مجلس الأمن قراره بأجراء استفتاء في كشمير بعد انسحاب القوات الهندية، فرفضت الهند هذا القرار لأنها رأت في حال تطبيقه سيكون لغير مصلحتها، ونتيجة لمساعدة لجنة دولية تم أقرار الهدنة بين الطرفين في العام ١٩٤٩، وعدّ الخط الفاصل بين الطرفين مؤقتاً إلى حين حل القضية بشكل نهائي على اثر إجراء استفتاء يجري بين الكشميريين، إلا أنه وبسبب موقف الهند، ودعم بريطانيا لموقف الهند

^١ - المصدر نفسه، ص ١٧٧.

القاضي بمنع إجراء الاستفتاء أصبح الخط المؤقت الفاصل بين الدولتين خطأً ثنائياً خاصة وان حكومة الهند أيدت هذا الواقع بتسمية أربعة ممثلين عن القسم الذي استولت عليه القوات الهندية في الجمعية الهندية، وهكذا تم التقسيم عملياً دون أن يعترف به رسمياً، فضمت باكستان كشمير الأصلية، إذ غالبية سكانها من المسلمين، في حين ضمت الهند منطقة جامو ، إذ غالبية سكانها من الهندوس، وظلت قضية كشمير السبب الرئيس في توتر العلاقات بين الدولتين. أما الدول الكبرى، فكان الاتحاد السوفيتي يدعم موقف الهند، في حين تدعم كل من الولايات المتحدة، والصين الشعبية باكستان¹.

وقد اندلعت ثلاثة حروب بين الدولتين في الأعوام ١٩٤٧، ١٩٦٥، ١٩٧١، وعلى اثر الحرب الأخيرة أي العام ١٩٧١، انفصلت باكستان الشرقية عن باكستان بعد أن احتلتها القوات الهندية، وتم تأسيس دولة بنغلادش، وفي ٢٨ حزيران من العام ١٩٧٢، اجتمع ذو الفقار علي بوتو رئيس وزراء باكستان مع انديرا غاندي رئيسة وزراء الهند في مدينة سيملا الهندية، وتوصل الجانبان إلى اتفاق سيملا، والذي نص على استعادة باكستان لكل الأقاليم التي فقدتها في حرب كانون الأول من العام ١٩٧١، باستثناء المناطق الواقعة على خط وقف إطلاق النار في كشمير، وان تعيد باكستان إلى الهند الأراضي التي احتلتها في قطاع البنجاب، وصحراء راجستان، واتفقت الدولتان على حل المنازعات بينها بشكل ثنائي. بعد إعلان سيملا بادرت الهند وباكستان بتطبيق مجموعة من الإجراءات التي اصطلح على تسميتها بإجراءات بناء الثقة بهدف تجنب نشوب حرب جديدة بينهما، إلا أن هذه الإجراءات وان نجحت في منع نشوب حرب رابعة بين الدولتين، ولكنها لم تؤد إلى حل المشكلات المطروحة بينهما، ولكن قضية كشمير تجددت سنة ١٩٨٩، مع انسحاب الاتحاد السوفيتي من أفغانستان، وصعود أفق المجاهدين الأفغان سنة ١٩٨٨، فقد اندلعت ثورة مسلحة في كشمير ضد الوجود الهندي مما أدى إلى تجدد عمليات القتال بين الدولتين².

اليابان:

تم استسلام اليابان في ١٤ آب من العام ١٩٤٥، وعلى الرغم من تأليف الحلفاء للجنة استشارية لشرق آسيا، وإن اليابان قد خضعت من الناحية النظرية لمسئولية جماعية لقوى الحلفاء، إلا أنه فعلياً كان احتلالاً أمريكياً ولم تسمح الولايات المتحدة

¹ - المصدر نفسه، ص ١٨٢-١٨٣.

² - د. محمد السيد سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠٥-٦٠٨.

لأحد أن يكون له نفوذ في اليابان، ومن ثم كان احتلالاً أمريكياً تاماً. وقد عملت الولايات المتحدة على ضمان عدم عودة اليابان لتهديدها مرة ثانية، فعملت على تدمير الإمكانيات العسكرية اليابانية ونزع سلاح الجيش الياباني، والعمل على بناء حكومة ديمقراطية مسالمة، ومستولة عن كبح طموحات اليابان التوسعية^١.

وعلى الرغم من إنشاء اللجنة الاستشارية في العام ١٩٤٥، بقي الأشراف النهائي على عملية الاحتلال بيد الولايات المتحدة، إلا أن وزراء خارجية الدول الكبرى الثلاث الولايات المتحدة، وبريطانيا، والاتحاد السوفيتي قرروا في ٢٧ كانون الأول من العام ١٩٤٥، إنشاء لجنة شرق آسيا، ومجلس اليابان الحليف، ولم يكن للأخير أية أهمية كما لم يكن للجنة شرق آسيا أية سلطة تنفيذية، واستمر الاحتلال الأمريكي حتى سنة ١٩٥١، إذ وقعت الولايات المتحدة مع اليابان على معاهدة امن تعهدت بموجبها السماح للقوات الأمريكية البقاء في البلاد حتى تتمكن اليابان من الدفاع عن نفسها بقواتها الخاصة، ولكن ما أن بدأت الحرب الباردة حتى غيرت الولايات المتحدة من سياستها من اليابان تغييراً جذرياً، وفي ٢٨ نيسان من العام ١٩٥٢، وقعت اتفاقية الصلح، وانتهى الاحتلال الأمريكي لليابان رسمياً، وتم الاعتراف بها كدولة مستقلة ذات سيادة، وهنا أصبحت اليابان تتبنى سياسة الغرب في علاقاتها مع دول المعسكر الاشتراكي، والاتحاد السوفيتي والصين^٢.

الصراع الدولي في آسيا:

لقد انتقلت الحرب الباردة إلى آسيا بعد أن تمكنت الدولتين العظميين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي من تثبيت مركزهما، وتنظيم برامج عملهما، وينظر إلى النزاع في آسيا بأنه لم يكن بالنزاع الإيديولوجي، ولا بالعسكري بقدر ما كان ينظر إليه بأنه محاولة من قبل الطرفين للانتفاع من ثروات وطنية، وأوضاع محلية تميزت بعدم الاستقرار، وبالنسبة للولايات المتحدة كان الانتصار السوفيتي الكبير في آسيا، حيث وصلت الشيوعية إلى السلطة في الصين، ولكن قبالة العلاقات بين بكين وموسكو بدت الصين تبغي السير في نهج مستقل عن السوفيت في الوقت الذي كانت طلباتها من موسكو كثيرة من اجل مساعدتها، وسرعان ما أدى التضامن الأيديولوجي بين بكين

^١ - د. ميلاد المقرحي، تاريخ آسيا الحديث والمعاصر: شرق آسيا، الصين، اليابان، كوريا، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ١٩٩٧، ص ٢٣٢-٢٣٣.

^٢ - المصدر نفسه، ص ٢٣٦-٢٣٨.

وموسكو إلى حالة من العداء في بداية الستينات بحيث لم يعدد ممكناً القول بأن تحقيق الشيوعية في الصين كان نصراً لل سوفيت^١.

وما عدا الصين، فإن نجاح السوفيت في آسيا، وفي الحرب الباردة، تمثل في الاستفادة من الأوضاع غير المستقرة، ومن ثوراتها المحلية. لقد بذل السوفيت أقصى جهدهم في الشرق الأوسط فيما بين العامين ١٩٥٦-١٩٦٠، للتغلغل في الأقطار العربية الصعبة كالعراق، وسوريا، وفي جنوب آسيا بتقديمه صداقته، ومساعدته للهند ولاندونيسيا. أما في جنوب شرق آسيا، فإنه سعى من اجل الانتفاع من الحرب الأهلية في لاوس أولاً، ومن ثم فيتنام، وكانت حصيلة جهده في الشرق الأقصى انه سيطر فعلياً على كوريا الشمالية^٢.

أما الولايات المتحدة، فإنها بالمقابل، قد ضمنت حافات أراضي آسيا في حلقة من الاحتواء، وحاولت في بداية الحرب الكورية في العام ١٩٥٠، ونهاية الموجة الحادة من الحرب الباردة في آسيا العام ١٩٥٥، في أن ترتبط دول المنطقة ضمن سلسلة من التحالفات العسكرية تحت القيادة الأمريكية، ومن هذه الاتفاقيات حلف الانزوس ما بين الولايات المتحدة واستراليا، ونيوزيلندا في العام ١٩٥١، كما تم عقد اتفاق ثنائي مع كوريا الجنوبية في العام ١٩٥٣، وآخر مع تايوان في العام ١٩٥٤، وكذلك تم إقامة حلف السيتو، معاهدة الدفاع المشترك لجنوب آسيا، في العام ١٩٥٤، والتي ضمت ثمان دول هي : باكستان، الفلبين، تايلاند، واستراليا، ونيوزيلندا، وفرنسا، وبريطانيا، والولايات المتحدة، وفي مطلع العام ١٩٥٥، تم تأسيس حلف بغداد، والذي تحول إلى حلف المعاهدة المركزية في العام ١٩٥٩، والذي تألف من العراق والباكستان وإيران وتركيا وبريطانيا وانضمت الولايات المتحدة بشكل غير مباشر إلى اللجان المرتبطة به، وكان هناك أزمات في المنطقة، الحرب الكورية في العام ١٩٥٠، والعدوان الثلاثي على مصر في العام ١٩٥٦، والحرب الأهلية في لاوس في العام ١٩٦٠، و١٩٦١، وبعدها حرب فيتنام^٣.

لقد اختار الاتحاد السوفيتي من التيارات المتشابكة في الحياة السياسية القائمة في آسيا، وبالاتماد على الأحزاب الشيوعية المحلية، وظل يعمل في الوقت نفسه على

١ - تشارلس أو ليرتس، مصدر سبق ذكره ص ١٣٤.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٣٤.

٣ - تشارلس أو ليرتس، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٥-١٣٦.

تحسين علاقاته مع النظم السياسية الوطنية، وسعت موسكو إلى إقامة شبكة من العلاقات مع دول كمصر، والعراق (بعد ثورة ١٩٥٨)، والهند، وبورما، واندونيسيا، ولكن النظم المحلية، مع أنها ترغب عادة بقبول الأموال السوفيتية، والمساندة الدبلوماسية السوفيتية كما لو كانت أموال أمريكية، إلا أنها مع ذلك رفضت أن تلعب اللعبة بالطريقة السوفيتية، فأغلب الحكومات الآسيوية رأت من الضروري والنافع منع أحزابها الوطنية الشيوعية، وبذلك حرمت موسكو من احد أركان سياستها، وفي الوقت نفسه، تبنت سياسة عدم الانحياز^١.

لقد جابه الاتحاد السوفيتي صعوبات في آسيا بعد العام ١٩٥٥، وذلك بازدياد دور الصين الشعبية، فبكين لم تكن لتخدم في الحقيقة كحصان طروادة لموسكو في أية نقطة، ولكن بعد العام ١٩٥٤، بدأ الصينيون اتخاذ سياسة خاصة بهم في آسيا^٢. لقد أكدت الولايات المتحدة الحماية والحفاظ على التزاماتها في آسيا، وتجسد ذلك في مبدأ نيكسون في العام ١٩٦٩، إذ أكد الرئيس نيكسون في تصريح له على ما يلي:-

١. حفاظ الولايات المتحدة على التزاماتها في آسيا بموجب المعاهدات.
 ٢. تزويد الولايات المتحدة لحلفائها في آسيا أو الدولة التي تعتبرها ضرورية لأمنها بدرع واق حين تهدد حريتها دولة نووية.
 ٣. في الحالات التي تطوي على أنماط أخرى من العدوان، سوف تقدم الولايات المتحدة مساعدات عسكرية واقتصادية حين يتطلب منها وفقاً لالتزامات معاهداتها، وان الولايات المتحدة سوف تعتبر الدولة التي يتوجه إليها التهديد مباشرة يقع عليها العبء الرئيس في حشد القوة البشرية اللازمة للدفاع عنها^٣.
- لقد انطوى مبدأ نيكسون على أن تعمل الولايات المتحدة على تخفيف الأعباء عنها، وتمثل ذلك في سحب عدد كبير من قواتها في آسيا، وانه ينبغي على الآسيويين أن يأخذوا على عاتقهم دوراً رئيساً في تحمل التزاماتهم ومسئولياتهم^٤.

١ - المصدر نفسه، ص ١٣٧.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٣٧.

٣ - فرجينيا برودين، ومارك سلدن، السر المعروف: مبدأ نيكسون وكينسجر في آسيا، نقله إلى العربية: د. احمد طربين، ود. نصيري عاروري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٩١.

٤ - المصدر نفسه، ص ٩٠.

إن مبدأ نيكسون ينطوي على سياسة تهدف للحفاظ على الدور الأساسي للولايات المتحدة في آسيا، وبأقل تكلفة من الأموال، والأرواح الأمريكية، وإن تحقيق الأهداف الأمريكية في آسيا يعتمد على فعالية برنامج المعونة العسكرية الأمريكية الذي يشمل على الهبات العسكرية، والتدريب، والأسلحة، والمساعدة العسكرية المتخصصة، وهكذا في حين حاولت إدارة نيكسون الاقتصاد عن طريق تخفيض القوات البشرية، وما ستلزمه من نفقات في آسيا فإن المعونة السنوية، وتدفق السلاح قد فاق المعدل الذي بلغه إبان رئاسة جونسون، إذ أن المعونة العسكرية المعترف بها رسمياً كانت أقل من خمسة ملايين دولار في عهد جونسون، وتؤكد الولايات المتحدة على ضرورة المشاركة اليابانية من أجل نجاح مبدأ نيكسون^١، ويجب على اليابان أن توحد جهودها مع دول العالم الحر، وتحافظ بالقوة الكافية، وكانت الولايات المتحدة قد سعت منذ عهد دالاس إلى تسليح اليابان من أجل أن تعمل اليابان في إطار الإستراتيجية الأمريكية، والدفاع عن المصالح الغربية في آسيا، انطلاقاً من أن الولايات المتحدة لا تستطيع لوحدها أن تأخذ على عاتقها المسؤولية الكاملة ولهذا تطالب جميع الدول في العالم الحر أن تقف معها في صف واحد، ومنذ ذلك الوقت كانت هناك مقترحات أمريكية تؤكد على ضرورة أشراك اليابان في قوة شرطة دولية في الهند-الصينية، أو أعداد أسطولها لضمان الأمن في مضائق تايوان أو الارتباط بتخطيط للأمن مع كوريا الجنوبية، وتايوان على نحو أكثر تماساً^٢، وكذلك شجعت الولايات المتحدة ارتباط اليابان اقتصادياً مع جنوب شرق آسيا، وأسباب ذلك مزيج من عدة عوامل من الاقتصاد، والشيوعية، وسياسات الدومينو، إذ أدركت الولايات المتحدة أن اليابان هي التي ستصبح بمثابة مفتاح المصالح الأمريكية في آسيا، ومنذ ذلك الوقت تركز في تثبيت اليابان بقوة في المعسكر الغربي وإن القواعد الأمريكية في اليابان، وإعادة تسليح اليابان تمثل الوجه العسكري في هذه السياسة. إذ كانت السياسة الأمريكية تجاه اليابان تهدف إلى ما يلي^٣:-

١. حرمان الصين من منافع التجارة مع دولة صناعية ذات تقدم تكنولوجي كاليابان.
٢. منع اليابان من أن تصبح وثيقة الصلة أو تابعة بأي شكل من الأشكال لجيرانها الشيوعيون.
٣. تعزيز وضع الولايات المتحدة التجاري إزاء اليابان.

١ - المصدر نفسه، ص ٩٤.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٠٤-١٠٦.

٣ - المصدر نفسه، ص ١٠٧-١٠٨.

٤. توقع توفير الدعم الاقتصادي اللازم إلى الأنظمة الهزيلة المعادية للشيوعية في جنوب شرق آسيا بواسطة اليابان، ومن ثم:
٥. توثيق ارتباط منطقة جنوب شرق آسيا بالنظام الرأسمالي، ومنعها عملياً من التجارة مع الصين.

ويتميز الشرق الأقصى بوضع استراتيجي فريد بحكم كونه منطقة التماس الجغرافي والعسكري المباشر الوحيدة في العالم بين أربع قوى كبرى، هي: الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي، والصين، واليابان، ويمكن أن نتلمس التصاعد المستمر في دور اليابان كقوة اقتصادية في العالم في السبعينات، وصعوبة استبعاد تحولها إلى قوة مماثلة على الصعيدين العسكري والسياسي. وقد استمر التنافس الاستراتيجي التقليدي في المنطقة بين القوتين العظميين الذي يتمثل باحتفاظ كل منهما بوجود عسكري تاريخي كثيف فيها من جهة، وبمحاولتها الدائمة لاكتساب الحلفاء والأصدقاء في صفوف دولها. لقد حافظت الولايات المتحدة طيلة حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية على وجود عسكري مباشر في الشرق الأقصى اتسم تقليدياً بالكثافة، ومن جهته فقد عمل الاتحاد السوفيتي على محاولة الوصول إلى موازاة الوجود العسكري الأمريكي المذكور، وربما إلى مساواته. وقد تميز عقد السبعينات بتصاعد ملحوظ في الجهود العسكرية السوفيتية ذات العلاقة بالمنطقة. بحيث أن المصادر الغربية تقدر بان الاتحاد السوفيتي كان يركز ١٠% من أجمالي قوته العسكرية في منطقة الشرق الأقصى، والمناطق المحيطة بها، في حين يتركز معظم الجهد السوفيتي في ائجال البري على الحدود مع الصين (وهي تمتد على مسافة تزيد على ٧٠٠٠ كم)، فإن الوجود البحري السوفيتي اتجه بصورة رئيسة نحو مجابهة القوة البحرية الأمريكية التي كانت تعتبر في موقع مسيطر بشكل شبه تام تقريباً على منطقة المحيط الهادئ، والمشارف الشرقية والجنوبية للقارة الآسيوية، فإن بروز العامل البحري السوفيتي أعتبر احد أكثر التحولات الإستراتيجية تأثيراً في موازين القوى السائدة في الشرق الأقصى خلال عقد السبعينات، ومنتصف الستينات. فقد نجح السوفيت إلى حد بعيد في جهودهم التي استهدفت تحويل قواهم البحرية من مجرد قوة دفاعية ساحلية الطابع في معظمها خلال الستينات، إلى أسطول أعالي البحار يتمتع بقدرات هجومية ودفاعية متكاملة، وأخذت البحرية السوفيتية تنتشر في كافة المياه المحيطة في المنطقة بدءاً من زاويتها الشمالية، وصولاً إلى الهند- الصينية، ومشارف قارة استراليا^١.

^١ - حسين آغا، واحمد سامح الخالدي، وقاسم جعفر، الصين اليابان والشرق الأقصى، سلسلة الدراسات الاستراتيجية، العدد ١٤، مركز العالم الثالث للدراسات والنشر، لندن، ١٩٨٢، ص ٩-١١.

وفي الشرق الأقصى ظهر استقطاب بين العملاقين، فمن جهة اتجه تفاربي محوري بين كل من الولايات المتحدة، والصين، واليابان مدعوماً من عدد من الدول الأخرى ذات الولاء التقليدي للغرب (استراليا، ونيوزيلندا، والفلبين، وتايلاند، وماليزيا، وسنغافورة، واندونيسيا)، وذلك تحت شعار مواجهة التوسع السوفيتي والفيتنامي، وينبغي الإشارة هنا إلى أن هذا المحور لم يتخذ شكل تحالف ثابت ومحدد آخذاً بنظر الاعتبار المصالح الذاتية والكامنة لكل طرف من أطرافه، إذ إن كلاً من هذه الأطراف يملك أولويات قد تختلف، لا بل تتناقض مع أهداف وأولويات الأطراف الأخرى، دون أن يكون ذلك بالضرورة عائقاً قبالة قيام حالة التقاء استراتيجي بينها لخدمة أهداف عليا محددة على الصعيدين الإقليمي المباشر والدولي، وبالمقابل هناك العلاقة التحالفية القائمة بين الاتحاد السوفيتي وفيتنام في مقابل المحور الأول. وقد أدى الانتصار الفيتنامي على الولايات المتحدة، وتوحيد البلاد في أواسط السبعينات إلى بروز فيتنام كقوة سياسية وعسكرية في الزاوية الجنوبية الشرقية للقارة الآسيوية، إذ تشكل فيتنام في تلك المرحلة الحليف الأبرز للاتحاد السوفيتي، إلا أنها واجهت من جهة أخرى عداء شديد من الصين، وخلافات مستعصية مع معظم الدول الأخرى في المنطقة. وقد أدت محاولة فيتنام أنشاء تحالف بينها وبين كل من لاوس وكمبوديا إلى ائتلاف معظم دول جنوب شرقي آسيا ضد ما تعتبره هذه الدول زيادة في النفوذ السوفيتي عن طريق التوسع الفيتنامي. وقد كان من ابرز نتائج ذلك قيام تقارب بين رابطة دول جنوب شرق آسيا من جهة، والصين من جهة أخرى، وهو تقارب جاء متناقضاً إلى حد كبير من طبيعة التحفظات التاريخية التي كانت تميز نظرة تلك الدول مع الصين بصفقتها مصدر التوتر الرئيس في المنطقة خلال العقود الثلاثة الماضية¹.

أما الوضع في الكوريتين، فمن جهة احتفظت كوريا الشمالية بعلاقات تعاون وثيقة نسبياً مع كل من الاتحاد السوفيتي، والصين على حد سواء. وقد تمكنت من تلافي انعكاسات النزاع القائم بين الدولتين المذكورتين على تلك العلاقات.

أما كوريا الجنوبية، فقد تمسكت بتحالفها التقليدي مع الولايات المتحدة، إلا أنها تحرص في الوقت نفسه على تحسين اطر علاقتها السياسية والاقتصادية، ولو بشكل ضمني وهادئ مع الاتحاد السوفيتي، ولا يمكن تفسير ذلك إلا عن طريق التحفظ الكوري الجنوبي التاريخي نحو الصين، وما يمكن أن يتبعه ذلك من قلق في نظر القيادة

¹ - المصدر نفسه، ص ١٧-١٨.

الكورية الجنوبية تجاه احتمالات ازدياد التقارب الأمريكي - الصيني، وانعكاسه على أمن بلادها ومصالحها^١.

وبالنسبة للصين الشعبية فالانفتاح على الغرب، ولاسيما الولايات المتحدة قد ساعدها على القيام بعملية تحديث قواتها المسلحة، والتي بدأت منذ منتصف السبعينات بعد صفقة الصواريخ المضادة للدروع التي تمت مع فرنسا في العام ١٩٧٧، ولكن استبعاد الولايات المتحدة لإمكانية بيع الصين السلاح الفتاك، وفقدان الصين للمخزون الكافي من العملة الصعبة أدى إلى التردد قبالة الاعتماد كلياً على المصادر الخارجية، وخوفها من العودة إلى الوضع الذي كان قائماً مع السوفيت قبل العام ١٩٦٠، ولهذا انطلقت وجهة نظر أخرى من مبدأ التمسك بالاكفاء الذاتي التي تركز في ضرورة نقل التكنولوجيا العسكرية والاقتصادية، وكانت الولايات المتحدة قد سمحت بتصدير التكنولوجيا العلمية المتطورة في حقل التنقيب عن النفط، والدراسات الجيولوجية، وغيرها إلى الصين^٢.

وبالنظر إلى ما كانت تراه الصين من سياسة تطويق يقوم بها السوفيت عن طريق دعم فيتنام في الهند - الصينية، والتدخل العسكري السوفيتي في أفغانستان، وتقوية العلاقات العسكرية السوفيتية - الهندية، فإن الصين عملت على تقوية الوجود العسكري الأمريكي في المنطقة، والتخلي عن معارضتها الشديدة التاريخية على إعادة التسلح الياباني، ولاسيما بعد التوقيع مع اليابان على معاهدة الصداقة والسلام في العام ١٩٧٨، وكذلك عملت الصين على تقوية التعاون الاستراتيجي مع الغرب، وزيادة الدعم للقوى المناوئة للسوفيت في مناطق مختلفة من العالم ابتداء من انغولا، وعمان، وانتهاءً بالمقاومة الأفغانية للوجود العسكري السوفيتي في أفغانستان، وكذلك أبدت الصين استعدادها على زيادة دعمها العسكري للباكستان بعدما رفض الجنرال ضياء الحق العروض الأمريكية، كما أن الصين زادت من دعمها لتايوان بعد دخول القوات الفيتنامية لكمبوديا^٣.

أما اليابان فإن فرض قيود على الإنفاق العسكري، والامتناع عن تطوير قوات قادرة على مد يد القوة العسكرية اليابانية إلى خارج حدود الجزر اليابانية تعدّ بمثابة

١ - المصدر نفسه، ص ١٨-١٩.

٢ - المصدر نفسه، ص ٢٨-٢٩.

٣ - المصدر نفسه، ص ٣٠-٣٢.

اختياراً سياسياً واعياً عمدت إليه اليابان في الخمسينات، وبقيت كذلك في الثمانينات. وبالإضافة إلى مساهمة ضبط النفس العسكري في نمو الاقتصاد الوطني الياباني، فإن قرار اليابان بالامتناع عن تطوير قوات هجومية أو حتى أكثر من قوات دفاعية متواضعة، عنصر رئيس في بروز استقرار إقليمي في المنطقة، إذ تؤكد اليابان بأنها لا تهدد أحداً عسكرياً، ويسمح هذا باستمرار علاقات يابانية أمريكية وثيقة وتطور روابط صينية-يابانية ودية، وفي الأقل تجنب صدام مكشوف بين الاتحاد السوفيتي واليابان، والأكثر من ذلك أن ضبط النفس الياباني يسمح بالحفاظ على توازن للقوى العسكري الأمريكي، والصيني، والسوفيتي، في الشرق الأقصى، بحيث لا يمكن لقوة بمفردها تحقيق ميزة حاسمة عبر استخدام القوة^١.

وكانت اليابان حتى مطلع السبعينات تفتقر إلى إستراتيجية متكاملة الملامح وقدرة عسكرية تذكر وسياسة خارجية مستقلة ومؤثرة، وذلك بالرغم من ضخامة قاعدتها الصناعية والبشرية، إذ تعتمد في سياستها الدفاعية على التفوق العسكري للولايات المتحدة في الشرق الأقصى، والغطاء النووي الأمريكي لها. كما أن هناك إجماع وطني على الامتناع عن التسلح ورثته اليابان عن تجربتها المبررة في الحرب العالمية الثانية. وقد ظهرت بوادر تحولات مهمة على الصعيدين الموضوعي والذاتي تشكل خلفية لاتخاذ اليابان في مطلع الثمانينات لمواقف عسكرية جديدة وإمكانية قيامها بدور استراتيجي أكبر في الشرق الأقصى، وهناك بعض العوامل التي ساعدت على تكوين صورة يابانية حديثة، منها الانسحاب الأمريكي الجزئي من كوريا الجنوبية، وإنهاء المعاهدة الأمريكية الأمنية مع تايوان وإقامة علاقات أمريكية صينية وثيقة، ونمو القدرات العسكرية السوفيتية في الشرق الأقصى، والمحيط الهندي، ووجود قوات سوفيتية في جزر الكوريل المتنازع عليها مع اليابان ونمو القدرات العسكرية لكوريا الشمالية، وبرز فيتنام كقوة عسكرية ضخمة في جنوب شرقي آسيا، وأزمة الطاقة، وتزايد الاعتماد الياباني على النفط المستورد من الشرق الأوسط الذي يبلغ نحو ٨٠% من احتياجاتها للنفط^٢.

١ - المصدر نفسه، ص ٩١.

٢ - المصدر نفسه، ص ١١٠-١١١.

المبحث الثالث

تطور العلاقات الدولية في الوطن العربي

أولاً: استقلال البلاد العربية:

إن إمارات انبعاث الفكرة العربية كان نتيجة إعلان الدستور العثماني في العام ١٩٠٨، وكرد فعل حركة القومية التي اشتدت بعد هذا الإعلان، فإن بعض شباب الترك ومنتوريهم قد اعتنقوا الفكرة القومية قبل إعلان الدستور، وانشئوا جمعيتهم السرية التي كان اسمها جمعية تركيا الفتاة دلالة عليها، واخذوا يسعون في بثها بين المنتورين، إذ مزجوا دعوتها بالدعوة إلى مقاومة استبداد السلاطين، والعمل على إقامة الحكم في الدولة العثمانية على أساس دستوري يضمن للأمة حريتها وحقوقها، ويفتح قبالها الأفاق، وسرعان ما توارت هذه الجمعية إلى حزب سياسي اسمه حزب الاتحاد والترقي، والذي أخذت دائرته تتوسع، واخذ يسعى للسيطرة على الحكم مما ساهم في بث فكرة القومية التركية، وأثارت عاطفتها في نفوس الأتراك مستهدفين كنتيجة لازمة لها استعلاء العنصر التركي في الدولة العثمانية. وقد كان مما عمد إليه حزب الاتحاد والترقي إنشاء فروع له في مختلف المدن العربية الشامية والعراقية، وكان لذلك تأثير في شباب وشيوخ العرب، إذ شعر منتوريهم إلى ما في ذلك من خطر على كيان العرب، ومساس بكرامتهم مما شجعهم في اعتناق فكرة القومية العربية، ثم جاء دور تأسيس الجمعيات السرية العربية التي أخذت تسعى لتحقيق حقوق العرب، ومنها جمعي الفتاة، والعهد^١، وكان من اثر سياسة التتريك أن نبهت العرب بطبيعة الحال إلى الخطر المحدق بهم، ودفعتهم إلى المعارضة الفعالة جهرة وخفية، وظلت اللامركزية مطلبهم الرئيس ليتمكنوا من متابعة تناميهم الثقافي، وتطورهم السياسي.

إن فقد الثقة في مقدرة الحكومة المركزية العثمانية على صيانة كيان الأراضي العربية هو الكامن وراء حركة اللامركزية وفكرة هذه الحركة إنما هي السبيل الأوحده للتغلب على الأخطار الخارجية التي كانت تهدد البلاد، وكانت الحركة القومية العربية تسعى إلى إنشاء مواقع قوة محلية، وقد شهدت هذه المرحلة تأكيداً متزايداً على وجوب تمييز الكتلة العربية الإسلامية، عن غيرها من شعوب الإمبراطورية العثمانية، ثم جاءت

١ - محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، المجلد الأول، بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٤٩، ص ٢٩.

مرحلة جواب العرب على تحدي الحركة التركية القومية التي راحت تثبت وجودها تحت راية الجامعة الطورانية، ففي العام ١٩١٣ عقد المؤتمر العربي الأول في باريس، وحضره مندوبون عن مختلف أقطار الوطن العربي. وقد ظهر أن العرب كانوا يتطلعون إلى تنظيم حياتهم من جديد على قاعدة القومية^١.

وفي العام ١٩١٦، نشبت الثورة العربية في الحجاز بقيادة الشريف حسين الذي سعى إلى إقامة مملكة عربية تشمل الجزيرة العربية، والعراق، وبلاد الشام، ولهذا تم الاتفاق بين الانكليز والشريف حسين بموجب مراسلات الحسين - مكماهون على أن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية، وان توافق على إعلان خليفة عربي على المسلمين، وبالمقابل تعترف حكومة الشريف حسين بأفضلية بريطانيا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية. وقد ظل الشريف حسين يتمتع بلقب أمير مكة إلى ٣ كانون الأول من العام ١٩١٦، إذ بويع ملكاً على العرب، إلا أن بريطانيا، وفرنسا، وروسيا قد اتفقت في معاهدة سايكس بيكو في العام ١٩١٦، على تقسيم البلاد العربية إلى مناطق نفوذ فيما بينها^٢.

وفي ٢٦ نيسان من العام ١٩٢٠، قرر الحلفاء في مؤتمر سان ريمو وضع الأقطار العربية تحت الانتداب، وأعطى لفرنسا الانتداب على سوريا ولبنان، ولبريطانيا على العراق وفلسطين والأردن، فكان ذلك تنويجاً لغدر الحلفاء للعرب، والذي بدأ في أثناء الحرب، وقبل أن يجف مداد عهود بريطانيا للحسين^٣.

لقد كان وضع البلاد العربية تحت الانتداب مخالفاً للفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم التي توجب اخذ رأي السكان في تقرير مصيرهم، ولم يقف العرب مكتوفي الأيدي إزاء ما قامت به الدول الكبرى بمصيرهم. فقد اجتمع وجهاء سوريا وشخصياتها السياسية في مؤتمر انعقد في ١٨ آذار من العام ١٩٢٠، وأعلنوا سوريا دولة مستقلة تحت حكم الملك فيصل الأول، وقد رفض الحلفاء هذا العمل من جانب السوريين، وفي ٢٨ تموز من العام ١٩٢٠، اخرج الفرنسيون

١ - د.حازم زكي نسبية، القومية العربية: فكرتها نشأتها تطورها، ترجمة: عبد اللطيف شرارة، ط٢، بيروت، منشورات المكتبة الأهلية، ١٩٦٢، ص ٨٠-٨٢.

٢ - محمد عزة دروزة، مصدر سبق ذكره، ص ٦٩.

٣ - المصدر نفسه، ص ١٣٦.

الملك فيصل الأول من سوريا بعد معركة دامية بين المجاهدين السوريين، وبين القوات الفرنسية تحت قيادة الجنرال غورو^١.

وفي العراق انتخب الملك فيصل الأول ملكاً على العراق في ٢٣ آب من العام ١٩٢١، بعد أن عاد إلى العراق، وتم انتخاب مجلس تأسيسي في العام ١٩٢٤، والذي صادق على معاهدة العام ١٩٢٢، وكانت المعاهدة تتضمن المبادئ التي تم بموجبها نظام الانتداب، ثم تم التصويت على أول دستور للعراق في العام ١٩٢٥، وقد استغلت بريطانيا مطالبة تركيا بالموصل لفرض معاهدة العام ١٩٢٢، على العراق، وتمت الموافقة على تحديد المعاهدة لمدة ٢٥ سنة، وهكذا قبل العراق بمعاهدة العام ١٩٢٢، مع بريطانيا ومنح امتياز شركة نفط الموصل إلى شركة النفط التركية البريطانية تحت ضغط الحكومة البريطانية من أجل عدم التفريط بالموصل، وكان الشعب العراقي لا يرتضي بهذه المعاهدة، ويطالب باستقلاله، ولهذا فقد تم إلغاء هذه المعاهدة، وإبدالها بمعاهدة أخرى مع بريطانيا في ٣٠ حزيران من العام ١٩٣٠، وبموجب هذه المعاهدة سلمت كل الصلاحيات التي كانت تمارسها دولة الانتداب على العراق، وبموجب المعاهدة أيضاً دخل العراق عصبة الأمم في العام ١٩٣٢^٢.

أما مصر، فكانت خاضعة للاحتلال البريطاني، إذ قام سعد زغلول زعيم حزب الوفد بالتفاوض مع بريطانيا لتحقيق المطالب الوطنية، وخاصة الجلاء، ولكن بريطانيا كانت تريد فرض معاهدة غير متكافئة تضمن سلامة المواصلات الإمبراطورية، والدفاع المشترك، وحماية مصالح الأجانب، وبقاء الانكليز في السودان، وفي العام ١٩٣٦، أصبح الجو السياسي الدولي متوتراً على اثر احتلال ايطاليا للبحشة، وهذا مما دفع بريطانيا إلى تغيير سياستها تجاه مصر، فتم التوقيع على معاهد مع مصر في ٢٦ آب من العام ١٩٣٦، إذ بموجبها تتغير صفة القوات البريطانية المعسكرة في مصر من قوات احتلال إلى قوات حليفة، وتمكنت بموجبها مصر في الدخول في عصبة الأمم في العام ١٩٣٧، ولما كانت المعاهدة غير مرغوبة من الشعب المصري فقد سعت حكومة الوفد إلى إلغاء المعاهدة بعد فوزه في انتخابات العام ١٩٥٠، وهذا ما تم في تشرين الأول من العام ١٩٥١، إلا أن الحكومة البريطانية لم توافق على هذا العمل الذي عدته انفرادياً،

١ - د.حسن العطار، الوطن العربي: دراسة مركزة لتطورات السياسية الحديثة، مطبعة اسعد، بغداد، ١٩٦٦، ص ٢١.

٢ - المصدر نفسه، ص ٣٠-٣٥.

وتحججت بان اجل المعاهدة لم ينته بعد، إذ أن وجود القوات البريطانية على الأرض المصرية خلافاً لرغبة الشعب المصري، فكانت المعاهدة انتقاصاً للسيادة المصرية، فضلاً عن ذلك وبالنظر لمشاركة الجيش المصري في حرب فلسطين بأسلحة فاسدة، وأقام الملك فاروق بالحيانة، ولسوء الأوضاع في مصر قام الجيش المصري في ٢٣ يوليو من العام ١٩٥٢، بالثورة، وبعد عام تم إعلان النظام الجمهوري في العام ١٩٥٣، وفي العام ١٩٥٤، تم الجلاء عن مصر^١.

أما سوريا ولبنان فقد استقلتا في العام ١٩٤٤، وفي العام ١٩٤٦، تم جلاء القوات الفرنسية عنهما^٢، أما بلدان المغرب العربي، والتي كانت خاضعة للاستعمار الفرنسي فقد استقلت تونس في العام ١٩٥٦، وكذلك المغرب، والجزائر في العام ١٩٦٢، بعد حرب تحررية دامية بدأت منذ العام ١٩٥٤، كما استقلت ليبيا في العام ١٩٥١^٣، أما في الأردن فقد تم تنصيب الأمير عبد الله بن الحسين أميراً على شرق الأردن في ٢٥ مايس من العام ١٩٢٣، وفي العام ١٩٤٦، عقدت بريطانيا معاهدة مع الأردن الغي بموجبها نظام الانتداب، ومنذ ٢٥ آذار أصبح الأمير عبد الله يحمل لقب الملك، وتم وضع دستور جديد للبلاد في ١ نيسان من العام ١٩٤٧^٤.

ثانياً: جامعة الدول العربية

كثرت المشاريع التي تدعوا إلى الوحدة العربية، وفي العراق نتيجة لفشل حركة رشيد عالي الكيلاني في أيار من العام ١٩٤١، فقد حذر سفراء بريطانيا في الأقطار العربية من الحالة السياسية العدائية للسياسة البريطانية، واقترح تشرشل رئيس وزراء بريطانيا في أثناء الحرب توسيع المملكة العربية السعودية بحيث تضم العراق والأردن، وجاء الاقتراح الآخر من انطوني إيدن وزير خارجية بريطانيا في ٢٧ أيار من العام ١٩٤٥، والذي قال فيه إن بريطانيا لا تعارض اتحاد العرب، وعلى العرب أن يقرروا بأنفسهم ذلك)، وقد وافقت وزارة الحرب البريطانية على هذا الاقتراح، إذ قدم نوري السعيد رئيس وزراء العراق مذكرته المعروفة بالكتاب الأزرق الذي تضمن توحيد

١ - نفسه، ص ٥١-٦٠.

٢ - نفسه، ص ٧٨-٨٥.

٣ - حول استقلال بلدان المغرب العربي، انظر: د.نعمة السعيد، المغرب العربي، كلية القانون والسياسة، جامعة بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٩، وحول استقلال المغرب، انظر الصفحات ٨٠-١٦٠، وحول استقلال الجزائر انظر: ص ١١٦-١٤٧، حول استقلال تونس انظر: ص ١٦٠-١٨٨، حول استقلال ليبيا انظر: ص ١٩٤-١٩٨.

٤ - د.حسن العطار، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦-٨٧.

سورية، ولبنان، وفلسطين في دولة واحدة، وإنشاء جامعة عربية تضم العراق، وسورية، وأي دولة عربية إذا شاءت ذلك، وهناك تصريح لوزير الخارجية البريطاني انطوني إيدن ألقاه بمجلس العموم البريطاني في ٢٤ شباط من العام ١٩٤٣، قال فيه (إن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف على كل حركة بين العرب ترمي إلى تحقيق وحدتهم الاقتصادية، والثقافية، والسياسية)، وبعد اقتراحات متبادلة، ومشاورات عربية ظهرت ثلاثة اتجاهات رئيسية:-

الاتجاه الأول: يدعوا إلى وحدة سوريا الكبرى بزعامة الملك عبد الله بن الحسين، وبدعم نوري السعيد الذي كان يرى في هذه الخطوة نحو الوحدة (الاهلال الخصب).

الاتجاه الثاني: يدعوا إلى قيام دولة موحدة تشمل أقطار الهلال الخصيب بزعامة العراق.

الاتجاه الثالث: يدعوا إلى وحدة أو اتحاد أشمل واكبر يضم مصر، والسعودية، واليمن، فضلاً عن أقطار الهلال الخصيب.^١

وانتهت المشاورات العربية مع بدء العام ١٩٤٤، وكانت فكرة الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية العمل على إنشاء منظمات إقليمية تحت مظلة الأمم المتحدة، وتعاون معها في حفظ السلام والأمن في العالم، وكان الرأي العام العربي بأحزابه، ومنظماته، وجمعياته يضغط باتجاه قيام وحدة عربية حقيقية، وفي هذا المناخ الدولي وجه مصطفى النحاس باشا، رئيس وزراء مصر في ١٢ تموز من العام ١٩٤٤، الدعوة إلى الحكومات العربية التي شاركت في المشاورات التمهيدية لإرسال مندوبيها للاشتراك في اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام، واجتمعت اللجنة التحضيرية في ٢٥ أيلول من العام ١٩٤٤، في الإسكندرية بحضور مندوبي مصر، وسوريا، ولبنان، والعراق، والأردن، والسعودية، واليمن، وتم الاتفاق على بعض الخطوط العامة حول الصيغة التي يتضمنها ميثاق جامعة الدول العربية، وتم التوقيع على بروتوكول الإسكندرية في ٧ تشرين الأول من العام ١٩٤٤، وفي ٢٢ آذار من العام ١٩٤٥، تم التوقيع على ميثاق الجامعة العربية.^٢

ومنذ اجتماعات الإسكندرية كان الكلام واضحاً نحو تأكيد استقلال الدول العربية على اعتبار أن الدول العربية ترغب في زيادة التعاون والتضامن فيما بينها، ولكن

١ - د.علي محافظة، النشأة التاريخية لجامعة الدول العربية، في جامعة الدول العربية بين الواقع والطموح، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٣، ص ٣٩-٤٧.

٢ - المصدر نفسه، ص ٤٧-٥٢.

على أساس الاحتفاظ التام بسيادتها واستقلالها، وهذا ما يعني استبعاد فكرة الوحدة لمصلحة تكوين اتحاد بين الدول العربية عرف بالجامعة العربية لتعذر ذلك، ولمسأسه باستقلال البلدان العربية التي أصرت منذ البداية على السيادة رغم إن شعار الوحدة العربية الذي كانت تدور حول سقفه المشاورات والمداولات قد استخدم لاستبعاد الوحدة بأية صورة من الصور، ومن هنا جاء الميثاق ليردد التوكيد على الاستقلال والسيادة لكل دولة عربية كما أن قرارات الجامعة العربية لمن يلزمها وللغير أن يرفضها^١.

والجامعة العربية بالرغم مما يدعي البعض بأنها كانت مطلباً بريطانياً، إلا أنها كانت مطلباً جماهيرياً يسعى إليه العرب في مواجهة تحديات داخلية وخارجية متنوعة، واستجابة لدواع ومقومات طبيعية، وإنسانية، وتاريخية عدة، إذ شغلت مجموعات النخبة المثقفة والسياسية نفسها بهذا المطلب منذ أواخر القرن التاسع عشر، وبدأ بعضها بإقامة تجارب وممارسات واقعية جزئية لتحقيق هذا الهدف، مثل وحدة مصر وسورية في العام ١٩٥٨^٢.

وفي ١٧ حزيران من العام ١٩٥٠، وقعت معاهدة الدفاع المشترك، والتعاون الاقتصادي بين الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية، وذلك اثر هزيمة الدول العربية في حرب فلسطين في العام ١٩٤٨، والتي لم تكن في الواقع إلا الامتحان الأول الذي كشف عن عجز الجامعة العربية، وكشف عن إمكاناتها المحدودة، وإنما سبقها امتحان آخر سقطت فيه الجامعة، وهي لما نزل بعد حديثة النشأة، مما أكد المفارقة الواضحة بين الطموح والقدرة، حينما عجزت عن فعل شيء ذي فكر تجاه العدوان الفرنسي على سوريا في حزيران من العام ١٩٤٥، غير أن امتحان حرب فلسطين كان الأقسى، ولذا كان السبب المباشر في عقد هذه المعاهدة^٣.

ومرور الزمن استحدثت أجهزة جديدة، وهيئات عاملة إلى أجهزة وهيئات قائمة، ومن الهيئات الرئيسة التي انشأتها معاهدة الدفاع العربي مجلس الدفاع المشترك،

١ - احمد الشقيري، الجامعة العربية، كيف تكون جامعة، وكيف تصبح عربية، تونس، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٩، ص ٨٩، وكذلك انظر: ص ١٣٤.

٢ - مجدي حماد، جامعة الدول العربية: مدخل إلى المستقبل، عالم المعرفة، ٢٩٩، ديسمبر ٢٠٠٣، يناير ٢٠٠٤، الكويت، ص ١٥.

٣ - د. خليل الحديثي، النظام العربي، وإصلاح جامعة الدول العربية، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠١، ص ١٢٥.

فضلاً عن اللجنة العسكرية الدائمة، والهيئة الاستشارية العسكرية، والمجلس الاقتصادي والاجتماعي، وهناك اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية لعام ١٩٥٧، والتي دخلت حيز التنفيذ في العام ١٩٦٤، وقد كونت اجتماعات الملوك والرؤساء العرب، مؤتمرات القمة التي عقدت بصفة متكررة في نطاق الجامعة العربية منذ العام ١٩٦٤، على الرغم انه لم يرد نص على إنشاء هذا الجهاز^١.

لقد أسهمت الجامعة العربية بفعالية في تسوية بعض النزاعات، والحد من تصعيدها ومثال ذلك النزاع الكويتي- العراقي في العام ١٩٦١، والحرب الأهلية في اليمن العام ١٩٦٣، وما بعدها من الحرب بين اليمن الشمالي واليمن الجنوبي، والحرب الأهلية اللبنانية سنة ١٩٧٥، والحرب المصرية- الليبية، وكذلك أسهمت دبلوماسية القمة في تسوية عدد من المنازعات العربية عن طريق صورتين: الأولى إذ تخلق اجتماعات القمة المناخ المناسب للتفاهم بين رؤساء دول الأطراف المتنازعة حتى وان لم يكن الهدف من الاجتماع هو تسوية النزاع، وعلى سبيل المثال فقد مهد اجتماع القمة الأول في العام ١٩٦٤، إلى لقاء مصري - سعودي لتسوية الأزمة اليمنية، ولقاء جزائري - مغربي لتسوية الأزمة بين البلدين، وبعبارة أخرى، فإن جامعة الدول العربية تقوم بوظيفة اتصالية بين القيادات العربية تمهد بالتالي لتسوية المنازعات، والصورة الأخرى هي اجتماع ملوك ورؤساء الدول العربية في إطار الجامعة العربية من اجل تسوية نزاع عربي، ومن أمثلة هذه الصورة اجتماع القمة العربية في تشرين الأول من العام ١٩٧٦، للنظر في الحرب الأهلية في لبنان، وهو الاجتماع الذي أسفر عن وضع التشكيل النهائي لقوات الردع العربية^٢، وتبقى المسألة المهمة في دور الجامعة العربية المساهمة ومساعدة الأقطار العربية على تحقيق استقلالها من الاستعمار، إذ تبنت منذ تأسيسها هذه القضية، وكذلك تبني قضية فلسطين، والدفاع عنها، وحققت المقاومة الفلسطينية انتصاراً سياسياً عندما اعترفت الدول العربية في قمة الرباط في العام ١٩٧٤، بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني، وفي العام ١٩٧٦، اعتبر أن منظمة

^١ - المصدر نفسه، ص ١٣١-١٣٥.

^٢ - د. احمد فارس عبد المنعم، جامعة الدول العربية ١٩٤٥-١٩٥٨، دراسة تاريخية سياسية، سلسلة الثقافة الجماهيرية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦، ص ٨٠-٨١..

التحرير الفلسطينية لها كامل العضوية في جامعة الدول العربية، وأصبح لها الحق في التصويت على القضايا المعروضة على أجهزة الجامعة العربية^١.

ثالثاً: التنافس الدولي:

كان الوطن العربي تحت سيطرة الدول الغربية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وخارج أية سيطرة سوفيتية، وبسبب خشية الغرب من تغلغل الشيوعية فيه تبلورت فكرة مشروع قيادة الشرق الأوسط في مستهل العام ١٩٥٠، وجعلت الدول الغربية من تركيا خير وسيلة للتغلغل في دول الشرق الأوسط، وذلك لردع أطماع السوفيت، وفي العام ١٩٥١، قدمت الدول الأربع الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وتركيا، مقترحات تأسيس منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط، والتي عدت الدفاع عن هذه المنطقة أمر حيوي للعالم الحر، وان الدفاع عن العدوان الخارجي يكفل فقط عن طريق التعاون بين الدول التي يهملها الأمر^٢.

وفي تشرين الأول من العام ١٩٥١، دعت هذه الدول الأربع الدول العربية للانضمام إلى قيادة الشرق الأوسط^٣، وقد قوبل هذا المشروع بمقاومة عنيفة من قبل الرأي العام العربي، وذلك لسببين الأول/ هو أن الدول العربية ستصبح قواعد عسكرية للقوات الأمريكية، والفرنسية، والتركية، فضلاً عن القوات البريطانية الموجودة فيها، والآخر/ هو أن اشترك إسرائيل في هذه القيادة معناه الاعتراف بواقع إسرائيل، وهو أمر لا يقره العرب^٤.

وفي العام ١٩٥٣، وصلت إدارة إيزنهاور إلى الحكم في الولايات المتحدة وطرح وزير الخارجية الأمريكي دالاس موضوع الدفاع عن الشرق الأوسط، وكانت وجهة نظر الولايات المتحدة هي العمل على إدخال جميع الدول العربية في المشروع مادام أن هذه البلدان مناهضة للشيوعية ولكن الدول العربية امتنعت عن الدخول في المشروع. وقد لاحظ القادة الأتراك ضعف التأثير البريطاني في الدول العربية، وكذلك

١ - د.حسن نافعة، الدور السياسي للجامعة العربية في استقلال بعض الأقطار العربية والقضية الفلسطينية، أنظر " الجامعة العربية بين الواقع والطموح " مصدر سبق ذكره، ص ١٤٦.

٢ - د.احمد نوري الأنعمي، السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية، رسالة ماجستير منشورة، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٥، ص ٢٢٨-٢٢٩.

٣ - للمزيد من التفاصيل عن مشروع قيادة الشرق الأوسط راجع: د. احمد نوري الأنعمي، تركيا وحلف شمال الأطلسي، المطبعة الوطنية، عمان، ١٩٨١، ص ١٨٣-١٨٥.

٤ - كولن باون، وبيتر موني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٠.

خشيت الدول الغربية من وصول الشيوعيين إلى السلطة في سوريا، وكان الأتراك يخشون مما قد يترتب من وجود فراغ إذا ما انسحبت بريطانيا من المنطقة¹.

لقد كانت سنة ١٩٥٥، تحولاً مهماً في السياسة السوفيتية في المنطقة، ففي هذا العام عقدت صفقة الأسلحة التشيكية- المصرية، وكان ذلك بمثابة تعديل لسياسة مصر نحو التعاون مع دول المعسكر الاشتراكي، وفي السنة نفسها عقد مؤتمر بانديونغ الافرواسيوي، وشهد تقارباً بين عبد الناصر ونهرو وشوان لاي، وكان ذلك يمثل رفض الانحياز نحو الغرب، ورفضت هذه الدول أن يستخدمها الغرب كمحطة انطلاق في الصراع الغربي- الشرقي، ولمصلحة المعسكر الغربي، إلا أن المهم هو في صفقة الأسلحة التشيكية إلى مصر لأنها في نظر الغربيين أدت إلى نتائج خطيرة، وهي قلب التوازن في الشرق الأوسط لمصلحة مصر، حيث أصبح لمصر كما يرى الغربيون أسلحة تفوق كل الدول المجاورة لها ، فضلاً عن إسرائيل، وان صفقة السلاح هذه أعطت للسوفيت موطئ قدم في المنطقة، وحفزت سباق التسلح. فقد اقتفت سوريا طريق عبد الناصر في التقارب مع السوفيت، إذ قام الرئيس السوري آنذاك شكري القوتلي بزيارة إلى موسكو وقامت اليمن بشراء سلاحاً سوفيتياً في العام ١٩٥٧، للحفاظ على استقلالها في الوقت الذي كانت بريطانيا تحتكر سوق السلاح في المنطقة، ولما عقد حلف بغداد في العام ١٩٥٥، رفضت الدول العربية الانضمام إليه سوى العراق. فقد وقعت سوريا ومصر اتفاقاً ثنائياً ثم تم توقيع ميثاق الدفاع بين مصر والسعودية واليمن في العام ١٩٥٦، وهو اتفاق أسهم في منع الأردن من الانضمام إلى حلف بغداد. أما لبنان فإنها قد تبنت حياداً تاماً، وهكذا تم عزل محور الثقل البريطاني في المنطقة، في حين حاول الأمريكيون والانكليز تقوية العراق، وأبعاد السعودية واليمن عن الجذب السوفيتي ، لقد ازداد قلق الانكلوسكسون حينما أصبح الاتحاد السوفيتي حامي القضية العربية، وازداد قلق الأمريكان حول امن إسرائيل جراء تدفق السلاح السوفيتي إلى منطقة ، وهكذا تغير التوازن لمصلحة مصر، وتم أضعاف حلف بغداد^٢.

¹ - Rene Kalisky,, Le Monde Arabe a pheure actuelle,, Marabout Uiversite, Belgique, 1986, p.202-204.

² - Helene Carrere d encausse "La Politique Sovietique ou Moyen- Orient 1955-1975" Paris, Fondation National des sciences politiques, 1975, p28-35.

وبعد صفقة الأسلحة التشيكية اعترفت مصر بالصين الشعبية، وأعلنت بعد ذلك بوقت قصير أن باستطاعتها الحصول على أسلحة من بكين رغم حظر الأمم المتحدة، ورداً على ذلك سحبت الولايات المتحدة في ١٥ تموز من العام ١٩٥٦، وعدها بالمساعدة المالية لمشروع السد العالي، واقتدى بها البنك الدولي، وبريطانيا وهما المصدران الأساسيان للدعم.

وفي ٢٦ تموز من العام ١٩٥٦، أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس فوق العدوان الثلاثي البريطاني- الفرنسي- الإسرائيلي على مصر في ٢٩ تشرين الأول من العام ١٩٥٦، وأرغم الضغط الأمريكي، والتهديد السوفيتي على إيقاف العدوان وانسحاب المعتدين، وأدى ذلك إلى إنهاء النفوذين البريطاني والفرنسي في المنطقة مما دفع الولايات المتحدة لإصدار مبدأ أيزنهاور في العام ١٩٥٧، والذي وعد بتقديم المساعد العسكرية والاقتصادية للدول التي تواجه الشيوعية^١، واعترضت مصر وسوريا على ذلك، وازدادت قرباً من الاتحاد السوفيتي.

وفي ١٤ تموز من العام ١٩٥٨، وقعت الثورة في العراق، وأدت إلى قيام النظام الجمهوري مما دفع الولايات المتحدة إلى أنزال قواتها البحرية في لبنان، وإنزال بريطانيا قواتها في الأردن للحفاظ على التوازن في المنطقة^٢.

وفي الستينات ازداد اعتماد الغرب على نفط الشرق الأوسط، ومن ثم أصبحت أهمية السلام في المنطقة ذات جذب كبير له، وكان للولايات المتحدة مصالح عسكرية، واقتصادية، وثقافية في المنطقة، وأرسلت الأسلحة إلى إيران، والسعودية، والأردن، ولبنان، وإسرائيل، وكان الأسطول السادس موجود في شرقي البحر المتوسط، ورغم ذلك كانت ميول الكونغرس، والأوساط السياسية الأمريكية منحازة لإسرائيل، ومع ازدياد مصالح الولايات المتحدة في المنطقة، ازدادت مصالح الاتحاد السوفيتي أيضاً فقدمت موسكو المعونات لمصر، وسوريا، والعراق، في حين كانت السعودية والأردن تحشيان من توسع النفوذ السوفيتي في المنطقة، وقبلت مصر المعونة من الاتحاد السوفيتي لأنها لم تستطع الحصول من قبل الغرب على الأسلحة الهجومية التي كانت بحاجة إليها، وفي ٥ حزيران من العام ١٩٦٧، قامت إسرائيل بالعدوان على مصر، وسوريا،

^١ - للمزيد من التفاصيل حول مبدأ أيزنهاور راجع: د. احمد النعيمي، تركيا وحلف شمال الأطلسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٩٢.

^٢ - كولن باون وبيتر موني، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢٢.

والأردن، واستطاعت أن تحتل مساحة كبيرة من الأراضي العربية. كما أن حرب ١٩٦٧، أثبتت عدم قدرة الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي في السيطرة على الدول التابعة لهما، والتي هددت حروبها المحلية بسبب استغلال الأسلحة، ونفوذ الدولتين الأعظم في المنطقة بتصعيد الموقف إلى حرب عالمية ثالثة، وفي تشرين الثاني من العام ١٩٦٧، تبنت الأمم المتحدة القرار ٢٤٢ الذي قدمته بريطانيا، والذي طالب بإنهاء حالة الحرب، والانسحاب من الأراضي المحتلة، والاعتراف بالسلامة الإقليمية لكافة الدول، وحرية الملاحة في المياه الدولية، وتسوية مشكلة اللاجئين وإيجاد مناطق مزروعة من السلاح على الحدود، وإرسال بعثة من الأمم المتحدة للتفاوض على تسوية، ولم يقبل أي من الجانبين القرار برمته، واستمرت حوادث الحدود، وبدأ سباق التسلح، وبعد سنة ١٩٦٧، برزت الولايات المتحدة كمزود رئيس لإسرائيل بالسلاح، وضامن رئيس لأمنها، لكن الحرب جاءت نكسة للاتحاد السوفيتي، إذ فقدت مصر وسوريا حلفاء الاتحاد السوفيتي جزءاً من أراضيها، والتي احتلت من قبل إسرائيل، وان الأسلحة التي زود بها السوفيت العرب لم تحقق لهم الانتصار، ولم تمنع صداقته من أخاق خسائر مؤلمة بالعرب، وخسارة لأراضيهم، واستمر القتال المتقطع على طول القناة سنتي ١٩٦٩ - ١٩٧٠، مما دفع الاتحاد السوفيتي لإرسال صواريخ سام، وعدد يتراوح بين ١٥ - ٢٠ ألف من الفنيين السوفيت إلى مصر، ومقابل ذلك أعطى السوفيت تسهيلات في قاعدة بحرية في الإسكندرية، وحق استخدام القواعد الجوية التي يستطيعون منها مراقبة وجود حلف الأطلسي في البحر المتوسط، وقلق الوجود السوفيتي المتزايد الولايات المتحدة، وربما كان سبباً في قيام وليم روجرز وزير الخارجية الأمريكي بمبادرة سلمية في العام ١٩٧٠، وفي ٦ تشرين الأول من العام ١٩٧٣، اندلعت حرب تشرين، وحطم العرب طوق الجمود مرة أخرى بمهاجمة إسرائيل، وعندما اندلعت الحرب حاول الاتحاد السوفيتي دون جدوى الضغط على مصر لقبول وقف إطلاق النار، ولكن لم تكن الدولتان الأعظم قادرتين على فعل شئ في البداية لان كليهما فوجئت بالحرب، وقامت كل منها بإيجاد جسر جوي من إمدادات الأسلحة لأنه رغم إن أيا منها لم ترد الحرب، إلا أنها لم تستطع قبول الهزيمة، وعندما عبرت القوات الإسرائيلية قناة السويس إلى الضفة الغربية يوم ١٦ تشرين الأول بدأت التصرفات السوفيتية تعكس حاجة السوفيت الماسة لتحقيق وقف فوري لإطلاق النار كما بدأت تعكس قلق الروس على مصر

وسوريا، وتوصلت الدولتان الأعظم إلى وقف إطلاق النار، ولكن بالنظر لتجاهل المتحاربين له فقد اقترحت موسكو إيفاد قوات مشتركة لغرض وقف إطلاق النار، وعندما رفضت الولايات المتحدة ذلك زاد التوتر بين الدولتين، وأعلن الرئيس الأمريكي نيكسون حالة الإنذار النووي بين القوات الأمريكية في العالم، أزمة كادت تؤدي إلى حرب عالمية، وكان من نتائج الحرب اتجاه مصر نحو الولايات المتحدة، وليس نحو الاتحاد السوفيتي للمساعدة في الحصول على السلام، ونظمت الولايات المتحدة انسحاب القوات الإسرائيلية في القناة، والشروع في محادثات السلام في جنيف، وأخذت الولايات المتحدة دوراً مهماً في عملية السلام بعد ذلك¹.

وخلال حرب تشرين الأول في العام ١٩٧٣، استخدم العرب سلاح النفط بنجاح، فبمجرد تخفيض الإنتاج النفطي، ولو بنسبة ضئيلة، استطاع منتجوا النفط العرب ان يدفعوا وتيرة أزمة الطاقة في الغرب، وأرغموا الغرب على تعديل سياساته، ولو باتجاه التلازم مع المصالح العربية، وبواسطة رفع أسعار النفط إلى حد الذي جعل ميزان مدفوعات البلدان الأوروبية والغربية، واليابان عرضة للخطر، فأهم طرحوا على المحك التضامن الاقتصادي الغربي، وقدرة النظام الدولي على التكيف مع إمكانية توفر فوائض ضخمة في أيدي منتجي النفط. وقد أثبتت الزيادات التي طرأت على أسعار النفط أن منتجي النفط قادرون على التحكم في سوق النفط².

لقد أصبحت المنطقة العربية من أهم المناطق للسياسة الأمريكية كونها نقطة التقاء القارات الثلاث أوروبا، وإفريقيا، وآسيا، وتعد الممر البحري، والجوي، والبري بين أوروبا الغربية، والدول الصديقة لحلف شمال الأطلسي، كونها محاذية للجناح الجنوبي من الحلف المذكور من جهته، وقريبة من الاتحاد السوفيتي، وكون دوله المطلة على المحيط الهندي ذات موقع مهم في قوس الأزمات الذي اكتسب آنذاك أهمية خاصة للولايات المتحدة، ولكن الأهم من ذلك هو غنى المنطقة العربية بالنفط الذي يشكل نحو ٦٥% من احتياطي النفط العالمي، وان ذلك اخذ يتطلب إيجاد تسهيلات وقواعد عسكرية في نقاط مختلفة من قوس الأزمات، بغية حماية الخطوط البحرية التي يمر عبرها النفط إلى

1 - المصدر نفسه، ص ٢٢٤-٢٢٧.

2 - المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية، المسح الاستراتيجي ١٩٧٣، حرب تشرين وقضايا إستراتيجية دولية، ترجمة: بيار عقل، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٧، ص ٥٣-٥٤.

حلفاء الولايات المتحدة، والمعني تحديداً مضيق هرمز، والبحر الأحمر، والخطوط البحرية إلى اليابان^١.

لقد رأى الرئيس المصري الراحل أنور السادات أن مفتاح الحل لمشكلة الصراع العربي- الإسرائيلي هي بيد الولايات المتحدة، فقرر المضي في سياسة التسوية مع إسرائيل، ووقع معها معاهدة السلام في العام ١٩٧٩، بمساعي أمريكية مما أدى إلى عزل مصر من دائرة الصراع العربي- الإسرائيلي، وإضعاف الرادع العربي لإسرائيل، والتسوية كانت أمريكية خالصة، إذ أبعدت الولايات المتحدة الاتحاد السوفيتي عنها، وكانت الولايات المتحدة تعمل على أساس خيارين رئيسيين هما أولاً: أبقاء إسرائيل متفوقة على أي احتمال تجميع قوى عربية، وثانياً ردع البلدان العربية من اللجوء إلى الخيار العسكري لإحقاق تغيير في ميزان القوى العربي- الإسرائيلي^٢، أما السوفيت فقد عملوا على تبني إستراتيجية تهدف إلى مقاومة محاولات الولايات المتحدة لإخراجهم من المنطقة من جهة، والوقوف إلى جانب دعم العرب في القضية الفلسطينية من جهة أخرى، وحاول السوفيت الاستفادة دائماً من توتر العلاقات الأمريكية- العربية في مجال الصراع العربي- الإسرائيلي لتحقيق بعض المكاسب على الصعيد العربي^٣.

رابعاً: العلاقات الدولية في الخليج العربي:

حدثت تطورات سياسية مهمة في أواخر السبعينات في منطقة الخليج العربي تمثلت في الثورة الإسلامية في إيران في العام ١٩٧٩، والتي كانت ضربة للسياسة الأمريكية في منطقة الخليج العربي بأسرها، ودمرت ضلعاً مهماً في العديد من المحالفات العسكرية الأمريكية، وترتيبات الأمن التي أقامتها الولايات المتحدة في الشرق الأوسط منذ الخمسينات، وكذلك حدث التدخل العسكري السوفيتي في أفغانستان في ٢٧ كانون الأول من العام ١٩٧٩، واندلعت الحرب العراقية- الإيرانية في العام ١٩٨٠، والتي أثبتت جريان الأحداث فيما بعد أنها واحدة من أطول حروب الاستنزاف الإقليمية، وأكثر كلفة، وكذلك شهدت المنطقة إقامة مجلس التعاون الخليجي في مطلع العام ١٩٨١، والذي كان بمثابة رد على بعض التحديات المذكورة أنفاً والأزمة الحادة

١ - د.ناصر يوسف حتى، القوى الخمس الكبرى والوطن العربي، دراسة مستقبلية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧، ص ٢٨-٢٩.

٢ - المصدر نفسه، ص ٤٤.

٣ - المصدر نفسه، ص ٦٧-٦٨.

التي تعرضت لها منظمة الأقطار المصدرة للنفط. وبعد انسحاب بريطانيا منطقة الخليج العربي قبل نهاية العام ١٩٧١، تولت الولايات المتحدة ملء الفراغ الناجم عن ذلك، وفي ٣٠ تشرين الثاني من العام ١٩٧١، أي قبل يوم واحد من إنهاء بريطانيا لالتزاماتها في الخليج قام شاه إيران باحتلال الجزر العربية الثلاث في الخليج العربي، طناب الكبرى، وطناب الصغرى، وأبو موسى وكانت الولايات المتحدة تخشى من النفوذ السوفيتي في منطقة الخليج العربي الذي نجم عن الثورة الإيرانية في العام ١٩٧٩، وكذلك من الدور المتزايد للسوفيت في العراق اثر توقيع معاهدة الصداقة والتعاون في ٩ نيسان من العام ١٩٧٢، وبدأت إيران في استظهار قوتها اثر ذلك، وكان شاه إيران قد ألغى من طرف واحد في العام ١٩٦٩، اتفاقية العام ١٩٣٧، بين إيران والعراق، والتي تنظم حقوق الملاحة في شط العرب، وقد أناطت الولايات المتحدة بموجب مبدأ نيكسون لإيران دور أساسي في عملية الدفاع عن امن الخليج العربي، وذلك عن طريق تسليحها بحيث تصبح قوة عسكرية إقليمية كبرى، وقد أعفيت إيران من أي قيود تحد من حريتها في الحصول على السلاح الذي تريده من الولايات المتحدة، وتبع ذلك التوصل إلى اتفاق مع الولايات المتحدة في العام ١٩٧٢، والذي كان بمثابة حجر الزاوية في تطوير هذه المسؤولية بين الدولتين فيما يخص بالدفاع عن امن الخليج العربي، وسعت الولايات المتحدة إلى عدم تمكين الاتحاد السوفيتي من تحقيق تفوق عسكري استراتيجي في المحيط الهندي نظراً لان هذا التفوق في حالة حدوثه كان لا بد، وان يميل بالميزان الاستراتيجي العالمي في غير مصلحة الولايات المتحدة، والتحالف الغربي عموماً، ويعمل هذا التصميم على تعزيز القدرات الإستراتيجية المتاحة للولايات المتحدة في المحيط الهندي لعدم تمكين الاتحاد السوفيتي من خلق أوضاع مضادة للمصالح الغربية الحيوية في هذه المنطقة، وهو الذي يفسر السبب كما يقول بعض المحللين وراء حلول الولايات المتحدة محل بريطانيا في قاعدة ديغو غارسيا التي تعتبر أهم جزر المحيط الهندي إطلاقاً.

لقد كان للاتحاد السوفيتي أدواته التي ساعدته للوصول إلى الخليج، وبخاصة مشترياته من الغاز الطبيعي من إيران، ومبيعاته من الأسلحة إذ أراد السوفيت أن يظل عداء النظام السياسي في إيران منصباً بأكمله على الولايات المتحدة، لأن ذلك يسهل نسبياً من مهمة القوى اليسارية في إيران، وهي القوى التي دخلت مرحلة التحالف

١ - د.إسماعيل صبري مقلد، امن الخليج وتحديات الصراع الدولي، شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٤، ص ١١-١٧، و ص ٣٥-٣٧.

المرحلي في النظام الإيراني ضد خصومه، ولذلك فقد حرص السوفيت على تجنب استفزاز النظام الإيراني بدعم مفتوح يقدمونه للعراق، وأرادوا أن يشبوا للإيرانيين عملياً انه رغم معاهدتهم مع العراق فقد امتنعوا عن تزويده بالسلاح حتى لا يكون أدواته في غزو إيران، واحتلال أراضيها، وتفكيك لكيانها. كما أراد السوفيت أن يشبوا للنظام الإيراني انه لم يكن ثمة خوف منهم على إيران، وإنهم لا يشكلون تهديداً لأمنها بوجودهم في أفغانستان كما حاولت الولايات المتحدة أن تصور الأمور لهم¹.

لقد كانت الحرب العراقية- الإيرانية توفر للولايات المتحدة مخاطر التدخل العسكري المباشر ضد إيران لإسقاط نظام الحكم فيها بسبب توجهاته العدائية ضدها، إذ خلق التدخل الأمريكي غير المباشر لإسقاط مصدق، وإعادة تنصيب الشاه في العام ١٩٥٣، شعوراً بالمرارة لدى الإيرانيين، إذ كان البديل الأرخص كلفة، والأقل مخاطرة في أوضاع إقليمية ودولية بالغة الحساسية، والتشابك والتعقيد كان ترك الثورة الإيرانية تضعف وتخسر، إذ لم يكن من مصلحة الولايات المتحدة انتصار احد الطرفين، وإنما كان هدفها إضعاف الاثنين معاً، وبالنظر للخسائر البشرية والمادية التي سببتها الحرب فقد تم قبول وقف إطلاق النار في ٨ آب العام ١٩٨٨.

وفي تموز من العام ١٩٩٠، أتهم العراق الكويت بأنها قد انتهزت فرصة انشغاله في الحرب العراقية- الإيرانية لضخ كميات من النفط من حقول تقع على الحدود بين الدولتين، وإنما تنتج كميات من النفط تتجاوز الحصة المحددة لها طبقاً لمنظمة الأوبك مما يؤدي إلى خفض أسعار النفط، ويضر بعوائد تصدير النفط العراقي. وقد قام العراق بتعبئة قواته على الحدود مع الكويت، ومن اجل تلافي الموقف الحرج تدخلت مصر والسعودية للوساطة بين الدولتين، وبالفعل تم عقد جلسة محادثات بين المسؤولين العراقيين والسعوديين في جدة في آب من العام ١٩٩٠، ولكن تلك الجلسة انتهت دون التوصل إلى اتفاق سوى عقد جلسة محادثات أخرى في بغداد، وفي اليوم التالي المصادف ٢ آب من نفس العام، قام العراق بغزو شامل للكويت انتهى باحتلالها بالكامل. وقد اصدر مجلس الأمن قرار بإدانة الغزو، ومطالبة إيران بالانسحاب الكامل، وإعادة الحكومة الشرعية، وفي قرار آخر تم فرض عقوبات اقتصادية، ولكن العراق بادر بالإعلان عن استعداده للانسحاب من الكويت إذا ما ضغطت الدول الغربية على

١ - المصدر نفسه، ص ٢١٢-٢١٤.

٢ - المصدر نفسه، ص ١٩٩-٢٠٠.

إسرائيل أيضا للانسحاب من الأراضي العربية التي احتلتها في العام ١٩٦٧، وذلك في مبادرة أعلنها في ١٢ آب من العام ١٩٩٠، ولما لم ينسحب العراق من الكويت، بادر إلى إعلانها تابعة له اصدر مجلس الأمن القرار ٦٧٨، الذي يخول الدول الأعضاء استعمال كافة الوسائل الضرورية لإجبار العراق على الخروج من الكويت، إذا بقيت القوات العراقية فيها بعد ١٥ كانون الثاني من العام ١٩٩١، وقد حشدت الولايات المتحدة قوة عسكرية ضخمة أمريكية، ومن عدد كبير من الدول أطلق عليها بقوات التحالف، ولما لم يطبق العراق هذا القرار تم استخدام القوة العسكرية في ١٧ كانون الثاني من العام ١٩٩١، وحيث تم إخراج العراق من الكويت بعد ٤٢ يوماً من القصف الجوي أعقبه قتال بري مما أدى إلى سحب القوات العراقية من الكويت، وفي ٢٦ شباط من العام ١٩٩١، أعلنت الولايات المتحدة، وقوات التحالف عن وقف إطلاق النار. كما اصدر مجلس الأمن القرار ٦٧٨ في ٢ نيسان من العام ١٩٩١، وحدد فيه شروطاً لرفع العقوبات عن العراق أهمها، قبول العراق دفع تعويضات للمتضررين من الحرب، وتدمير أسلحة الدمار الشامل، الكيماوية، والبيولوجية، والصواريخ التي يتجاوز مداها ١٥٠ كم والتخلي عن برامج التسليح النووي، وقبول التفتيش الدولي للتأكد من الاستجابة لتلك المطالب. وقد قبل العراق بهذا القرار، وترجع أهمية حرب الخليج الثانية أنها أدخلت العالم عصر الصعود الأمريكي، والتراجع السوفيتي، والذي انتهى بسقوط الكتلة الشرقية، والاتحاد السوفيتي، وأوضحت الأزمة إن الاتحاد السوفيتي لم يعد عاملاً مؤثراً في تلك السياسة فقد فشل في إقناع الحكومة العراقية بالانسحاب من الكويت وفشل كذلك في منع نشوب الحرب، وفي التوسط لإنهائها حينما نشبت^١.

^١ - د. محمد السيد سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٦٤٧-٦٤٩.

المبحث الرابع

تطور حركة عدم الانحياز

حركة عدم الانحياز هي السياسة التي اتبعتها الدول النامية خلال الحرب الباردة تعبيراً عن رفض الارتباط بعجلة المعسكرين الغربي والشرقي، وسرعان ما أصبحت ركناً أساسياً من أركان السياسة الخارجية للدول النامية، ويرى البعض بان حركة عدم الانحياز هي رد فعل على الحرب الباردة، في حين ينكر آخرون ذلك، ويرون بان جذور عدم الانحياز هي أكثر عمقاً لأنها تلي طموحات عدد كبير من الشعوب المتحررة من الاستعمار في نيل الحرية والاستقلال، ورفض التبعية للكتل المتصارعة¹.

وبالرغم من إن التأسيس الرسمي للحركة يتجسد في مؤتمرها الأول المنعقد في بلغراد في أيلول من العام ١٩٦١، إلا أن نشوئها كظاهرة يمتد إلى ما قبل ذلك، وفي هذا الصدد يختلف المعينون حول تاريخ نشوء الحركة، فمنهم من يرجع نشوئها إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومنهم من يرى أن جذورها تمتد إلى عشرينات هذا القرن، إذ نشطت الحركة المناهضة للاستعمار في الأقاليم المستعمرة، ومنهم من يرجع جذورها إلى مؤتمر باندونغ في العام ١٩٥٥^٢.

ومن الناحية الفعلية فعلى الرغم من كون مؤتمر باندونغ مؤتمراً أفر وآسيويا، فإنه قد أدى دوراً لا يمكن نكرانه في دفع حركة عدم الانحياز إلى الظهور، كما سنرى لاحقاً، ولكننا في الوقت نفسه يجب إلا نهمل مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وما رافقتها من تطورات سياسية تزامنت مع ظهور الحرب الباردة، وظهور الدول المستقلة في مسرح السياسة الدولية، ومما يؤكد على ذلك هو قول د. بطرس بطرس غالي بان أول إشارة رسمية إلى سياسة عدم الانحياز تكمن في تصريح رئيس وزراء الهند الراحل جواهر لال نهرو حينما كان وزيراً لخارجية بلاده، والذي قال فيه إن سياسة الهند هي الابتعاد عن سياسة القوى التي تتبعها الكتل المتصارعة بعضها عن بعض^٣.

١ - د.سعد حقي توفيق، مبادئ العلاقات الدولية، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٠، ص ٣٠٥.

٢ - د.سعد حقي توفيق، نشوء حركة عدم الانحياز، مجلة العلوم السياسية، العدد الأول، آذار، ١٩٨٨، ص ١٦٤.

٣ - د.بطرس بطرس غالي، سياسة عدم الانحياز بعد التصالح الأمريكي-السوفيتي، مجلة السياسة الدولية، العدد ٣١، يناير ١٩٧٣، ص ١٦.

وفي العام ١٩٤٦، وفي مصر كان أول تعبير رسمي عن الحياض المصري هو تصريح المندوب المصري في الأمم المتحدة د. محمد فوزي عندما امتنع عن التصويت عند اخذ الرأي في القرار الأمريكي الذي طلب من الأمم المتحدة التدخل لحماية كوريا الجنوبية في ٣٠ حزيران من العام ١٩٥٠،^١ وكذلك ما أعلنه الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر في ٢٩ تموز من العام ١٩٥٤.، بان الهدف الثاني بعد الجلاء هو عدم الارتباط بأي حلف أو بالدفاع المشترك^٢،
المؤتمرات السياسية الإقليمية:

لقد ساهم في نضج حركة عدم الانحياز عقد عدد من المؤتمرات التي عقدت على الصعيد الإقليمي الآسيوي، والتي كان لها أثراً فعالاً في ظهور عدم الانحياز: مؤتمر نيودلهي الأول: مؤتمر العلاقات الآسيوية الأول في ٢٣ آذار- نيسان من العام ١٩٤٧: عقد في نيودلهي بدعوة من حزب المؤتمر الهندي، وذلك قبل عدة أشهر من استقلال الهند، وحضرته عدة حركات سياسية آسيوية، وعدد من المندوبين الذين يمثلون بعض دول العالم، ومنها الاتحاد السوفيتي، وأوروبا الغربية، وكان الهدف الأساسي من عقده هو الدعوة لتحقيق الاستقلال السياسي، والحصول على الحقوق، والمناداة بالحرية على الصعيد الدولي^٣ وكان من أبرز نتائجه هو تعزيز الشعور بالتضامن عند شعوب آسيا، إذ كون ركيزة جديدة وهي جمعية العلاقات الآسيوية، إذ يعد هذا المؤتمر الأساس في نشوء حركة عدم الانحياز^٤..

مؤتمر نيودلهي الثاني في ٢٠-٢٣ كانون الثاني العام ١٩٤٩: عقد في نيودلهي بعد استقلال الهند، وحضره عدد كبير من حكومات آسيا، وبعض حكومات أفريقيا فضلاً عن استراليا، واهتم بمناقشة قضايا الاستقلال، وبرز قضية استقلال اندونيسيا، وتمخض عنه تأسيس المجموعة الافراسيوية في الأمم المتحدة^٥

١ - د. فؤاد المرسي، العلاقات المصرية- السوفيتية ١٩٤٣-١٩٥٦، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ١٩٧٧، ص١٠٢.

٢ - د. سامي منصور، المؤتمر الثلاثي لدول عدم الانحياز، السياسة الدولية، العدد ٦، أكتوبر ١٩٦٦، ص٤٥.

٣ - Pierre Queuille 'Histoire de Pafroasiatisme jusquau Bandoung' ed Payot, Paris, 1965, p.86

٤ - I bid, p.87.

٥ - I bid, p.89.

مؤتمر كولومبو ٥ نيسان العام ١٩٥٤: عقد من قبل خمس دول آسيوية وهي بورما، وسريلانكا، الهند، واندونيسيا، والباكستان، في كولومبو عاصمة سريلانكا بدعوة من حكومتها، وتدارس المؤتمر المخاطر الناجمة عن توسع الحرب في الهند الصينية، ومسألة انضمام الصين إلى الأمم المتحدة، وقد رأت الدول الخمس بان مثل هذه المواضيع التي هي على درجة بالغة من الأهمية لا يمكن مناقشتها من قبل عدد محدود من الدول، وإنما يجب أن تناقش من قبل مؤتمر عام للدول الإفريقية والآسيوية المستقلة، وهكذا تقرر عقد المؤتمر في مدينة باندونغ في اندونيسيا^١.

الاتفاق الهندي- الصيني ٢٩ نيسان العام ١٩٥٤: عقد بين رئيس وزراء الهند الراحل نهرو، ورئيس وزراء الصين الراحل شوان لاي، وهو يتضمن المبادئ الخمسة، والتي أصبح لها أهمية بالنسبة لجوهر عدم الانحياز، كما استقى منها مؤتمر باندونغ مبادئه، وتسمى بالبنشاشلا وهي^٢: -

١. الاحترام المتبادل للسيادة والسلامة الإقليمية.

٢. عدم الاعتداء المتبادل.

٣. عدم التدخل في الشئون الداخلية.

٤. التكافؤ، والمنفعة المتبادلة.

٥. التعايش السلمي.

مؤتمر بوكور ٢٨-٢٩ كانون الأول العام ١٩٥٤: ويعد المؤتمر التحضيري لمؤتمر باندونغ وفيه تم تحديد الدول المراد دعوتها لحضور مؤتمر باندونغ، وإعداد جدول الأعمال^٣.

مؤتمر باندونغ ١٨-٢٤ نيسان العام ١٩٥٥: عقد هذا المؤتمر في مدينة باندونغ في اندونيسيا، وهو مؤتمر افرواسيوي حضرته تسع وعشرون دولة افريقية وآسيوية. وقد قام المؤتمر على الأسس الآتية:-

قام المؤتمر على أساس الانتماء الجغرافي، إذ شاركت فيه الدول الإفريقية والآسيوية فقط.

^١ - I bid, p.275.

^٢ - د.بطرس غالي، أبعاد الأيديولوجية الافروآسيوية، السياسة الدولية، مؤسسة الأهرام، القاهرة، أبريل ١٩٦٨، ص ١٢-١٣.

^٣ - Pierre Queuille, op.cit p278.

من بين تسع وعشرين دولة مشاركة كانت هناك ثلاثة وعشرون دولة أسيوية، في حين شاركت فيه ست دول افريقية فقط، مما حدا بالبعض بان يطلق عليه بان مؤتمر أسيوي أكثر منه أفريقي.

إن عدداً كبيراً من الدول المشاركة فيه كان تستلم مساعدات من الدول الغربية، وخصوصاً مساعدات عسكرية واقتصادية.

عقد المؤتمر على مستوى عال، إذ شارك فيه رؤساء ووزراء سبع عشرة دولة، ووزراء خارجية سبع دول وثلاثة أمراء.

وقد تدارس أعضاء المؤتمر قضايا الاستعمار، وحق تقرير المصير، والتعاون الاقتصادي والثقافي الافرواسيوي، ولم يكن هذا المؤتمر مؤتمراً لعدم الانحياز، ولكن اللانحيازية رأيت روحها فيه، وذلك عن طريق الجدل الفقهي، والأخذ والرد، والمناقشات التي سادت أجواء المؤتمرين وبرز تيارين في المؤتمر، التيار الأول وتدعمه الدول المرتبطة بالأحلاف، والمنحازة، والتيار الأخر وتدعمه الدول غير المرتبطة بالأحلاف العسكرية.

إن المبررات التي طرحها رؤساء الهند، ومصر، واندونيسيا، والتي بررت رفضهم الارتباط بالأحلاف العسكرية كانت تجسد جوهر عدم الانحياز^١، إذ أشار رئيس وزراء الهند الراحل نهرو إلى مدى الاهانة التي تتعرض لها أية دولة من دول العالم الثالث، وذلك حينما تقبل أن تدور في فلك أي من المعسكرين المتناهضين^٢.

وقد اقر المؤتمر عشرة مبادئ كان لها أهمية في تجسيد حركة عدم الانحياز، إذ استلهمت نصوصها من مبادئه، وهي^٣:-

١. احترام حقوق الإنسان وفقاً لأهداف ومبادئ الأمم المتحدة.
٢. احترام سيادة جميع الأمم وسلامة أراضيها.
٣. الاعتراف بالمساواة بين جميع الأجناس والأمم.
٤. الامتناع عن التدخل في الشؤون الداخلية لبلد آخر.
٥. احترام حق كل امة في الدفاع عن نفسها انفرادياً وجماعياً وفقاً لميثاق الأمم المتحدة.

^١ - Odette Guitard 'Bandoung et le reveil des peuples colnises' ed P.U.f., Que-sais-je, Paris, 1969, p.30-37.

^٢ - د.بطرس غالي، مصدر سبق ذكره، ص ١٨.

^٣ - Odette Guitard, op-cit, p41-42.

٦. الامتناع عن استخدام التنظيمات الدفاعية الجماعية لخدمة المصالح الذاتية لأية دولة من الدول الكبرى، والكف عن استخدام وسائل الضغط على أي بلد.
 ٧. تجنب استخدام العنف ضد السلامة الإقليمية أو الاستقلال السياسي لأي بلد أو التهديد بالعدوان.
 ٨. تسوية جميع المنازعات الدولية بالطرق السلمية، كالمفاوضة أو التوفيق أو التحكيم أو التسوية القضائية أو أية وسيلة أخرى يختارها أطراف النزاع طبقاً لميثاق الأمم المتحدة.
 ٩. تنمية المصالح المشتركة، والتعاون المتبادل.
 ١٠. احترام العدالة والالتزامات الدولية.
- مؤتمر بريوني في ١٨ تموز العام ١٩٥٦: عقد هذا المؤتمر بين الرؤساء تيتو، وفهرو، وعبد الناصر في جزيرة بريوني التابعة ليوغسلافيا بعد مضي أكثر من عام على انعقاد مؤتمر باندونغ، ويعدّ بريوني حلقة وصل بين مؤتمر باندونغ، ومؤتمر قمة عدم الانحياز الأول في بلغراد، وأسهم في نقل حركة عدم الانحياز إلى خارج آسيا وأفريقيا نتيجة انضمام يوغسلافيا إليها، وأصبح عدم الانحياز سياسة يمكن أن يعتنقها أي نظام سياسي بغض النظر عن العقيدة التي يعتنقها، وأكد على أن سياسة عدم الانحياز لا تقتصر على الدول التي تخلصت من دائرة النفوذ الغربي، ولكنها تشمل أيضا الدول التي تخلصت من دائرة النفوذ السوفيتي أيضا^١.
- مؤتمرات القمة: تعقد الحركة مؤتمر قمة مرة واحدة كل ثلاث سنوات، يحضره رؤساء الدول، وتكون الدولة المضييفة للمؤتمر رئيسة للحركة خلال هذه المدة، ومؤتمرات قمة الحركة:
١. مؤتمر بلغراد الأول أيلول ١٩٦١.
 ٢. مؤتمر القاهرة تشرين الأول ١٩٦٤.
 ٣. مؤتمر لوساكا أيلول ١٩٧٠.
 ٤. مؤتمر الجزائر أيلول ١٩٧٣.
 ٥. مؤتمر كولومبو آب ١٩٧٦.
 ٦. مؤتمر هافانا أيلول ١٩٧٩.

^١ - د.بطرس غالي، سياسة عدم الانحياز بعد لتصالح الأمريكي- السوفيتي، مصدر سبق ذكره، ص ١٩.

٧. مؤتمر نيودلهي آذار ١٩٨٣.

٨. مؤتمر هراري أيلول ١٩٨٦.

٩. مؤتمر بلغراد أيلول ١٩٨٩.

١٠. مؤتمر جاكارتا أيلول ١٩٩٢.

ثانياً: موقف الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة من حركة عدم الانحياز

أ- موقف الاتحاد السوفيتي من الحركة:

لقد أنكر الاتحاد السوفيتي إمكانية قيام طريق ثالث خلال مدة حكم ستالين وعدت دول عدم الانحياز بمثابة شبه مستعمرات تحركها الدول الاستعمارية سابقاً. إن الانشقاق اليوغسلافي عن الاتحاد السوفيتي قد أسهم في زيادة الخوف من قيام عدد من الدول بقطع صلاتها مع الاتحاد السوفيتي، ولكن تبني الاتحاد السوفيتي لمسألة التعايش السلمي ابتداءً من حزيران من العام ١٩٥٥، ومساغيه للتوفيق مع يوغسلافيا عدل كثيراً من أفكاره^١.

وبدون شك كان للإدانة التي تعرض لها السوفيت في باندونغ اثر لا يمكن نكرانه في دفع عجلة تغيير سياسته، وتحت هذا الإطار قام كل من خروشوف، وبولكانين بزيارة إلى بعض دول آسيا أواخر العام ١٩٥٥، ولكن كان للمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي المنعقد في شباط من العام ١٩٥٦، تأثير مهم في سياسة الاتحاد السوفيتي الخارجية حينما تم الاعتراف بالدور الفعال الذي تؤديه دول آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وان التماثل في الأهداف بين هذه الدول، ودول المعسكر الاشتراكي في البحث المشترك عن السلام، ومعارضة الحروب يشكل احد جوانب التقارب بين الاثنين^٢.

ومنذ ذلك الوقت اخذ السوفيت يؤيدون البرجوازيات الوطنية التي تمارس دوراً ايجابياً في حركة التحرر، وقام في تشرين الثاني من العام ١٩٦٠، وخلال مؤتمر الأحزاب الشيوعية المنعقد في موسكو بتقديم الدعم المبدئي إلى البلدان المناضلة ضد الاستعمار، ومما شجع السوفيت على دعم بلدان عدم الانحياز هو الصراع الصيني- السوفيتي، وقطع الطريق على الغرب لتحقيق أية مكاسب بشأن علاقاتها مع دول عدم

^١ - Engene Berg 'Non- alignment et nouvel Ordre Mondial' P.U.F, Paris, 1980, p.146.

^٢ - I bid, p146.

الانحياز التي تناهض الاستعمار، والامبريالية، والتمييز العنصري، وتصوت إلى جانب هذه القضايا في الأمم المتحدة. وبدون شك، فإن الدول غير المنحازة كانت تشعر بأنها أكثر قرباً من الاتحاد السوفيتي أيديولوجياً وسياسياً واقتصادياً عن الغرب، وكان السوفيت يعتقدون بان الاشتراكية العالمية كانت الحليف الأكثر وثوقاً لدول عدم الانحياز. وقد أشرت السبعينات مرحلة جديدة في العلاقات بين الاتحاد السوفيتي، ودول عدم الانحياز بسبب العودة إلى سياسة إقامة الأحلاف، ولاسيما في آسيا وأفريقيا بعد زيادة حلفائه في هذه المناطق¹، والأكثر من ذلك اضعف التدخل السوفيتي في افغنستان من مركز الاتحاد السوفيتي عند بلدان عدم الانحياز رغم محاولته مد جسور من الثقة، والتأثير والنفوذ إلى داخل الحركة عبر حلفائه، وأصدقائه²، فمن خلال كوبا سعى الاتحاد السوفيتي إلى الولوج إلى الحركة والتأثير فيها فقد دخلت إلى الحركة بلدان راديكالية موالية له مثل فيتنام، وكوريا الشمالية، وانغولا، وأثيوبيا³.

ب- موقف الولايات المتحدة من الحركة:

لم تكن الولايات المتحدة مستعدة خلال السنوات الخمسينية لقبول خط سياسي مستقل، والذي هو في نظرهم أسهم في أضعاف المعسكر الغربي، ولهذا، فهي عارضت في البداية حركة عدم الانحياز، إذ أدان جون فوستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق سياسة عدم الانحياز، وعدها لا أخلاقية وقصيرة النظر، وكان يعتقد من الوهم بان بلد ما قادر على ضمان أمنه عندما يكون غير مكترث بمصير الآخرين⁴، ولم تكن وجهة النظر هذه مقتصرة على دالاس وحده، بل شاركه في ذلك كل من الرئيس الأمريكي الأسبق أيزنهاور، ونائبه ريتشارد نيكسون⁵، وأصبح واضحاً بان الولايات المتحدة تعتبر عدم الانحياز، على المدى الطويل موقفاً يتأثر بشكل أساسي في قدرة الدول الحديثة على الاستمرار في الحرب الباردة⁶، وحينما جاء الرئيس كيندي حدث تحول في سياسة الولايات المتحدة تجاه الحركة. فقد اعترفت بالعتاء الايجابي الذي يمكن أن تقدمه

¹ - Daniel collard ' Le Mouvement des pays non- alignes ' La documentation Francaise, Paris, 1981, p93.

² - Eugene Berg, op-cit, p. 147.

³ - درية شفيق بسيوني، عدم الانحياز بين تجريد المبادئ، وديناميكية الحركة، السياسة الدولية، العدد ٩٦، ابريل ١٩٨٩، ص ٣٠.

⁴ - Eungene Berg, op-cit, p144.

⁵ - Daniel collard 'le mouvement des pays non- alignes' op- cit, p92.

⁶ - Ibid, p.92.

بلدان عدم الانحياز لحل المشكلات العالمية وظهر هناك أحساس يشير بان عدم الانحياز لا يساوي، وبشكل تلقائي خطأ موالياً للشيوعية، ويرى البعض بان التفسير في الموقف الأمريكي ما هو إلا تغيير سطحي، لأن الولايات المتحدة مع ذلك لم تعترف لدى عدم الانحياز بحق التصرف كلاعب جماعي في السياسة الدولية¹.

ويدون شك كانت بلدان عدم الانحياز تشعر برية تجاه الولايات المتحدة بسبب مساعي واشنطن لإدخالها ضمن إطار أحلافها التي إقامتها من اجل مقاومة النفوذ السوفيتي، فالبلدان غير المنحازة، ولأسباب إيديولوجية، وسياسية، واقتصادية قد برهنت بعض التعاطف، ومودة أكبر تجاه الشرق من الغرب طبقاً لما كانت تقول واشنطن " من لم يكن معنا، فهو ضدنا" حينما كان القادة الأمريكيون يمارسون سياسة الاحتواء².

لقد كان موقف الولايات المتحدة تجاه حركة عدم الانحياز يتميز بالازدواجية والتذبذب، لأنها من جهة كانت تمتلك علاقات تجارية واسعة مع عدد كبير من بلدان الحركة، فحجم تجارتها الخارجية مع هذه البلدان كان يبلغ عشرة أمثال حجم تجارة الاتحاد السوفيتي معها. أما بالنسبة لمعوناتهما، فكانت تبلغ أربعة أمثال المعونات السوفيتية، ولكن الولايات المتحدة كانت تفضل التعامل مع دول الحركة بأسلوب العلاقات الثنائية عكس الاتحاد السوفيتي الذي كان يفضل التعامل الجماعي مع الحركة³، وكان لهذا الفضل في تحقيق نجاحه مع دول الحركة، ومن جهة أخرى، فإن الولايات المتحدة بقيت تتعامل مع الحركة بمحذر شديد، فكانت تتقارب معها وتوجه لها الانتقادات أحيانا أخرى، وفي خلال الحرب الباردة كانت البلدان غير المنحازة لا تكن مشاعر تتسم بالود حيال الولايات المتحدة بسبب رغبتها في إدخال هذه البلدان في أحلافها، وكانت الولايات المتحدة ترى بان هذه الحركة ذات تكوين هش وضعيف، وان دورها ذو تأثير محدود، وإنها مجرد إطار لالتقاء زعامات العالم الثالث بقصد تبادل الآراء دون أن يترتب على هذه اللقاءات مسؤوليات ملزمة⁴.

إلا أن الأخطر من كل ذلك هو موقف دول الحركة الراض للتدخل الأمريكي في فيتنام والداعي إلى سحب القوات الأمريكية منها كان يشكل عقبة قبالة السياسة

¹ - Eugene Berg, op- cit, p144.

² - Daniel collard '؛ le mouvement des pays non- alignes op- cit ,p.93.

³ - درية شفيق بسيوني، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠، وكذلك انظر، Eugene Berg ,op- cit, p.144.

⁴ - المصدر نفسه، ص ٣٠.

الأمريكية مما أدى إلى سحق دول الحركة على الولايات المتحدة ساعدها في ذلك دورها في كوبا والدومنيكان، والكونغو، وما زاد من الحال سوءاً هو الحظر النفطي لعام ١٩٧٣، والذي بين مدى تضارب المصالح الأمريكية مع مصالح حلفائها الأوربيين المؤيدين لقمة الجزائر في العام ١٩٧٣، وفي مطالبتها بإقامة نظام اقتصادي دولي جديداً، ومع حلول مؤتمر كولومبو في العام ١٩٧٦، حدثت تطورات جديدة لمصلحة الولايات المتحدة حينما انتقلت رئاسة الحركة إلى سريلانكا، والتي كانت تعد دولة معتدلة في نظر الحكومة الأمريكية، فدخلت إدارة فورد في مباحثات مع دول لها ثقلها في الحركة قبيل انعقاد قمة كولومبو، وعندما جاءت إدارة كارتر كانت هناك مساع أمريكية حثيثة لتحسين العلاقات مع دول الحركة، وحاولت إدارة ريغان أن توظف الحركة التي كانت تطالب بانسحاب السوفيت من أفغانستان، والذي كان هو أيضاً مطلباً أمريكياً ملحاً^٢.

والحق، إن التطور في الموقف الأمريكي لم يظهر تجاه عدم الانحياز إلا بعد دخول العملاقين في سياسة الوفاق الدولي، لأن ديناميكية التنافس الأمريكي- السوفيتي قد منعت إعطاء حكم صائب على دبلوماسية عدم الانحياز، فقد استوجب انتظار حدوث الوفاق بين الشرق والغرب، وتفاقم التراع الصيني- السوفيتي من أجل أن تعيد الولايات المتحدة النظر في موقفها.

إن التحول في الموقف الأمريكي تجاه الحركة جاء نتيجة سلسلة من العوامل، منها ازدياد الحجم التصويتي لبلدان عدم الانحياز في إطار الجمعية العام للأمم المتحدة نتيجة للزيادة العددية لهذه البلدان، وكذلك بسبب توسع مساحات الصراع الإقليمي، وتشابك المصالح الدولية الناجمة عن ذلك^٣.

١ - المصدر نفسه، ص ٣٣.

٢ - المصدر نفسه، ص ٣٣.

٣ - Daniel coard ' Le mouvement des pays non- alignes ' op- cit, p93.

المصادر

أولا: الكتب باللغة العربية:

١. القرآن الكريم
٢. أبو زهرة، الإمام محمد " العلاقات الدولية في الإسلام "، دار الكتاب الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، بلا تاريخ.
٣. إسحاق، محمد عبد العزيز " نهضة أفريقيا " الهيئة المصرية العام للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١.
٤. أغا، حسين والخالدي، احمد سامح، وجعفر قاسم " الصين، اليابان والشرق الأقصى " سلسلة الدراسات الإستراتيجية، العدد (١٤)، مركز العالم الثالث للدراسات والنشر، لندن، ١٩٨٢.
٥. آل طويرش، د. موسى " تاريخ العلاقات الدولية من كيندي حتى غورباتشوف ١٩٦١ - ١٩٩١ " شركة الحوراء للتجارة والطباعة والنشر، بغداد، ٢٠٠٥.
٦. الادهمي، د. محمد مظفر " تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر " كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٨.
٧. الأمام علي بن أبي طالب (ع) " نهج البلاغة " جمعه الشريف الرضي، تقديم وشرح محمد عبده، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦.
٨. البطاينة، محمد ظيف الله " بحوث في التاريخ الإسلامي " دار مجدلاوي، عمان، ١٩٨٣.
٩. أجميلي، د. خالد رشيد " أحكام الأحلاف والمعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون - الجزء الأول - من التشريع السياسي الإسلامي المقارن " دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٧.
١٠. أهديثي، د. خليل " النظام العربي وإصلاح جامعة الدول العربية " بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠١.
١١. الحياي، د. نزار إسماعيل " دور حلف شمال الأطلسي بعد انتهاء الحرب الباردة " مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، أبو ظبي، ٢٠٠٣.
١٢. الحيدر آبادي، د. محمد حميد الله " مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة " مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦.

١٣. الراشد، عبد الجليل رضا " العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس في القرنين الثاني والثالث الهجري " مطبوعات مكتبة النهضة، الرياض، ١٩٦٩ .
١٤. الريس، د.محمد ضياء الدين " النظريات السياسية الإسلامية " ط٦، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٧٦ .
١٥. السعيد، د.نعمة " المغرب العربي " دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩ .
١٦. الشقيري، احمد " الجامعة العربية: كيف تكون جامعة وكيف تصبح عربية " دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس ١٩٧٩ .
١٧. الصلاحي، د.علي محمد " الدولة الأموية: عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار " المجلد الأول والثاني - ط٢، دار المعرفة، لبنان، بيروت، ٢٠٠٥ .
١٨. الصلاحي، د.علي محمد " سيرة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (رض): شخصيته وعصره " ط٢، دار المعرفة، لبنان، بيروت، ٢٠٠٥ .
١٩. الصمد، د.رياض " العلاقات الدولية في القرن العشرين - الجزء الأول: تطور الأحداث ما بين الحربين ١٩١٤-١٩٤٥ " المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، بلا تاريخ .
٢٠. الصمد، د.رياض " العلاقات الدولية في القرن العشرين - الجزء الثاني، لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية " المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣ .
٢١. العطار، د.حسن " الوطن العربي: دراسة مركزة لتطوراته السياسية الحديثة " مطبعة اسعد، بغداد، ١٩٦٦ .
٢٢. العكرة، د.ادونيس " من الدبلوماسية إلى الإستراتيجية: امثولات من الحرب الباردة " دار الطليعة، بيروت، ١٩٨١ .
٢٣. الفتلاوي، د. سهيل " دبلوماسية النبي محمد (صلى الله عليه وسلم): دراسة مقارنة بالقانون الدولي المعاصر " دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٤ .
٢٤. الفهد، عبد الرزاق مطلق " حركة التحرر الوطنية الأفريقية من بداية دخول السيطرة الغربية حتى الاستقلال " جامعة الموصل، ١٩٨٥ .
٢٥. القاضي، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم " كتاب الخراج " المطبعة السلفية، القاهرة، ١٤٥٢ هجرية .

٢٦. المرسي، د.فؤاد " العلاقات المصرية- السوفيتية ١٩٤٣-١٩٥٦ " دار الطباعة الحديثة، القاهرة، ١٩٧٧ .
٢٧. المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية " المسح الاستراتيجي ١٩٧٣ : حرب تشرين وقضايا إستراتيجية دولية" ترجمة بيار عقل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٧ .
٢٨. المقرحي، د. ميلاد " تاريخ آسيا الحديث والمعاصر: شرق آسيا، الصين، اليابان، كوريا" منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ١٩٩٧ .
٢٩. أئندري، زكي الدين عبد العظيم " الترغيب والترهيب" الجزء الثالث، دار الحديث ، القاهرة، بلا تاريخ.
٣٠. أئنعيمي، د. احمد نوري " السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية " دار الحرية، بغداد، ١٩٧٥ .
٣١. أئنعيمي، د. احمد نوري " تركيا وحلف شمال الأطلسي " المطبعة الوطنية، عمان، ١٩٨١، .
٣٢. الوكيل، حسن خطاب " المعاهدات والمخالفات على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)" المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة، ١٩٣٠ .
٣٣. اليوزيكي، د.توفيق سلطان " دراسات في النظم العربية والإسلامية" جامعة الموصل، ١٩٧٧ .
٣٤. بيضون، د.إبراهيم " من دولة عمر إلى دولة عبد الملك: دراسة في تكوين الاتجاهات السياسية في القرن الأول الهجري " الناشر شهاب الدين، قم، إيران، ٢٠٠١ .
٣٥. توفيق، د.سعد حقي " مبادئ العلاقات الدولية " دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٠ .
٣٦. حاطوم، د.نور الدين " تاريخ الحركات القومية- يقظة القوميات الأوربية والقومية الوطنية " دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٧ .
٣٧. حاطوم، د.نور الدين " تاريخ الحركات القومية- يقظة القوميات الأوربية- الجزء الثاني- الحرية والقومية " دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٩ .
٣٨. حاطوم، د.نور الدين " تاريخ الحركات القومية- يقظة القوميات الأوربية - الجزء الثالث- الوحدات القومية" دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٩ .

٣٩. حافظ، حمدي " المشكلات العالمية المعاصرة " الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦.
٤٠. حافظ، صلاح الدين " صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي " عالم المعرفة، الكويت، كانون الثاني، ١٩٨٢.
٤١. حقي، د. ناصيف يوسف " القوى الخمس الكبرى والوطن العربي: دراسة مستقبلية " مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٧.
٤٢. حسن، محمد عبد الغني " المعاهدات والمهادنات في تاريخ العرب " الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦.
٤٣. حماد، مجدي " جامعة الدول العربية: مدخل إلى المستقبل " عالم المعرفة (٢٩٩)، الكويت، ديسمبر ٢٠٠٣ - يناير ٢٠٠٤.
٤٤. خالد، محمد خالد " خلفاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) " ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢.
٤٥. خدوري، د. مجيد " الصلات الدبلوماسية بين هارون الرشيد وشارلمان " مطبعة التفيض الأهلية، بغداد، ١٩٣٩.
٤٦. خدوري، د. مجيد " الحرب والسلام في شرعة الإسلام " الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٣.
٤٧. خطاب، محمود شيت " الرسول القائد " منشورات مكتبة الحياة والنهضة، بغداد، ١٩٦٠.
٤٨. خطاب، محمود شيت " السفارات النبوية " مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٩.
٤٩. داغر، كميل " الأمم المتحدة وموازن القوى المتحولة في الجمعية العامة " دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨.
٥٠. دروزة، محمد عزة " حول الحركة العربية الحديثة " المجلد الأول، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٤٩.
٥١. سعيد، د. عبد المنعم " الجماعة الأوروبية: تجربة التكامل والوحدة " مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٦.
٥٢. سليم، د. محمد السيد " تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين " دار الفجر الجديد للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٨.

٥٣. شلبي، د. السيد أمين " الوفاق الأمريكي - السوفيتي ١٩٦٣-١٩٧٦ " الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١.
٥٤. شلبي، د. السيد أمين " من الحرب الباردة إلى البحث عن نظام دولي جديد " الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥.
٥٥. صالح، د. محمد محمد " تاريخ أوروبا في عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية ١٥٠٠-١٧٨٩ " دار الجاحظ للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٨٢.
٥٦. صالح، د. محمد محمد، عبد الكريم، د. ياسين السامرائي، د. نوري " تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر " جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٥.
٥٧. عبد المنعم، د. احمد فارس " جامعة الدول العربية ١٩٤٥-١٩٨٥: دراسة تاريخية سياسية، سلسلة الثقافة الجماهيرية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٦.
٥٨. عمر، د. عمر عبد العزيز " دراسات في التاريخ الأوربي والأمريكي الحديث " دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٩.
٥٩. فتح الباب، حسن " مقومات السفراء في الإسلام " دراسات في الإسلام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، العدد (١١٤)، أكتوبر، القاهرة، ١٩٧٠.
٦٠. فرج الله، د. سمعان بطرس " العلاقات السياسية الدولية في القرن العشرين " الجزء الأول، ط١، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، ١٩٧٤.
٦١. فوده، د. عزا لدين " النظم الدبلوماسية " ط٢، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٨٩.
٦٢. كمال، د. محمد مصطفى ونهرا، د. فؤاد " صنع القرار في الاتحاد الأوربي والعلاقات العربية-الأوربية " مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠١.
٦٣. محافظة، د. علي وآخرون " جامعة الدول العربية بين الواقع والطموح " مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٣.
٦٤. مراد، د. خليل علي وحسن، جاسم محمد غفور، د. عبد الجبار قادر " دراسات في التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر " جامعة الموصل، كلية التربية، ١٩٨٨.
٦٥. مقلد، د. إسماعيل صبري " امن الخليج وتحديات الصراع الدولي " شركة الربيعان للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٤.

٦٦. نافعة، د. حسن " الاتحاد الأوربي والدروس المستفادة عربياً " مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٤.
٦٧. نسيبة، د. حازم زكي " القومية العربية: فكرتها، نشأتها، وتطورها " ط٢، ترجمة عبد اللطيف شرارة، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩٦٢.
٦٨. نعمة، د. كاظم هاشم " العلاقات الدولية " كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، ١٩٨٧.
٦٩. ننعني، د. عبد المجيد " تاريخ الدولة الأموية في الأندلس: التاريخ السياسي " دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦.
٧٠. نوار، د. عبد العزيز سليمان، وننعني، د. عبد المجيد " التاريخ المعاصر: أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية " الجزء الأول والجزء الثاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٣.
٧١. نوري، موفق سالم " العلاقات العباسية - البيزنطية: ١٢٣-٢٤٧ هجرية، ٧٥٠-٨٦١ ميلادية - دراسة سياسية حضارية " دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠.
٧٢. هيكل، محمد حسين " حياة محمد " مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣.
٧٣. هيكل، محمد حسين " الفاروق عمر " الجزء الأول والجزء الثاني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣.
- ثانياً: الكتب المترجمة:
١. آزادوفسكي، اندريه، " الولايات المتحدة وأفريقيا " ترجمة: عماد حاتم، مركز البحوث والدراسات لأفريقيا، ليبيا، ١٩٨١.
٢. امبروز، ستيفن " الارتقاء إلى العالمية: السياسة الخارجية الأمريكية منذ عام ١٩٣٨ " ترجمة: نادية محمد الحسيني، مراجعة أ.د. ودودة بدران، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩٤.
٣. بالمر، روبرت " تاريخ العالم الحديث: الجزء الأول: أوروبا من القرون الأولى حتى سنة ١٧٤٠ " ترجمة: محمود حسين الأمين، مكتبة الوفاء، الموصل، ١٩٦٤.
٤. بالمر، روبرت " تاريخ العالم الحديث: الجزء الثاني: أوروبا من ١٧٤٠ إلى ١٨١٥ " ترجمة: د. حسن على الذنون، مراجعة: د. جعفر خصباك، مطبعة اسعد، بغداد، ١٩٦٤.

٥. باون، كولن وموني بيتر" من الحرب الباردة حتى الوفاق ١٩٤٥-١٩٨٠" تعريب: صادق إبراهيم عودة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٤.
٦. برود وين، فرجينيا وسلدن، مارك" السر المعروف: مبدأ نيكسون وكيسنجر في آسيا" نقله إلى العربية. د. احمد طربين ونصير عاروري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٤.
٧. بريجنسكي، زبغنيو" الإخفاق الكبير: ميلاد الشيوعية وموتها" ترجمة: فاضل جتكر، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ١٩٩٠.
٨. بيكر، جيمس " سياسة الدبلوماسية ١٩٨٨-١٩٩٢" مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩.
٩. بينتزل، روبرت" مقررات مؤتمرات طهران-يالتا-بوتسدام" ترجمة عبد الرحمن دهيني، مراجعة محمد الحجري، منشورات الفاخرية، الرياض، بلا تاريخ.
١٠. تايلور، أي، جي، بي " الصراع على السيادة في أوروبا ١٨٤٨-١٩١٨" ترجمة د. كاظم هاشم نعمة ود. يوثيل عزيز، جامعة الموصل، ١٩٨٠.
١١. جرانت، أ. ج. وغمبرلي هارولد" أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩-١٩٥٠" ترجمة بماء فهمي، مراجعة د. احمد عزت عبد الكريم، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، بلا تاريخ.
١٢. دوروزيل، ج. ب. " التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين ١٩١٩-١٩٤٥" الجزء الأول، ترجمة د. خضر الخضر، دار المنصور، بيروت، ١٩٨٥.
١٣. دوروزيل، ج. ب. " التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين ١٩٤٥-١٩٧٨" الجزء الثاني، ترجمة د. خضر الخضر، دار المنصور، بيروت، ١٩٨٥.
١٤. دوللو، لويس " التاريخ الدبلوماسي " ط ٢، ترجمة د. سموحى فوق العادة، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨٢.
١٥. فشر، ه، أ" تاريخ أوروبا في العصر الحديث ١٧٨٩-١٩٥٠" ط ٩، تعريب احمد نجيب ووديع الضبع، دار المعارف، مصر، ١٩٩٣.
١٦. كار، ادوارد" العلاقات الدولية في عشرين سنة ١٩١٩-١٩٣٩" تعريب سمير شمخاني، بلا تاريخ.

١٧. كيسنجر، هنري " الدبلوماسية من الحرب الباردة حتى يومنا هذا " ترجمة: مالك فاضل البديري، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٥ .
١٨. كيسنجر، هنري " درب السلام الصعب " ترجمة: د.علي مقلد، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤ .
١٩. لنشوفسكي، جورج " الشرق الأوسط في الشؤون العالمية " الجزء الأول والثاني، ترجمة: د. جعفر الخياط، دار الكشاف في العراق، بلا تاريخ.
٢٠. ليرتش، تشارلس. أو " الحرب الباردة وما بعدها " تعريب د. فاضل زكي محمد، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٦ .
٢١. ماكنمارا، روبرت " ما بعد الحرب الباردة " ترجمة محمد حسين يونس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩١ .
٢٢. مكريديس، وري " مناهج السياسة الخارجية في دول العالم " ترجمة، د.حسن صعب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٦ .
٢٣. هيز، كارلتون " التاريخ الأوربي الحديث ١٧٨٩-١٩١٤ " ترجمة د.فاضل حسين، جامعة الموصل، ١٩٨٧ .

ثالثاً: الدوريات والمقالات:

١. بسيوي، درية شفيق " عدم الانحياز بين تجريد المبادئ وديناميكية الحركة " السياسة الدولية، العدد (٩٦)، ابريل ١٩٨٩ .
٢. توفيق، د. سعد حقي " نشوء حركة عدم الانحياز " مجلة العلوم السياسية، العدد الأول، آذار ١٩٨٨ .
٣. زيدان، د.عبدا لكريم " الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام " مجلة كلية الدراسات الإسلامية، العدد الثالث، ١٩٧٠ .
٤. غالي، د.بطرس بطرس " أبعاد الأيديولوجية الافرواسيوية " السياسة الدولية، القاهرة، ابريل ١٩٦٨ .
٥. غالي، د.بطرس بطرس " سياسة عدم الانحياز بعد التصالح الأمريكي - السوفيتي " السياسة الدولية، القاهرة، العدد (٣١)، يناير ١٩٧٣ .
٦. منصور، د.سامي " المؤتمر الثلاثي لدول عدم الانحياز " السياسة الدولية، القاهرة، العدد (٦)، أكتوبر ١٩٦٦ .

1. Berg, Eugene ' Non- alignment et nouvel Order Mondial ' P.U.F, Paris, 1980.
2. Colard, Daniel ' Le Mouvement des pays non- alignes ' La Documentation Francaise, Paris, 1981.
3. Colard, Daniel 'Les Relations Internationales de 1945 a nos jours ' Armand colin, Paris, 1997.
4. D'encausse, Helene Carrere " La Politique sovietique au Moyen- orient 1955-1975" Foundation National des sciences politiques, Paris, 1975.
5. Guitard, Odette " Bandoung et le reveil des peuples colonises " P.U.F, Paris, 1969.
6. Hoffmann Stanley " La Nouvelle Guerre Froide " Strategie, Berger- Levrault, Paris, 1983.
7. Kalisky Rene' " Le Monde Arabe a l'heure actuelle " Marabout Universite', Belgique, 1968.
8. Le Breton Jean- Marie " Les Relstions Internationales depuis 1968 " Nathan Universite', Paris, 1983.
9. Lenczowski George " Soviet advances in the Middle East " American Enterprise Institute for public policy Research, Washington, 1972.
10. Queuille, Pierre " Histoire de l'fro-Asiatisme Jusqu'au Bandoung " poyot, Paris, 1965.
11. Szuic Tad " Then and now: How the world has changed since WWII, Morrow and company, inc, Newyork, 1990.